

شمس الله تشرق على الغرب

فضل العرب على أوروبا

تأليف د. سيجريد هونكه

ترجمه وحققه وعلق عليه

أ. د. فؤاد حسنين علي

اسم الكتاب: شمس الله تشرق على الغرب

اسم المؤلف: سيجريد هونكه

الترقيم الدولي: 978-977-6666-46-7

محفوظة
جميع الحقوق

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع © محفوظة لدار
المحرر الأدبي للنشر والتوزيع المشهرة برقم 24821 بتاريخ
2015/10/1. ومقرها جمهورية مصر العربية / محافظة الجيزة.

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر أو تخزينه في نطاق
استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة قانونية
مكتوبة من الناشر يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة
الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

شمس الله هذا هو الاسم الذي أطلقه مريدو «سيجيريد هونكه» عليها بعد أن تقدمت الصفوف وحملت لواء العروبة عاليًا خفافًا في كل مكان. إن كتابها «فضل العرب على أوربا» أو «شمس الله على الغرب» قد انطلق كالمارد عبر القارات والمحيطات متحديًا أعداء العروبة وخصوصومها؛ ففتحت له الجامعات أبوابها وحفلت مكتباتها ومكتبات المعاهد والمدارس بالعدد الوفير منه، كما ازدهرت به قصور الملوك ورؤساء الدول ومشايخ الإسلام ورجال الإفتاء، وفاضت الصحافة العالمية في مختلف لغاتها وأوطانها بالحديث عن العرب وفضلهم، وعن حبيبة العرب وعلمها الغزير. ولم يكتف الكتاب بعرض الكتاب ومحتوياته، بل عنوا بتقديم الصور الناطقة لشمس الله في قاعة بحثها، والتي هي عبارة عن متحف عربي يضم الكثير من آثار العروبة وتراثها، وعلى كل قطعة من هذا التراث إهداء عظيم من عظماء العرب ورجالاتهم، وتقع هذه الدار التي أصبحت مزارًا لكثير من رجال السياسة والقلم في شارع «ناهيه فيج رقم 2» في العاصمة المؤقتة لألمانيا. ومن الصور الطريفة أيضًا لشمس الله وهي بين أفراد أسرته وتضم غير زوجها ابناً وابنتين، أو هي تعزف على رباب عربي قديم، وقد أهداها إليها حاكم «زاجورا» ببلاد المغرب أو غيرها من الآلات الموسيقية العربية المختلفة، أو وهي في المطبخ حيث تعد «الكسكسي» أو

«المصقعة». وشهرة شمس الله لا تقل أهمية عن رؤساء الجمهورية الألمانية فهي أنى تحل موضع الحفاوة والتكريم. ويدهش «سيجيريد هونكه» انتشار كتابها في العالم العربي؛ وذلك لأنها تعتقد أنها لم تضعه للعرب بل للأوروبيين؛ وذلك لأنها كما تقول في صراحة ألمانية: «إن موقف أوربا من العرب منذ نزول الوحي المحمدي موقف عدائي بعيد البعد كله عن الإنصاف والعدالة، والتاريخ وقتذاك كان يملأ ويصنع ولم يكن المملي هو الضمير بل التعصب الأعمى..» وتزداد إعجاباً من كثرة اللغات التي ترحم إليها، فالإلى جانب العربية نجده في الفرنسية والإيطالية والتركية والإندونيسية ولغات أخرى كثيرة. والواقع أن كتاب شمس الله من أهم العوامل التي تساعد على بلورة الشخصية العربية وبعثها وحيًا خلأً، وقد تنبه زعماء العروبة للمؤلفة فأولوها عنايتهم واهتمامهم فدعوا لزيارة بلادهم سواء في شرق العالم العربي أو غربه. وإذا ذكرنا «شمس الله» يجب ألا تفوتنا الإشارة إلى زوجها الفاضل الكريم «بيتر شولترا» أو كما يطلق عليه سكان شمال إفريقيا «الشيخ محمد الطويل» فقد عشق العروبة والعربية في مختلف لهجاتها، وتطوع مشكوراً لتلقين بعض أبناء المسلمين القرآن الكريم في بلاد المغرب، وقد كان وقتذاك من كبار موظفي القنصلية الألمانية العامة في الرباط، حيث تعرف إلى شريكة حياته فالتقى قلبان ينبضان حباً للعروبة وأبنائها. وهو اليوم ممثل العروبة في إدارة الإعلام الألمانية. وتهوى «شمس الله» إلى جانب التأليف والرحلات في البلاد العربية وبواديها، التصوير السينمائي والإخراج وما سجلته للعرب في كتابها كلاماً مقروءاً أخرجته فيلماً مصوراً ناطقاً يعرف باسم «على هدى العرب» ولها غير هذا الفيلم أفلام أخرى لكثير من البلاد العربية وهي تعرضها فخورة بمآثر العرب وأيديهم البيضاء على الإنسانية، وحريصة على نعته «تراثنا العربي»

تعني ما ورثته أوروبا عن العرب. وصديقة العروبة في السراء مخلصه لها وفيه في الضراء، فهي لم تكد تعلم بالنكسة التي حلت بنا حتى سارعت وضاعفت من نشاطها فشحذت همم الألمان لمناصرتنا ومديد المساعدة لخلاصنا من كيوتنا؛ فخطبت وكتبت وأذاعت وحشدت خيرة القوم من أصدقاء العروبة من الألمان، وساهمت في إقامة معرض شعاره «الأرض المقدسة العدالة للأردن» يصور حالة اللاجئين العرب، وقد أقيم المعرض في قاعة بيتهوفن الموسيقار الخالد، وكان ذلك في شهر يونية 1968، وأشرفت على تنظيمه جمعية الصداقة الألمانية الأردنية بالتعاون مع مكتب الإعلام والسياحة الأردني في مدينة فرنكفورت. وشاهد الزائر فيما شاهد صوراً للحرم الشريف في القدس والكنائس في بيت لحم، وألقت «سيجيريد هونكه» خطاباً جامعاً استعرضت فيه بطولات العرب وحسن سجاياهم إذ ضربوا المثل الأعلى في المروءة والتسامح، وسأقت لذلك مثلاً موقف العرب عند فتح مصر والاستيلاء على الإسكندرية عام 642 م فقد منعوا التخريب أو التدمير وقدموا لرعاياهم الضمان الأكيد لحرية العقيدة وعهداً نصه: «هذا عهد أمان يشمل جميع المسيحيين والقسيسين والرهبان والراهبات جميعاً، وهو يضمن لهم شرفهم ويضمن لهم حمايتهم أينما كانوا ويضمن حماية كنائسهم ومزاراتهم، وكذلك زوار هذه المناطق من الجيورجيين والأدباش واليعقوبيين والنساطرة وجميع الطوائف التي تؤمن بالنبي عيسى وجميع هؤلاء يستحقون الرعاية؛ ذلك لأنه سبق للنبي محمد أن أمنهم بعهد عليه خاتمه وأوصانا فيه بأن نكون رحماء بهم وأن نكفل لهم الأمان». وأشارت الخطيبة أيضاً إلى الاضطهاد الذي تعرض له اليهود في أسبانيا على يد المسيحيين قبل مجيء العرب الذين حرروهم ومكنوهم من الحياة الإنسانية الكريمة، وبعد ضياع الأندلس. وهذا

التسامح ما زال حتى يومنا هذا من أخص سجايا العرب. ثم انتقلت إلى القدس العربية فذكرت تاريخها وما تمتعت به من سلام واستقرار.. هذا إلى توطيد علاقات الود والمحبة بين العرب والقيصر الألماني فريدريش الثاني الذي عشق العروبة والعربية فنظم فيها الشعر وسال قلمه بالنثر العربي الفني، ونختم خطابها بمقابلة بين الوضع الحالي للأراضي المقدسة ووضعها إبان السيادة العربية. وفي عام 1964 نشرت «شمس الله» بحثاً طريفاً حول الآداب الشرقية، وقابلت بينها وبين الآداب الأوروبية، وذلك ضمن معجم الناشر فيشر أضافت فيه الشيء الكثير إلى معرفتنا عن العرب وآدابهم. وأرجو صادقاً لمنصفة العرب وزوجها الكريم حياة علمية طويلة زاخرة بالبحوث الطلية إنصافاً للحق ونصرة للإنسانية. إن شمس الله خير من هذه الجعجعة التي تصم آذاننا ولا نرى طحناً.

مقدمة المؤلف

من خطل الرأي أن ننظر إلى أوربا على أنها هي وهي فقط العالم الحديث، ومن الحماسة أن نقول: إن تاريخ أوربا هو تاريخ هذا العالم؛ وذلك لأنه مما لا شك فيه أن سائر القارات التي يتكون منها عالمنا هذا ساهمت وتساهم في تكيف الأحداث العالمية التي تخضع لها شعوب المعمورة، ويكفي أن ننظر إلى خريطة عالمنا هذا في العصور الوسطى لنرى كيف يحاصر البحر المتوسط جنوب القارة الأوربية، ويخضعها للسلطان الثقافي لأثينا وروما. أما اليوم فقد شاء الله أن تزول هذه الغشاوة عن أعيننا وأن يتسع صدرنا للحقيقة فلا نغمت الشعوب الأخرى التي ساهمت في إيقاظ الوعي الإنساني وبعث ثقافة إنسانية رفيعة أثرت وتوثر حتى يومنا هذا لا في أوربا فقط بل في مختلف أرجاء العالم المتحضر. وشاء الله أن يظهر من الأوربيين من يجرؤ وينادي بهذه الحقيقة فلا نغمت العرب حقهم في أنهم حملوا رسالة عالمية، وأدوا خدمة إنسانية للثقافة البشرية قديماً وحديثاً. إن هذا النفر من الأوربيين المنصفين لا يأبه لتحدي أولئك المتعصبين الذين أعمارهم تعصبهم الديني فحاولوا جهد طاقاته طمس معالم هذه الحضارة العربية أو التقليل من شأنها. إن أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية، وإن الذين الذي في عنق أوربا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جداً، وكان يجب على أوربا أن تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد، لكن التعصب الديني واختلاف العقائد أعمى عيوننا وترك عليها غشاوة حتى إننا نقرأ ثمانية وتسعين كتاباً من مائة فلا نجد فيها إشارة لفضل العرب وما أسدوه إلينا

من علم ومعرفة، اللهم إلا هذه الإشارة العابرة إلى أن دور العرب لا يتعدى دور ساعي البريد الذي نقل إليهم التراث اليوناني. أما العربي فلم يأت بجديد ولم يحقق رسالة. إن النهضة العلمية الحديثة كشفت الغطاء عن حضارات الشرق القديم، وبخاصة مصر وبابل وأشور، ولم يعد سرًا أن مصر هي الوطن الذي بزغ فيه فجر الضمير وأن هذا الشرق العربي القديم هو وطن الوحي ومبعث الفنون والعلوم والآداب. وإذا ما انتقل الباحث إلى بيزنطة ليقفز منها إلى المسيحية في العصور الوسطى، فالعصور الحديثة، ازداد شكه في اليونان وروما وأيقن أن أوروبا بأثينا وروما لا تستحق كل هذه العناية، وأن ما يحاول المغرضون خلعه عليها ما هو إلا سراب لا يقوى على البقاء أمام شمس الشرق العربي إذا ما سطعت وبددت ضباب الغرب وسحابه ومطره وثلوجه. إنها سبة أن يعلم أهل العلم من الأوروبيين أن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الإنسانية من قبل، وأن هذه النهضة فاقت كثيرًا ما تركه اليونان أو الرومان ولا يقررون هذا. إن العرب ظلوا ثمانية قرون طوالا يشعون على العالم علمًا وفنًا وأدبًا وحضارة، كما أخذوا بيد أوروبا وأخرجوها من الظلمات إلى النور، ونشروا لواء المدنية أنى ذهبوا في أقاصي البلاد ودانيتها سواء في آسيا وإفريقيا أو أوروبا، ثم تنكر أوروبا على العرب الاعتراف بهذا الفضل. إن المذاهب الإنسانية الحديثة أصبحت غير مذاهب العصور الوسطى، وشعار الأوروبي اليوم محاولة فهم عدو الأمس وتحويله إلى صديق، وذلك بالاعتراف له بمكانته العالمية وما أسداه للأوروبيين وغيرهم من معرفة وألا يسعى الأوروبي جاهدًا إلى طمس هذه المكانة وإخفاء معالمها. إن موقف أوروبا من العرب منذ نزول الوحي المحمدي موقف عدائي بعيد كل البعد عن الإنصاف والعدالة، والتاريخ وقتذاك كان يملأ ويصنع، والمملي لم يكن الضمير بل

التعصب الأعمى. إن مثل هذا الوضع كان مفهومًا في عصر كان فيه الشعور السائد هو إغماط حق كل فرد يخالف الأوروبيين عقائديًا، ومما يؤسف له حقًا أن هذه النظرة القديمة التي كان مبعثها الظن في أن الاعتراف للعربي بالفضل خطر يهدد العقيدة المسيحية، ما زالت قائمة حتى اليوم والتعصب الديني ما زال جادًا في إقامة الحواجز بين الأوروبيين والشعوب الأخرى إذ ينظر الغربي إليهم كما لو أنهم مجرمون وثنيون وسحرة. ومن آثار هذه النظرة أيضًا هذا النزاع الذي نشب، في عصرنا هذا، حول نشأة الغزل الغنائي، فالمتعصبون من الأوروبيين يشق عليهم الاعتراف بالفضل لصاحبه، وأن يقولوا إن هذا الفن عربي الأصل. أليس من العجيب حقًا أن تظهر هذه النعرة في القرن العشرين؟! إن هذه النظرة الأوروبية دليل على ضيق أفق الغربيين وخشيتهم قول الحق والاعتراف للعرب بفضلهم، وبخاصة أنهم غيروا وجه العالم الذي نعيش فيه. إن هذا الكتاب يتحدث عن «العرب» و «الثقافة العربية» لا عن الإسلام. وذلك لأن نقرأ من غير المسلمين قد ساهموا في هذه الثقافة إلا أن هؤلاء كانوا عربًا، وقد وضعوا كتبًا عارضوا فيها الملنزمين من المسلمين، كما أن كثيرًا من صفات الحياة العقلية العربية يحمل طابع العصر الجاهلي. ثم لا يفوتنا أن نذكر أن هؤلاء العرب الذين ذكرهم هيرودوت والذين بسطوا سلطانهم على شعوب كثيرة، مهدوا للمغلوبين الطريق للاندماج في المجتمع العربي لغة وأدبًا وعلماً ودينًا، وأصبح الخلق العربي والطبيعة العربية والثقافة العربية والعقيدة الإسلامية مثالًا يحتذى. إن هذا الكتاب يتحدث عن الثقافة العربية كما نتحدث الآن عن الثقافة الأمريكية، ولا يطلق على عالم مثل الرازي أو ابن سينا أنهم من أبناء الفرس؛ وذلك لأنهما انحدرتا من أسر عاشتا أجيالًا متعاقبة في المجتمع العربي وتنقفوا ثقافة عربية إسلامية، ومثل هذا النوع من

الرجال مثل «دويت د. إيزنهاور» إنه أمريكي ولا يمكن أن يقال عنه إنه ألماني. إن هذا الكتاب يهدف أيضاً إلى تقديم شكر كان يجب أن يُقدم إلى العرب منذ عصور قديمة، فالألمان يدينون للعرب بالشيء الكثير، وليست اللغة الألمانية بمستثناة. هذا، مع الإشارة إلى أننا لا ننكر آثار الشعوب الأخرى كال يونان والرومان والصينيين والهنود. إن الأيدي التي نسجت هذا النسيج كثيرة تستحق الشكر.

مقدمة المترجم

ما فتئ كثيرون من الأوروبيين الذين يعنون بنشأة الثقافات يزيفون التاريخ؛ فيجملون القبيح ويشوهون الحقائق مدفوعين بعامل الهوس القومي والجنون الوطني والتعصب الديني، وجاري الغربيين بعض أذئابهم من الشرقيين فأنكروا على العرب فضلهم ونسبوا كل ما بلغه العالم من حضارة ورقى إلى اليونان وذهب هؤلاء الحانقون على العرب بعيداً، فافترضوا باطلاً وقالوا زوراً وافتروا بهتاناً وادعوا أن العرب من التفاهة والغباء بحيث إن الفضل في تجوידهم للعربية شعراً ونثراً يرجع إلى اليهود. وقد تغاضت السيدة الدكتور «سيجريد هونكه» مؤلفة هذا الكتاب عما صدر عن هؤلاء الشرقيين من أخطاء أو وقعوا فيه من هفوات، وشغلت نفسها بأبناء جنسها من الأوروبيين؛ وذلك لأنها كما تقول في مقدمة كتابها: «إن موقف أوربا من العرب منذ نزول الوحي المحمدي موقف عدائي بعيد البعد كله عن الإنصاف والعدالة. والتاريخ وقتذاك كان يملأ ويصنع، ولم يكن المملي هو الضمير بل التعصب الأعمى. إن مثل هذا الوضع كان مفهوماً في عصر كان فيه الشعور السائد هو إغماط حق كل فرد يخالف الأوروبيين عقائدياً، ومما يؤسف له حقاً أن هذه النظرة القديمة التي كان مبعثها الظن في أن الاعتراف للعربي بالفضل خطر يهدد العقيدة المسيحية، وما زالت قائمة إلى اليوم، والتعصب الديني ما زال جاذباً في إقامة الحواجز بين الأوروبيين والشعوب الأخرى. لذلك ينظر الغربي إليهم وكأنهم مجرمون وثنيون وسحرة.. إن هذا الكتاب يهدف أيضاً إلى تقديم شكر كان يجب أن يقدم

إلى العرب منذ عصور قديمة، فالألمان يدينون للعرب بالشيء الكثير وليس اللغة الألمانية بمستثناة. . .». فإذا كانت العربية لم تهن على بعض العلماء الأحرار في ألمانيا فأبناء العروبة أسبق إلى رد حق العرب المسلوب إليهم ولا سيما أن نفراً من الحانقين من الأوربيين ضلوا وحاولوا أن يضلوا الآخرين. فمثلاً يحلو للدكتور طه حسين أن يتحدث عن اليهود واليهودية إذا ما عرض للغة العربية وأدبها. ويحلو له الحديث عن اليونان إذا ما تعرض للحضارة العربية الإسلامية، وقد تكررت منه هذه النغمة وذكرها أكثر من مرة ولم يسكت إلا بعد أن تغيرت الأوضاع في العالم العربي. ففي الجامعة المصرية كان يحلو له التشدق بهذا الرأي فيها يلقيه على مستمعيه من محاضرات، وقد سجلت له صحيفة الجامعة المصرية في عددها الأول من سنّها الثالثة عام 1925 محاضرة هي حلقة من سلسلة محاضراته تحدث فيها عن اليهود وما لهم من أثر فعال لا في الحياة العربية فقط بل في الحياة الأدبية أيضاً، ويستطرد فيقول: «وبعد ذلك كله يمكننا أن نخلص إلى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود: 1 - أن اليهود أثروا في الأدب العربي أثراً كبيراً جنى على ظهوره ما كان بين العرب واليهود. 2 - أن اليهود قالوا كثيراً من الشعر في الدين وهجاء العرب وقد أضاعه مؤلفو العرب. 3 - أن اليهود انتحلوا شعراً لإثبات سابقتهم في الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب». وانتقلت الجامعة الأهلية إلى الدولة وانتقل معها الدكتور طه فأخذ يكرر نفس الآراء ويدعو لها، وأبى إلا أن يذيع دعواه خارج الجامعة فأصدر «في الشعر الجاهلي»، ولما صادرت الدولة عام 1926 أعاد نشره مهذباً بعض التهذيب تحت عنوان: «في الأدب الجاهلي» عام 1927. وفي تلك الفترة أعد الصهيوني إسرائيلي ولفنسون (المشرف على البعوث الإسرائيلية إلى إفريقيا الآن) رسالة تحت إشراف الدكتور طه موضوعها

«تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام» قدم لها الأستاذ المشرف بمقدمة جاء فيها: «والموضوع في نفسه قيم جليل الخطر بعيد الأثر جدًا في التاريخ الأدبي والسياسي والديني للأمم العربية فليس من شك في أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيرًا قويًا في الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز، وليس من شك في أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الإسلام ويهودية هؤلاء اليهود وفي أنها قد استحالَت من المحاجة والمجادلة إلى حرب بالسيف انتهت بإجلاء اليهود عن البلاد العربية». وهذه الرسالة التي نال بها إسرائيل ولفنسون لقب الدكتوراه من الجامعة المصرية والتي استحق صاحبها من المشرف عليها أن ينعتة بقوله: «فإذا كان عالمنا الشاب قد وفق إلى الخير في هذا الكتاب الذي قدمه إلى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه، والذي أقدمه أنا الآن إلى القراء سعيًا مغتبطًا فتوفيقه مضاعف ذلك لأنه وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل، ووفق بعبارة موجزة إلى أن يبسط تاريخ اليهود في البلاد العربية قبل الإسلام وإبان ظهوره بسطًا علميًا أدبيًا لذيذًا ممتعًا في كتاب كانت اللغة العربية في حاجة إليه فأظفرها بهذه الحاجة». وإني أوافق السيد المشرف في أنه ظفر بهذا البحث اللذيذ؛ لكن أحب أن أقول له إن هذا البحث حلقة من حلقات كتب الدعاية الصهيونية التي كانت الشعب الثقافية للمؤتمر الصهيوني بإشراف (مارتن بوبر) تدعو إلى نشرها، وما نقله إسرائيل ولفنسون في رسالته من آراء كان القصد منه إطلاع اليهود الشرقيين وقراء العربية على ما جاء في المصادر الأجنبية التي يجهلها القارئ العام في الشرق. ثم أي شيء من اللذة ومن الدقة في البحث ما يذكره الباحث، ويقره المشرف، وفي رسالته ص 12: «لم يظهر شيء من النبوغ والعبقرية في يهود بلاد العرب مطلقًا ولم تشتهر

من بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقى الفكري، وإن كان اليهود بوجه عام أرقى وأقرب إلى المدنية من بقية العرب، هذا مما لا يشك فيه أحد من مؤرخي العرب وعلماء الإفرنج». ليس الأمر كما يعتقد المشرف أو يريد أن يعتقد فهذه الرسالة التي أشرف عليها مشحونة بالأخطاء التي لن تصدر عن طالب مبتدئ في البحث وهي صدى لهذه الآراء التي كثيراً ما ردها في الجامعة فضلاً عن أن المراجع العبرية لا تمت إلى البحث بصلة، والسيد المشرف لا يعرف العبرية وأخذ بالنتائج التي ينسبها الباحث إلى هذه المراجع العبرية دون التحقق منها ودون الاستئارة ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات، والأمانة العلمية كانت تقتضي غير هذا. إن البحث العلمي يجب ألا يصنع بصيغة القومية المتعصبة، كما لا يتخذ وسيلة وسائل الدعاية السياسية أو الكسب المادي الرخيص، ويجب أن يسمو عن كل هذا وينظر إليه كقضية عالمية. والحقيقة التي يجب أن يؤمن بها الجميع أن الباحث لن يخط بين المثل العليا التي ينشدها وبين الحقيقة، وبخاصة إذا علمنا أن ما جاءنا عن اليونان أو ما يعرفه أولئك الأوروبيون أو أتباعهم عن اليونانية لا يكاد يتعدى المسائل السطحية بخلاف الحال مع الشرق العربي وحضاراته وما انحدر لنا منها. فالشرق العربي هو مركز الموجات الثقافية العارمة التي أدت إلى هذه الأحداث التاريخية العالمية، والتي غيرت وجه الوجود فنقلته من البدائية إلى الإنسانية ومن الأنانية إلى الإيثار. ففي مصر بزغ فجر الضمير ومنها أخذ اليهود ما أخذوا¹، وفي بابل وأشور شريعة حمورابي وفيها الشيء الكثير من هذا التراث الذي نقله واضعو سفر

1 من الأدب العربي للدكتور فؤاد حسنين علي، 1963، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية.

التثنية، ولما عاد اليهود من السبي نقلوا معهم عن العرب البابليين الشيء الكثير مما نجده في كتابهم المقدس¹، وعند المعينيين والسبئيين العمارة وهندسة الري والتجارة، وقصة ملكة سبأ والدور الذي تلعبه في تاريخ الإسرائيليين وحياتهم الاقتصادية لا يخفى على أحد². ومن هذه الأقطار العربية مجتمعة خرجت فكرة الدين التوحيدي فظهر «إخناثون» وتلاه سائر الأنبياء الذي دعوا إلى اليهودية والمسيحية والإسلام، واستتبع ظهور هذه الديانات تفتح العقل البشري أنتج أدبا وشعرا ونثرا وقصصا وفلسفة وحكمًا وأمثالا والترانيم الدينية. وطوف الخيال العربي وجاءنا بالأساطير الخالدة وكان من نتائج هذه الثورات العربية العقلية والروحية أن رمت العروبة ببعض أبنائها شعوب العالم القديم من شرقيين وغربيين فحطموا مخلفاتهم العفنة البالية وأقاموا على أنقاضها هذه الدول الفتية التي جاءت بالمعجزات. فالعرب لا اليونان ولا اليهود هم الذين بعثوا العالم من حالة الجمود إلى حياة أفضل مكنته من التحكم في مصائر الكون فأطلق العربي الأفكار من عقالها وحررها من جمود رجال المعبد اليهودي والكنيسة المسيحية فظهرت طائفة القرائين حيث أنكر أولئك التلمود وتعاليمه، كما انكمش سلطان الكنيسة وتوارت وراء البخور. وقد مهد هذا التطور بدوره إلى ظهور حركة الإصلاح الديني وبعث النهضة العلمية. ومما عاون العرب على الاضطلاع بهذه الرسالة تسامحهم ومبادئهم الإنسانية التي أزال الفوارق بين الشرق والغرب كما أنهم لم يمكنوا اللون من أن يكون عاملا من عوامل التفرقة والتمييز العنصري

1 التوراة. عرض وتحليل للدكتور فؤاد حسنين علي، القاهرة 1946.

2 التاريخ العربي القديم. تأليف ديتلف نيلسون. فرتز هومل. ل. رودوكاناكيس وأدولف جرومان. ترجمه واستكمله فؤاد حسنين علي، القاهرة 1958.

والحط من القيم الإنسانية. إن العرب يؤمنون سواء في الجاهلية أو الإسلام بالحقوق الإنسانية كاملة غير منتقصة لكل فرد من أفراد المجتمع البشري. فالدين الإسلامي الذي تَبَتَّ أسس هذه المبادئ يقرر في صراحة ووضوح: «ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»، و «إن الله لا ينظر إلى وجوهكم بل إلى أعمالكم». لذلك نجح العربي في تحقيق ما عجز عنه اليوناني والفلسفة اليونانية أعني مذهب «الإنسانية». إن هذا المذهب لم يقو ولم ينتصر إلا بفضل العرب، ولم تعرفه أوربا إلا في العصور الوسطى وعلى يد العرب، وبعد أن تتلمذت أوربا على العرب في العصر الإسلامي حيث بلغ العرب مكانة اجتماعية لم تدانهم فيها الشعوب الأخرى، كما شرع الإسلام لمعتنقيه وغيرهم تشريعات أخرجهم من الظلمات إلى النور. إن الحانقين على العرب والإسلام والناسيبين التراث العربي إلى اليونان واليهود يضللون أنفسهم وغيرهم والعكس هو الصحيح. العرب هم أصحاب الفضل على اليونان واليهود، ولست أنا فقط الذي يقرر هذا بل يشاركني نفر من الأوربيين المنصفين مسيحيين كانوا أو يهودًا هذا الرأي. فالتاريخ اليهودي يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكامهم في فلسطين أو فرغًا من اضطهاد اليونان والرومان، فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلاً وسهلاً، فهذه القبائل اليهودية التي كانت تنزل يثرب وخيبر ووادي القرى، وقد أفرادها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون التي مرت منذ زوال دولتهم ولغتهم المقدسة، تذوق اللغة العبرية وتجويدها حتى أصبح من المألوف لدى اليهود أن يعبر عن أفكاره وشعوره في لغة ركيكة هي خليط من العبرية والكلدانية واليونانية فحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية، فما كان أولئك اليهود بمستطيعين قول الشعر أو إجادة النثر، فغير نزولهم بين العرب هذه

الأوضاع وبخاصة أن العربي معجب بلغته معنى بها نثرا وشعرا وحريصا على المحافظة عليها فصيحة نقية. أخذ اليهود عن جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير، فلما رحل بنو قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادي القرى وغيرهم إلى العراق والشام وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربية ويتأدبون بأدب عربي ويتطبعون بطباع عربية كلها شجاعة ووفاء وكرم وإباء، يقولون الشعر في مختلف فنونه ويعبرون عن خواطرهم في لغة هي لغة أهل الحجاز. نزل أولئك اليهود في أوطانهم الجديدة فأثروا في أبناء ملتهم تأثيرا قويا، ولم يمض نصف قرن من الزمن على تحرير العرب ليهود فلسطين والعراق وغيرهما حتى أصبح في استطاعتهم التحرير في اللغة العربية. ولم يقف أثر العرب والعربية في اليهود عند اللغة وآدابها بل تعدى العربية الأدبية إلى عربية القرآن الكريم والحرص على المحافظة على كتاب الله، وهذه ظاهرة جديدة لم يكن لليهود بها عهد في عصورهم القديمة حتى في فلسطين، وإبان قيام دولتهم وحياة لغتهم العبرية المقدسة، وقد حببت هذه الظاهرة إلى اليهود اقتفاء أثر العرب ومجاراتهم في طريقة دراسة القرآن الكريم، وحاول اليهود الحرص على نطق أسفار العهد القديم نطقا صحيحا، فدفعهم هذا إلى التفكير في إعجام أسفارهم وإعرابها مقلدين العرب وناقلين عنهم. وتأثر اليهود بالعرب أيضا فأوجدوا ما يعرف في الأدب العبري بالشعر العبري الحديث أو (البيوتيم) فهذا الفن صورة من الشعر العربي وزناً وقافية. ولم يقف الأثر عند الشعر بل تعداه إلى النثر فبينما نجد يهوذا بن قريش (آخر القرن التاسع وأوائل العاشر الميلادي) يستشهد كثيرا من مؤلفاته بالشعر العربي إذ بابن جناح القرطبي وأمثاله ينسجون على منوال نحوي

العربية ولغويها¹ كما ترجم العالم اليهودي الحريزي مقامات الحريزي إلى العبرية وقلدها فأدخل فنا جديدا في الأدب العبري لم يكن معروفا من قبل. كذلك الأمثال العربية وجدت طريقها مع البيان والبديع إلى اليهود ولغتهم، فقد وضع يهوذا بن تيون مثالا كتابه المشهور «حكم العرب» وترجمت أسرة تبون وغيرها كثيرا من أمهات الكتب العربية سواء في الفلسفة أو الطب أو الرياضيات أو القصص الشعبية إلى العبرية، وليس هذا بمستبعد فالعرب ليسوا هم أصحاب فكرة المعزل (جيتو) فقد فتحو أمام اليهود دور العلم على مصراعيها ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم؛ لذلك استطاع اليهود القيام بدور الرواة من الشعراء إذ انسأبوا في بعض البلاد المسيحية وأخذوا إلى جانب بعض العلماء العرب يلقتون الأوربيين ما انتهت إليه معرفتهم². ويحدثنا التاريخ اليهودي إن الإسلام أحسن معاملة اليهود حتى أولئك الذين اضطروا النبي والخلفاء الراشدون إلى إجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تأمينا لرسالة الإسلام وأتباعه، أقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والإمام علي - كرم الله وجهه- الأراضي الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات مما دفع المؤرخ اليهودي الشهير «جريتز» إلى الإشادة بعدالة العرب وإنسانيتهم في كتابه «تاريخ اليهود» فقال: «إن تاريخ اليهود في بلاد العرب في القرن السابق للنبوة المحمدية وإبان حياة الرسول صفحة ناصعة في التاريخ اليهودي». وذكر في موضع آخر: «لقد وزع عمر أراضي اليهود على المسلمين المحاربين، وعوض اليهود المطرودين -

1 التوطئة في اللغة العربية للدكتور فؤاد حسنين علي، القاهرة 1940.

2 من الأدب العبري لنفس المؤلف.

وهذه هي العدالة- أخرى بالقرب من الكوفة على الفرات حوالي 640 م. حقًا رب ضارة نافعة. إن سيادة الإسلام نهضت باليهودية من كبوتها»¹

إذا تركنا خلال العربية جانبا، هذه خلال التي بوأت العرب هذه المكانة الممتازة والتي جعلتهم أهلا ليكونوا رسل حضارة وثقافة للناس كافة، وقابلنا بين الإسلام وتعاليمه وبين اليهودية، أدركنا الفرق الشاسع اجتماعيا وعقائديا بين الملتين؛ لذلك سرعان ما وجدنا المرأة اليهودية مثلا تفضل الالتجاء إلى المحاكم الشرعية الإسلامية للفصل في قضايا الأحوال الشخصية. وقد هدد هذا الموضع الجديد المجتمع اليهودي بالزوال فقرر علماء التلمود تغيير بعض أحكامه مجارة للشرعية الإسلامية، لكن تغيير بعض الأحكام التلمودية لم يقف عند هذا بل زرع العقيدة في قدسيته وصحة ما جاء فيه، وبخاصة تلك الأحكام التي لا تستند على نص قوي في الكتاب المقدس. وكانت النتيجة المحتومة لهذه الحركة الإصلاحية أن ظهرت في سوريا جماعة من اليهود النازحين من الحجاز، والذين اعتادوا حياة أفضل من تلك التي يحيونها تحت ظلال التلمود، فرفضوا العمل بتعاليمه، وبذلك مهدوا لظهور فرقة القرائين. هذه هي بعض حسنات العرب على اليهود، فالعرب هم الذين أهدوهم العربية بعد أن كانوا يرطنون خليطاً لا شرقياً ولا غربياً ولا سامياً ولا هندية أوريبياً، والعرب هم الذين هذبوا ذوقهم اللغوي، ورفعوا مستواهم الأدبي فمكنوهم من خلق ملكة أدبية.

وثالثاً وليس أخيراً احتذى اليهود حذو المسلمين مع القرآن الكريم فعنوا بدراسة كتابهم وشرعوا في وضع نحو للعتهم صيانة لها من اللحن

1 نفس المرجع السابق.

والضياح. هذه هي الحقيقة العلمية أسوقها للدكتور طه وتلميذه الدكتور إسرائيل ولفنسون. والآن بعد أن استكملت ما تركته السيدة المؤلفة في هذا الموضوع بالذات أنتقل إلى الحديث عنها وعن مؤلفها الذي نقلته إلى العربية: السيدة المؤرخة الدكتورة «سيجيريد هونكه» كريمة تاجر كتب مشهور، وقد ولدت في «كيل» ودرست في جامعات «كيل» و «فريبورج» و «برلين» الفلسفة ونفسية الشعوب والتاريخ، وبعد دراسة دامت ست سنوات حصلت على إجازة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة برلين، وقد عالجت في رسالتها الأثر العربي في الشعر الغنائي الأوربي، ثم مضت المؤلفة عامين مع زوجها الذي تذكر عنه أنه يجيد العربية في مراكش، كما قامت بعدة رحلات في الشرق تعرفت فيها على شعوبه وطبيعة بلاده وثقافته. وفي عام 1955 ظهر أول كتاب لها في تاريخ الثقافة عنوانه: «في البدء كان رجل وامرأة»، وقد عرضت فيه المؤلفة أيضاً للثقافة العربية، ثم نشرت كثيراً من المقالات حول العلاقة بين العرب والأوروبيين في الصحف والمجلات والبرامج العربية الإذاعية الألمانية. أما كتابها «شمس الله تشرف على الغرب» أو «فضل الغرب على أوربا» فهو نتيجة عمل شاق استنفذ من حياة المؤلفة سنوات كثيرة فطلع على القراء وهو يمثل خير كتاب ظهر في هذا الموضوع، فتلقفته أرقى اللغات الأجنبية ونقلته، كما قرظته الصحف والمجلات العلمية في ألمانيا وخارجها. وقد عالجت المؤلفة مختلف نواحي النشاط العقلي العربي في ست وسبعين وثلاثمائة صفحة فضلاً عن كثير من الصور واللوحات. ونقل هذا التراث إلى العربية ليس بالأمر السهل، فهناك مفردات عربية الأصل بعدت الشقة بينها وبين صيغها في اللغات الأوروبية حتى أصبح الرجوع بها إلى أصولها العربية يتطلب بحثاً وجهداً، فضلاً عن أن معاجمنا اللغوية العربية لا تسعفنا في مثل هذه

الحالات، فهي ليست معاجم تاريخية، كما أن هذه المفردات غالبًا ما دخلت أوروبا عن طريق إسبانيا فهي عربية أندلسية لم تعرها معاجمنا التي بأيدينا أهمية خاصة. وإذا علمنا أن الكتاب كتب للغرب لا للشرق العربي أدركنا السر في عدم ذكر المراجع العربية والتي لا بد من الرجوع إليها عند نقل الكتاب إلى العربية، وبعض هذه المراجع تحت يدي والبعض الآخر ينقص المكتبة العامة، كما أنني اضطررت أحيانًا إلى الاستعانة بالمخطوطات وبخبرة الكيميائي الشاب السيد حسنين فؤاد بجامعة توبنجن بألمانية في فهم المصطلحات الرياضية والفيزيائية والكيميائية، فإليه أقدم خالص الشكر على الجهد الذي بذله معي في إنجاز هذا الكتاب. ولا يفوتني أن أذكر هنا أن هذا الكتاب ليس هو الأول من نوعه في اللغة الألمانية إلا أنه أشملها وأوفاهها، فقد سبقها المستشرق الراحل جورج يعقوب وعنى منذ صغره بالدراسات الشرقية على جمهرة من مشاهير المستشرقين الألمان في ذلك العصر أمثال: «رويس» و «نولدكه» و «فليشر» و «ألورد». وكانت الفكرة السائدة في ذلك الوقت عن الشرق العربي لا تتفق وماضينا السعيد وعصورنا الذهبية، فالجامعات الأوروبية كانت تمهد أو تخدم الرغبات الاستعمارية، وجرفها تيار السياسة فغفلت أو تغافلت عن البحث العلمي الصحيح المجرد من الغايات، اللهم إلا هذا النفر القليل من بعض المستشرقين الألمان الذي تتلمذ عليهم «جورج يعقوب» وتأثر بأرائهم. فقد أدرك أولئك العلماء أن الشرق وإن دبث فيه عوامل الضعف والانحلال، وأصبح نهبًا بين الدول الأوروبية الاستعمارية إلا أنه كان في العصور الوسطى معلم أوروبا وإليه يرجع الفضل في النهضة الأخيرة. لذلك نجد «جورج يعقوب» يأخذ على عاتقه العمل على دراسة هذا الموضوع، وإيفاء كل ذي حق حقه، وقد لاقى خصومات شديدة من المستعمرين

أولا وأنصار الدراسات القديمة الذين كانوا يهدفون قبل كل شيء إلى تحرير اليونان من السيادة التركية ثانياً، وتكتلت أوروبا سبيل الوقوف في وجه الشرق والشرقيين فكان ما كان من الأحداث التي تعرضت لها مصر في القرن التاسع عشر وخلق المسألة الشرقية. وافتتح «جورج يعقوب» حملته فنشر كتابه «التجارة العربية في العصور الوسطى»، وقد نقلته إلى العربية ونشرته لجنة البيان العربي عام 1946. ثم واصل حملته فنشر الكثير من المؤلفات القيمة. وغير «جورج يعقوب» أو الشيخ جورج يعقوب، كما عرف إبان حياته نجد أمثال: «أنوليتان» و «ر. باريت» و «أوتو شيبث» وغيرهم من كبار المستشرقين الألمان ومؤرخي الحضارة أمثال «فيديمان»، فردوا للعروبة اعتبارها، وأنصفوا الإسلام والمسلمين.

الكتاب الأول البهار اليومي

أسماء عربية لمنح عربية

أتسمحين لي أيتها السيدة الفاضلة أن أدعوك إلى هذه القهوة؟ إنك مينة؟ اخلي من فضلك الشك وخذ مكانًا هناك على الصفة ذات المطرح الأحمر القرمزي. إن القناد بالمستقة الجامدة وقطنيته البيضاء سيحضر سريعًا طاسًا من قهوة البن وبها قطعتان من السكر أو أتفضلين غرافة من عصير الليمون المثلج ما لم تستدسني الكحول؟ لا؟ وإلى جانب ذلك ترغيبين في كعكة من الفواكه محلاة بالبرقوق والبنان. بدهي يا صديقي أنك الآن ضيفي لتناول الطعام، والآن اسمح لي أن أقدم لك شربات النارج (البرتقال) والخرشوف المحشو سيعجبك لأنه منبه للطعام، وما رأيك في ديك محمر في برد ومعه أرز مبهر وقليل من السبانخ؟ وبعد ذلك أنصحك وألح في النصيح أن تأكل لقمة بالقرفة مغموسة في شراب العرق، وأخيرًا طاسًا من (قهوة) مخا واسترح على الديوان. إنك تشعر الآن أنك في المنزل فكل ما يحيط بك وكل الذي أقدمه لك أصبح منذ زمن بعيد من مقومات حياتنا ولو أننا استعرناه من عالم أجنبي، من العرب. فالقهوة التي تنعشنا يوميًا والبن الذي نطحنه جيدًا، وحتى الطاس التي نتناول منها هذا الشراب الأسود، والسكر الذي لن نستطيع بدونه صنع أي نوع من الطعام، والليمون، والغرافة، والقطنية، والشك، والمستقة، والمطرح؛ قد عرفناها جميعها عن طريق العرب، وليست هذه فقط بل أسماؤها المستخدمة في أوروبا وفي جميع أنحاء العالم عربية.

والقند الذي يصنع منه القناد في مصنع القند التسفتشجين والبيج ارمودي والتاريخ المقدن. نعم إنكم تدعونها فواكه الجنوب لأنها مستوردة من الجنوب شأنها شأن الكثير من المشروبات والمأكولات، فلماذا؟ أليست من الشرق، أو ليست محفوظة في غلائلها الشرقية؟ وإذا أعياك التعب رغبت في الاستراحة على الصفة أو الديوان أو العثماني أو في القبة إن كل طفل يستطيع أن يتبين أن هذه المفردات دخيلة على لغته. أو لا تعلم أنم مضطر إلى استخدام تعبير عربي إذا ما رغبت في لعبة الشاه (الشطرنج)! لقد أهدى العرب هذه اللعبة إلى أوربا أيام شارلمان الأكبر وعلى يد رسل هارون الرشيد، وكلمة -شاه- أي (ملك) ولفظ -مات- في التعبير المستخدم في هذه اللعبة (شاه مات) تعبير عربي. أو لا تعلم أيها الأوربي أنك تضحك اليوم أو تغضب من استخدام لفظ (شيكيش)! وهو مركب من لفظ (شاه) وقد أضيفت إليه علامة النسبة في اللغة الألمانية، أي مثلون تلون لوحة الشطرنج. أو لا تعلم أن القفة الموجودة في واجهة الحانوت إلى جانب الكيس المصنوع من جلد صفي والحقيبة المجهزة من جلد مراكشي وكذلك زوج الجدامس وغيرها من الأشياء التي تنتظر المشتريين تحمل طابع العرب المولعين بالأسفار والتنقل. أما الجدامس فنسبة إلى الجلد المجهز في مدينة جدامس بطرابلس الغرب بالقرب من حدود الجزائر! ثم تأمل وسائل الجلاء في واجهة هذا المحل الذي تزينه الأقمشة الجميلة أليست آية في الفن؟ فغير قماش البركان الجميل والقطني الرقيق والموصلي والموخيّر الصوفي السميك، ولك أن تختار بين الشف الرقيق والزيتوني والتفت كساء الوجهاء والموخيّر والأطلس والدمشقي العظيم صناعة دمشق التي منحت ألمانيا لفظ -زفتشكة- كما نجد تشكيلة من الألوان الأصفر الزعفراني إلى الأرج إلى القرمزي حتى لليل، وعندما نتمتع بارتداء هذه الأقمشة الجميلة التحضير الزاهية

الألوان يجب ألا ننسى العرب وفضلهم علينا. وهل تعلم أنك إذا قصدت هناك صيدلية وهنا حانوت ترياق إنما تطلب اختراعات عربية؟ وتجارة الترياق كما نتبينها في القوارير والعلب هي: جوز الطيب والقرفة والجنزبيل والكمون والطرخون والزعفران والكافور والبنزين والقلی والنطرون والصداع والبورق والسكرين والعنبر وأنواع أخرى كثيرة من الترياق العربي يستخدمها الإنسان في حياته اليومية. وهل تعلم أيضًا أن اللك الذي يستخدمه العالم اليوم لتميع إفريز أرض الغرفة أو أظافر الأصابع وكذلك ألوان النيل والقز والطلق والبطن ما زالت تعرف حتى اليوم بأسمائها العربية؟ مفردات عربية منتشرة في كل ناحية من نواحي اللغات الأوروبية فهي أسماء كثير من عناصر الحضارة والمدنية التي يستعملها الأوروبيون في حياتهم اليومية، وقد جاءتهم عن العرب، وقد جملت هذه الأشياء الدخيلة، الحياة الأوروبية اليومية، كما أضفت عليها جميع مظاهر البهجة والأبهة والحياة الرفيعة الراقية التي يحياها العالم المتمدين اليوم. وإذا كان العالم الحديث يتمتع بقسط وافر من النظافة والقواعد الصحية فالفضل في ذلك يرجع إلى العرب وما أعاروه لأوربا.

أوربا تقاسي الحرمان لموقفها السلبي من التجارة العالمية

وفي عام 973 م اتجهت سفينة مقابل الساحل الغربي الفرنسي حيث رأس «جري نيه» شمالاً شرقياً إلى بوردو وروين وأوتريشت وشليزفيج حيث أفرغت حمولتها الثمينة، زيتاً أندلسياً قسطنطينياً للدباغة وتيناً ونبيداً مالحاً وفلفل وحبال وسفن. وعلى ظهر هذه السفينة بعثة الخليفة الحكم الثاني وقد أقبلت من قرطبة تحت رئاسة سيدي إبراهيم بن أحمد الطرطوشي قاصدة بلاط الملك الروماني الشهير «هوتو» في سكسونيا.

ومن ثم إلى «كويدينبرج» في الهارز حيث قيصر الدولة الرومانية المقدسة «أوتو» الأول، والذي عاد أخيراً من روما بعد حفلة زفاف ابنه إلى ابنة القيصر اليوناني «تيوفانو» وعقب حفلة تتويجه الشاقة.

فالقيصر أوتو الأول هو المنتصر في «ليشفلده» وباعث القصيرية الغربية، وهو الذي أقبل عليه صولجان القوة والسطوة فقصدته وفود الدول تخطب وده. فنجد سفراء الدنمارك وبولندة وبلاد الصقالبة وبوهمن ومنديبين عن اليونان والبلغار والمجر والإيطاليين حيث اصطفوا جميعهم في ميدان القصير في «كويدينبرج» لكي يقدموا أجل فروض التكريم لأكبر حاكم للغرب. وفي أول أبريل قرر القيصر نقل مكان اجتماع بلاطه إلى «مرسبرج» حيث وصل وفد أمير المؤمنين تحت رئاسة إبراهيم بن أحمد الطرطوشي قادماً من أسبانيا لتحية أمير أمراء المسيحيين، فاستقبل القيصر «أوتو» الأول الضيوف العرب وأحسن وفادتهم كما تقبل الهدايا الثمينة التي لم ير مثلاً من قبل شاكراً، ولم تمض بضعة أيام حتى فارق قيصر سكسونيا العظيم الحياة في «ميملين» فكان استقباله للبعثة العربية هو آخر عمل سياسي قام به.

أدى الوفد العربي الرسالة التي كلف بها وعاد براً إلى أسبانيا. أما الطرطوشي فقد سلك طريقاً مر فيد بمن «سوست» و «بادربورن» و «فولدا»، ولما دخل مدينة «ميترز» شاهد شيئاً ذكره بوطنه، ففي هذه المدينة الواقع في أرض الإفرنج (فرنكن) وعلى نهر الرين قدم له أحد تجارها بعض الدراهم العربية، فقرأ الطرطوشي مستغرباً الكتابة الكوفية واسم من صكت باسمه النقود وتاريخ ضربها (301 و302 هـ)، وأيقن الطرطوشي أن قطع العملة الذهبية التي بيده من سمرقند، وقد ضربت منذ ستين عاماً، ورجح أنها من النقود التي تحمل اسم نصر بن أحمد

الساماني. ومما أدهشه أيضًا أنه عثر هناك على توابل لا توجد إلا في الشرق الأقصى بينما تقع «ميتز» في أقصى الغرب، ومن هذه التوابل: الفلفل والجنزبيل والقرنفل والنردين والبلسم والخلنجان. هذا قليل من كثير من التوابل الشرقية التي فرضت نفسها على أوروبا فرضًا، فهناك قائمة محتويات مخزن دير «كوربي» الواقع على نهر «سوم»، أي بالقرب من نهاية أطراف المعمورة، فهذه القائمة التي يحتفظ بها الراهب مدير المخزن تحتوي على التوابل الضرورية جدًا لمطبخه الكائن في مدينة «كمبراي» مدينة الأسقف والواقعة على بعد سبعين كيلو مترًا. إن هذه القائمة لو اطلع عليها الطرطوشي لاستولت عليه الدهشة ففيها يقرأ:

600 رطل شمع ... 10 أرطال خلنجان 120 رطل فلفل ... 10
أرطال راوند 120 رطل كمون ... 10 أرطال إسفنج 70 رطل جنزبيل
... 10 أرطال خيار شمبر 10 رطل قرنفل ... 3 أرطال لبان 15
رطل قرفة ... 3 أرطال ورنيش 10 رطل نردين ... 10 أرطال أوراق
شجرة سليفا 10 أرطال بخور ... 3 أرطال نيلة 10 أرطال مستكة ...
2 أرطال سعت 3 أرطال مر ... 10 أرطال ميعة 10 أرطال بلسم
وحتى المراهم والكثرة المطلقة من التوابل والعقاقير والنباتات الطبية
والبخور التي كانت تملأ مخزن الدير حملها التجار من الشرق الأقصى
وقطعوا آلاف الأميال حتى جاءوا بها إلى أقصى الغرب، إن هذه
البضاعة كانت ضرورية للاستعمال اليومي فهي ضرورية للطعام
للشراب ضرورية للعلاج، وللكنائس أيضًا وحتى رهبان الأديرة، فقد
رق ذوقهم وطاب مذاقهم وصفت نفوسهم حتى أصبح من العسير عليهم
الحياة بدونها. أما قائمة دير «كوربي» هذه فقديمه جدًا أقدم من رحلة
الطرطوشي بنحو ثلاثة قرون وهي ترجع إلى عصر ملوك المرنجيين.

ومنذ حكم أولئك الملوك حتى رحلة الطرطوشي تعرض العالم لكثير من الأحداث التي كانت ذات أثر فعال في تطويره، فخوضا الرين والسوم تعرضا في تلك الفترة لكثير من الهزات التي لم يريا مثلها في القرون السابقة؛ فالجرمان أقبلوا بجحافلهم من الشمال وقضوا على الدولة الرومانية، لكن زوال الإمبراطورية العالمية لم يغير كثيرًا من الأوضاع العالمية وبخاصة في ذلك الجزء من العالم؛ وذلك لأن الحياة في تلك العصور كان يقررها البحر الأبيض المتوسط، فالشعوب الشمالية لم تستطع تقويض الأنظمة العتيقة وتفتيت حدة الثقافة القديمة، فالذي حدث أن الجرمان اندمجوا في شعوب جنوب أوروبا واختلطوا بهم وأصبحوا عنصرًا من عناصرها فمدوا في أجلها. فقد ظل الدين كما كان بالرغم من زوال الإمبراطورية الرومانية وقيام الشرقية. وما يقال عن الدين يقال أيضًا عن الحياة الاقتصادية حول البحر الأبيض المتوسط. فإذا تركنا الغرب واتجهنا إلى الشرق وجدنا النقيض من هذا، فتجارة الشرق التي كانت تأتي عن طريق «أوستيا» إلى المدينة العالمية روما، وتنتهي في ميناء مرسيليا، هذه التجارة ازدادت ازهارًا وشقت طرقًا أخرى جديدة لم تعرفها من قبل، فعبرت الألب واخترقت بلاد الغال حتى «كمبراي»، ومن ثم أخذت تتغلغل حتى بلغت أواسط ألمانيا. نعم لم تصبح روما هي السيدة بل بيزنطة، ومما هو جدير بالذكر أن العالم القديم كان وقتذاك قد تصدعت جوانبه وانتابته العلل وإن بدا على مظهره صحيحًا قويًا. ولعل أهم عامل من عوامل تقويض أوروبا ظهور النبي العربي، والروح الجديدة التي بعثها الإسلام في العرب، فلم تمض أعوام قلائل إلا وكانت القبائل العربية تتدافع في موجات متلاحقة غامرة شواطئ البحار الأبيض المتوسط، ولا تقف عندها بل تواصل زحفها حتى تبلغ شواطئ المحيط الأطلسي. وهكذا نجد العرب ينتزعون شوق

وجنوب وغرب العالم القديم من هذه الحالة الجامدة الراكدة ويهيئون السكان لحياة أفضل بعد أن ظلوا قرابة ألف عام يتيهون في بوادي الجهالة والجمود. فانتصار الإسلام قسم العالم إلى شرق وغرب. شرق وثاب وغرب قابع، شرق حر طليق وغرب مكبل بالأغلال، أسدل على نفسه ستارًا كثيفًا واكتفى بحياة النسك الزهد والعزلة. أما الدولة العربية العالمية الجديدة فقد ثبتت أقدامها في الأقاليم المفتوحة. وللمرة الأولى في تاريخ العرب يظهرون على مسرح التاريخ كشرق يغلب الغرب على أمره فيختفي ويتوارى منطويًا على نفسه. لقد نجح الإسلام فيما فشلت فيه الغزوات والهجرات الجرمانية، لقد فتت هذا الجمود الذي فرضه البحر الأبيض المتوسط قرونًا عديدة على هذا القسم من العالم، وهذا هو الحدث الهام في التاريخ الأوروبي منذ الحروب البونية، إذ أغلق صفحة تاريخ العالم القديم وفتح الصفحة الجديدة صفحة العصور الوسطى في الوقت الذي كانت تتحول فيه أوروبا إلى بيزبطة. ومما زاد الطين بلة على أوروبا وأسدل عليها الحجب الكثيفة التي حالت دونها ودون رؤية المنبثق من الشرق هذه الأوامر التي كانت تصدرها روما والقسطنطينية محذرة المسيحيين الأوروبيين من زيارة مصر وسوريا. ولكن من حسن الحظ أن نقرأ أن الحجاج الأوروبيين لم تنتهم هذه التحذيرات وقصدوا الشرق العربي المسلم وحجوا إلى الأماكن المسيحية المقدسة فلم يتعرضوا لخطر ما، فقد حدث في ذلك العصر أن الخليفة هارون الرشيد الذي كان يقدر شارلمان ويجله أرسل إليه عن طريق بطريرك القدس الذي كان يباشر وظيفته ويقوم بطقوسه الدينية دون تدخل من الحاكم وفي حرية كاملة مفتاح المدينة المقدسة ومنحه حق السيادة عليها، وقد وقع هذا في الوقت الذي كان فيه غير المؤمنين يواصلون تخريب وتدنيس المدينة المقدسة إثارة للخوف وإدخالاً للفرع في نفوس أبناء

ملتهم من الحجاج والسياح. وبينما نجد هذه القيود تفرض على المسيحيين الأوروبيين إذ بنا في الشرق العربي نجد سياسة أخرى حكيمة رشيدة، فلا تحديد إقامة ولا عقبات وحواجز تحول دون السعي في مناكب الأرض وتبادل المنافع. فالتاجر العربي كان يتنقل حراً طليقاً في أرجاء الشرق قاصيها ودانيها فهو يتاجر مع الهند والصين وسائر الأقاليم وليس في حاجة لأن يصدر إلى أوروبا التي ضريت على أهلها الذلة والتقصيف، فسادت الفرقة بين الغرب الأوروبي والشرق العربي بخيراته وأضوائه وأصبحت شواطئ البحر الأبيض المتوسط المسيحية مزاراً لا للتجار بل للقراصنة ومهربي البضائع. فالموانئ خربة خالية بعد أن كانت تعج بخيرات الشرق وكنوزه والمخازن خاوية خالية حتى دير «كوربي» فقد تعرض للتقصيف والحرمان، وكانت الشربة التي تقدم لنزلائه عبارة عن طبق من الكرنب لا طعم ولا نكهة لها تشرب ولا تذاق فلا بهار ولا فلفل ولا زنجبيل ولا مختلف أنواع التوابل التي أصبحت عنصراً هاماً من عناصر مطبخ الدير. وحتى النبيذ أصبح خبراً بعد عين وكذلك الحرير.

وترتب على اختفاء هذه الأصناف أن أغلقت المحال التي كانت تتجر فيها وعبست الحياة بعد أن ابتسمت زمناً طويلاً وعادت التجارة إلى حالتها البدائية الأولى وحلت المبادلة محل البيع والشراء. وحتى الكنائس أصابها الحرمان فخلت من البخور والخمور والزيت لإضاءة المشاعل والثريات؛ مما اضطرها إلى الاستعاضة عن الزيت بالشمع المستخرج من عسل نحل الغابات وقنع صاحب الخان بما يصله من الأصدقاء في روما من هدايا قليلة. فمرة يصله قليل من البخور وأخرى بعض القرفة أو قطعة من البلسم التي قد يحضرها تاجر يهودي من الشرق العربي لبيعها في العاصمة المسيحية. وذلك لأن اليهودي فقط هو الذي كان همزة الوصل بين الشرق المسلم والغرب المسيحي، وكان تاجر الجملة

ورسول الكارولينيين. فأين المكان على سطح الأرض الذي لا يوجد فيه اليهودي الذي يسارع إلى مساعدة ابن ملته؟ ويحدثنا ابن خردادبة في كتاب المسالك والممالك عن مسلك التجار اليهود الراذانية حوالي عام 900 م «الذين يتكلمون العربية والفارسية والرومية والإفريقية والأندلسية والصقلية، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برًا وبحرًا يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسحًا، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجر وجدة ثم يمضون إلى الاسند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك؛ مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملون إلى الفرما ..». فهذه الأشياء لا تصل إلى أوربا الآن إلا بقدر وقدر ضئيل جدًا ولا يستطيع الرجل العادي أن يشتريها من السوق السوداء لارتفاع أسعارها، فلا عجب إذا رأينا الطرطوشي يبدي استغرابه عند رؤيتها في مدينة «ماينز» الغربية. والواقع أن البلاد المسيحية كانت وقتذاك متخلفة جدًا في التجارة الشرقية التي كانت تمر ببحر الخزر؛ ومن ثم تسير على امتداد نهر الفولجا ثم شمالاً حيث الشعوب الوثنية. لذلك لا عجب إذا رأينا أنوار الحضارة الشرقية تضيء البلاد الشمالية وسائر الجزر المنتشرة في البحر الشرقي كما نتبين هذا من آلاف القطع من النقود العربية التي ترجع إلى الفترة الممتدة من القرن التاسع إلى الحادي عشر الميلاديين، وإن دلت هذه النقود على شيء آخر عدا نقل الثقافة العربية إلى تلك الأصقاع النائية فهذا الشيء هو تحرر التجارة العربية من التعصب الديني، وقد تجاوب مع العرب في تأدية هذه الرسالة

وإنجاحها كثير من الشعوب الجرمانية الشمالية أعني الفيكينج أو النورمانيين الذين نزحوا من النرويج وإيسلندة والسويد والدنمارك وواصلوا أسفارهم حتى بلغوا شرق أوربا، وقد نجحت هذه الشعوب الشمالية في إقامة دول على طول الطريق التجاري الذي كانوا يقطعونه ذهابًا وجيشة ومن بين هذه الدول التي أسسوها تلك التي أقاموها في البلاد المعروفة باسم روسيا فهذه الدولة ما زالت محتفظة حتى الأيام الأخيرة باسم مؤسسيها وهم «هروس» أو «روس» وهو اسم الوطن الأصلي في بلاد السويد. وقد اضطر أولئك التجار المحاربون إلى تأسيس محطات تجارية على طول الطرق التي يقطعونها فشيّدوا مثلًا «نوفوجورود» و «كيف»، كما تاجروا في الأقمشة واللباد والحلي الفضية والأصداف الكورية والأسلحة وسهام الصيد ومختلف أنواع العطارة من مختلف البلاد العربية حتى مدينة تولية القاصية وكانوا يعودون من أقصى البلاد العربية محملين بالكهرمان وأسنان الحيتان وغراء السمك وخشب الصنوبر والبلوط والصقور الحية للصيد وطواقي من فراء الثعلب الأسود للعرب وكثير من مختلف أنواع الفراء لا سيما السمور الأسود والهرملين والثعالب التي يحكى لون فرائها لون الياقون فيضيء ما حوله وكأنه الشمس تبدد غياهب الظلمات. لكن بين دولة الروس والدولتين العربية والرومانية والشرقية كانت تقوم دولة الخزر، وهي بمثابة الإسفين في كيان هذه الدول، فمنذ عدة قرون كانت بلاد الخزر تفتح ذراعيها لليهود الهائمين على وجوههم والفارين من مختلف بلاد العالم، وبخاصة الشرق الأدنى، والسر في هذا أن سكان هذه البلاد الخزرية كانوا خليطًا من اليهود والمسيحيين والمسلمين والوثنيين ويحكمهم ملك يهودي، وكانت حياتهم الاقتصادية تعتمد على تجارة المرور بسبب موقع بلادهم التجاري، فعاصمتهم «إيتيل» كانت مشرفة

على مصب نهر الفولجا في بحر الخزر. ومما غير مجرى الحوادث في التاريخ الاقتصادي للقارة الأوروبية وشق للتجارة الشرقية طرقاً جديدة امتدت حتى وصلت شمال أوربا نجاح القيصر «أوتو» الأول في تطهير القارة من العصابات المجرية التي كانت تعيش على السلب والنهب وقطع الطرق مما حال دون وصول التجارة العربية إلى شمال أوربا.

أما الآن وقد عادت الطرق واختفت عصابات النهب والسلب، فقد تغيرت الأوضاع وواصلت القوافل التجارية سيرها مخترقة بلاد الخزر والروس النورمانيين حتى أقصى الشمال مزودة على طول الطريق مدن أواسط أوربا والأديرة، بواسطة الدرب التجاري المؤدي إلى «براج»، كما يحدثنا اليهودي إبراهيم بن يعقوب الذي جاء من رحلة قام بها في بلاد الصقالبة ولما وصل «ميرزبرج» حظي بمقابلة ملك سكسونيا الملك «هوتو»، وقد اتفق أن وصوله وافق مجيء سفراء الحكم الثاني.

ومدينة براج هذه كانت مقصد كثيرين من التجار، فالروس كانوا يفتدون إليها من مدينة «كراكاو»، وغير الروس كان يفتد إليها الصقالبة أيضاً، كما أقبل عليها من البلاد التركية المسلمون واليهود وغيرهم يحملون مختلف أنواع البضائع مثل: الرقيق والقصدير والفراء والنقود. وقد يكون أولئك الروس أو أهالي براج هم الذين زودوا «مينز» بمختلف أنواع التوابل والعطارة والنقود العربية التي رحبت بمقدم الطرطوشي وزيارته عام 973 م.

البندقية تحطم الحصار

وفي تلك الفترة ظهرت في ناحية أخرى من اليايسة مدينة لم يشعر بها أحد من قبل، وسرعان ما أصبحت ذات سيادة، وحصدت خيرًا كثيرًا. وهي تدين في كل ما بلغته إلى موقعها وطبيعتها فهي مجموعة السنة يابسة ممتدة في البحر الأدرياتيكي كادت تأتي عليها الحروب الداخلية وتجرفها أمواج البحر. هذه المدينة القابعة على جزر رياتو والتي نعرفها تحت اسم البندقية، كانت تعيش في حماية قديس سرقة من مصر وهو القديس مرقس الذي أعيد جثمانه أخيرًا إلى القاهرة. وقد فرضت عليها جغرافيتها أن تعيش على التجارة، والتجارة البحرية بصفة خاصة، فبدأت بالملح والسبك، ومن ثم أخذت تتطور حتى علا شأنها واتسع أفقها وخرجت من محيطها الضيق واتصلت بالشرق العربي وشعوبه فلم يمض زمن طويل حتى أثرت من وراء صلاتها التجارية مع العرب ثراء عظيمًا حسدها عليه الغرب شعوبًا وحكومات. فالبندقية كانت القنطرة بين الشرق والغرب وكانت تنعم بخيرات الشرق وكنوزه وحاصلاته التي حرمت منها أوربا زمناً طويلاً بسبب تعصبها الديني وأوامر الكنيسة التي تحذر من الاتجار مع المسلمين. لكن البندقية بما أوتيت من مهارة تجارية وسعة في التفكير بفضل اتصالاتها بالعرب استطاعت أن تتغلب على دسائس خصومها، فسياسيًا كانت تابعة لبيزنطة، وظلت هذه السيادة قائمة طالما كانت بيزنطة حورة قوية متسلطة على البحر، طريقها الوحيد إلى البندقية، ومن ثم ظهر لبيزنطة في تلك المياه النائية منافس جبار وهو قيصر دولة الإفرنج وطمع القيصر في البندقية وحاول الاستيلاء عليها وعلى ثرواتها الكثيرة، وأدركت البندقية الخطر الذي تتعرض له، فراوغت خصمها المتنازعين

المتنافسين ونجحت في الإيقاع بينهما وتحريض كل منهما على الآخر بينما أخذ أميرها (الدوج) يظهر بغتة على المسرح العالمي ويخاطب حكام العالم مخاطبة الأنداد. وبعد أن تحققت للبندقية أمنيته ونجت من مخالب أعدائها وتحررت من بيزنطة أخذت تفكر جادة في الاستعمار تأمينا لأسطولها التجاري وأسواقها الخارجية وتحدثت الكنيسة وتاجرت مع المسلمين ووثقت علاقاتها التجارية مع العرب. ولم تكن البندقية هي الوحيدة في إيطاليا التي وقفت من العرب هذا الموقف الودي، ولم تتردد في مساعدة العرب عند غزوهم صقلية، أم تعقد «بيزا» مع المسلمين معاهدات واتفاقيات ضد جنوه؟ كما وقفت نابولي إلى جانب المسلمين ضد منافستها «أمالقى» وانضمت سفن «أمالقى» إلى الأسطول العربي عند مواجهته الشواطئ الرومانية بالرغم من تهديد الكنيسة لسكان «أمالقى» بالحرمان وإعلان البابا هذا التهديد. ولعل السر الذي دفع هذه المدن الإيطالية إلى محالفة المسلمين ومعاونتهم متحدنين بموقفهم هذا البابا وكنيسته، الرغبة الصادقة في المحافظة على حرية التجارة وسلامتها ولا صلة في الواقع بين التجارة والعقيدة ثم ما شأن البندقية هذه الدولة البحرية الناشئة وذلك الكهل القابع على ضفاف البوسفور؟!

ثم هل كان من السهل على أهالي البندقية الرضوخ لقرار القيصر «يوحنا تزييميسكيس» القاضي بتشكيل لجنة تتخذ من جزيرة «ريالتو» مقراً لها لتفتيش سائر السفن باحثة عن الأسلحة والخشب؟ لا شك في أن القيصر كان في حالة يرثى لها عندما قرر الانتقام من أهالي البندقية وذلك لكثرة الهجمات العنيفة التي شنّها عليها الخلفاء الفاطميون، وعاونهم سكان البندقية بالأسلحة والخشب اللازم لبناء السفن الحربية، وغالى القيصر في تهديداته فقرر حرق جميع السفن التي تضبط عليها مواد محرمة بمن فيها فغضب أهالي البندقية لمثل هذا القرار ورغبوا

عنه وعن تنفيذ رغبات القيصر؛ لأن الرضوخ لمثل هذا القرار معناه الرجوع بالحياة الرغدة السعيدة إلى الوراء؛ فاضطر القيصر إلى الإسراع في إصدار قرارات أخرى تعاقب بالموت، ذلك الذي يضبط متلبساً ببيع أسلحة إلى المسلمين. وفيما يتعلق بتجارة الخشب فقد أباح بيعه على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام ونصف القدم، كذلك أجاز بيع الخشب المعد لصناعة الطشوت أو الأطباق أو الملاعق، إلا أن «دوج» البندقية رفض الإذعان لمثل هذه الإجراءات وأصبحت هذه القوانين معطلة وخاطب أمير البندقية أعضاء اللجنة قائلاً: ألم تكن تجارة الخشب من الأهمية بمكان لأهالي البندقية؟ أو لم يفكر القيصر في أنها مساعدة نافعة ضرورية للخليفة! والذي حدث أنه قبل وصول اللجنة لمباشرة عملها أفلعت ثلاث سفن محملة بالخشب اثنان وجهتهما «مهدية» في تونس والثالثة إلى طرابلس الغرب، وقد صرح الدوج بشحن هذه السفن رحمة بعمال الشحن المسيحيين الفقراء. أما دول شرق البحر الأبيض المتوسط من آسيا الصغرى حتى مصر فلن يصلها شيء من هذا الخشب، ويذكر الكتاب العرب في القرن العاشر الميلادي كثيراً حول تجارة البندقية وأملفيس وبالرمو ومسينا مع عرب شمال إفريقيا.

فالسفن العربية كانت تصل محملة بالاستائر الحريرية الثمينة وأغطية المذابح والأقمشة السوداء الجميلة والملابس ذات اللون الأزرق السماوي وجميعها تراد إلى أوربا من القيروان وسوسا وجابس، كما وجدت الأقمشة العربية النادرة طريقها إلى «مونت كاسينو» والأديرة والكنائس الموجودة في شبه جزيرة إبنين، ومن المستطاع مشاهدتها حتى يومنا هذا. والشيء الجدير بالذكر أن هذه التجارة العربية ظلت زمناً طويلاً محصورة في البلاد الواقعة جنوب جبال الألب ولم تستطع عبورها إلا أن بعد وقعت أحداث تاريخية هامة كانت بعيدة الأثر في الحياة

الاقتصادية الشرقية الغربية، ومن هذه الأحداث أن بيزنطية استطاعت عام 961 م الاستيلاء على جزيرة كريت من العرب فأصبح الطريق إلى الشرق العربي مفتوحًا وعجزت القوة القيصرية أو البابوية عن الحيلولة دون قيام علاقات تجارية مع العرب في الشرق والاستفادة من تجارة العرب العالمية وثرانهم المتدفق. أما الحادث الثاني فكان عام 991 م عندما أرسل دوج البندقية وهو بطرس الثاني أو رسيولو سفراء إلى جميع الأمراء العرب محببًا إليهم البندقية وداعيًا إلى إقامة علاقات تجارية بينهم وبين بلاده، ولم يمض زمن طويل حتى أصبحنا نجد السفن التجارية تقلع من ليدو وجنوه بانتظام إلى سوريا ومصر؛ مما دفع الخليفة الفاطمي المستنصر الذي اشتهر بصداقته للمسيحيين إلى تعيين قسم خاص من القدس لإقامة الحجاج والتجار المسيحيين. وكانت قوافل السفن تقلع عادة من موانئها الأصلية في أوائل سبتمبر وتصل إلى الشرق بعد أربعة أو خمسة أسابيع، وفي الربيع تعود إلى موانئها الأصلية ثانية. أما الشتاء فكان التجار يقضونه في الشرق متنقلين بين فلسطين وسوريا وبغداد والخليج الفارسي أو يذهبون مباشرة إلى القاهرة والإسكندرية حيث توجد التوابل الجيدة التي ترد عن طريق البحر من الهند ومدغشقر وتدر على التجار الأرباح الطائلة لرخص النقل وقلة التكلفة، وهذا مما دفع الصليبيين فيما بعد إلى غزو فلسطين في مصر.

أما التجار الذين كانوا مقيدون بالعودة على ظهر السفينة التي أقلتهم إلى الشرق فكانوا ينتهزون فرصة وجودهم في البلاد العربية ذات الحضارة العالية والثقافة الرفيعة، وعند عودة التاجر يحمل معه كثيرًا من الأقمشة القطنية السورية والكتانية إنتاج مصانع أنطاكية، وبضائع زجاجية وأخرى من القيشاني صناعة مدينة صور، ومختلف أنواع السكر في حقائب من صنع طرابلس الشام. هذا بالإضافة إلى الفلفل

وجوز الطيب والكافور والكباب والبخور والمر والنيلة والعود وخشب الصندل والخشب البرازيلي وغيرها من الأصناف التي كانت تزدهم بها الأسواق المصرية. فالتجارة بين الشرق والغرب أعادت الصلات بين العالمين سيرتها الأولى، وبخاصة عندما قضت معركة المجر عام 955 م في «ليشفيلد» على قبائل الغجر التي كثيرًا ما كانت تغير على القوافل التجارية وتعمل فيها سلبًا ونهبًا وتقتيلًا. أما الآن، بعد أن استتب الأمن، فقد أخذت التجارة تتدفق عبر الألب وشجع على ازدهارها القيصر الذي منح السوق والنقود حقوقًا وامتيازات في جميع الأماكن الواقعة قبل الألب حول «بودينزيه» وأسافل حوض الرين، كما أصبح الطريق مفتوحًا لتصريف البضائع المخزنة في البندقية في شمال أوروبا. لكن بينما كان الإيطاليون يحملون هذه البضائع إلى «بورجوند» وفرنسا والأراضي المنخفضة إذ يصبح من النادر رؤية أحدهم في ألمانيا، كما أخذ اليهود في الاختفاء تدريجيًا كتجار جملة واكتفوا بتجارة التجزئة مهتمين بالتوزيع والصيرفة والربا والخيول والماشية والبضائع والملابس المستهلكة أو المستعملة، كما أخذ التاجر الألماني في الظهور عابرًا سان برنارد الكبير إلى سهل نهر ألبو متاجرًا في البضائع الشرقية. لذلك كانت قبلة التجار الألمان جمهورية القديس مرقس (البندقية) وكانوا يصلون إليها قادمين من «كرنستنس» و «شافهوزن» و «رافينزبرج» و «ريجينزبرج» و «نيرنبرج» و «أوجبرج»، ثم «أولم» ومن «كولونيا» للتجار في أثمن المنتجات الشرقية. وقد بلغ عدد التجار الألمان من الكثرة بحيث إن حكومة البندقية أعدت لأولئك التجار القادمين عبر جبال الألب مكانًا خاصًا للتجار والإقامة أسوة بما فعله من قبل السلطان المصري للتجار المسيحيين في الإسكندرية حيث أوجد لهم الفنادق الخاصة. وقد أخذت البندقية عن العرب والعربية هذا

اللفظ وأطلقته على الأبنية المشابهة فنجد الفندق الذي كان مخصصًا في البندقية للتجار الألمان يسمى «فندق دي تيديشي»، وهو يحتوي على ستة وخمسين سكنًا بالأسرة عدا أماكن الراحة والاستقبال والأماكن الأخرى للمواشي. وكان في هذا الفندق فرن خاص لصناعة الخبز وحوانيت للصناعات الضرورية المختلفة، كما زود بمخازن للبضائع وأماكن للبيع خاصة بهذه الجالية الصغيرة المستقلة. ولا غرابة في هذا فالبندقية كانت المحطة النهائية التي يبلغها هذا القطار التجاري. وهنا فقط استطاع التاجر «كونراد إيسفوجل» وهو أحد أبناء مدينة «نيرنبرج» الإقامة حيث يبيع بضائعه النحاسية والحديدية والفراء والأقمشة البرابنتية. وفي البندقية كان يدفع الضرائب المستحقة وقد أخذ هذا النظام عن العرب وكان يشرف على جميع هذه الإجراءات الموظف المعروف باسم السمسار، وهو الخبير في تمين البضاعة وتحديد سعرها، وفي حضور هذا المثلث الرسمي كان التاجر الألماني يدفع الثمن المتحصل في بضائع أخرى، وبخاصة التوابل، والعقاقير المختلفة، والأقمشة، والثياب المزخرفة بالحرير والخيوط الذهبية. فالتجار مع البندقية كان يتطلب نظامًا خاصًا، فالتاجر «كونراد إيسفوجل» كان له الحق في أن يأخذ معه وإلى «نيرنبرج» بضائع لكن لا يسمح له بالخروج بنقود من البندقية وكان له الحق في مشاهدة قلاع السفن القادمة من صور والإسكندرية والمهدية وكويتا من شرفات فندقه ولا يسمح له بالاقتراب من السفن أو الحصول على قليل جدًا من الفلفل أو تبادل العبارات مع ركبها وملاحيها. كذلك الحال مع تجار «بورجوند» أو «بيمن» أو «ميلانو» أو «فلورنسا» فكان محرمًا عليهم الاقتراب من السفن مسافة سمع الأذن. ومقابل هذه الاحتياجات تتعهد البندقية ألا تشتري بضائع ألمانية خارج الألسنة الأرضية الممتدة في البحر ولا

تعرض للبيع بضائعها في الأراضي الألمانية. واستطاعت البندقية عن طريق جزرها الكثيرة المنتشرة في البحر الأدرياتيكي احتكار التبادل التجاري بين الشرق والغرب وكان الأجانب مطالبين باحترام هذه القوانين وتنفيذها، وهذا سر قوة البندقية. أما جنوه فقد كان موقفها من التجارة يغاير موقف البندقية فجنوه من أنصار حرية التجارة؛ لذلك نجد هنا تجارة الشرق ليست حكرًا للدولة بل حرة في متناول جميع التجار، فكانت جنوه سوقًا رائجة للصادر والوارد ومقصداً للتجار الذين يصدرون إلى أسبانيا وشمال إفريقيا والشرق. والآن يبدو لنا أن خيرات العرب كانت أساس الإثراء والرخاء لا في الشرق فقط بل في الغرب أيضاً، كما أن هذه التجارة العربية هي القوة الاقتصادية ذات الأثر الفعال في أوروبا وأن رفع المستوى الاجتماعي في الغرب إنما مرجعه القفص العربية المملأ بالفلفل، لذلك كان حرمان الأسواق الأوروبية من هذه القفص سبباً رئيسياً في القضاء على التجارة الداخلية أولاً، وإفلاس التجار ثانياً، وصهر الذهب المتداول ثالثاً. ففي اللحظة التي قطعت فيها الصلات بين الشرق والغرب تحولت أوروبا إلى بلاد زراعية فرجعت القهقري وانحط مستواها الاجتماعي، وحرّم الأوروبيون من فلفل الشرق وجوز طيبه وسكره، واضطروا إلى أكل الكرنب دون بهار وغصت أسواق أوروبا المحلية لا بالتجار بل بالفلاحين يعرضون حبوبهم والأواني الفخارية المصنوعة في منازلهم والسرّاويل المجهزة من القماش المنسوج في بيوتهم، واستمر الحال كذلك حتى استؤنفت العلاقات التجارية بين الشرق والغرب بعد أن خفت حدة التعصب الديني، هذا التعصب الذي كان يحول دون الاتجار مع المسلمين. أما وقد عادت المياه إلى مجاريها وأخذت تجارة الشرق تتدفق على أوروبا فإن صورة الحياة التجارية سرعان ما تغيرت وفتحت الحوانيت أبوابها وامتألت

بأقمشة الشرق وبهاراته وسائر خبراته وحاصلاته، كما حرص التجار على إجابة مطالب الطبقة الراقية فأحضروا كثيرا من كماليات الشرق ومقومات الأناقة والذوق الرفيع، وترتب على هذا التطور أن خطت المدن الأوروبية بخطوات واسعة نحو حياة أفضل، وظهرت في أوروبا ثورة اجتماعية بيضاء. وتدين البندقية في تطورها ورفيها وثرائها إلى الاتجار مع العرب، فلولاً القرفة والكمون ومختلف أنواع الصباغات بما فيها النيلة، وكذلك التوابل والبحارات، ما استطاعت البندقية أن تنزع النهضة الاقتصادية الأوروبية التي ساعدت على ازدهار الغرب وتقدمه.

ولم يكن مجهود البندقية مقصوراً على الاتجار فقط بل ساهمت حتى في نقل القوات الصليبية إلى الشرق فبدت في رأي الغرب وكأنها تساهم في تحرير الأراضي المقدسة. ثم ولت أيام المستنصر وعهده الذي اتصف بالتسامح وكرم الأخلاق وحسن معاملة المسيحيين، وابتلى الله الشرق العربي بقبيلة تركية اتصفت بالقسوة والجفوة والتعصب الشعبي، وهذه القبيلة هي التي تعرف في تاريخنا الإسلامي باسم الأتراك السلاجقة، ونجحوا في الاستيلاء على القدس وهددوا بيزنطة بالغزو فكانت هذه الأحداث إنذاراً بهجوم أوروبا المسيحية على الشرق الإسلامي وسرعان ما ساءت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بعد أن عاش المسلمون والمسيحيون متأخين متحابين في فلسطين حتى أيام المجنون الحاكم بأمر الله. أما الآن فقد تحول البحر الأبيض المتوسط فجأة إلى معارك متصلة بين أصحاب العقيدتين، وقد دامت هذه الحروب عدة قرون. واستتبع حالة الحرب إصدار القرارات البابوية التي تحرم على المسيحيين التعامل مع المسلمين أو الاتجار معهم كما نصت هذه القرارات على توقيع عقوبة الحرق على كل من يصدر أن ينقل خشباً أو أسلحة إلى المسلمين، لكن جميع هذه القرارات ذهبت أدراج الرياح ولم

تنش الجمهوريات البحرية الإيطالية عن تثبيت صلاتها التجارية وتدعيمها مع المسلمين، وذهبت هذه الجمهوريات بعيدًا في صداقتها مع المسلمين فتولى بعض بحارتها قيادة السفن الحربية الإسلامية. كما أن سلطان مراكش طلب مرة معونة جمهورية جنوه فأمدته بأسطول يتكون من ثمان عشرة سفينة حربية مساعدة لأمير المؤمنين للقضاء على أعمال القرصنة التي كان يقوم بها الصليبيون. ولماذا لا يسلك أهل جنوه هذا المسلك؟ أليسوا تجارًا وصفة التاجر الماهر أن يستفيد من جميع الفرص السانحة له. لقد تاجر البندقي في كل شيء حتى في نقل ما بين عشرين وأربعين ألف محارب صليبي في جيش الرب، وقد تجمعوا في ميدان القديس مرقس ينتظرون ترحيلهم إلى عكا ودمياط، فكسب أهالي البندقية من عملية النقل ماديًا وروحيًا إذ ساهموا مساهمة طيبة في نصررة القضية المسيحية. وانتصرت البندقية عام 1203 على بيزنطية انتصارًا فاصلاً، إذ توجهت حملة صليبية تحت قيادة البندقية فنكلت ببيزنطة تنكيلاً لم يصبها على يد المسلمين من قبل، فقد وصف كاتب مسيحي هذه الحملة الصليبية والجرائم التي اقترفتها في بيزنطة المسيحية وصفا لا عهد للإنسانية به من قبل، فقد سلب أفرادها ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم، فقد سرقوا الكنوز القديمة ودنسوا المقدسات فحطموها وخربوها وأحرقوا الكتب ومزقوها فكان انتصار هذه الحملة على بيزنطة انتصاراً للبندقية وغيرها من الجمهوريات الإيطالية لتهديدات بيزنطة أولاً وعلى سائر الدول المنافسة لها، وبخاصة المسيحية عن طريق هزيمة وفشل الحملات الصليبية ثانياً. فقد استنفذت الدول المسيحية كل قواها دون تحقيق أهدافها: فالصليبيون كما يذكر الفرنسيكاني الأسباني «رامون ليل» لم يحققوا طيلة القرون التي قضوها في الحروب شيئاً، فلم يصلوا إلى قبر المسيح، ولم يقضوا على الوثنية (الإسلام)!! أو يحولوا الوثنيين

(المسلمين) إلى مسيحيين ولم يفلحوا في الاستيلاء على الأراضي المقدسة. أما البندقية الحكيمة فقد خرجت من جميع هذه المشاكل سليمة قوية، وبفضل اتجارها مع العرب ازدادت ثراء وقوة حتى إن خبراً راج في أوروبا فحواه أن أهالي البندقية لم يحزنوا لهذه النهاية السيئة للصليبيين فقد كان الأهالي على استعداد لاعتناق الإسلام لو اقتضى الأمر هذا، فهم الذين اتخذوا من هزيمة الملك القديس لويس ملك فرنسا عيداً للمسخرة.

في مدرسة العرب

إن انتصار البندقية كان، ولحد ما، انتصاراً لأوروبا، فالبندقية هي همزة الوصل بين الشرق والغرب اقتصادياً وعلمياً وأدبياً، وإليها يرجع الفضل في هذه النهضة الإيطالية الشرقية، ومن ثم أخذت بيد الألمانية فالفرنسية. فتجارة الأراضي المنخفضة، ونجحت البندقية فربطت بينها جميعها وكونت شبكة قوية شملت المدن والشوارع ومختلف الطرق حتى بلغت إنجلترا والبلاد الإسكندنافية الشمالية فنهضت هذه الدول نهضة غير متوقعة. ثم نجد التجارة العربية تتخطى جبال الألب وكما كان الحال قديماً في إيطاليا كذلك هنا عبر الألب حيث نجد خامات الأقمشة العربية وعليها الطرز العربية وقد صنعت صناعة حديثة، فمثلاً القطن الذي أدخل العرب زراعته إلى أسبانيا وصقلية هو الذي يصنع منه هذا القماش الناعم الرقيق وتصدره سوريا وخراسان إلى مختلف الأسواق العالمية. فحوالي عام 1200 م نجد الفاتنان الغانيات اللواتي تشيد بهن أغاني «نيثارت فون روينتال» يلبسن البركان المجلوب إلى أسواق شمال ألمانيا من ميلان. وبعد ذلك بقرن نجد صناعة البركان تنتشر وبسرعة في «كونستنس» و «بازل» و «أولم» و «أوجسبورج»

في جميع إقليم «سوابيا». وبعد ذلك بقرن أيضًا هاجر نساجان لقماش
البركان من قرية «ليشفيلد» إلى «أوجسبورج» وأكبرهم سنا كان
«أولريش» الذي قتله مبيضو القماش. أما الأخ الآخر «منز» فلم يقنع
بعملية النسيج وتولى هو بيع بضاعته الجيدة كما نجد بالات القطن
السوري والقبرصي تصل إلى مصنع أبنائه، وتخرج منه البركان
الحديث لصناعة القطنية والشك والجبة. لكن ننبه الأبناء إلى أن انتشار
التوابل والكسب الكثير الذي تدره على أصحابها أجدى لهم من النسيج،
فأقبلوا على الاتجار في بالات القطن العربي وقفف الفلفل العربي، فلم
يمض زمن طويل حتى أثرى أولئك العمال وأصبحوا قوة خطيرة يحسب
لهم حساب في عالم المال وعرفوا باسم «فوجر». فعن طريق البهارات
والقطن والحريز وما يصنع منهما من أقمشة وضع مؤسسو أسرة
«فوجر فون دير ليلي»، كما سمي هذا الفرع الناجح من الأسرة نفسه،
الأساس لهذه الثورة الطائلة التي دخلوا عن طريقها التاريخ، فقد بلغوا
من السلطان والجاه أنهم كانوا يولون القياصرة والملوك ويمدون
البابوات بالأموال كما ساعدوا الفقراء والمعوزين والذين غلبهم الحياء
وهم في أشد الحاجة إلى المعونة، ويدين الإخوة «أولريش» و «مكس»
و «يورج» و «يعقوب فوجر» بثرائهم إلى زهرة الليلك التي انتسبوا
إليها وتبرعوا بالإنفاق على زواج ابن قيصر «هيسبورج» وهو
مكسيمليان بوريثة «بورجوند» وهي «ماري». وعن طريق هذا الزواج
تمكن الملك الفرنسي من الحصول على بلاد وزوج لابنه الذي لم يتجاوز
السابعة من عمره. وتدين هذه الأسرة لهذا الاسم أيضًا بما أوحى إليها
من ثقافة عربية، وحضارة عربية، وتقاليد عربية؛ وذلك لأنها اتخذت
منه شعارًا لها ورنغًا يميزها. وقد أعجب الصليبيون بهذه الفكرة
ونشروها عام 1150 في فرنسا وفي عام 1170 م في ألمانيا. فعن

الفرسان العرب نشأت العادة الجرمانية، وهي اتخاذ صور الحيوانات إشارات للقوات والحروب، ومن ثم استخدمها الأوربيون أوسمة شرف للفرسان، ومن ثم تطورت إلى رنوك مدنية لها فنونها الخاصة ولغتها التي تتميز بها. وكذلك الرنك الذي أهده القيصصر فريدريش الثالث ولد مكسيميليان لأسرة الفوجر اعترافا بفضلها وأيادها البيضاء، كان عبارة عن زهرة الليلك الزرقاء والذهبية. والليلك هي الزهرة المحبوبة عند العرب وبخاصة في شرق البحر الأبيض المتوسط، وقد انتقلت فيما بعد إلى الرنك الفرنسي حيث نشاهد زهرة الليلك الجميلة. وأخذت أوروبا عن العرب عارية أخرى هامة جدًا وهي التي اتخذتها القيصصرية الألمانية والملكية النمساوية المجرية والقيصصرية الروسية شعارًا لها، وأعني بذلك «النسرين». فهذه الشارة شرقية قديمة نجدها في الآثار السومارية والحيثية كما نجدها فيما بعد على النقود العربية. وفي أوائل القرن الثاني عشر الميلادي اتخذها سلاطين السلاجقة شعارًا لهم على رنوكهم، وبغته يظهر النسران في القرن الرابع عشر في الرنك الخاص بقيصصر ألمانيا.

وكان الشرق يذخر بالآيات الباهرة ثقافيًا وصناعيًا كل ما فيه يوحي لدعاة الإصلاح بإدخال الشيء الكثير إلى أوروبا رغبة في الأخذ بيدها وتقدمها. ففي القرن الثاني عشر مثلاً عاد نفر من الحجاج المسيحيين من زيارة قاموا بها لقبر الرسول «يعقوب» في «سنتياجو ده كومبستيللا» في أقصى شمال غربي أسبانيا. عاد هؤلاء الحجاج ومعهم أول ورقة إلى أوروبا جاءوا بها من الأندلس العربية، وذكر أولئك الحجاج أن العرب يستخدمون الورق للكتابة الجميلة وتدوين الكتب المقدسة ويدرس هناك كل كاتب الخط الجميل فهو الخط الوحيد الذي يستخدم للكتابة على الورق الجيد هذا الورق الذي كان يوجد بكثرة بحيث يسمح لاستخدامه في الأغراض التجارية كلف البضائع مثلاً. وحدث في ذلك الوقت أن

غزت أوروبا توابل ممتازة وروائح عطرية قوية وثياب أنيقة من القطيفة والحرير، وسرعان ما غمرت هذه البضائع أسواق الغرب وقلوب الغربيين؛ لأن مثلها قوي الرغبة في حياة الأبهة والترف ودفعها إلى الأمام بخطوات واسعة سبقت الإقبال على العلم والحرص على تحصيله. ولعل السر في هذا الانصراف عن الاهتمام بالعلم ندرة وسائل الكتابة منذ وقف الاتجار من قبل مع العرب. ففي عصر المارونجيين كان الكتبة في المحال التجارية والخبراء والأديرة يستخدمون ورق البردي. ففي مرسيليا كانت تفرغ السفن بدون انقطاع شحناتها من ورق البردي المصري، إلا أن تحريم الاتجار مع الشرق استنفذ جميع هذه الكميات فاضطر الناس إلى الاقتصاد في استخدام ما تحت أيديهم، وكثيراً ما كانوا يمحون ما على الورق القديم لإعادة استخدامه ثانية. واستتبع اختفاء الورق ندرة الكتاب الذين يجيدون الخط وظل الحال كذلك عدة قرون حتى أحضر بعض الحجاج من أسبانيا هذا النوع الجديد من ورق الكتابة والذي كان يستخدمه العرب في جميع مراسلاتهم التجارية وغيرها. وما كاد القوم في أوروبا يرون هذا الورق حتى تهافتوا على استيراده فسافرت وفود تجارية من «نورنبرج» و «رافينز برج» و «بازل» و «كونستنس» إلى برشلونة ومنها إلى بلنسية حيث تقوم في ضواحيها أكبر وأحسن مصانع للورق، وقد قال فيه الرحالة العربي الجغرافي الشهير بالإدريسي: إنه لا يوجد في العالم ورق يضارعه جودة. وفي عام 1389 نجد تاجر التوابل المشهور «أولمان شترومر» أنشط أبناء الأسرة التجارية المعروفة بهذا الاسم في «نورنبرج» والذي كان يتولى تجارة الزعفران ونقله إلى أسبانيا يقرر إدخال صناعة الورق إلى وطنه فأسس في ذلك العام بالقرب من «نورنبرج» أول مصنع للورق في ألمانيا مستعيناً ببعض العمال من إيطاليا التي كانت قد سبقت

وأسست أول مصنع ورق في أوربا عام 1340 م. لكن ألم تدون قبل قرنين ونصف قرن أول وثيقة على الورق في دولة مسيحية أوربية وكان ذلك عام 1090؟ أو أن المؤرخ لا يعتبر جزيرة صقلية التي انتزعت حديثاً من العرب وسكانها المسلمين، وآلت إلى النورمان جزءاً من أوربا؟ ففي عام 1115 تأكد تجديد أحقية روجر الثاني في عرش صقلية بناء على وثيقة من والده الجراف الأكبر روجر عام 1090 بحجة أن هذه الوثيقة مدونة على ورق بالرغم أنه من هذا النوع الرقيق المصنوع من القطن في القيروان والذي كان من الصعب الاحتفاظ به في حالة جيدة، وجرت العادة أن تدون الوثائق على الورق القوي.

والسبب في هذه الصعوبة التي اعترضت أحقية روجر الثاني في العرش تمزيق هذه الوثيقة وتشويهها مما أشكل على القارئ قراءتها مع وجود بعض التغيير فيها؛ لذلك ظل الملك روجر الثاني طيلة مدة حكمه مشغولاً بفحص وثائق آبائه ووثائقه وإعادة كتابتها. ومن بين هذه الوثائق التي أعاد كتابتها تلك التي دونت عام 1101، وفيها تهب والدته الأميرة «أديلاسيا» دير القديس «فيليبو» مصنعة للورق شيده العرب، والدافع إلى تغييرها عام 1002 هو كتابتها على الورق. والشيء الجدير بالذكر هنا أن صناعة طواحين (مصانع) الورق كانت من اختصاص العرب وعنهم أخذها الغرب كما أخذت أوربا كذلك طواحين الماء والهواء وغيرها. وصناعة الورق لم تظهر إلى الوجود بين عشية وضحاها فالورق قبل أن تعرفه أوربا قطع طريقاً طويلاً محفوفاً بالمتاعب والمشاق. ولعل من أهم الدوافع التي دعت إلى اختراعه الحاجة الملحة إلى مادة للكتابة في متناول مختلف طبقات الشعب ولا سيما أن أسعار الحرير الصيني الذي ظل زمناً طويلاً مستخدماً للكتابة كانت خيالية مما اضطر المفكرين إلى إيجاد حل لهذه المشكلة، ففي عام 1010 م وفق

«تساي لون» مدير المصانع الحربية القيصرية إلى حل هذا اللغز، ولعل سرّجًا من اللباد أو شعر الماعز أو البقر والذي تخصص فيه الأتراك الرحل الشرقيون، هو الذي أوحى إلى «تساي لون» فكرته الجديدة وشرع تَوًا في تنفيذها فاستغل قشور الشجر والحلفاء والخرق وشباك الصيادين القديمة فقطعه إربًا. فكان له هذا الورق الذي استغنى به عن الحرير الغالي الثمن. وحدث أن نزل العرب عام 751 م عددا كبيرا من أسرى الحرب الصينيين في مدينة سمرقند وخيروا الأسير بين العتق والرق وجعلوا ثمن العتق مباشرة حرفة من الحرف فاتضح أن عددا كبيرا من أولئك الأسرى الصينيين يجيد صناعة الورق فأعتقهم المسلمون وشيدوا لهم المصانع الضرورية فنشروا صناعة الورق في العالم الإسلامي، ومع مضي الزمن تقدمت هذه الصناعة باستخدام الكتان والقطن في صناعة الورق الأبيض الناعم الجميل الذي وجد أسواقًا رائجة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وبخاصة في عاصمة الدولة العباسية بغداد، ومن ثم اقتبست أوروبا هذه الصناعة، كما اقتبست غيرها من العرب. فالورق صفحة من صفحات الفخار للعروبة والعربية.

وأدرك الخليفة المنصور (754 - 775 م) أهمية هذه الورق وكثرة الحاجة إليه في مختلف الدواوين والمعاهد العلمية، وتهافت عليه العلماء والنساخ والتجار وغيرهم مما اضطر الخليفة إلى التوسع في صناعته خدمة للاقتصاد واستغناء عن البردي المصري، كما أصدر مرسومًا يحرم استخدام البردي في الأعمال الحكومية وطالب الموظفين وغيرهم باستخدام الورق الرخيص فقط. ولما تولى هارون الرشيد بلغ تشجيع الورق وصناعته حتى إن الوزير البرمكي يحيى بن خالد أقام عام 794 م أول مصنع لصناعة الورق في بغداد، وهكذا نجد المصانع في دمشق وطرابلس الشام وفلسطين ومصر وتونس ومراكش وأشبانيا. وعن

صقلية وأسبانيا أخذت أوربا صناعة الورق الذي هو أهم ركن من أركان الثقافة الإنسانية. فالورق يختم عصرًا من عصور تاريخ الحضارة كما أن انتشاره قضى على عصر احتكار العلم والمعرفة وبعد أن كانت الحكمة ملكًا لطائفة بعينها أصبحت اليوم للجميع وهي ترحب بكل من يخطبها. الورق هو العمود الفقري للمعرفة الإنسانية وهو أهم الوسائل لنشرها في مختلف الطبقات والأصقاع للمعرفة الإنسانية وهو من أهم الوسائل لنشرها في مختلف الطبقات والأصقاع بالرغم من أننا نعيش في عصر الراديو والكهرباء. واستتبع ظهور الورق اختراع الطباعة لا في أوربا فقط بل حتى عند الصينيين والعرب. ففي الغرب نجد أمثال «كوستر» الهولندي و «جوتنبرج» الألماني وقد ساهم كلاهما في هذا الحدث العظيم مساهمة كبرى. والآن نتساءل: ما هي الوسائل التي استخدمها وزير الخليفة عبد الرحمن الثالث لإعداد أكثر من نسخة من الوثائق الرسمية التي كانت توزع على الدواوين الحكومية في الأندلس؟ هذا ما نجهله، لكن المعروف الثابت أن العرب أوجدوا بعض وسائل الطباعة التي استخدموها في طباعة أوراق النقود وأوراق اللعب، وقد انتقلت أوراق اللعب هذه مع غيرها مثل الشطرنج والضامة. والتي ما زالت تحتفظ باسمها حتى اليوم في أوربا من أسبانيا إلى الغرب.

* * *

وفي أوربا فكرة سائدة تقول: إن مخترع البوصلة هو «فلافيو جيوبا» وهو أحد أبناء «أمالقي». والواقع أن فلافيو هذا ليس هو مخترعها وليس هو أول من جاء أوربا بها فأصحاب الفضل في إيجادها هم العرب. وحقيقة اتجاه إبرة البوصلة المغنطيسية إلى الشمال قد عرفها الصينيون في أواخر القرن الأول قبل الميلاد، ويقرر الصينيون فيما

جاءنا من وثائق أن استخدامهم للبوصلة في الملاحة أخذوه عن أجنب، وكان ذلك في القرن الحادي عشر الميلادي وهو العصر الذهبي للأسطول العربي التجاري وأسفاره وبخاصة المحيط الهندي ودولة الصين فيتبادر إلى أذهاننا أن هؤلاء الأجنب الذين أخذ الصينيون عنهم استخدام البوصلة في الملاحة كانوا العرب ولا سيما أن بعض المصادر العربية التي ترجع إلى تلك العصور تؤكد استخدام العرب للبوصلة في هذا الغرض، وعن العرب أخذ الصليبي «بطرس فون ماريكورت» وأهداها إلى أوربا. وكان «ماريكورت» مدرسًا لروجر بيكون ومن توجه «ماريكورت» إلى فرنسا حيث كان قد ألم بالمغناطيسية والبوصلة وأدخلهما إلى أوربا وكان ذلك عام 1269، وذلك عن طريق رسالته حول المغناطيسية. وبعد ذلك بمدة تبلغ نحو ثلاث وثلاثين سنة أي حوالي عام 1302 م بدأ هذا الإيطالي من «أمالقي» يهتم بالبوصلة. والشيء الجدير بالذكر أن «أمالقي» هي أول ثغر يجري بجوار البندقية، وكانت تقوم بدور هام في تجارتها مع أصدقائها العرب، كما كان لهذا لثغر الإيطالي جاليات كبيرة في مختلف الموانئ العربية شرقًا وغربًا، وبالرغم من أن عصر «أمالقي» الذهبي كان قد ولى وانتهى إلا أن سكانها حتى عصر فريدرش الثاني كانوا أذكى وأحسن تجار وملاحين في جنوب إيطاليا، ومن أولئك الأبناء «فلافيو جيوييا» الذي نجح في الحصول على هذه المعلومات من العرب ومن الشرق. لكن الأوربيين يحرصون على نسبة اختراع البوصلة إلى هذا الإيطالي، ولما أعجزهم الدليل وثبت للعيان أنه جاء بالبوصلة من العرب قال ذلك النفر المتعصب من الأوربيين إن «فلافيو» هذا أدخل على هذه البوصلة بعض التعديلات، وبعد ذلك قدمها لأوربا لاستخدامها في الملاحة ولا يستغنى عنها في البحار العالية والشواطئ الجديدة.

واليوم نقف حيارى لا نحير جواباً أمام هذه الصواريخ التي تنطلق في الفضاء وتجوب أرجاء الكون وتعود من حيث بدأت، فهل فكر أحد وقد أخذنا بهول وعظمة ما نشاهد فيمن يجب أن نقدم له الشكر لهذا الاختراع؟ ثم أليس من المحتمل أن الأوربيين ليسوا هم أول من فكر في اختراعه؟ لقد ثبت أن الفكرة الخاصة بإطلاق قنابل عن طريق قوة متفجرة من البارود هي فكرة صينية، وقد نفذت عام 1233 م في معركة نشبت حول «بيين كيننج» بين الجيشين الصيني والمغولي، وكادت تدور الدائرة على الصينيين لولا أن فاجأوا العدو بهذا الاختراع وهو عبارة عن سهام تطلق عن طريق مادة محترقة تحتوي على ملح البارود. وحوالي عام 1270 م استخدم المغول نفس السلاح مستعينين بقوة التفجير الناتجة من ملح البارود، وللمرة الأولى في تاريخ الحروب نجد هذه الصواريخ تلعب دوراً هاماً في كسب المعارك أو فك الحصار المضروب كما وقع فعلاً عند القضاء على الحصار المضروب حول مدينة «فان تشينج». وبفضل هذه الصواريخ انتصر المغولي «كوبلاي خان» على الصينيين وقضى على مقاومتهم. لكن هل انتصر المغول على الصينيين دون تلقي مساعدة أجنبية؟ وإن كان للمغول حليف فمن هو هذا الحليف الذي استغاث به «كوبلاي خان» وأجابه إلى أرجائه وأعانه على القضاء على الصينيين؟ يحدثنا المؤرخ رشيد الدين حديقاً يثير دهشتنا فهو يذكر في سياق كلامه عن السلطان العربي أنه علم من حاشيته أن السلطان استجاب إلى طلب «كوبلاي خان» وأمر أن يرسل إليه المهندس الذي حضر من بعلبك ودمشق، وأبناء هذا المهندس وهم أبو بكر وإبراهيم ومحمد بنوا بمساعدة الفنيين الذين رافقوهم سبع آلات كبيرة وتوجهوا بها إلى المدينة المحاصرة، فهل سبق أن ساهم

المهندسون العرب في فك الحصار المضروب حول مدينة «بيين كينج» عام 1232 أيضاً؟ وهل هذا السلاح العجيب الذي استخدم هو بعينه الذي استخدمه القائد المصري فخر الدين، صديق فريدريش الثاني، عند ضرب جيش الإفرنج وملكهم لويس المقدس عام 1249 حيث دارت رحى المعركة الصليبية للحملة الخامسة، واستخدم فيها القائد المصري فخر الدين نيراناً عربية جديدة؟ وقد أثار هذا السلاح الجديد الخوف والفرع في صفوف الصليبيين حتى إن المؤرخين الأوروبيين يذكرون أن كل مرة كان يطلق فيها الصاروخ المصري يشعر ملك فرنسا بخيبة عظيمة ويصرخ يا حبيبي يا سيد يا يسوع المسيح نجني واحمني ورجالي! ورب ضارة نافعة فقد تكتلت أوروبا ضد العرب المسلمين وشن المسيحيون حرباً لا هوادة فيها؛ مما اضطر سلاطين الإسلام إلى تجنيد العلماء العرب في القرن الثاني عشر الميلادي وبخاصة أولئك الذين يهتمون بالدراسات الكيماوية وأرسلوهم إلى مصانع المفرقات حيث نجحوا في إيجاد مادة مفرقة كاوية حارقة. وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر استكملوا خلق مادة مفرقة دافعة للصواريخ واستخدموها في حروب المسلمين ضد الصليبيين. ففي كتاب الحرب لحسن الرماح وبعض المؤلفات الأخرى الخاصة بالحروب في ذلك العصر نجد ذكر كثير من المواد المفرقة والأسلحة النارية وهي: بيض يندفع تلقائياً ويحرق، وهي تطير نافثة اللهب، وهي تحدث صوتاً مثل الرعد ... وهكذا، فالعرب هم أول من صنع لغماً تقذفه الصواريخ. والآن استطعنا أن نتوصل عن طريق بعض التراجم اللاتينية على معلومات دقيقة حول هذا الخليط العربي العجيب الذي يحدث رعداً وبرقاً، وأن هذا الخليط قد وصل إلى بعض علماء أوروبا أمثال «روجر بيكون» و «ألبرتوس مجنوس» والجراف الألماني الواسع الاطلاع «فون

بولشتدت»، وقد يكون الأخير هو الذي اتصل أثناء تجواله بذلك الذي يدعي أنه مخترع البارود ألا هو الفرنسي سكاني «برتولد شفرز» في فريبورج عن هذا الاختراع العربي. ثم حدث أن انتقلت النظرية إلى التجارب العملية التي هزت كيان العالم؛ فالعرب في الأندلس هم أول من استخدم في أوربا. فالعرب الأندلسيون هم صانعو القنابل من البارود في أوربا وقد استخدموها فعلا في كثير من حروبهم. فالتاريخ يحدثنا أن المدفعية العربية قذفت بقنابلها في الأعوام 1325 و 1331 و 1342 م مدناً مثل: «بازا» و «أليكتنا» و «الجيكيراس» فأحدثت هذه القنابل ذعراً شديداً في صفوف الأعداء حتى إنهم اعتقدوا أن الساعة قد اقتربت وأذنت الدنيا بزوال. وفي عام 1346 دارت معركة طاحنة هي المعروفة باسم «كريسي» فأصلت فوهة المدفعية العربية، التي أطلق عليها الأوربيون وقتذاك فوهة الشيطان، العدو نيراناً حامية واستولى الرعب على الإنجليز الذين كانوا في «الجزيرة» كما نكل العرب بالفرسان الفرنسيين تنكيلاً عظيماً وأحرزوا عليهم نصراً مبيئاً. والنتيجة المحتومة لهذا السلاح الجديد أنه نقل فنون الحرب من مرحلة إلى أخرى إذ كان هو نقطة التحول في الذخيرة والعناد، وما زال منذ الحرب العالمية الثانية يطلع علينا بالعجائب. ثم دارت عجلة الزمن واضطر العرب أن يتركوا مكانهم لغيرهم سواء في الثقافة أو التجارة إلا أنهم أبوا أن يتنازلوا عن مكانتهم إلا بعد أن يتركوا للعالم آثاراً ناطقة بمجدهم وعظمتهم وفضلهم على العالم. فمن هذه الآثار الاصطلاحات الخاصة بالملاحه والتي ربطت بين تجارة البلاد المطلية على البحر الأبيض المتوسط وبين بقين الدول الأوربية فنحن نجد مثلاً أسماء أنواع كثيرة من السفن مثل: «داو» و «دنجي» و «قربلة» و «فلوكة» «الشراع» و «الميزان» و «الحبل» و «دار الصناعة» و «أمير البحر» و «قلفاط»

و «قلفاطي»، وهو الذي يساعد نجار السفن بمطرقة القلغطية التي يصلح بها الأجزاء التي أصابها عطب في السفينة حتى لا تتعرض لعوارية.

ومن آثار العرب أيضاً شكل الجندول البندقي والجندول هو ذكرى حب البندقية للشرق العربي. ومن مخلفات العرب أيضاً الحمام الزاجل فهو: أسرع من البرق وأنجز من سحابة؛ فقد كان يستخدمه العرب في خدمة البريد ونقله وبخاصة الأخبار السرية، ومن ثم اقتبس الصليبيون هذا النظام وأدخلوه أوربا، وما زال الخطاب في منقار الحمامة إلى يومنا هذا رمزاً للحب. كما تزين أوربا كعكة الأطفال برسم الحمامة عليها. ومن آثار الشرق على الغرب أيضاً الحقائق والعناية بها فالحقائق الأوربية تدين لا للعرب فقط بل للشرق قاصيه ودانيه أيضاً، وذلك منذ عدة قرون فقد أخذ الأوربيون النباتات المفيدة للطعام مثل الخيار والقرع والبطيخ والشمام والخرشوف والسبانخ والكبر والليمون والبرتقال والخوخ والتسفتشجين والأرز والزعفران وقصب السكر. وأخذت أوربا أيضاً نباتات الزينة أزهارها مثل الكستناء والبجلة وهي هذه الشجيرة ذات الأزهار البيضاء أو الحمراء والياسمين والورد وخيري البر والكاميليا والأسليح والفورسيسيا والسوسن، وعلاوة على هذه النباتات وتلك الزهور أخذت أوربا عن العرب طرق الري حيث كان العرب ماهرين في هذا الفن منذ أقدم العصور. وخلف العرب وراءهم أيضاً أثراً حتى في الكنائس مثل استخدام السبح في الصلوات، فقد جاءت السبحة من الهند واقتبسها الإسلام، ومن ثم أهداها إلى الكنيسة الرومانية وأجهزة الطقوس الدينية والمباخر والبخور والمر، كما نجد بعض الأقمشة العربية الحريرية والموشاة بالخیوط الذهبية والفضية تستر المذابح ورجال الكهنوت فتترك بجمالها أثراً بعيداً في الطقوس الدينية بالكنيسة الكاثوليكية، كذلك البلدشين العربي الذي نشاهده حتى اليوم

يزين المذابح ويشهد لبغداد بالمكانة التي بلغتھا في العصور الوسطى. ولا أدل على تغلغل الأثر العربي في أوربا من النظر إلى الملابس التي يرتديها الأوروبيون حتى يومنا هذا سواء كانت هذه الملابس شعبية قديمة متوارثة عن العصور الوسطى أو حديثة تشكلها الحضارة وتوحي بها الأذواق. فهذه الملابس مصنوعة من أقمشة عربية الخامات عربية النسيج عربية الذوق عربية الاسم عربية الوطن، فھا هي «المستقة» تناسب كرنادين في قطنيته الجميلة والبلوزة التي ترتديها [ريا] تحت شكة الكسوة الأنيقة.

وفي البيت يرتدي الوالد جبة، وجبته الإنجليزية القديمة عندما يريد غسل سيارته، ثم الجبة الصغيرة التي يرتديها الطفل، وتلك التي ترتديها السيدة الأنيقة، وهي قطعة من الملابس الداخلية التي أعارتنا إياها المدنية الفرنسية. وفضل العرب على المرأة وزينتها وأناقته يتجلى لنا أيضا في غير ملابسها، يتجلى في المساحيق والعطور، فشهرة الشرق في البخور والعطور وإعدادها قديمة جدًا. ولم تقف وسائل الزينة والتبرج على النساء بل تعدتها إلى الرجال، فالرجل المسلم قد اقتدى برسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويتزين بإطلاق اللحية، ثم اتصلت أوربا بالمسلمين في الحروب الصليبية فاقتبسها الرجال وأصبحت حتى اليوم من العادات المستحبة عند الغربيين. وهناك عادة هامة بالنسبة للعربي احتفظ بها الأوروبي ألا وهي عادة الاستحمام وخلع الملابس. فالجرمان المخشوشون اعتادوا كما يحدثنا (تتسيستوس) الاستحمام صباحا وغالبا بالماء الساخن عقب قيامهم من النوم، وكان الجرمانى يعتبر الاستحمام رياضة يومية، ويذكر (قيصر) أن الجرمانى كان يستحم بالرغم من قسوة البرد في الأنهار، كما كان الجنسان يستحمان معا دون خجل. ولما زار الطرطوشي بلاد الفرنج لاحظ شيئا آخر، فكان وهو المسلم الذي

يتوضاً قبل كل فرض من فروض الصلاة الخمسة يستنكر حال القذارة التي يحياها الشعب؛ لذلك صور هذه الحالة التي شاهدها بقوله إنه لم يشاهد في حياته أقدر منهم لا يغتسلون إلا مرة أو مرتين كل عام وبالماء البارد. أما ملابسهم فلا يغسلونها بعد أن لبسوها لكيلا تتمزق، والسر في هذا التحول العظيم في عادات الشعب الجرمانى هذه التعاليم الجديدة التي تقول إن تجريد الجسد من الملابس مدعاة لإثارة الغرائز الجنسية والفوضى الخلقية؛ لذلك عدلوا عن الاستحمام وخلع الملابس ولجأوا إلى غرف صغيرة لتغيير ملابسهم، فاتهمتهم التعاليم الجديدة بالفسق والدعارة، بينما القذارة مظهر من مظاهر العفاف.

ثم اندلعت نيران الحروب الصليبية وأقبل الصليبيون على الشرق فشاهدوا الحمامات في كل مكان، فنحن نعلم مثلاً أن بغداد وحدها كان فيها في القرن العاشر الميلادي آلاف الحمامات الساخنة والحمامون والمذكون والحلاقون للرجال والنساء للعناية بالجسد لا أسبوعياً فقد بل يومياً أيضاً، وقد لمس الصليبيون هذه الحياة العربية وأدركوا أثر الحمامات بما فيها من وسائل الراحة والنظافة والزينة فهموا بها كما هام أولئك الغربيون الذين شاهدها في إسبانيا وصقلية فألحدوا جميعهم في إدخالها إلى أوروبا بالرغم من المعارضات الشديدة وصرخات الاستنكار التي دوت في كل مكان. وهكذا أخذت قلاع الدفاع التي شيدها أوروبا المسيحية في وجه العرب والإسلام والحضارة العربية تستسلم الواحدة بعد الأخرى، وذلك بفضل القنطرة التجارية التي أقامتها الجمهوريات الإيطالية مع العرب وبفضل التجار والمسافرين والصليبيين، واندفع تيار الحضارة العربية يكتسح ما أمامه من عوائق فافقت أوروبا من نعاسها وأدركت أثر الجهالة التي تغط فيها ونهضت بفضل العرب والعروبة والحضارة العربية.

الكتاب الثاني الكتابة العالمية للأعداد

ميراث هندي

لماذا يتعثر في ألمانيا وبصفة خاصة كل تلميذ مبتدئ عند محاولاته الحسابية الأولى، وبخاصة عندما يتدرج من الأحاد إلى العشرات؟ فكتابة العدد (23) على السبورة تتطلب من التلميذ أن يقفز خانة ليكتب في التي تليها العدد (3) ومن ثم يعود إلى الخانة التي تركها ليكتب العدد (2)، ولو نسي في سرعة الكتابة أن يترك خانة ويكتب الأعداد حسب ترتيبها وسمعتها ونطقها لخرج من (23) إلى (32) ومما يزيد في تعريض التلميذ للخطأ كتابة المئات، فلو اعتاد أن يكتب (85) من الخلف إلى الأمام أعني من اليمين إلى اليسار مثل (85) فإن التلميذ عند كتابة (123) يبدأ أولاً بالعدد الدال على المئات (1) ثم بغئة (3) ثم يعود مرة أخرى إلى خانة العشرات حيث يكتب (2) ومن ثم تجده وقد استولت عليه الحيرة عندما يجد شعوباً أخرى لا تقفز هذه الخانات؛ فالفرنسي يكتب العدد منطقياً ومعقولاً فمن المئات إلى العشرات ثم الأحاد فهو يقول للتعبير عن العدد (23) [فين تروا] [والإنجليزي] تونتي ثري [والروسي (دودزتي تري) أما الألماني فيقول دراي أوند زوانسيج ولا يقول (زوانسيج دراي). وهنا يتفق الألماني مع العربي الذي يكتب من اليمين إلى اليسار ويلتزم اليمينية مع الأعداد من (1 - 99) وعن العرب أخذت سائر الشعوب المثقفة لا الألمان فقط هذه الأعداد وكان (كارل) الأكبر (شارلمان) يقول (زينزوج فنفسيج انتي تربو) = (مائة وخمسون

وثلاثة)، بينما ظل الأمر زمناً طويلاً اختلط فيه ترتيب العشرات والآحاد. فألمانية المرتفعات المتوسطة فضلت قديماً استخدام الآحاد- عند إدخال استخدام الأعداد العربية، ومن ثم مع مرور الزمن أخذ الألمان يعتادون استخدام التعبيرات العددية المطابقة للاستعمال العربي. واستخدام الأعداد العربية ليس مقصوراً على الألمان فقط بل نجدها عند جميع الشعوب المثقفة ولولاها ما استطاع العالم إصدار التذاكر أو تدوين أثمان الأشياء ولا طبع دليل تليفون أو تقرير سوق الأوراق المالية، ولولا هذه الأعداد العربية ما قام هذا البناء الشامخ الخاص بالرياضيات والطبيعات والفلك أو الطائرات أو السفن عابرات المحيطات كذلك الطبيعة النووية وغيرها. وتقديرًا لفضل العرب على الإنسانية خلد العالم اسمهم بتسمية هذه الأعداد: الأعداد العربية. إلا أن العرب ما زالوا يعترفون إلى اليوم بأن هذه الأعداد هندية الأصل، فهي تعرف عندهم باسم الأعداد الهندية. والآن سنستعرض قصة الأعداد العربية مبتدئين بأصلها الهندي حتى غزوها أوربا فسائر أنحاء العالم مبينين خط سيرها والعقبات التي اعترضتها وانتصارها؛ لأنه لا يجول بخاطرنا اليوم ونحن نكتبها ونفكر فيها كما لو أننا نفكر في لغتنا القومية ونجهل تمامًا المراحل التي مرت بها هذه الأعداد والمجهودات التي بذلها الكثيرون في سبيل تمكينها من النصر الذي أحرزته. اختلفت الشعوب ذات الحضارات القديمة في حوض البحر الأبيض المتوسط فيما بينها في التعبير عن العدد؛ فقدماء المصريين استخدموا للإشارة إلى الأعداد من (1 - 3) خطوطاً عمودية، بينما الخط الأفقي يعبر عن العدد (4)؛ لذلك كان الخطان الأفقيان في مصر القديمة يعبران عن العدد (8)، وقد وصلتنا مجموعات من خطوط أفقية وعمودية ونقط تربط بينها إشارات خاصة هيراطيقية للتعبير عن الأعداد (10) و (100) و (1000)

فالعديد في مصر القديمة نشأ عن الهيروغليفية. أما البابليون فقد استخدموا للتعبير عن العدد ثلاث إشارات، وهي عبارة عن أسافين أفقية وعمودية وزوايا وكانت تعبر عن مختلف الأعداد بواسطة ترتيبها ووضعها. أما اليونان فقد استخدموا منذ عصر صولون حتى القرن السابق للميلاد أوائل حروف أسماء الأعداد، ثم كانوا يرتبونها ترتيباً خاصاً صعباً ويكونون من الأحاد العشرات ثم المئات، ومن هنا نطق العدد يختلف اختلافاً بيئياً عن كتابته. وحوالي عام 500 ق. م طرأ على العدد اليوناني نظام جديد استخدم في أول الأمر في الرياضيات كما استخدم حروف الأبجدية الأربعة والعشرين بعد أن أضاف إليها ثلاث إشارات سامية الأصل. والواقع أن اليونان قد أخذوا الأبجدية وترتيبها واستخدام حروفها للدلالة على الأعداد عن الساميين. ونحنا نحو اليونان الرومان فقد استعانوا بحروف الأبجدية للتعبير عن العدد مع ملاحظة أن التقارب بين رسم الحرف ودلالته العددية جاء عفواً، فالروماني استخدم أصلاً إشارات تشير إلى أغصان وكانت تكون خطوطاً عمودية وترتب سوية بحيث أنه إذا أراد أن يعبر عن العدد ثمانية جاء بثمانية أغصان ووضعها إلى جوار بعضها وإذا أراد التعبير عن العدد عشرة جاء بعشرة أغصان وثقبتها بطريقة صليبية ((X ونصفها (7) أو (8) = (5)). وهنا تتفق الأعداد الرومانية مع الإيتروسكية والأومبرية مع ملاحظة أن الرومانيين استخدموا النصف الأعلى من الإشارة الدالة على العشرة أعني (7) للدلالة على العدد (5) بخلاف الإيتروسكيين الذين اختاروا الجزء الأسفل (8) للتعبير عن (5) وهكذا عن طريق التصليب والتدوير والتنصيف تكونت بقية الأعداد حتى الألف. والشيء الجدير بالملاحظة أن هذه الإشارات الإيطالية -مع بعض الفوارق الطفيفة- ترجع إلى عصر أقدم من معرفة الإيطاليين بالأبجدية، ومع مرور الزمن

نجد الإشارات الدالة على الأغصان تأخذ شكل الحروف مثلاً (1) = (1) و (7) - (5) و (10) - (X) و (50) = (L) و (100) = (C) و (500) = (D) و (1000) = (M) أما الشبه القوي بين الإشارتين الدالتين على العددين (100) و (1000) وبين الحرف الأول من لفظ (سنتوم) أي مائة والحرف الأول من كلمة (ميل) أي ألف فقد وقع بمحض الصدفة، وهذا الشبه هو الذي سهل الانتقال إلى استخدام الأبجدية التي شاع استعمالها في العصور الوسطى. والآن نتساءل ما الفرق بين كتابة العدد وتسميته والنطق به؟ إن كل عدد بل حتى الواحد يتكون من أجزاء كما تشتمل لعبة الحساب على وحدات عددية مجتمعة وتعد فرادى كما يعد الإنسان نقوداً متساوية القيمة، وبينما يقول الروماني: (كوادر ينجى أو كتوجينتا سبتم أي: أربع مائة وثمانين وسبعة إذ به يكتب «مائة مائة مائة.. مائة، خمسين، عشرة عشرة عشرة خمسة واحد. واحد».) فالإشارات الرومانية الدالة عليها هي (CXXXVli). فلغة العدد واضحة منتظمة نظيفة ومتصلة من حيث النطق. أما كتابتها فمضطربة وإجراء العملية الحسابية البسيطة بها يتطلب جهداً كبيراً لصعوبتها. فلهذه الكتابة العددية حدودها لأنها لا تملك من الإشارات ما يمكنها من التعبير عن كل القيم الحسابية. فالزائر للفوروم الروماني في روما يشاهد على الأعمدة السفن القرطاجنية التي استولى عليها الرومان في أول معركة بحرية انتصروا فيها عند (ميليه) على القرطاجنيين عام 260 ق. م، وللتعبير عن العدد (2200000) استخدم الكاتب ما لا يقل عن (2200000) إشارة وقد حفرت كل واحدة منها إلى جانب الأخرى، وهذا العدد هو أقصى ما عرفه الرومان والحساب الروماني والإشارات الرومانية. وفي نصف الكرة الغربي كان الهنود هم الشعب الوحيد الذي ارتقى عن مستوى استخدام الطرق البدائية الحسابية العددية فلا تصفيف

ولا ربط بين أجزاء متفرقة، فقد قسموا كل وحدة من وحدات الأحاد التسع كما تفعل ذلك اللغة أيضاً، وأوجدوا لكل جزء من العدد الإشارة الخاصة الدالة عليه، وبذلك يكون الهنود قد توصلوا إلى اختراع من أهم الاختراعات التي توصلت إليها الإنسانية. فهذه الأحاد الثابتة غير المتغيرة اكتسبت داخل حدود العدد قيمتها كأحاد وعشرات ومئات وآلاف وهلم جرا؛ لذلك أصبح ميسراً للهنود كتابة أي عدد مهما عظمت قيمته. أما الصينيون فبالرغم من أنهم كانوا يستخدمون كذلك نظام الخانات أعني الأحاد، العشرات، المئات والآلاف و... إلا أنهم كانوا يكتبون إلى جانب العدد الخانة التي يدل عليها مثلاً العدد (3952) كانوا يكتبونه هكذا (2 أحاد 5 عشرات 9 مئات 3 آلاف). كذلك نجد الرومانيين يكتبون الأعداد حسب خاناتها أعني (1) = (1) و (10) = X و (C) = (100) و (1000) = M ثم نجد أنصافها (7) = (5) و (L) = 50 و ((500) = D، وهي تلتزم ترتيب العملة أعني الترتيب التنازلي فالعدد (3952) يكتبه الروماني هكذا: MMMDCCCCLII. فمن هذا العرض يتبين لنا أن الصيني كانت يكتب إلى جوار العدد قيمته العددية أي أنه من الأحاد أو العشرات أو المئات كما رأينا سابقاً، وقد استخدمت هذه الطريقة أوربا قبل أن تتمكن من الأعداد الهندية إذ نجد الهندي بخلاف الصيني والروماني يكتفي بالخانات فقط وهي تنطق بالقيمة العددية، وقد شارك الهنود في هذه الطريقة شعب «مايا». وهذا العمل الجبار لم ينهض به فرد بعينه لأن بلوغ هذه المرحلة يتطلب ولا شك تطوراً خطيراً يقطعه الشعب تطوراً في الرياضيات حتى يصل بها إلى هذه المنزلة العالمية، ولا شك أن هذه الإمكانيات قد توافرت للشعب الهندي بعد أن أتت عليه مئات السنين، وليس معنى هذا أن الهند لم تمر بالمراحل الأولى مراحل الاستعانة بالعصى وجمعها، ومن ثم أخذت

حوالي عام 300 ق. م. تحول هذه الإشارات إلى أعداد وإن ظلت زمنا طويلا ملتزمة نوعًا بعينه من كتابة الخانات شأن الهند في ذلك شأن الصين. وحوالي القرن السادس الميلادي احتفظت الهند فقد بالأعداد الدالة على 1 - 9، كما أوجدت نظام الخانات. وتحدثنا المصادر التي بأيدينا أن هذه الأعداد الهندية قد شقت طريقها خارج حدود وطنها، ففي عام 662 م نجد الراهب السرياني «سيفيرون سيفوخت» الذي كان رئيسا لأحد الأديرة وناظرًا على مدرسة عالية على الفرات يذكر في صدد الحديث عن الأعداد الهندية: أن أهم شيء في الحساب الهندي والذي يميزه على ما عده في العالم الإشارات التسع: وهذا هو أول مدح قيل في الهند؛ فبواسطة هذه الإشارات الجديدة استطاع «سيفيروس» أن يؤدي عملياته الحسابية بطريقة جديدة، وهي استخدام صفوف من الإشارات تعبر عن أعداد لا نهاية لها إلا أنه كانت تنقصها إشارة خاصة للتعبير عن عدد بعينه فهذه الإشارات تدل على أعداد خاصة فقط؛ فمثلا العدد (3952) نجد فيه العدد (2) يعبر عن (اثنين) بينما العدد (5) يعبر عن (خمسين) والعدد (9) هو (تسعمائة) والعدد (3) يساوي (ثلاثة آلاف)، ولكن عند كتابة العدد (أربعمائة وثمانية) يجب أن توجد إشارة تبين خانة العشرات حتى لا يختلط العدد بالعدد (48). وهنا أظهر الهنود، لسد هذه الخانة أو الإشارة إليها، عبقرية جبارة أثبتت كمال الأعداد الهندية. لقد أوجد الهندي ما يسمى بالدائرة أو النقطة والتي تعرف في الهندية باسم «سونيا» أو «سونيا بندا» أي الفراغ، كما عبروا عن هذه الإشارة في الهندية أيضًا بكلمة «كها» ومعناها الثقب. فهذه الدائرة (5) تدل أصلا على النقص في نظام الخانات في الحساب الهندي، ثم بعد ذلك استخدمها الهنود في حساباتهم كعدد مستقل، لكن الراهب السرياني «سيفيروس»، ويعرف الدائرة في هذا الاستعمال، ولا نعلم

كيف استخدم هذا السرياني العدد الهندي بدون مساعدة الدارة. وأول مرة شوهدت هذه الدارة في الكتابات الهندية كان عام 400 م، وقد ذكر الفلكي الهندي «براهما جوبتا» والذي ولد عام 598 م في رسالته المشهورة «سدهنتا» والتي وضعها وهو ابن ثلاثين عامًا، وقد عالج فيها النظام الفلكي فتحدث فيما تحدث عنه عن بعض قواعد الحساب والإشارات الخاصة بالأعداد التسعة، ثم ذكر الصفر كعدد خاص. وفي عام 773 م وفد على الخليفة المنصور (754 - 775 م) في بغداد فلكي هندي آخر يدعى «كنكاه». ثم نجد الفلكي العربي المشهور بابن الأديمي يضع جدولاً يُعرف باسم «عقد اللآلئ»، وقد خدم شعبه خدمة جليلة. وقد ذكر أنه في عام 156 هـ حضر إلى المنصور رجل من الهند متضلع في نوع الحساب الذي كان سائدًا في الهند وقتذاك ويعرف باسم «سند هند»، وهو يتصل بحركات النجوم ومأخوذ عن كتاب «كارداجاز» الذي يحمل اسم الملك «فيجار» فأمر الخليفة المنصور بترجمة هذا الكتاب إلى العربية، واعتمادًا عليه يجب أن يؤلف آخر يعرف العرب حركات الكواكب، وأسند هذه المهمة إلى العالم محمد بن إبراهيم الفزاري الذي اعتمد على الكتاب الهندي اعتمادًا كبيرًا. أما كتاب «سند هند» فمعناه في اللغة الهندية «البقاء الخالد»، وكان هذا الكتاب مرجعًا هامًا لساير علماء ذلك العصر حتى زمن الخليفة المأمون (813 - 833 م). وقد أعيد تأليف هذا الكتاب من جديد على يد محمد بن موسى الخوارزمي وقد استعان عند وضعه بالجدول المختلفة التي كانت متداولة في العالم الإسلامي، وقد قدر الفلكيون الذين استخدموا طريقة كتاب «سند هند» هذا الكتاب حق قدره ونشروه في أوسع الآفاق. أما الكتاب الذي أحضره العالم الهندي إلى بغداد وأثار به إعجاب الخليفة، فهو «براهما جوبتا سدهنتا»، وقد نقل إلى العربية تحت اسم «سند

هند» وانصرف العلماء إلى دراسته بنشاط وهمة، كما لقي رواجًا عظيمًا بين القراء، وأوحى بقيام دراسات فلكية مستقلة مبتكرة شجعها الخلفاء وناصروها. وبفضل هذا الكتاب تعرف العرب إلى الأعداد الهندية. ففي عام 706 م تجد الخليفة الوليد الأول. وقد امتد سلطان العرب في عصره حتى بلغ أسبانيا يصدر أمرًا بتحريم اليونانية في الدواوين وبخاصة في المالية، وقرر استخدام العربية مستثنى الأعداد فقط لعدم وجود ما يفضلها ويحل محلها إذ كان العرب قد رجوا وقتذاك على استخدام الأبجدية اليونانية للتعبير عن الأعداد. والذي حدث أن الأعداد الهندية أخذت في ذلك الوقت في الظهور فشقت طريقها إلى المجالات العلمية والحكومية والاقتصادية. ولم يكن استبدال نظام بآخر من الأمور السهلة الميسرة. فإدراك قيم الخانات والصفر في الحساب من الأمور الهامة التي تتطلب كثيرًا من الجهد والعناية وبخاصة إذا كان النظام الجديد قد خلقته عقلية أجنبية لها تفكيرها الرياضي الخاص. ولكي ندرك مدى العناية الذي قاسته أوربا مثلاً يكفي أن نرجع إلى تاريخ دخول هذه الأعداد أوربا. في الشرق العربي نجد عالمًا من خيرة العلماء يتولى تبسيط هذا الحساب الجديد إلى قراء العربية وبخاصة موظفي المصارف والتجار والمساحين، وهذا العالم هو الخوارزمي الذي تناول كتاب «سند هند» وصاغه صياغة جديدة مبسطة جعلته في متناول القارئ، كما اهتم بمسألة الميراث في القرآن الكريم وعالجها علاجاً سهلاً مفهوماً، كما ضرب كثيراً من الأمثلة والقواعد شارحاً الموارد وعق الرقيق. ولا شك في أن الخوارزمي من أشهر العلماء الذين عرفهم العالم الإسلامي في تلك الفترة من الزمن وقد وقع عليه اختيار نصير العلم والعلماء الخليفة المأمون فقربه إليه وحنا عليه فوضع له كتباً كثيرة في الجغرافيا والفلك، وقد ترجمها إلى اللاتينية بعد مضي ثلاثة قرون على تأليفها

الإنجليزي «أثيلهت فون بات» فيسر ترجمته هذه لعلماء أوربا الاطلاع عليها والاستفادة منها. لكن المؤلفات التي خلدت ذكرى الخوارزمي كتاباه في الرياضيات أحدهما وهو «الجبر والمقابلة» ويعالج المسائل المتصلة بحياتنا اليومية. وقد ترجم في العصور الوسطى إلى اللاتينية إلا أن المترجم اختصر اسمه العربي واكتفى بلفظ «الجبر»، وما زالت هذه الترجمة معروفة حتى اليوم باسم «الجبر». أما الكتاب الثاني الذي يخلد ذكرى الخوارزمي فهو كتاب صغير في الحساب الهندي وهو يشرح فيه الأعداد والحساب من جمع وطرح وضرب وقسمة، وكذلك الكسور والتتصيف والتضعيف. وقد وجد هذا الكتاب طريقه إلى أسبانيا حيث ترجم في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي إلى اللاتينية، وفي نفس القرن ظهرت الطبعة الأولى للترجمة اللاتينية لهذا الكتاب في ألمانيا، وأقدم مخطوطة توجد في مكتبة فينا وهي ترجع إلى عام 1143، كما توجد نسخة أخرى في دير «سالم» محفوظة تحت اسم «ليبر الجوريزمي» أي كتاب الخوارزمي، وهو اليوم في «هيدلبرج». ثم نجد لفظ «الجوريتمي» يصبح علمًا على رجل يسمى «الجوريسموس»، كما ازدادت الدعوة إلى استخدام الأعداد الهندية والحساب الهندي، وقد تفنن القوم في الدعوة إلى هذا حتى صاغوا في ذلك شعرًا لاتينيًا، فقد وصلتنا قصيدة تعرف باسم «كرمن ده الجوريسمو» أي قصيدة اللوغاريتم، وهي للمؤلف «ألكسندر ده فيلا داي» وهو من أبناء القرن الثالث عشر الميلادي. إن الخوارزمي لم يتكلم فقط، فاسم هذا العالم العربي الذي علم أوربا الأعداد الجديدة وطريقة الحساب أصبح علمًا على الطريقة الحسابية الجديدة «تكرار الخمسة الأعداد»، وعلى العلم المعروف اليوم باسم «اللوغريتمات». وقد وجد لهذا العلم الأنصار الذين كافحوا من أجل استخدام طريقته في

الحساب في أسبانيا وألمانيا وإنجلترا وفرنسا وتغلبوا على خصومهم الذين كانوا يناصرون الطريقة القديمة حتى اشتهروا باسم «الأبجديين» (الباسيتين)، كما عرف أنصار الخوارزمي الذي بشروا بطريقته الحسابية واستخدام نظام الخانات والصفر باسم «اللوجريتميين». لكن الشيء الذي يؤسف له أن التاريخ سريع النسيان، ففي القرن الثالث عشر نتبين في القصيدة اللاتينية «كارمن ده الجوريسمو» أن أصل ومدلول كلمة «الجوريسموس» قد ضاع، وليس هذا فقط بل حتى أولئك الذين يعنون بالبحث عن أصول المفردات ومدلولاتها وبخاصة تلك التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالحضارة الإنسانية يتجاهلون العرب ودورهم الخطير في الحضارة الإنسانية؛ لذلك لا يهتمون بالرجوع إلى العربية إذا ما أرادوا معرفة أصل الكلمة ومعناها. فمن الأوربيين من ذهب إلى أن لفظ «الجوريسموس» يتركب من كلمة «اليوس» أي «أجنبي» أو «دخيل» ولفظ «جوروس» أي «إدراك» أو «معرفة» اعتقاداً بأن هذه الكلمة تشير إلى أنها ملاحظة أجنبية دخيلة. وآخر يصر على الاعتقاد بأن في الكلمة لفظ «أرجيس» وهو لفظ يوناني ولفظ «موس» أي عادة؛ فاللفظ يدل على عادة يونانية. ونجد ثالثاً تردّي في الخطأ أيضاً فقال إن الكلمة مشتقة من «أريس» أي «قوة» و «ريتموس» أي «عدد». وجاء رابع بفكرة أخرى تقول بأن في لفظ «الجوريسموس» نجد الكلمة اليونانية «الجوس» ومعناها الرمل الأبيض وكلمة «ريتموس» أي عدد فكلمة «الجوريسموس» معناها الحساب على لوح مغطى برمل أبيض، كما جرت العادة قديماً. ونجد خامساً يفسر هذه الكلمة التي كثر حولها الجدل بأنها من «الجوس» أي «فن» و «رادوس» أعني «عدداً» فمدلول الكلمة «فن العدد». أما القصيدة «كارمن ده الجوريسموس»، فقد قالت برأي آخر وهو أن خالق هذا الفن هو الملك «الجوروس» من

الهند، ونسبه آخرون إلى ملك مسيحي خرافي يدعى «الجور» وكان ملكًا على كستيليا. ورأي آخر يدعى أنه فيلسوف. وفي رحلة طويلة حول هذا اللفظ ومدلوله ظهر أخيرًا رأي جديد أقرب من كل ما سبق إلى الحقيقة، فقد اعتمد صاحب هذه الفكرة الجديدة على ما ورد مرة في كتاب منسوب إلى بطليموس وهو مكون من ثلاثة عشر جزءًا، وقد نقل إلى العربية مع تعريف اسمه تعريفًا عربيًا فأطلق على المترجم لفظ «الماجست» وهذه تسمية مركبة تركيبًا مزجيًا، وقياسًا على هذا لماذا لا يكون لفظ «الجوريسموس» أيضًا من العربية «أل» والكلمة اليونانية «أريس-موس» أي العدد؟ أما الحرب «ج» فهو مقحم على الكلمة ولا يستحق التفكير. ففي الترجمة من اليونانية إلى العربية أو من العربية إلى اللاتينية كثيرًا ما يتعرض المترجم لمثل هذه الأخطاء وتلك الاحتمالات. وظل الحال كذلك حتى جاء القرن التاسع عشر واهتدى الفرنسي «ريناند» عام 1845 إلى وجود اسم الخوارزمي في لفظ «الجوريسموس». ومن حسن الحظ أن دليلًا قويًا يقوم على أن الأعداد العربية وجدت طريقها إلى أوروبا عن طريق كتاب الخوارزمي الأول الذي عالج فيه الأعداد الجديدة التي أولاها العرب كل اهتمامهم، وشرعوا في كتابتها كعادتهم في لغتهم من اليمين إلى الشمال مبتدئين بالآحاد فالعشرات، كما نتبين هذه الظاهرة من كتاب الخوارزمي وحيث بسط لنا الصفر واستخدامه في الجمع والطرح، فقد ورد:

18- 38

20

فإذا كان الباقي لا شيء فيقرر الخوارزمي كما جاء في الترجمة اللاتينية: وجوب وضع دائرة حتى لا تظل الخانة خالية، ومكان الدارة هو هذه الخانة؛ وبذلك يتجنب الوقوع في الخطأ واعتبار خانة العشرات كما لو أنها خانة آحاد ولا يتأثر الإنسان بخلو الخانة، ويعتبر العدد (2) أنه في الأحاد مع ملاحظة أن كتابة العدد تبدأ من اليمين إلى اليسار: ومن العبارة الأخيرة يفهم أن الصفر يوضع على يمين العدد ووضعه على يساره (02) لا يغير قيمته. وبالإطلاع على المصادر الأخرى يتبين لنا أن مترجمي المراجع العربية قد راعوا الحرفية عند نقلها إلى اللاتينية، كما اقتبسوا مع هذه الترجمة الطريقة العربية في الكتابة، أعني من اليمين إلى اليسار؛ فالأعداد العربية قد نقلوها مكتوبة على الطريقة العربية. أما الخوارزمي فلم يكن أول من عرف أوروبا بالأعداد العربية فقد سبقه بنحو قرن ونصف قرن، أعني في القرن العاشر الميلادي أوربي نقلها عن العرب إلى أوروبا وحاول جهده التوفيق في كسب أنصار لها فلم يوفق. وقد نشأ هذا الأوربي في أسرة متواضعة، ومن ثم أخذ يكدر ويتعب حتى أصبح محور الحركة العقلية في بيئته فاكسب صداقة ثلاثة من قياصرة ألمانيا كما أن المسيحية اختارته بابا. وقبل ظهور هذا العالم لم تكن لأوروبا دراية ما بالعلوم الرياضية وحتى اليونانية الهلينية قد ذبلت وأصبحت في خبر كان، والسر في هذه النكسة التي أصابت العلوم اليونانية الهلينية في أوروبا ظهور المسيحية وموقف رجال الكنيسة منها، فقد شك أولئك اللاهوتيون في كل ما هو وثني وحاربه، ولم ينجح في الوصول إلى الأديرة إلا علم الحساب لضعف صلته بالعلوم اليونانية. وقد كتب علم الحساب العالم «بوتيس» أحد الرومانيين المتأخرين، وكان موضع ثقة الملك «ثيوديريش»، ثم اتهم بالخيانة فأعدم ومن ثم جاءت العصور الوسطى فأعلنته قديسًا. وقد بلغت ندرة الكتب التي

وضعها بعض المؤلفين الرومانيين حدًّا أن الرهبان في الأديرة كانوا يقيّدونها بسلاسل حتى لا تفقد. وكان جل اهتمام الأديرة بالتدريس ينصرف إلى الحساب الابتدائي بواسطة الطريقة الرومانية القديمة التي كانت مستخدمة قبل معرفة الأعداد التسعة والإشارة الدالة على الصفر، وكانت هذه الطريقة الرومانية المعروفة باسم «أباكوس» عبارة عن إطار تمتد فيه أسلاك تجري فيها كرات تشبه هذه الطريقة المتبعة إلى اليوم لتعليم المبتدئين، كما درس الرهبان أيضًا الألغاز العددية الفيثاغورية أمثال: «إيزيدور» و «بيدا» و «ألكوين» و «هرابانوس موريوس» و «فالافريد سترابو» فلم يخطوا بالعلوم خطوة تذكر. وإذا كان الحال كما صورنا فهل من المستغرب أن تتخلف أوروبا وتعجز عن إشباع الرغبة العلمية لأبنائها؟ لقد ظهر فيها نفر تواق إلى التحصيل والمعرفة أمثال «جربرت فون أوريلاك» الذي كان حريصًا على طلب العلم أنى وجد، كما شغف بالاتصال بالعلماء مهما اختلفت عقائدهم وأوطانهم راغبًا في الاستفادة والإفادة، لذلك التف حوله الطلاب فحرص على تشويقهم إلى الرياضيات فنجح في خلق بيئة علمية أخلصت للعلم والنسخ والترجمة، فكان كالربيع الذي غمر الأرض بعد شتاء طويل.

البابا يمارس الحساب العربي

وحدث عام 1945 م أن عثر رهبان دير في «أوفرني» أمام باب الدير على طفل حديث الولادة ملفوف في قطعة من القماش ولا يعرف أحد والديه؛ فأخذه الرهبان وتولوه بعنايتهم وأسموه «جربرت» فنشأ تحت رعاية الدير حتى كبر وترعرع في الدير المسمى «أوريلاك». وحدث لما بل العشرين أن زار الدير المارك جراف «بوريل»

البرشلوني فلفت نظره ذكاء جربرت، وصرح رئيس الدير له بمرافقة الجراب إلى بلده الواقع على الجانب الآخر من جبال البرنات. والجدير بالذكر أن هذا المارك جراف الأسباني كان كغيره من أمراء الأسبان قد غامر أكثر من مرة في حرب ضد أمراء العرب وخرج منها جميعها مهزومًا ومدحورًا، وانتهى أمره كما انتهى أمر سائر الأمراء المسيحيين الذين سلكوا مسلكه أمثال أمراء: «كستيليا» و «ليونز» و «نافاراس»، واضطر الجراف كما اضطر أولئك إلى إرسال رسل إلى أمراء المسلمين في قرطبة طالبًا الصلح. وشارك الأمراء المسيحيين سوء العقابة الأسقف «هتو» معلم «جربرت»؛ فقد أصابه ما أصاب غيره من ويلات الحروب فاضطر أن يخنع ذليلاً حقيرًا أمام «الحكم» الثاني واضطر نيابة عن سيده أن يرجو الخليفة هدم جميع الحصون والقلاع القائمة على الحدود الأندلسية، وبهر «هتو» ما شاهده من أبهة وعظمة القصر الملكي الذي يكاد يشبه قصور القصص؛ لذلك طالما ألح «جربرت» على «هنتو» أن يقص عليه من أخبار المسلمين وحياة هذا الأمير المسلم الذي لم يكن عالمًا فحسب بل كان أيضًا محاربًا جبارًا ومؤرخًا عظيمًا. ولم يخل هذا العالم الكهنوتي على «جربرت» بمعلوماته التي جمعها عن الحياة الإسلامية والعلماء المسلمين والشعراء وغيرهم الذين كانوا كالسوار حول معصم الحكم، كما حدثه أيضًا عن أعيان المسيحيين الذين كانوا يقطنون قرطبة، هذه المدينة العظيمة وكيف أن المسيحيين هناك كانوا يتمتعون بكيانهم التشريعي، فلهم رئيسهم الديني وقاضي القضاة، وكانوا جميعهم يتزيون ويتكلمون مثل العرب ويتمتعون بكل الحقوق التي يمارسها العربي كما فتحت أمامهم دور العلم فاعترفوا منها ما شاءوا من رياضيات وطبيعات، وكان حظهم من هذه الثقافة لا يقل عن حظ أساتذة الجامعات الإسلامية. وهكذا نجد

«جربرت» يقبل على الأسقف «هتو» ويروي ظمأه العلمي مما اغترفه هذا الأسقف من ينابيع المعرفة العربية الإسلامية فحصل على يديه الكثير، وبخاصة الرياضيات والفلك ومعلومات أرى لا يعرفها أحد في بلده، أعني الأعداد العربية. وفي عام 971 م وافق «جلبرت» المارك جراف الأسقف إلى روما حيث تمت هناك المقابلة التي تعرف فيها على أسرة القيصر الألماني «أوتو» العظيم وحرمه القيصرة «أدلهيد» وابنها وكذلك الحفيد، فاتخذ أوتو الثالث من هذا المعلم العجيب أستاذًا له ومستشاره الخاص في القصر القيصري كما جعله كبير أساقفة «رافينا». وفي عام 999 م عينه تحت اسم «سيلفستر» الثاني خلفًا لبطرس فكان هذا الرقي المفاجئ معجزة العصر ولغزًا للأحداث التي وقعت وقت ذاك. فشخصية الرجل ومعرفته أثارت إعجاب معاصريه، فقد استعان بالعلوم الإسلامية الشيطانية «كذا» للتدخل في علم الله ومخلوقاته؛ لذلك بدا هذا العالم أمام هؤلاء القوم سرًا غامضًا وساحرًا كبيرًا، فقد بلغ ما بلغ من علوم ومعرفة عن طريق العرب فقط ومن سوى العرب كان يهيمن على هذه العلوم وتلك المعارف غير المسيحية؟ فقد كان «جربرت» يسترق الزمن ليهرب من الدير خفية إلى أسبانيا - هكذا تحدثنا القصة- راغبًا في دراسة الفلك وغيره من العلوم على يد العلماء المسلمين. فهناك تعلم السحر وإحضار الجان الأسود من جهنم وغيرها وكذلك سائر الكائنات الضارة والنافعة، وفي أسبانيا أيضًا حصل عن طريق حيلة من الحيل من ساحر عجوز على كتاب في السحر كان الشيخ يحافظ عليه ويعني به كثيرًا، فما كان من «جربرت» إلا أن وهب نفسه للشيطان حتى لا يستطيع الساحر العجوز أن يصيبه بأذى انتقامًا منه، واعتقد «جربرت» بحصوله على هذا الكتاب أنه ربح شيئًا كبيرًا من أعداء المسيحية. و«جربرت» هو أول أوربي استخدم الإشارات

التسع التي تعلمها على الحدود الإسبانية. وفيما يتعلق بطريقة الحساب اليونانية والرومانية وهي الطريقة الابتدائية المعروفة باسم «أباكوس» والتي هي عبارة عن لوح خاص للحساب فقد ترك «جربرت» القوم وشأنهم يفعلون ما يشاءون. وإطار الحساب هذا كان مقسمًا بخطوط عمودية تقسم الإطار إلى خانات للأحاد والعشرات والمئات وهلم جرا. وفي هذه الخانات كانت توجد علامات للحساب من الحجر والزجاج أو المعدن حسب عدد الأحاد والعشرات والمئات وعن طريقها يستطيع الإنسان الجمع والطرح، والشخص الماهر في الجمع يستطيع عن طريقها الضرب أيضًا، وذلك أنه عن طريق تكرار عمليات الجمع يصل إلى العدد النهائي. لكن الشخص الذي كان يستصعب هذه الطريقة في استطاعته أن يقرأ واحدًا وواحدًا وواحدًا في واحد في الجداول الجاهزة. لكن ما الداعي إلى كثرة أكوام الأحجار هذه والتي يجب أن تحصى أحجار كل كومة على حدة علاوة على ما في الطريقة من تعب؟ أما إذا رسم الإنسان في خانات الحساب الأعداد الجديدة فيكفي أن ينظر إلى خانات الأحاد ليجد (5)، وفي خانة العشرات (6) فيقرأ في يسر (65). وطلب «جربرت» إلى أحد صانعي التروس أن يصنع له لوح حساب من الجلد وكلفه، كما جرت العادة. أن يعبر في الخانات الدالة على الأحاد والعشرات والمئات على الأعداد الراسية بالإشارات الرومانية الدالة على (واحد) و (عشرة) و (مائة) أعني (I) و (x) و (C). أما الإشارات الدالة على الألف فقد طلب إليه أن ينحتها من القرن ورسم عليها إشارات جميلة جدًا وجديدة لم يرها أحد من قبل. وكما أن هذه الإشارات كانت عجيبة في أشكالها كذلك كانت في أسمائها حتى إن «جربرت» نفسه لم يذكرها. ومن حسن الحظ أن أسماء هذه الإشارات جاءتنا في مخطوطة متأخرة ترجع إلى القرن الثاني عشر «رودولف

فون لاون» وهي كالآتي: 1 = (ايجين) و 2 = (أندرس) و 3 = (أورميس) و 4 = (أربس) و 5 = (كويماس) و 6 = (كلكتيس) و 7 = (زينيس) و 8 = (تمنياس) و 9 = (زيلننيس). ويلاحظ أن اللفظ الدال على العدد (4) هو العربي (أربعة)، كما أن (5) هي (خمسة)، وكذلك (سبعة) و (ثمانية). ومجرد النظر إلى هذه الألفاظ العجيبة فعلا يطلعنا على مدى التحريف الذي طرأ على أسمائها العربية، فقد شوهدت حذفًا وتغييرًا فنسب أصولها إلى أنها انحدرت عن الكلدانية مما سبب للعلماء المتأخرين كثيرًا من الاضطراب. وظل الأمر كذلك حتى أدرك نفر من العلماء أن كثيرًا من المواد التي ترجع إلى بلاد العرب البعيدة قد نسبها القوم خطأ إلى الكلدانيين والألفاظ الدالة عليها كلدانية. ويذهب «رودولف» بعيدًا وينسب إلى الكلدانيين خطأ اختراعهم للطريقة الابتدائية للحساب والمعروف باسم «أباكوس». ولم يقف الأثر العربي عند الإشارات الدالة على الحساب الهندي بل أعطى أورها أيضًا الطريقة العربية لكتابتها، أعني من اليمين إلى اليسار شأن العرب في كتابتها شأنهم في الكتابة العربية. ويذهب «رودولف» بعيدًا فيذكر عند الحديث عن جدول حسابه الخطأ الذي تردى فيه المخترعون إذ هم يكتبون من اليمين إلى اليسار، وأنهم لهذا السبب كثيرًا ما وقعوا في أخطاء كثيرة. وهناك تلميذ لروودولف يدعى «برنليوس» وقد نشر مخطوطة أستاذه الخاصة بالحساب وجدوله، كما ألف كتابًا حول الطريقة البدائية «أباكوس»، وهو يشرح كيف أن الإشارات التسع الجديدة للأعداد لم تنتشر خارج محيط العلماء ولم تجد طريقها إلى الشعب. فالإنسان لا يستطيع استخدامها لا في الكتابة ولا في الحساب. وقد نسخ «برنليوس» الأعداد العربية الموضوعة على الخانات الحسابية فوق «أباكوس» إلا أنه في الأمثلة الحسابية التي ذكرها في كتابه وجد من الضروري

استخدام الأعداد الرومانية؛ وعلّة هذا أن «جربرت» لم يعرف «الصفر». ففي جدول الحساب عند كتابة العدد (1002) تظل خانات العشرات والمئات خالية وعندما تنقصها أحجار الحساب لا يبقع الإنسان في الخطأ حسب الطريقة الرومانية ويقرأها (1002) لكن ترك خانات العشرات والمئات بدون صفر يجعل كتابته مستحيلة، وبدون معرفة الصفر ما كان في استطاعته «جربرت» وتلاميذه فهم الطريقة الجديدة لكتابة الحساب، وكانت هذه هي الصعوبة الأولى التي اعترضته ووقفت حجرًا في طريقه وفي تطور هذه الكتابة واستخدامها. فما أشبه التمثيلية القصيرة وهي على مسرح الحساب الروماني بفرقة أجنبية تفرض عليها تمثيلية بعينها أجنبية عليها فهي لا بد فاشلة في أدائها. والشيء الجدير بالذكر أن «جربرت» والذين تخرجوا عليه أخذوا يقومون بدعاية قوية للتفكير الرياضي محاولين نشر حساب العمد فوق الأباكوس الروماني؛ لذلك عرفوا باسم «أبا كوسيين». أما الأعداد الأجنبية التي حاول «جربرت» نشرها فلم تتعد دائرة العلماء فقط، لذلك ظلت سيادة الأعداد الرومانية قائمة، وبعد قرن من ذلك التاريخ نشبت معركة بين الأباكوسيين أي العموديين والخوارزميين الذين كانوا في تلك الفترة قد تدربوا على طريقة الحساب الجديدة وهي (2 في 5)، وقد انتهت هذه المعركة بفضل العموديين. لكن كيف فات «جربرت» عند دراسته على الحدود الأسبانية إدراك الإشارة العددية العاشرة أعني «صفر»؟ والواقع أن الصفر لم يكن في عصره معروفًا في غرب العالم الإسلامي فالأندلسيون كانوا يكتبون أعدادًا مركبة من أكثر من أحاد، وذلك بوضع نقطة أو أكثر على العدد الدال على الأحاد أو العشرات أو المئات وهلمّ جرًا، وبهذه الطريقة فقط كانوا يتغلبون على الصفر، وعندما تعلموا عن العرب الشرقيين طريقة الخانات أضافوا إليها الصفر، أعني أضافوه إلى

طريقتهم القديمة التي كانوا يستخدمونها. أما كتابتهم الصفريّة فإننا نعلم أن الإشارات العددية التي أخذها «جربرت» عن العرب الغربيين، فقد كانت أقدم من الإشارة العاشرة التي جاء بها الخوارزمي وتختلف جزئياً من ناحية الشكل عن تلك التي كانت مستعملة في شرق العالم الإسلامي وقبل مجيء الفلكي الهندي «كنكاه» إلى بغداد حيث أحضر الأعداد الهندية العشرة كانت الإشارات التسع والتي كانت تعرف باسم أعداد جوبار، قد جاء بها غالباً تجار من الهند إلى الإسكندرية ومنها انتقلت إلى غرب البحر الأبيض المتوسط. والآن نتساءل: متى حدث هذا؟ ولماذا تنقص هذه الإشارات العددية تلك الإشارات الدالة على الصفر؟ هل جاء بها العرب إلى أسبانيا وبصورتها الأصلية، هذه الصورة التي عرفها بها «سفروس سابوكيت»؟ أو أن الصفر لم يدرك قيمته ووظيفته أولئك الأجانب الذين أخذوا الإشارات العددية؛ لذلك ضاعت تلك الإشارة الدالة على الصفر وضاع معها مدلولها؟ إن شر عدم وجود الصفر ما زال إلى اليوم غامضاً. واختلاف هذه الإشارات العددية لم يكن مقصوراً على العالم العربي فقط، فالهند ووطن هذه الإشارات لو توحدوا، فهناك خلاف في أشكال الحروف الكتابية كما نجد فروقاً بين الإشارات الدالة على الأعداد حسب الزمان والمكان، وهذه الحقيقة نعرفها عن الرياضي العربي البيروني (973 - 1048 م) وقد كان معاصراً لـ «جربرت».

والبيروني كما نعلم من تاريخ حياته كان هاوياً للأسفار وخاصة إلى الهند؛ لذلك أَلَمَّ بلغاتها وعلومها، وهو يذكر أن العرب أخذوا عن الهند الأعداد التي توافقهم فقط غير مكترئين بأشكالها طالما يدرك الإنسان القيمة الذاتية للإشارة العددية. ويذكر الخوارزمي أيضاً بهذه المناسبة أن العرب كانوا يستخدمون نوعين من الإشارات العددية فالإشارات الدالة على الأعداد (5) و (6) و (7) و (8) تختلف في كتابتها عن

أخرى، ثم يضيف قائلاً: ولا توجد فيها صعوبات. وحتى يومنا هذا تجد كتابة الأعداد في شرق العالم العربي تختلف عنها في سائر الأقطار العربية الأخرى. أما الطريقة المتبعة في غرب العالم العربي فقد اندثرت بعد أن قدمت لأوروبا النماذج المعروفة التي تستخدمها اليوم في: الأعداد العربية. و«جربرت» صاحب فضل عظيم على الأوربيين فهو أول من هداهم إلى الأعداد العربية ولو أن شهرته أخذت تتوارى تدريجيًا مدة تبلغ نحو ثمانية قرون؛ وذلك بسبب كتابة «الهندسة المنسوب إلى بوتيوس» وكان مثار إشكالات عديدة حتى إنه لو صدر اليوم لكان موضوع قضية أمام المحاكم، ومن حسن حظ أن «ألكسندر فون هومبولدت» هو العالم الذي يرجع إليه الفضل في تقدير هذا الكتاب من الناحية العلمية. وينسب للمؤلف «بوتيوس» كتاب في الحساب مقتبس من كتاب «نيكوماخوس»، وقد كان كتاب «بوتيوس» في الحساب هو السبب في الغض من منزلة «جربرت» وفضله العلمي في إدخال الإشارات التسع الدالة على الأعداد الهندية بينما يعتقد العلماء أن «بوتيوس» في كتابه قد استخدم نفس الإشارات؛ مما يفيد أن أوروبا عرفت هذه الإشارات إبان حياة «بوتيوس»، أعني في القرن الخامس الميلادي إبان حكم «ثيودريش» لإيطاليا، والنتيجة الثانية لانتشار هذا الرأي الخاطئ أن أوروبا المسيحية عرفت الأعداد الهندية قبل العرب بزمان بعيد ثم حدث أن نسيتها أوروبا حتى أعادها العرب إلى الأوربيين في القرن الحادي عشر. والواقع أن هذا الرأي الثوري القائل بأن «بوتيوس» كان محيطًا بالأعداد الهندية قد فسرها «هومبولدت» في «كوزموس ج 2 ص 263» تفسيرًا آخر وهو احتمال ظهور نظام الأعداد الهندية في موضعين في العالم، وفي كل موضع مستقل عن الآخر، أعني ظهر في الشرق وفي الغرب. لكن جميع هذه الاحتمالات

قد ذهبت أدراج الرياح فالكتاب المعروف باسم هندسة بوتيوس ثبت أنه مزور وليس صحيحًا، إذ إنه يرجع في الواقع إلى القرن الحادي عشر الميلادي وليس إلى الخامس وكان يظهر كما لو أنه من تأليف عالم روماني، وأن المؤلف أغفل ذكر مراجعه، وأن هذه المراجع ترجع إلى عصر متفاوتة في القدم، ومن بينها مؤلفات «جربرت»، وعنه أخذ قواعد القسمة ومعلومات أخرى عن الأعداد العربية. وتتصل معرفة العرب بالأعداد وكتابتها اتصالاً وثيقاً بثلاثة أسماء: «سيفيروس سابوخت» و «براهما جوبتا» والخوارزمي وقد ارتبطت بهذه الأسماء الثلاثة من أورها، وإنها لظاهرة عجيبة حقا أن نلاحظ أن الأعداد الهندية في طريقها إلى غزو العالم اعتمدت على ثلاث محطات في العالم العربي، ونفس الظاهرة وقعت أيضًا في أورها فحتى في هذه الظاهرة قلدت أورها العرب. فأول مدرسة أوروبية هي تلك التي تتمثل في «جربرت» معلم مدرسة «ريمس» والأستاذ البابوي للرياضة، فهو من هذه الناحية يشبه تمامًا «سيفيروس سابوخت» وهو فيما يعتقد أول من نقل إلى العرب الإشارات الحسابية الهندية التسع، إذ كان إلى جانب وظيفته اللاهوتية رئيسًا لمدرسة الدير الواقعة على الفرات. ويتفق «جربرت» مع «سفيروس» في أن كلا منهما كان يجهل الإشارة الدالة على الصفر. ويتفق الأوروبيون مع العرب في الاستعانة بكتاب في الحساب يعني بتعليم الأعداد الجديدة وشرحها؛ ففي عام 776 م أي بعد «سيفيروس» بنحو 114 سنة نجد في الشرق العربي كتاب «سيد هنتا» للمؤلف الهندي «براهما جوبتا» وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية مشتملاً على الإشارات العشر كاملة، وكان يسير على نهج العلماء العرب حتى حكم الخليفة المأمون. وإذا تركنا العرب إلى أورها وجدنا بعد وفاة «جربرت» بنحو قرن تراجع لاتينية لكتاب الخوارزمي في

الحساب، وقد انتقل هذا الكتاب إلى الغرب عن طريق إسبانيا فقامت في أوروبا مدرسة علمية جديدة تهتم بدراسة علم الحساب الجديد بأعداده التسعة والصف، وتعرف هذه المدرسة باسم مدرسة الخوارزميين. حقاً إن هذا العلم الجديد شق طريقه إلى العالم العربي وتخطى حدود الفلكيين والرياضيين، لكن كانت معرفته محصورة في الأوساط العلمية، وظل كذلك حتى ظهر العالم الفذ الذي نجح في نقله إلى الشعب في أسلوب سهل مبسط وفي لغة تسابير الحياة اليومية وحاجات الشعب الاقتصادية، وهذا العالم هو الخوارزمي الذي كان يعيش في عصر المأمون، وقد كان لأوربا «براهما جوبتا» العرب. كذلك الحال في أوربا فإن كتابة الأعداد قد جاءها من وراء جدران الدير، ومن ثم انتشر بين الأهالي، وقد جاءتنا وثيقة مكتوبة تؤيد هذا القول وهي عبارة عن قصيدة شعرية في اللغة الألمانية القديمة لمؤلفها «توماسين فون زركلير» وهو رئيس كاتدرائية «إكويليا» الواقعة في «فينتين»، وكان يحب الألمان كثيراً وقد أعجب بأخلاقهم، فوضع لأمرائهم وفرسانهم كتاباً فلسفياً أخلاقياً في لغة الشعر الألمانية وأهدى كتابه هذا إلى الأمة الألمانية. وقد شرع «توماسين» في وضع قصيدته عام 1215 م وكان يبلغ من العمر الثامنة والعشرين، وبعد شهر من تاريخ البدء أتم قصيدته في أوائل عام 1216 م، وقد بلغت اثني عشر ألف بيت. وفي نفس العام رسم له أحد أصدقائه عدداً من الصور الملونة التي زين بها مخطوطته، ومن بين تلك الصور واحدة تصور الفنون الحرة السبعة وأخرى تعرض «فيثاجوراس» مع «أريسمتيكا» في ملابس ترجع إلى العصر الروماني وهما يشيران بالسبابتين إلى لوح مصغر على شكل سلم. وعلى هذا اللوح نجد الأعداد «1 و3 و9 و27» مكررة في الأعداد العربية وبنفس الطريقة نجد الأعداد الواقعة بينها على صورة «موسيقا» والسنة

1216 م. ومما لا شك فيه أن الرسام البارع كان كما يتبين لنا من العوامل التي راعاها، ومن بينها الأفكار الدينية التي كانت سائدة في وسط رجال الدير من غير رجال اللاهوت، وقد استخدم عام 1216 وتجنب الأعداد العربية مستخدمًا أخرى كما لو أنها من اختراعه. لكن استخدام الإشارات الخمس مرتين لم يكن خاصًا بالعلماء فقط بل أُلِّمَ به الشعب أيضًا. ثم ظهر الرجل العظيم الذي دعا لاستخدام الأعداد العربية وفق في دعوته حتى إنها سادت العالم، وهذا الرجل هو «ليوناردو فون بيزا» الذي لم يلتق علمه في الأديرة، كما أنه لم يؤلف ما ألفه للرهبان، وهو يعتبر بحق أول رياضي مفكر في أوربا ومن أشهر رياضيينها حتى القرن الثامن عشر فقد كان عالمًا مجتهدًا دؤوبًا، وقد اكتسب أصول معرفته عن طريق أسفاره ورحلاته ومن مصادرها الأصلية، ومن ثم أخذ ينشرها ويعلمها لمختلف الطبقات لاستخدامها في حياتهم اليومية. وهكذا نجد جداول المعرفة تتدفق من إسبانيا إلى أوربا، ومن ثم أخذت تتجمع حتى كونت سيلا جارفًا فمر أوربا مبتدئًا من إيطاليا من مركزها الثقافي، ومن قصر الملك الأشتوفي فريديش الثاني. لقد وجدت أوربا الخوارزمي الأوربي.

تاجر يعلم أوربا

ولد «ليوناردو» حوالي 1180 م في «بيزا»، وهي وطن خليط من السكان وقد أسسها الأتروسكيون عند مصب نهر «أورنو»، وتأثرت هذه المدينة في تاريخها الطويل بالرومان والقوط واللجو برديين وكذلك الإفرنج. كما أننا نجد راهبًا من رهبان القرن الثاني عشر يرتعد خوفًا من الوثنيين وحوش البحر وهم الأتراك والليبيون والبارثيون والكلدانيون

الأقذار، هكذا كان يطيب له تسمية العرب ونعتهم أولئك العرب الذين كانوا يسيرون في شوارع «بيزا» بوجوههم البغيضة القاسية!! وقد اشتهرت «بيزا» الواقعة على نهر «أرنو» بالصيد والانتصارات التي أحرزها أبناؤها على عرب سردينيا وتمكنوا من قوة صقلية وثرواتها. ثم نجد «بيزا» تستغل فكرة الحروب الصليبية وتتوسع في عمليات الشحن فازدهرت الملاحة وأخذت سفنها تشتغل في نقل التجارة بين الشرق والغرب واستولت على أهم القواعد التجارية الواقعة على الشواطئ، كما شيدت فنادقها على امتداد شاطئ البحر الأبيض المتوسط من استنبول إلى صور فالإسكندرية حتى باجه وكويتا. والشيء الجدير بالذكر أن رئيس الجالية التجارية من أبناء بيزا في باجه الواقعة على ساحل الجزائر الممتد على البحر الأبيض المتوسط كان والد «ليوناردو» ولم يصلنا شيء أكثر عن اسم أسرته، وكل الذي جاءنا عنه اسمه الأول ألا وهو «بواكيو» أي «الطيب». أما ابنه «ليوناردو» فقد ألف بعض الوسائل والكتب ومن أشهرها «كتاب أبكي»، وقد ذكر الابن في كتابه أنه ابن «بوناكيو» فصاغ منها «ليوناردو» الاسم «ليوناردو فيبوناكي»، وهو الاسم الذي اشتهر فيه في التاريخ ابن بيزا العظيم. والذي حدث أن استدعى الوالد ابنه من بيزا إلى باجه وكان الوالد بحكم عمله ككاتب بيزي في الجمرك على اتصال كبير بتجار الجلود والفراء في الصحراء وبلاد المغرب، مما اضطره إلى علم اللغة العربية والحساب العربي مثله في ذلك مثل زملائه العرب الذين يعملون في الجمارك البحرية. فانتهاز فرصة حضور ابنه الذي يمارس هذه التجارة ونجح فيها وسلمه إلى يد معلم عربي لتتقيفه وتعليمه الحساب، وأعجب الشاب «ليوناردو» بعلم الحساب هذا الذي يستخدم الأعداد الهندية التي يسرت السبيل أمام المحاسبين في حل كثير من المشكلات الحسابية.

والآن نتساءل: ما قيمة الأعداد الرومانية، وما هي الفائدة التي قد نحصل عليها من استخدامها؟ يكفي للرد على هذا السؤال أن نقوم بعملية حسابية نشيطة كعمليات الطرح مثلاً لنتبين مدى الصعوبة التي سيعانيها المحاسب بخلاف الحال مع الأعداد الهندية والتجارب الحسابية الكثيرة التي قام بها العرب، وقد أدرك «ليوناردو» البون الواسع بين الطريقتين. فاستخدام الحساب العربي يبسر القيام بعمليات الضرب وليس فقط عن طريق الأعداد الصحيحة، بل الكسور أيضاً (من العربية-كسر-) كما يطلق سيدي عمر (السيد المعلم يعبر عن الصلة بين عددين بهذه الوسيلة). فقد شرح لتلميذه الذي كان غارقاً في التفكير كيف أن أساتذة المدارس العليا في بغداد والموصل كانوا يكسرون بين العددين المكتوب أحدهما فوق الآخر عن طريق خط بينهما فالخط مثل الكسر في الشيء. وقد تعلم «ليوناردو» كذلك حساب الأس $(22 = 3 \text{ في } 2 = 4 \text{ فالاثنتان اس اثنتين})$ وحساب الجذور مثل 2 هي جذر 8 أو 4، وتعلم أيضاً المعادلات والتربيع والتكعيب كما وضعها أبو كامل وعمر الخيام وابن سينا والبيروني وغيرهم. وهكذا نجد «ليوناردو» يلهو بالأعداد بينما أقرانه ولداته يتسلون باللعب في الحوارى وعلى أرصفة الموانئ وبين دور الصناعة والمخازن. وقد لازم حب الأعداد والحساب «ليوناردو» حتى صار تاجراً وأسند إليه والده بعض الأعمال التجارية، وكان لا يخفى شغفه بالحساب حتى في أسفاره إلى مصر وسوريا واليونان وصقلية وأسبانيا وصور وكورنسه وكويتا وتونس بل حتى في مكاتب المحاسبة، إذ رأى زملاءه التجار يعدون على الأصابع. وانتهاز «ليوناردو» فرصة وجوده في الشرق العربي وزار دور الكتب في دمشق والإسكندرية كما تناقش مع علماء القصر في القاهرة. وعنى بالتجارة كعلم من العلوم فدرس كل شيء يخدمها ويفيدها سواء كانت

تلك المعلومات في المخطوطات أو متداولة بين المتعلمين وبخاصة المتضلعين في العلوم الرياضية ومقارنتها، ولم تفته المقابلة بين العلوم الرياضية كما عرفها الهنود واليونان والعرب. وإذا تركنا الشرق إلى الغرب، والعرب إلى اللاتين وجدنا جهلاً تاماً بالأعداد الهندية وطرق الحساب العربية حتى أتاح الله لأوربا «ليوناردو» فوضع وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره كتاباً باللغة اللاتينية حول الطريقة الحسابية التي تعرف باسم «أباكي»، وقد كان هذا الكتاب سبباً في شهرة مؤلفه وقد أدهش كثيرين من المعاصرين مثل «موريس كنتور»، إذ قدر الجهد القيم الذي بذله المؤلف في وضعه؛ مما اضطر «موريس» إلى التعليق عليه بقوله: نعرف عدداً كبيراً من الرياضيين السابقين والذين ألفوا في لغات مختلفة، لكن أحداً منهم لن يجاري «ليوناردو». قليلون أولئك الذين قد نعجب بهم، لكن وضع كتاب مثل هذا في القرن الثالث عشر ووجود من يقدرونه حق قدره في القصر القيصري مما يثير الإعجاب حقاً. ولا عجب في أن يستولي هذا الكتاب على لب القيصر الأشتوفي، فقد كان خير الكتب التي ظهرت في ذلك العصر، وقد أعجب به فريدريش الثاني وهو الضليع في الرياضيات العربية وعلوم العرب الطبيعية، ولم تكد تظهر الطبعة الثانية من الكتاب عام 1228 حتى أهداها المؤلف إلى فيلسوف القصر «ميخائيل سكونوس» الذي كان متضلعاً أيضاً في العلوم العربية فقويت الصلات بين «ليوناردو» والقيصر، وكثيراً ما كان يحل ضيفاً عليه وتدور بينه وبين فريدريش الثاني أحاديث علمية كثيراً ما نالت رضاء القيصر وإعجابه. وفي عام 1220 وهو عام تتويج القيصر الأشتوفي ألف «ليوناردو» استجابة لرغبة فلكي القصر القيصري «دومينوس هيسبانوس» كتاباً في الهندسة أثار إعجاب القيصر، الذي كان قد عاد من ألمانيا لنبوغ صاحبه

وعبقريته، وقد نظم فيلسوف القصر وهو «ماجستير يوحنا فون بالرمو» استقبالا عظيما في القصر القيصري في «بيزا» إعجاباً منه بالكتاب الذي ألفه «ليوناردو». فالفيلسوف يوحنا كان ملماً ببعض المعلومات الرياضية إلا أنه لا يرتفع إلى مستوى ابن «بيزا». وكان بين علماء القصر عالم عربي اسمه تيودور الأنطاكي، وقد درس في الموصل على يد العالم العربي الشهير كمال الدين بن يونس أشهر الكتب للرياضيين العرب، كما سمع في البلاد العربية عن شهرة وعظمة إمبراطور الإفرنج، لذلك رافق أحد رسل القيصر فريدرش الثاني وهو أحد أبناء الشرق وتبعه إلى جنوب إيطاليا. وهناك نجد العلماء مع قيصرهم يتناقشون ويتجادلون، ويتجلى نبوغ هذا الشاب وعبقريته في قائمة بالأسئلة الرياضية الصعبة أعدها بنفسه. وكان حضور «ليوناردو» هذا الاجتماع نصراً عظيماً له ولنبوغه، إذ أدرك الحاضرون عبقرية ابن تاجر بيزا، وكيف أجاب على المسائل الرياضية التي عرضت ولم يدركها إلا القيصر وتيودور تلميذ ابن يونس، والذي درس كتب الفارابي وابن سينا وإبكلید وكتاب الماجست لبطليموس. وقد أدرك الحضور عبقرية ليوناردو وإحاطته بعلوم اليونان والعرب. وقد سجل ليوناردو هذه المقابلة مع سيده القيصر في رسالتين رياضيتين تحدث فيهما عن كل ما دار في هذا الاجتماع. لقد ذكر المسائل التي عرض لها في المجلس وشرحها كما شرح القواعد التي اعتمد عليها، وبالرغم من هذا فإنه حتى اليوم لم يتوصل إلى حل جميعها، أعني هذه المسائل التي تعرض لها وأدلى فيها برأيه وهي مسائل تدهش الرياضة الحديثة. وقد كتب المؤرخ «كنتور» عن الرسالتين ما ترجمته: وبعد أن عرضنا لرسالة ليوناردو اعتقدنا أننا عبرنا بما فيه الكفاية عن إعجابنا بالعالم ليوناردو. أما الآن فإننا نعتذر، إذ إننا لا نجد الكلمات التي تعبر عن

تقديرنا العظيم للمؤلف ليوناردو بعد الاطلاع على رسالتيه. في حضوركم يا صاحب الجلالة فريدریش أيها الأمير العظيم: هكذا كتب ليوناردو إلى القيصر عند أول زيارة له لقصر القيصر في بيزا، لقد تحدثت معي فيلسوفكم العالِك يوحنا فون بالرمو عن الأعداد، وقد أفرد ليوناردو الفصل الأول من كتابه «الباكي» للحديث عن الأعداد التي تعلمها على يد الأستاذ العربي الذي أخذ عنه علم الحساب العربي وطرق استخدامه في أسفاره التجارية الطويلة والإشارات التسع الدالة على الأعداد عند الهنود وهي: 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 فهذه الإشارات التسع مضافاً إليها الإشارة (0)، أي «صفر» في العربية تعبر عن أي عدد من الأعداد. أما ترتيبها فعجيب جداً فالصفر يبدأ عادة بالعدد (9) وينتهي بالعدد (1) حسب طريقة الكتابة الأوربية. أما العرب فيكتبون من اليمين إلى اليسار وحتى العدد الكامل إذا صاحبه كسر يكتب هكذا (1 -) أي واحدًا ونصفًا، هكذا يذكر ليوناردو كما علمه مدرس الحساب العربي مراعيًا النظام العربي في الكتابة، وقد اتبع نفس الطريقة مع الأوربيين فعلمهم كتابة الأعداد التسعة الجديدة مع الإشارة (0) والتي تسمى في العربية «صفرًا». أما تاريخ الصفر فهام جدًا وهو يستحق الشيء الكثير من الاهتمام. استخدم الهنود هذه الدارة كإشارة للتعبير عن نقص شيء من الأشياء أعني «لا شيء»، ويعبر عنه في الهندية «سونيا» أي «فراغ» فلما عرف العرب هذه الإشارة ومدلولها ترجموها بلفظ «صفر» أي «خالي» أو «خلو»، ثم جاء ليوناردو وتتلذذ على العرب في الحساب فأخذ اللفظ العربي كما هو واستخدمه كما استخدمه العرب وإن كان قد صاغ لفظ «صفر» صياغة لاتينية فأصبح «صفرم»، وعرفه بقوله: ومعناها بالعربي: هذه الدارة (0) تعرف في العربية بلفظ «صفر». وإذا انتقلنا إلى إيطاليا وجدنا في آخر كتاب ليوناردو لفظ

«صفر» يكتب «زفرو» ثم «زيرو»، فقد تعرضت هذه الكلمة لشيء من التغيرات الصوتية التي تعرضت لها كلمات أخرى مثل «ليفرا» التي أصبحت «ليرا». أما في فرنسا فقد تحولت كلمة «صفر» العربية إلى لفظ «شفر» الذي استخدم أيضًا إلى جانب دلالاته العربية للتعبير عن «إشارة سرية»، ثم ذهب اللغة بعيدًا فصاعت من الاسم فعلا هو «شفرين» في الألمانية مستخدمًا في المعنيين، لذلك اضطر القوم إلى استعمال الصيغة الإيطالية «زيرو» كما نجد في إنجلترا «صيفر» و «زيرو» وفي ألمانيا «تزيفر». والواقع أن الدارة كانت أصلًا هي الإشارة المعبرة عن الصفر إلا أن انتشار الأمية بين عامة الشعب اضطرهم إلى تعلم أسماء الأعداد التسعة عن طريق السماع فقط؛ ولذلك أصبح لفظ «صفر» لديهم شيئًا غامضًا إن دل على شيء في مفهومهم فعلى اللاشيئية أو الإشارة الأجنبية. ففي القرن الرابع عشر نجد الإشارات الدالة على الأعداد العشرة تسمى «أصفارًا»، وهذا من باب التعميم وإن احتفظت فرنسا بلفظ «شيفر» وإنجلترا بكلمة «صيفر» واستخدمت الألمانية الكلمة الإيطالية «زيرو» للتعبير عن هذه الدارة المعروفة في العربية بلفظ «صفر». فهذا التطور في التسمية أدى إلى شيء كثير من الاضطراب كما تعدت هذه البلبلة التسمية إلى الأعداد ذاتها وأصبح العلماء في حيرة. وأخيرًا استقر الرأي على استخدام الإشارة العاشرة المعروفة باسم «شيفر» الدالة على الدارة. أما سائر الإشارات الأخرى فقد أطلقوا عليها التسمية «فيجورين» أي أشكال. لهذا نجد عام 1357 م عالمًا يذكر في رسالة وضعها في هذا: هل يجب على هذا الشعب أن ينساق وراء الأميين ويستخدم لفظ «تزيفرن» للدلالة على الأعداد العشرة التي يجب أن يعبر عنها بلفظ «فيجورين» لا «تزيفرن»؟ إن الإشارة الدالة على الصفر لا تشير بتاتًا إلى عدد ما،

ومن هنا أطلق العرب عليها لفظ «صفر». أما العلماء الأوروبيون فقد اضطروا رغم أنوفهم إلى مجارة العامة وعمموا لفظ «تزيفر» على سائر الأعداد الدالة في الواقع على قيم حسابية وميزوا الإشارة العاشرة على سواها بعبارة «نوللا فيجورا»، ومن ثم اختصرت إلى «نوللا» وأخيرًا «نل».

حرب الأعداد

من إيطاليا شقت هذه الأعداد طريقها إلى أوروبا ورافقها في هذه الرحلة مسك الدفاتر الإيطالي الذي كان في ذلك الوقت المثل الأعلى للتجار فعبرت الأعداد وهذا الفن جبال الألب حيث حملها التجار والمسافرون إلى مختلف البيوتات التجارية، لكن التجار والعملاء لم يقبلوا على الأعداد في شيء من الرضا واليقين؛ وذلك لأن الإنسان لا يأمن الغش مع هذه الأعداد فمن السهل مثلًا أن يحور الإنسان الدارة الدالة على صفر إلى العدد الدال على (6) أي ستة، كما أنه من السهل إضافة العدد إلى آخر، ومن العسير على الإنسان أن يميز بين الصحيح والمزور ولا سيما أن وسائل الغش متوافرة والطريق إليه سهل معبد. نعم، إن هذه الأعداد مفيدة جدًا للتجار — وقد أبيع لهم استخدامها إلا أن احتمال الغش حرم استخدامها في العقود. لكن لم يمض زمن طويل حتى رأينا هذه الأعداد تفرض نفسها في مختلف المناسبات، وأصبحنا نجدها في الكنائس وغيرها من المباني العادية، إذ استخدمها القوم في تاريخ البناء الذي كان مألوفًا لديهم، وقد دون في أربعة أعداد، ومن ثم حفرت على شواهد القبور وعلى النقود وفي حسابات الدولة وبعد ذلك في الكتب حيث أخذت تحل محل الأعداد القديمة في ترقيم الصفحات، وذلك لأن

كتابة العدد (998) في هذه الصورة أوجز وأوضح من كتابته بالطريقة الروماني: DCCCCLXXXVIII، والجدير بالذكر أن استخدام الأعداد العربية لم تتقبله أوروبا دون مقاومة، فاحتدم النزاع بين أنصار القديم وأنصار الجديد واستمر هذا الجدل قرونًا عديدة. فالحروف الرومانية كانت هي الأعداد الحكومية الرسمية واستمر الحال كذلك زمنًا طويلاً، ولم يقف الأمر عند هذا بل نجد فرق الاحتلال الرومانية والتجار الرومان يعلمون الجرمان استخدامهما كما وصلتنا على الآثار وعلى النقود. ثم نجد الأديرة تساهم في تعميم الأعداد العربية فتتقلها من جديد عبر الألب وتأخذ طريقها إلى الشعب حيث تحل محل الأعداد البسيطة التي اعتادها الشعب إلا أن العامة استخدموا الأعداد العربية مبسطة تبسيط أعدادهم التي اعتادوها، وحيث يتحتم التعبير عن الأعداد كتابة بالكلمات غلبت عادة استخدام الأعداد الرومانية حتى اعتبرت وكأنها ليست أجنبية دخيلة. فكان الجرمان ينظر إلى الأعداد الروماني وكأنها ألمانية، كما تعصب لها وقاوم الأعداد العربية. لقد كان من الصعب على القوم حفظ الإشارات العشر الأجنبية وتعلم رسمها وطرق استخدامها؛ لذلك تفنن بعضهم في ابتداع وسيلة تعين على استذكارها فصاغوها في أبيات شعرية وخطوا بها الأعداد الرومانية وحرصت هذه الأبيات الشعرية على عرض الأعداد الجديدة في هيئة صور: الأحاد (1) تعطيك اللسان، والعكازان (2) يشيران إلى الاثنين، وذيل الخنزير يعبر (3) عن الثلاثة، واللحم المحفوظ أربعة (4)، والعدد خمسة (5)، وقرن الوعل ستة (6)، وسبعة (7)، والسلسلة (8) تشير إلى الثمانية، والتسعة (9)، والدارة (0)، زائد اللسان الصغير للدلالة على العدد عشرة، وإذا لم يرسم اللسان فالدارة تعبر عن لا شيء. لكن أحدًا لم يوجه مجهودًا لحفظها عن ظهر قلب أو كتابتها؛ لذلك لم توفق في الانتصار على

الرومانية، ومما زاد في صعوبتها أن الذي أراد استخدام الأعداد العربية كان لا بد من أن يغير طريقة تفكيره فهو مطالب هنا بمراعاة الخانات وتركيبها $IVXLCDM$ ، ولم يكن تحت تصرفهم إلا الأحاد فقط، وهي حسب موقعها أو موضعها قد تصير عشرة أمثالها أو مائة. فقد جاء في مخطوطة من مخطوطات العصور الوسطى ما يفهم منه أن كتابة الأعداد الجديدة تتطلب قبل كل شيء معرفة قيمة وموضع الخانة التي يوضع فيها العدد، والفهم الصحيح لقيمة الخانة من أصعب الأمور على الإنسان وبخاصة المبتدئين؛ لذلك تستخدم كتب الحساب التي توضع للشعب مختلف الوسائل لشرح الخانات وتبسيطها، وبالرغم من ذلك فإن قيم هذه الأعداد وخاناتها تختلط في تفكير الإنسان كما تمتزج الأعداد القديمة مع الجديدة وتضطرب الخانات وتلتبس على الإنسان، وبخاصة فنحن نعلم أن الأعداد الرومانية توضع إلى جوار بعضها بعضا بخلاف الحال في الأعداد العربية حيث تراعي قيم الخانات. فالإنسان يكتب مثلا العدد 1482 هكذا $MCCCCLXXXII$ وتاريخ سنة 1515 يكتب هكذا $MCLV$ و 1504 كالاتي $MCDIV$. وفي مخطوطة ترجع إلى عام 1220 نجد المؤلف يشير إلى نظام قيم الخانات؛ لأنه قد سمع عنه ويحاول إدخاله على النظام الروماني إلا أن المؤلف عجز عن التخلص من الأعداد الرومانية كلية، لذلك فهو يكتب العدد 2814 هكذا $DCCCXIII$. إن الإنسان ليعجب حقًا بنظام الخانات إلا أن الأعداد الألمانية العادية من الصعب جدًا على الألماني تركها اللهم إلا أولئك الذين يجرون وراء كل جديد، هذا رأي أبداه كاتب إلى الكنيسة خجلًا عندما أراد أن يكتب العدد الدال على 1505؛ فقد رسم الصفر الذي لا ينطق كما لم يفهم الإشارة الصغيرة الدالة على المائة. $IVCV$ فالإشارة الدالة على الصفر وهي الدارة كانت بالنسبة للقوم مشكلة شاقة لفهم كتاب

حساب الخانات فهمًا صحيحًا. ألم تكن الصفر هو الذي يشير إلى لا شيء من ناحية وله من القوة ما يمكنه من التعبير عن العشرات والمئات والآلاف من ناحية أخرى؟! إن الصفر كان لغزًا حقًا! نعم إن الصفر كان عددًا وفي نفس الوقت ليس عددًا، مثله مثل الدمية التي تحاول أن تكون كائنًا حيًا نسريًا أو حمارًا أو أسدًا، أو القردة ملكة، هكذا سخر فرنسي في القرن الخامس عشر وقال: أراد الصفر أن يكون عددًا! وذكر مؤلف ألماني: أن الصفر عدد خارج الأعداد التسعة ويسمى (نللا) أي دارة أو لا شيء بينما الأعداد الأخرى لها قيمتها، والصفر يظل صامتًا هادئًا كنكرة من النكرات بالرغم من ذلك يباشر قوته السحرية ولو أنه لا ينطق بتأتًا. تنبه الأعداد تسعة وجميعها تنطق بلا صعوبة ثم معها تنبه لما (أقول) الصفر لا ينطق دارة وتشبهه الـ (5) وهو دائمًا هكذا لو سبقه العدد واحد تصير قيمته عشرة وبهذا العدد تستطيع أن ترقم وجميع الأعداد تنطق وتستخدم وكلما تكرر رسم الصفر على يمين عدد ما ارتفعت قيمة العدد عشر مرات حسب قابلية العدد. كذلك نجد المبتدئين في العصور الوسطى يتعلمون كتابة الأعداد ويكتبونها كما تكتب اللغة العربية. فمثلاً عند كتابة العدد (20) يكتبون أولاً (0) ثم (2) وكذلك الحال مع (23) مثلاً فأولاً (3) ثم (2) لكي نقرأ (ثلاثة وعشرين). وهذا الصفر الذي لم يكن موجودًا من قبل والذي ظهر بغتة وأخذ يقوم بدور خطير هو شيء غامض حقًا؛ لذلك كان موضع التفكه والسخرية عند الكثيرين، وحتى في المسائل الخاصة بما وراء الطبيعة فإن دلالاته الثنائية ماثار للدهشة. ففي الترجمة التي عثر عليها في دير «سالم» هذه الترجمة اللاتينية لكتاب الخوارزمي في علم الحساب التي ترجع إلى عالم 1200 م ذكر المترجم بعض آرائه الخاصة: «كل عدد يتركب من (1) لكن الواحد يتكون من الصفر»، وهذا الرأي خطأ منطقي وحسابي،

ثم يستطرد المترجم ويقول: «ويجب أن نعرف أن شيئاً مقدساً عظيماً يكمن وراء الصفر وهذا الشيء لا أول له ولا آخر وهو يعبر عن لفظ «هو»، وكما أن الصفر لا يزيد ولا ينقص كذلك لفظ «هو» لا يقبل زيادة ولا نقصاناً. وكما أن سائر الأعداد قد تبلغ مرتبة العشرات كذلك الحال مع «هو» وليس هذا فقط، بل يبلغ الألوف والحقيقة التي أقرها أن «هو» يخلق كل شيء من العدم وهو يشتمل عليها ويدبرها». ويلاحظ أن سائر الأعداد تلف وتدور حول الصفر فإذا أراد أن يكتب العدد (300) غير عنه هكذا (2 CC) فيتجنب كتابة الصفر الموجود في خانة العشرات، كذلك نجد «سبستيان باخ» عندما يريد أن يكتب العدد (300) يضع العدد ثلاثة الروماني أعني (III) قبل الإشارة الدالة على المائة (C) فيكتبه هكذا (CIII) وهذه الحيلة التي استخدمت للتخلص من الصفر قديمة معروفة استخدمها الصينيون الذين كانوا يجهلونه. وهذا الجمع بين كتابة الأعداد حسب رتبها وبأعداد رومانية تجنباً لاستخدام الدارة المعبرة عن الصفر انتهى إلى نظام عجيب حقاً لكتابة الأعداد. فلتدوين العدد (1502) استخدمت الطريقة الآتية (XV، C et: II) حيث اعتمد الكاتب على اللغة التي لا تعرف كلمة تعبر بها عن الصفر؛ لذلك كتب خمس عشرة مائة واثنين. لكن الأمر لم يقف عند هذا، فنحن نجد آخرين ألفوا الصفر أسرع من غيرهم الذين ظلوا متمسكين بالأعداد القديمة بالرغم من محاولتهم التعرف إلى الأعداد الجديدة وكتابتها حسب مراتبها فاستخدموا الصفر بين الأعداد الرومانية التي مروا على استعمالها، فوقف الروماني نفسه أمامها حائراً عاجزاً عن إدراك هذا الفن الجديد. فالعدد (1503) كان يكتب (VOII) والعدد (1089) = (IOVIIIIX) ولا يقف الأمر عند هذا بل نجد شخصاً آخر يستخدم طريقة مبتدعة فالعدد (1200) = (ICCOO) لا يستخدم

الأعداد الرومانية فقط والأشكال الهندية أيضاً بل نظام الرتب أو الخانات الهندي، وذلك باستخدامه (1) والدارة للتعبير عن الصفر، ثم نجده يستعمل الترتيب الروماني مع نظام المرتبة فيذكر (مائتين) = (CC). وبالرغم من جميع هذه الصعوبات وتلك العقبات انتصرت أخيراً الأعداد العربية على الألمانية ولو أن الأميين من الألمان ظلوا بمنأى عنها، فهم أعداء لكل جديد، كما نتبين هذا مما جاء على لسان «مرجريت» في كتاب: در جرينه هينريش، للمؤلف: جو تفريد كلر: «كانت توجد في المنزل المقابل لنا قاعة مظلمة مفتوحة مشحونة بالمخلفات القديمة وفي آخر القاعة كانت تجلس طوال الوقت امرأة عجوز مترهلة في ثياب رثة، وكانت تقرأ بصعوبة بعض المخطوطات وإن عجزت عن الكتابة أو قراءة الأعداد العربية. وكان كل حسابها يعتمد على (1) و (5) و (10) و (100) في صورها الرومانية، وقد تعلمت هذه الأعداد الأربعة أيام شبابها وفي مكان ما مجهول، وقد توارثت هذه الأعداد الأجيال وكانت هذه العجوز لا تعرف مسك دفاتر كما لا تملك شيئاً مكتوباً إلا أنها كانت كلما شعرت أنها قادرة على تدوين شيء يهملها سارعت إلى قطعة من الطباشير وخطت بها على مائدة هذه الأعداد الأربعة وهي تدون من ذاكرتها جميع المبالغ التي تهملها بهذه الصورة، وإذا حققت رغبتها من هذا التدوين بلت أصبعها ماء ومحت به ما دونته، وكانت تحصي النتائج وترسمها إلى الجانب، وهكذا نشأت مجموعات عديدة صغيرة جديدة ولا يدري أحد سواها دلالاتها أو أسماءها؛ وذلك لأنها لم تستخدم إلا الأعداد الأربعة المجردة وكانت تبدو للآخرين وكأنها طلاس سحرية وثنية». وإذا كانت الأعداد العربية منذ بدايتها محاطة بهالة من الأسرار توحى بشيء من الرهبة، فإن الأعداد الرومانية اتصفت بهذه الصفة أيضاً عندما طرأ عليها ما طرأ من تغيير وتحوير، فنظر إليها

القوم وكأنها وسيلة من وسائل السحر. وهكذا أخذ القوم يسخرون من أولئك العلماء الذين يستعينون بالأحجار لإجراء العمليات الحسابية، ولما ارتقت حالتهم الاجتماعية أوجدوا لأنفسهم وجبات غذائية أحسن نوعاً من السابقة وأخذوا يغذون أنفسهم من ثمار شجر القرو. ومع تطور المدن والتجارة ازدادت الرغبة في العلم والمعرفة وانتقلت العلوم والمعارف من الأديرة إلى المدينة، ولعل أحسن بيوت تجارية عرفتها أوربا قديماً هي تلك التي قامت في إيطاليا واتخذت منها ألمانياً مثلاً أعلى لها كما حذا الألمان الهولنديون والفرنسيون والإنجليز حيث عاد أبناء تجار تلك البلاد ومعهم أخبار هذا التطور العظيم، كما أخذت العلوم التي كانت من قبل قابضة في الأديرة تتسرب تدريجياً من الصوامع والجامعات إلى الخارج وبخاصة اختراع الطباعة. ولم يقف الأمر عند هذا بل نجد صرافى الأقاليم وموظفى مالىتها يوجهون شيئاً من العناية الخاصة فى مدارسهم إلى هذا الحساب الجديد وأعداده العربية، كما سعوا جاهدين إلى نشرها. ولعل خير شاهد جاءنا إلى اليوم على انتشار الحساب العربى وصحة استخدامه هو «آدم ريزه» الذى ولد فى مدينة «بمبرج» فى العام الذى انتهى فيه حكم العرب على إسبانيا، وقد تخصص فى تدريس الحساب فى مدينة «أرفورت». فى مثل كتب الحساب هذه توجد جداول فيها الأعداد الرومانية إلى جانب الأعداد العربية وكذلك الكلمات، والغاية من هذه الطريقة تمكين المتعلم من حفظ النوعين من الأعداد معاً واستخدامها فى الحساب. لقد غزت الأعداد العربية أوربا، وأخذت تؤدى دورها الهام فى العلوم الطبيعية والصناعات والاقتصاد وسائر وسائل الاتصال بين الشعوب الراقية فى العالم، وفى مختلف العصور.

الكتاب الثالث الأبناء الثلاثة لموسى الفلكي

وفي كل ليلة بعد صلاة العشاء في المسجد يمتطي فارس الأرواح حصانه الأحمر كالحناء في أواني تجميل النساء مخترقاً صحراء خراسان. أما حوافر الحصان فمغطاة بالمحارم البيضاء وحيث يخطر الفارس الذي يحاكي المومياء ويجري بحصانه دون أن يسمع له صوت بين التلال الواطئة يخيم سكون الليل وينتشر الأمان. هناك الأسلحة والكيس المملوء بفضية البدو العائدين من الأسواق إلى خيامهم وهذه غنائمه الثابتة الخاطفة. موسى بن شاكر يتردد منذ أيام وسنين على قصر الخليفة وهو عالم وقور بين الفلكيين والمهندسين من رجالات المأمون كما أنه صديق حميم للحاكم. لكن موسى بن شاكر هذا لا يكاد يفرغ من صلاة العشاء في المسجد الكبير حتى يتحول إلى لص، بالرغم من السلاسل الذهبية التي كانت تقيده بالقصر، هذا القيد الذي كان في صالح الخليفة، كذلك لم ينس موسى بن شاكر أن والديه وأجداده الذين كانوا قديماً، يعلم الله وحده، لصوصاً قد جاءوا به إلى هذا الوجود كأحد أبناء الصحراء الأحرار.. لذلك كان ينتهز موسى مجيء الليل وينطلق إلى الصحراء حيث يحيا حياة البداوة بتقاليد القديمة وعاداتها وحيث الغزو والسلب والنهب حسب تعاليم الفروسية، والفتوة عمل مشرف يقوم به الفتى الحر الأبي. وهكذا نجد موسى يمضي ساعات الليل الطويلة فوق صهوة جواده لا يسمع له أحد صوتاً ولا صديق له إلا نجوم الليل، فهي أنيسة ودليلة شأنها معه كشأنها مع شعبه وأمته منذ آلاف السنين وفي مختلف العصور والأماكن. ولا يكاد الليل يولى حتى يعود هذا

الفارس الروحي المجهول الاسم إلى حالته الجسدية العادية التي يعرفها سكان العاصمة. وعندما تتبين العين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من طلوع الفجر ويؤذن المؤذن للصلاة يركع موسى بن شاكر إلى جوار جاره في المسجد ساجدًا لله شكرًا على ما أولاه من مساعدة إذ أرسل له نفرًا من الفرسان الذين هدوه سواء السبيل حيث توجد الغنائم وتكثر الأسلاب. هل يعتقد المأمون أن الرجل الذي يحتل مكانًا مرموقًا بين علماء قصره وينزل من قلب المأمون مكانًا يحسده عليه الكثيرون هو بعينه الذي يحيا حياتين؟ ثم كثرت حوادث النهب وأعمال السلب في الطرق وكثر عدد الذين شرقوا ونهبوا؛ لذلك اتجهت أنظار الدولة إلى تحقيق هذه الجنايات فحامت الشبهات حول موسى بن شاكر الفلكي، إلا أن الجماعة الإسلامية على استعداد للشهادة على أن موسى هذا كثيرًا ما يشاهد في المسجد صباحًا ومساءً ومنذ زمن بعيد يواظب على أداء فروض الله فلا يجد الخليفة مناصًا من السكوت. لقد أثبت موسى أنه حذر ذكي ويتجلى لنا هذا الذكاء وبعد النظر في تولية الخليفة وصيًا على أولاده القصر إذا ما عاجلته منيته أو تمكن خصومه منه وثأروا لأنفسهم ولأموالهم، وقد تحقق بعد نظر موسى وتولى الخليفة الوصاية على أبنائه ونشأتهم تنشئة علمية صادقة جعلت منهم علماء فلكيين يشار إليهم بالبنان في قصر الخليفة ببغداد. هذه قصة حقيقية لا غبار عليها وقد وقعت إبان عصر القيصر كارل الأكبر في أوربا وتمت عندما أغمض القيصر عينيه. إن قصة موسى وقعت حوادثها في واحة مرو البعيدة في وادي مرغاب حيث كان يقيم المأمون بعد أن ترك بغداد عقب وفاة والده هارون الرشيد وزوال دولته. والقصة حقيقية أيضًا من ناحية أخرى ولو من جهة الرمزية فهي تصور حياة البدو الجاهليين الليلية عندما تغيب الشمس بوجهها المحرق وتقبل موجات النسيم العلية وتتلاألأ النجوم في

القبة الزرقاء وعلى ضوئها يقرأون وهم يرعون الماشية أو يقومون بغزواتهم. أما الآن وقد هداهم الله إلى دينه الحنيف وتثقفوا بتعاليمه السامية العالية فقد أقبلوا على العلوم يتدارسونها ويتأملون السماء بنجومها وأفلاكها وحركاتها. لقد اعتمد العرب أبناء الصحراء أكثر من غيرهم من أبناء الشعوب الأخرى كال يونان والرومان والجرمان على التأمل في السماء ومراقبة الأفلاك والنجوم، فالعرب وهم البدو الرحل كانوا يتجولون في لا نهائية الصحراء ولا يرون في حلهم وترحالهم إلا السماء ونجومها التي تحول ظلمة الليل إلى نهار وضاح، ولا شك في أن هذه الظواهر الفلكية تترك في نفس ساكن الصحراء وسهولتها فلا جبال تنكسر عندها أشعة الإبصار ولا تلال ولا بحار، أدركنا أثر كل ذلك في البدوي عندما يشاهد الأفق البعيد تتخلله طبقات الهواء. وفي وسط هذه الأبعاد المتشابهة التي تكاد تكون واحدة اللهم إلا هذه التلال المتنقلة من بحار الرمال نجد النظرة البدوية حرة طليقة لا يوجد ما يعترضها ويوجهها اتجاهًا خاصًا، وهذه بدورها تؤثر في حياة البدوي زمانًا ومكانًا، فهو في عراك دائم مع الأنواء والرعود والبرق والمطر واختلاف درجات الحرارة وتعاقب الليل والنهار، والآن قد يسهل علينا إدراك الاعتقاد العربي في الكواكب وسائر الأجرام السماوية وكيف أنها مظهر من مظاهر القوى الإلهية فقبيلة نسام قدست «الدبران» بنوره المائل إلى الحمرة، وطلوعه كان مصحوبًا دائمًا بالغيث والخير العميم من طعام وشراب. أما قيس فقدست الشعري أكثر النجوم ضوءًا، وهو الذي يتخلل طريق التبان، وقد استولى الشعري على أفئدة العرب بجماله الممتاز. وقد ظل تقديس الكواكب حتى صدر الإسلام وبخاصة بين القبائل الوثنية كالصابئة، وقد تخرج من بينهم نفر من خيرة العلماء العرب وبخاصة في الفلك أمثال: ثابت بن قرة والبتاني الذي عرفته

العصور الوسطى تحت اسم «الباتيجنيوس»، وقد اعترفت له أوربا كأستاذ من أكبر الأساتذة العرب الذين أخذت عنهم أوربا الشيء الكثير. أما خيال اليونان الشاعرى فقد صور لهم السماء وكأنها بكواكبها ونجومها وسائر أجرامها هي مصدر الأبطال ووحى الأساطير، كما خلع هذا الخيال على النجوم صوراً قد تغاير حقيقتها في السماء. أما الطبيعة العربية وهي أقرب إلى الواقعية من غيرها فقد تصورت السماء وكأنها أنموذج لعالمهم عالم البداوة بكل ما فيها مما يحياه البدوي في صحرائه، وذهب العربي بعيداً فجعل من كل نجم تمثيلية خاصة ففي شمال السماء يشاهد راعياً يرعى ومعه كلبه وقطيعة من الغنم وعجلين وعنزا وتيساً وناقاة وفلواً وجملاً يرعى بمفرده وحول هذا القطيع ضبع وضبعتان وضغارها، وهناك ابنا آوى يقفان خلف البعير، وحيث يتلأأ في السماء نهر المجرة يوجد عش للنعام وإلى جواره خمس نعاعات وبعيداً قليلاً يجتمع ذكرا نعام وبعض صغار النعام كما يشاهد بيض نعام وقشر بيض مكسور بالقرب من العش. تلك هي بعض مناظر الحياة لا صلى تربط بينها وبين الصور السماوية التي نجدها عند البابليين أو اليونانيين، ونحن نعلم أن اليونانيين تعلموا الفلك عن أساتذتهم البابليين. واتخذ اليونانيون من بعض مجموعات النجوم ما اتخذوه منها صوراً لآلهتهم وأبطالهم حسب مواقعها مثلاً النجوم (لا) على كتف والنجم (y) على ظهر الحصان المجنح. أما العرب فلم يتصوروا النجوم في هيئة صور بل سموا بعض النجوم أسماء هامة؛ لذلك أصبح عدد أسماء النجوم عند العرب يفوق بكثير الأسماء اليونانية. وعندما ترجم العرب أيام الخليفة هارون الرشيد وابنه المأمون كتاب الفلك للمؤلف «هيبارش» الأكبر، وكذلك فهرس النجوم الذي وضعه نفس المؤلف ونقحه بطليموس وقدمه لنا في الماجسط، اختلطت الأسماء العربية القديمة للنجوم والكواكب مع

الألفاظ اليونانية، وبخاصة أن الأسماء العربية كانت لا تزال حية مستخدمة متواترة في أشعارهم وأغانيهم وقصصهم. لذلك لا عجب إذا رأينا أن معظم أسماء النجوم والكواكب المستعملة حتى يومنا هذا عربية أو ترجع إلى أصل عربي، وأوربا التي درست الفلك على أساتذة مسلمين تستخدم حتى اليوم الأسماء العربية مثل: «الدبران» و «الجنوب» و «الغول» و «الكرب» و «الطائر» و «الواقع» و «بيت الجوزاء» و «ذئب» و «فم الحوت» و «رجل» وغيرها. ولا يقتصر الأمر على أسماء الكواكب والنجوم بل هناك كثير من الاصطلاحات الفلكية المتداولة على السنة العامة قد أخذتها أوربا عن العرب مثل: «السمت» و «النظير» و «القنطرة» و «الحضيض» و «تيودوليت». ثم نجد العرب وقد تأثروا بالعلوم الهندية واليونانية مثل دراستهم لكتاب «سيدھنتا» للمؤلف الهندي «براهما جوبتا» الماجسط لبطليموس ينشطون في قصور الخلفاء المنصور وهارون الرشيد والمأمون ويهتمون اهتماما خاصا بالدراسات الفلكية مستعينين بخبرتهم القديمة التي توارثوها منذ زمن بعيد، فأخذوا بيد هذا العلم حتى جعلوا من الفلك علما عالميا، وأصبح العرب بفضل نشاطهم واجتهادهم أساتذة العالم وقادته. لقد توفي موسى وترك ثلاثة أولاد في سن الطفولة، وقد وصل المأمون، عندما كان يقود حملة عسكرية في آسيا الصغرى، خبر وفاة موسى فسارع وطلب إلى حاكم بغداد الاهتمام بهؤلاء الأطفال والعناية بهم، وبلغ اهتمام الخليفة حدا أنه ما أرسل رسالة إلى بغداد إلا وسأل عنهم. وكان الخليفة المأمون يتحدث ساخرًا دائمًا من أنه مربى أولاد موسى ثم أسلمهم إلى يحيى بن أبي منصور لتربيتهم، وكان يحيى هذا فلكي الخليفة ومدير بيت الحكمة الذي أسسه المأمون للعناية بالعلوم المختلفة، كما زوده بمكتبة غنية بسائر المؤلفات ومنها كتاب الخوارزمي

المختار من «سيدھنتا» وجداول بطليموس الفلكية التي نقحھا الخوارزمي، وكذلك كتبه في الحساب التي ظلت المرجع الأول والأهم في أوربا حتى عصر إحياء العلوم، وكذلك كتبه في الجبر. وهنا في دار الحكمة نبع العلوم والمعارف وحيث مختلف المراجع التي تربو على الآلاف وكذلك الأجهزة النادرة ومختلف الندوات العلمية في شتى العلوم والفنون، نشأ وترعرع أولئك الأطفال الموهوبون أنجال الفلكي ولص الصحراء موسى بن شاکر، ومن حسن حظهم أن بعد وفاة والدهم انتقلوا إلى رعاية خليفة المسلمين وأمير المؤمنين نور الحكمة ومصدر الإشعاع. ومن حسن طالع أولئك الإخوة أن أكبرهم وهو محمد بن موسى أصبح أشهر الجميع علمًا وسياسة، فنال ثقة الخليفة فورث المكانة التي تولّاها أبوه من قبل وأكرم المأمون علماء الفلك فشيّد لهم مرصدًا عظيمًا فوق أعلى مكان في بغداد عند شماسية حيث كانت ترصد الكواكب وتراقب حركاتها مراقبة علمية دقيقة، ووضع المأمون هذا المرصد تحت رئاسة وإشراف يحيى، وكانت تستخدم فيه مقاييس في غاية الدقة تقابلها أخرى مثلها في مرصد جنديسابور. وإمعانًا في الدقة كانت تراجع العمليات الحسابية كل ثلاثة أعوام في مرصد جبل قسيون بالقرب من دمشق حيث كان يعمل فلكيوه معًا في وضع الجداول المسماة جداول المراجعة أو الجداول الميمونة، وهذه في الواقع عبارة عن مراجعة جديدة دقيقة لجداول بطليموس الفلكية. لم يكد محمد بن موسى ينتهي من دراسته على يحيى حتى أمر الخليفة أن يساهم هذا العالم الشاب في قياس حجم الكرة الأرضية فسافر مع جماعة من الفلكيين إلى «سنجار» الواقعة غرب الموصل، ومما هو جدير بالكر هنا أن «أوتو ستينيس» كان قد قام بأول قياس للأرض بمساعدة الزوايا الضوئية للشمس. أما فلكيو المأمون فقد حاولوا قياس الأرض بوسيلة أخرى فمن نقطة خاصة

انتقل جماعة من الفلكيين نحو الشمال وانتقلت جماعة أخرى نحو الجنوب وظلت متجهة حتى بلغت مكان الجدي الصغير، النجم القطبي، فالجماعة التي اتجهت شمالاً تشاهد الصعود بينما الجماعة الأخرى التي اتجهت جنوباً تشاهد الهبوط. فالمسافة بين الجماعتين عبارة عن درجة من دائرة نصف النهار، وقد تمت هذه العملية بدقة تستدعي الإعجاب حقاً. لكن لا يمضي زمن طويل حتى نجد محمداً وأخويه يقومون بعملية حسابية عجيبة تخلد أسماءهم؛ فحسابهم لا يبين فقط النتيجة التي توصل إليها بطليموس بل تتفق أيضاً والنتيجة التي قام بها في الظل فلكي القصر المعروف باسم «موروزي» «وجدت»، هكذا صرح بعد مائة وخمسين عاماً مواطن لا يقل مكانة عن البيروني: إن الإنسان يجب عليه أن يعتمد على حساب وملاحظات بني موسى، وعلى الإنسان كذلك أن يرعاها فقد حشد بنو موسى كل قواهم العقلية في سبيل الوصول إلى الحقيقة. لقد كان أبناء موسى وحيدى عصرهم في إتقان الوسائل الفلكية والكماسة في استخدامها وتطبيقها. وقد شهد لأبناء موسى علماء آخرون شاهداً بعيونهم دقة هؤلاء في كل ما قاموا به. وحدث أن افترق أبناء موسى عن الشيخ يحيى وتركوا مرصده؛ لأن محمداً كان رجلاً يؤثر الاستقلال وحرية العمل وبخاصة فقد أصبح في شيء من اليسر والثراء، وذلك بفضل تعاون الإخوة ورغبتهم الصادقة في الكسب والعمل، ونجحوا في إقامة مرصد خاص لهم على قنطرة نهر عند دجلة عند «باب التاج». وهنا نجد محمداً يكرس حياته للرصد والحساب وقد اتصف في عمله هذا بالصبر والجلد. هكذا شهد له معاصروه فقد ألف كتباً فلكية تعالج الاتجاهات العمودية على البعد القطبي. وكانت هي الأولى من نوعها في الفلك كما اشترك مع أخويه في وضع كتاب في المساحات الكروية، وقد ترجمه إلى اللاتينية «جرهرد فون كريمونا»،

وقد عرف هذا الكتاب في العصور الوسطى في أوربا باسم كتاب الإخوة الثلاثة في الهندسة. لكن محمدًا لم يكن فلكيًا بارعًا ورياضيًا عظيمًا فدسب بل أبدى مقدرة فائقة في الفلسفة وبخاصة المنطق أيضًا، فوضع كتابًا حول أصول العالم وعناصره كما عني بعلم الأرصاد ودون ملاحظات حول الأجواء واهتم بالتركيبات الخاصة بالأجهزة والآلات، وهذه هي الناحية التي كان يهواها ويولع بها أخوه أحمد الذي أضاف الشيء الكثير على ما جاءنا الكثير على ما جاءنا عن العالم القديم خاصًا بالميزان السريع. وكان أحمد هو الفنان البارِع والصانع الماهر وقد اشتهر بعبقريته في هذا المضمار فكان من بين أفراد العائلة الوحيد المشهود له بحسن تركيب الآلات وفكها، لقد توافرت له، كما يذكر مرجع عربي في هذه الصناعة، أشياء لم تتوافر لأخيه محمد أو لأحد من السابقين مثل هارون وغيره من الذين كانوا يهتمون بتركيب الآلات وتنظيمها وبخاصة الآلية منها، وقد وضع في ذلك كتابًا شاملاً حير الموهوبين فنيًا من العرب. وامتاز أحمد أيضًا بملكته الخالقة فقد اخترع أشياء كثيرة تدعو إلى الدهشة فقد ثابر في بناء الآلات الدقيقة المعقدة التركيب والتي هي ذات فائدة قصوى للمجتمع ولو قدر لفرد أن يحصل عليها اليوم لأعجب بها وحرص على امتلاكها، فقد عاون ربة البيت في القيام بعملها كما ساعد الفلاح على فلاحه أرضه وريها وصنع حوضًا تشرب منه الحيوانات الصغيرة فقط ولم يهمل الأطفال والكبار في صنع أدوات اللعب والتسلية التي لو ظهرت اليوم لحرص الكل على اقتنائها. وأحمد هذا هو صاحب غرافات الحمامات والخمور وتفنن في صنع الأخيرة حتى إن منها ما يصب من النبيذ بقدر ما يحتاج إليه الإنسان، وإذا ما حاول صب كمية أخرى عليه أن ينتظر فترة من الزمن، وإليه يرجع الفضل في اختراع الأجهزة التي تعين أثقال السوائل المختلفة

وأخرى تمتلئ آلياً عندما تفرغ كما صنع قوارير يشرب منها الإنسان حسب رغبته إما نبيذاً صافياً أو ممزوجاً أو ماء، وركب مصابيح يخرج فتيلها آلياً كما يتدفق فيها الزيت تلقائياً ولا يستطيع الهواء أن يطفئها، وقد نجح في صنع جهاز لري الأرض وهو يصفر كما يصدر أصواتاً خاصة تشير إلى أن المياه قد بلغت الارتفاع المطلوب كما صنع مختلف أنواع النافورات وتفنن في الحيل المائية حيث يندفع الماء مكوناً مختلف الأشكال والشخوص، وقد بلغ أحمد من المهارة بحيث استطاع صنع جهاز فلكي يخطئ بواسطته الرأي اليوناني القائل: «إن كرة تاسعة تحيط بالفضاء». وهل بمستغرب أن يضع ابن موسى بن شاكر خبرته وإمكانياته في خدمة العلم الذي كرس له والده حياته أعني الفلك؟! لقد اشترك أحمد مع محمد وركبا ساعة نحاسية ذات حجم كبير وقام محمد بعمل حساب شروق وغروب أهم الكواكب والنجوم حسب اليوم والسنة. أما أحمد فقد قام بتنفيذ العملية الحسابية المعقدة التي وضعها أخوه، وكانت هذه الساعة قطعة فنية عجيبة ووحيدة من نوعها من حيث صناعة الآلات وتركيبها، وقد أثارت إعجاب كل من شاهدها فقد رآها الطبيب ابن ربان الطبري في القصر الجديد للخليفة فقال: أما مرصد سامراء رأيت آلة ركبها الأخوان محمد وأحمد ابن موسى، والأخوان خبيران بعلم الفلك وتركيب الآلات. والآلة التي صنعها عبارة عن كرة وعليها صور الأفلاك وأجرام السماء وتتحرك هذه الآلة بفعل الماء، فإذا اختفى نجم من نجوم السماء اختفى في نفس الوقت النجم الذي يقابله في الكرة عن طريق خط يمثل دوران الأفلاك وله نظيره في السماء، وعندما يعود النجم في السماء إلى الظهور مرة أخرى يظهر هذا النجم على الكرة فوق خط الأفق. «الأخ الثالث الحسن» كان كما تحدثنا المصادر العربية نابغة عصره في الهندسة كما كان عبقرياً وحيداً اشتهر

بالذاكرة القوية وسعة الخيال والتصور ولم يلقنه أحد ما بلغه من إعجاز في الهندسة، وما عرضت عليه مسألة من المسائل إلا وبادر إلى حلها، وكان هو أول من توصل إلى هذا، ويروى عنه أنه كان يجلس غارقاً في تفكيره وجلس مرة في مجلس من مجالس الخاصة فلم يسمع شيئاً مما دار من حديث في ذلك المجلس، ويروى عنه عن نفسه أنه إذا عرضت له مشكلة من المشاكل كان يرى العالم وكأنه جسم من الظلام ويشعر هو وكأنه قد خارت قواه أو في حالة حلم! وحدث يوماً ما أن التقى في حضرة المأمون بفلكيه الخاص المروزي الذي اشترك في مراقبة الشمس في دمشق، وكان المروزي قد قرأ كتاب «أويقليد» كما درس الماجسطي دراسة دقيقة إلا أنه كثيراً ما عجز عن فهم كثير من المسائل الرياضية فتحداه الحسن أن يوجه إليه مسألة هندسية شريطة أن يعرض عليه الحسن سؤالاً هندسياً فأخرج هذا الاقتراح المروزي فشكاه إلى المأمون: «يا أمير المؤمنين لقد قرأ لأويقليد ستة كتب فقط». والمأمون الذي يعتبر عالماً في الهندسة فقط، وقد درس كتاب أويقليد لا يستطيع أن يتقبل مثل هذا الاتهام الموجه إلى حبيبه الحسن ولا يصدق، فالتفت مسروراً إلى المهم شاكاً في التهمة فأجابه الحسن: «والله يا أمير المؤمنين لو أردت الكذب لأثبت كذب دعواه ولا استدعيته للاختبار فهو لم يسألني سؤالاً خاصاً بمحتويات هذه الكتب التي لم أطلع عليها ولو فعل هذا لأجبتة على الفور وذكرت له حلها ولا ضير في ذلك عليّ إذا كنت لم أطلع على هذه الكتب»، والمؤلم أن دراسته لجميع هذه الكتب ومسائلها حتى ما صغر منها لم تفده كثيراً أو قليلاً حتى يتمكن من حلها. وقد اقتنع المأمون بهذه العبارة إلا أنه لم يغفر للحسن تقصيره بعدم تنفيذ طلباته. ومن بين أعماله التي قام بها مستقلاً عن أخويه كتابه الذي وضعه حول القطوع المخروطية، كما أنه هو مخترع ما يعرف باسم

القطع الأهليلجي. ولم يبلغ أبناء موسى ما بلغوا من شهرة علمية عن طريق بحوثهم فقط بل عن طريق الخدمات الجليلة أيضاً التي أدوها لعلم الفلك، بفضل ما أوتوا من نبوغ في هذه الناحية، وفضلاً عن هذا فقد كانوا بالرغم من أنهم كانوا في سن الشباب من أكبر مشجعي ومناصري العلم والعلماء، فكانوا يوفدون البعث على نفقاتهم الخاصة إلى الدولة البيزنطية للبحث عن المؤلفات الفلسفية والفلكية والرياضية والطبية، وكان أبناء موسى لا يترددون في دفع الأثمان الباهظة لهذه المؤلفات اليونانية التي كانوا يزودون بها مكتبتهم الخاصة بدارهم بباب التاج في بغداد. فهناك وعلى قطعة الأرض التي وهبها لهم المتوكل بالقرب من قصره في سامراء وظف أبناء موسى العدد الكبير من المترجمين الذين استقدموهم من مختلف البلاد، وكانوا بصنيعهم هذا يقتدون بأمر المؤمنين الخليفة المأمون الذي اقتنى المخطوطات وشيد المدارس لتخريج المترجمين. والآن نتساءل: كيف تيسرت الأمور وأصبح أبناء موسى الوحيديين الذين جاروا الخليفة في الأخذ بيد هذه النهضة العلمية العظيمة الأثر؟ ألم يمضوا أيام طفولتهم في حياة إن وصفت بشيء بالبساطة والتواضع؟ ألم يمض موسى بن شاعر وأسرته حياة أقرب إلى الفقر من أي شيء آخر؟! والآن نجد أبناءه يدفعون شهرياً لكل مترجم راتباً لا يقل عن خمسمائة دينار ولا شك في أن إنفاق مثل هذه الأموال في اقتناء الكتب وإيفاد البعث وترجمتها ونسخها قد كلفهم في شبابهم الكثير من الأموال؛ فمرتب المترجم أعني مبلغ الخمسمائة دينار كان يساوي بعملتنا الحالية حوالي ثمانمائة جنيه ذهبي، ولا شك في أنها مرتبات عالية كانت تكفل لأصحابها سعة في الرزق وسعة في الوقت وتفانياً في خدمة رسالتهم العلمية الرفيعة. فمن أين لأبناء موسى جميع هذه الموارد المالية التي مكنتهم من النهوض بمثل هذا العبء العظيم؟!

أين الذهب الذي جمعه موسى إبان غزواته الليلية التي كثيرًا ما شنّها؟ إن أحدًا لم ير غزواته ولم يشاهد أسلابه، وهل كان هدف موسى من كل مغامراته تمويل مثل هذا المشروع العلمي الجبار؟! لقد استخدم أبناء موسى كثيرين من العلماء من بينهم حنين بن إسحق وإسحق ابن حنين ابنه وحفيده حبيش بن الحسن، وقد كان هؤلاء من أكثر وأجود العلماء إنتاجًا، ولا يفوتنا أن نذكر من أشهر المترجمين أيضًا الذين عملوا لأبناء موسى ثابت ابن قرة وكان صابئيًا من الذين يقصدون النجوم والأجرام السماوية. فهذا الشاب العربي الذي أصبح فيما بعد عالمًا فذاً كان قد اهتدى إليه محمد بن موسى، فقد حدث أن محمدًا في رحلة من رحلاته الاستطلاعية بحثًا عن المخطوطات توجه إلى اليونان وآسيا الصغرى وعند عودته مرًا بحران التقى في «كفر توتة» بهذا الشاب الذي كان يعمل صرافًا في محل له صغير، وكان إلى جانب إلمامه بالنقود عالمًا بعدة لغات، فكان هذا الشاب هو الذي يبحث عنه محمد بن موسى بهو خبير بالحساب ومترجم قدير أحضره معه إلى بغداد واتخذَه تلميذًا له في منزله وقدمه إلى الخليفة المعتضد، فأعجب الخليفة بهذا الصابئي وقدمه على سائر علمائه فترجم ثابت بن قرة عددًا من الكتب الفلكية والرياضية والطبية إلى بني موسى وهذه الكتب لمشاهير العلماء أمثال: «أرشميدس» و «أبولونيوس» و «تيودوسيوس» و «أويقليد» و «أرسطو» و «أفلاطون» و «جالينوس» و «بوقراط»، كما ترجم حنين وابنه وصححها، ثم انصرف بعد ذلك إلى تأليف الكتب فوضع ما يقرب من مائة وخمسين كتابًا عربيًا وعشرة في السريانية حول الفلك والرياضة والطب، فوضعت هذه المؤلفات وذلك الإنتاج لا في مقدمة علماء عصره فقط بل زعيمًا للعلوم الإسلامية قاطبة. لقد تحدثنا عن سيرة بني موسى لا رغبة في الإفاضة فيها فهم أشهر مما نتصور، فمن

بين خمسمائة وأربعة وثلاثين فلكيًا عربيًا حفظ لنا التاريخ أسماءهم، وهذا عدد يندر أن نجده بين أبناء أمة راقية أخرى في العالم، ونقرر أن بني موسى وغيرهم من أبناء جلدتهم قد ساهموا مساهمة كبرى في بعث النهضة العلمية الأوروبية. لكن حياة الإخوة الثلاثة تشع علينا إشعاعات خاصة فدراسة حياة هؤلاء الإخوة العلمية تلقي ضوءًا قويًا على كل مقومات الدراسات التي اعتمد عليها العلماء المسلمون في سبيل النهوض بعلم الفلك منذ أن خرس اليونان إلى غير رجعة. لقد نهض العلماء المسلمون بهذا العلم نهضة كانت له بعثًا جديدًا ترك في أوربا أبعد الأثر فأيقظها وسد الفراغ العلمي فيها. إن نشاط بني موسى في جمع المخطوطات وترجمتها أحيا من الموت تراث العالم القديم الذي طمره النسيان، والعرب هم الذين بعثوه فعادت إليه الحياة ثانية والعرب هم الذين عرفوا أوربا به. اشتهر العرب بعقريتهم الفنية في صناعة الآلات واختراعها، فقد أدركوا معنى ووظيفة الآلات التي جاءهم وصفها وطوروها وزادوا عليها فاخترعوا الجديد منها، وبذلك وضع العرب الأسس لقيام هذه النهضة العلمية الصناعية. إن نظرهم الفنية الدقيقة للظواهر الطبيعية التي تجلت في مرآصدهم تفوقت بكثير على تلك النتائج التي توصل إليها العالم القديم وسبق العرب غيرهم فنجحوا في القيام بالبحوث العلمية الدقيقة وتجلت عبقريتهم التي لا تحد في الرياضيات والعلوم الأخرى، وكان يستولي على العربي الفرح والسرور عند توفيقه في حل مسألة رياضية أو حسابية، وهذا الاستعداد مكن العرب من خلق فروع جديدة في الرياضيات، كما سبقوا أوربا وأوجدوا الوسائل المختلفة للدراسات الفلكية.

الابن الأول صانع الآلات

أسس يوناني الدراسة الفلكية العلمية وكان هذا العالم أقل يونانية من سائر اليونانيين فحتى ذلك الوقت كان علم الفلك اليوناني علمًا تأمليًا نظريًا وقليلًا ما كان يدرك بالإبصار المنتظم، فالعقل اليوناني يهتم بالشكل والنظام والقانون؛ لذلك أسس مع مرور الزمن وتعاقب الأجيال مسرّحًا عالميًا من الكمال، فأوجد لكل العصور فكرة النظام القانوني العظيم للوجود، ومن هذه الناحية يختلف اليونانيون عن غيرهم من حيث إدراكهم للكون فهو شيء ملموس معقول محسوس بخلاف علماء الفلك على نهري دجلة والفرات. لقد اشتهر البابليون بنظرتهم الثاقبة الدقيقة فقد آمنوا بجميع المظاهر السماوية وآثارها واقتنعوا بأن كل ما يجري في الكون مقدر من قبل. أما محاولة نسبة المظاهر الكونية إلى قوانين الطبيعة ومحاولة الاستفادة من هذه الصلة أو من نتائجها فلم تكن تهمهم أو تعنيهم. أما الخصال التجريبية التي كثيرًا ما اتصف بها البابليون فلم تتوافر لدى اليونانيين الذين اشتهروا بالأناة عند الإدراك والحساب الدقيق، فجميع هذا أثر في عقليتهم النظرية تأثيرًا أقل من طبيعتهم الميالة إلى التعليل الفلسفي. ففي حوالي عام 500 ق. م. استطاعوا أن يتصوروا القبة السماوية المرئية وكأنها كرة هندسية جميلة تتفق والتناسق الإلهي، وفي وسطها الأرض التي كانوا يتصورونها قديمًا أنها أسطوانية الشكل تحلق في الفراغ. ثم جاء القرن الثالث ق. م. فنجد «أريسترخ» أحد أبناء مدينة «ساموس» يضع الشمس مكان الأرض في قلب الكون، لكن هذه الصورة بالرغم من جمالها لقيت معارضة قوية من الخاصة والعامة الذين فضلوا تصور الأرض في قلب الكون، فالأرض هي التي أخرجت الإنسان وتعهده والإنسان هو مقياس كل

شيء إلا أن هذا الرأي ينقصه الدليل ولا يكفي الادعاء للأخذ به. وهكذا ظلت الأرض الوطن المقدس في الوجود، وظلت هكذا أيضًا حتى عام 150 ق. م. إذ ظهر في ذلك الوقت رجل من آسيا الصغرى بدأ بحثًا بطريقة أخرى غير يونانية إذ أخذ يقيس السماء ويفحص ويحسب في صبر وأناة ودقة لم يسبقه إليها أحد. والرجل الذي فتح هذا الفتح الجديد في دراسة النجوم ووضع أسس الدراسة العلمية الفلكية هو «هيبارش» فكان يقرأ صفحة السماء بعينين نافذتين ويعد ويقيس بآلات هو واضع معظمها، وقد أهدى هذا العالم ما توصل إليه من معرفة وتواريخ وفهارس للنجوم لجميع الذين يعنون بالدراسات الفلكية، وقد وصفه بطليموس المصري الذي جاء بعده بنحو مائتين وخمسين سنة بأنه أدق العلماء وأخلصهم. والشيء الجدير بالملاحظة أن بطليموس المصري هذا اعتمد في كتابه الماجسطي على ما انتهى إليه «هيبارش»، ولا عجب في هذا، فمجهود «هيبارش» ظل عصورًا طويلة كمثل أعلى للنتيجة التي انتهى إليها علم الفلك، إذ لم يظهر عالم آخر سواء عند الرومان أو من بين الهنود استطاع أن يخطو بهذا العلم خطوة أبعد، وظل الحال كذلك حتى جاء العرب فخلقوا الفلك خلقًا جديدًا، لقد زهر بين العرب فلكيان عظيمان يسمى كل منهما «عمر» وقد جلسا يومًا من الأيام عند عمود مسجد من المساجد وأمامهما كتاب الماجسطي فعبر عليهما جماعة من العلماء فوقفوا وسألوهما: ماذا يدرسان؟ «نحن نقرأ» أجاب أحد العمرين «تفسير قوله تعالى»: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ} [الغاشية: 17 - 18] إن لعلم الفلك أثرًا بعيدًا ومكانة ممتازة عند كل مسلم فطلوع النجوم وشروق الشمس وظهور القمر آيات بينات ناطقة بعظمة الله وعلمه. هذا الله الذي ينطق القرآن الكريم بمجده وقوته هو خالق السماء والأرض والظلام

والنور ويحيط بكل شيء علمًا؛ لذلك قال أحد كبار فلكي العرب ألا وهو
البتاني: إن معرفة النجوم تشبه معرفة الأشياء التي يجب على الإنسان
أن يعرفها ويدركها كقوانين الذين وأوامره فعن طريقها يهتدي الإنسان
إلى معرفة الأدلة التي تثبت وحدانية الله وعظمته وحكمته وقوته وكمال
علمه، فلعلم الفلك عند المسلم قيمة علمية عظيمة. لقد توقف حياة البدو
الرحل الفلاحين منذ عصور بعيدة جدًا على السماء وأحوالها الطبيعية؛
لذلك اهتم القوم بعلم الفلك ومجاري الأفلاك، ولما جاء الإسلام وجدت
صلة قوية بين عقائده وفرائضه وبين النجوم وسائر الأجرام السماوية
وبخاصة عند قيام المسلم بفروضه اليومية، وقد نادى القرآن الكريم
بوجوب النظر إلى السماء وشعائر الإسلام الدينية والمحافظة عليها
وعلى مواقيتها تحتم على المسلم العناية بمراقبة الشروق والغروب وما
بينهما. فالمؤذن في المسجد يجب أن يكون ملماً بشيء من علم الفلك
ليستطيع توقيت مواعيد الصلاة، ويجب أن يعرف استخدام آلة تحديد
شروق الشمس وجريانها في كبد السماء ليحدد مواعيد تأدية فرائض
الصلاة، كذلك يجب عليه أن يعرف طلوع الهلال وغيابه في شهر
رمضان شهر الصوم، كما هو مطالب بمعرفة غياب الشمس وشروقها
ليحدد المغرب والعشاء والسحور والإمساك والفجر والظهر والعصر.
والمسلم مطالب أيضًا بمعرفة مواعيد الكسوف والخسوف فكل منهما
يتطلب الفرائض الخاصة. والاتجاه إلى مكة عند الصلاة شرط لا بد منه
لإقامة الصلاة فالاهتمام بالسماء وما يجري فيها أهم للمسلم من الطعام.
فلا عجب إذا رأينا المسلمين يقبلون على كل ما يتصل بالنجوم والأفلاك
لذلك شجع الخلفاء هذا الاتجاه ودفعوا الشعب إليه حتى لم يمض زمن
طويل إلا وأصبح الفلك علمًا تأتي دراسته والعناية به في مقدمة العلوم
الأخرى؛ لذلك تخرج منهم المراقبون والمساحون والمحاسبون كما فعل

العالم «هيبارش» من قبل. واستتبعَت دراسة الفلك إقامة المرصد، ولعل أشهرها هو ذلك الذي شيده المأمون في بغداد أو دمشق، ولا ننسى تلك التي شيدها الخلفاء الفاطميون أمثال العزيز والحاكم في القاهرة وعضد الدولة فيما بعد في بغداد في حديقة قصره. والمرصد الذي شيده السلجوقي في ملك شاه في نيسابور في شرق فارس، وكذلك هولالكو المغولي في «مراغة» غرب فارس، وأولوغ بك الأمير التتري في سمرقند. ولعل هولالكو كان الوحيد من بين جميع هؤلاء الذي لم يكن مقتنعا تماما بأهمية هذا العلم وفائدته، ففي هجومه على قلب الدول العربية استطاع حفيد جنكيز خان القضاء على صغار أمراء فارس كما قتل بحد السيف الأمراء الإسماعيليين وزعماء الحشاشيين، ولم يكتف بذلك بل خرب بغداد وأشعل فيها النيران وأزال من الوجود العباسيين، إلا أن الحضارة العباسية الإسلامية أبهرت أنظار هذا البدائي حتى إنه قرر العمل على الأخذ بيد القائمين عليها، فاتخذ من الرياضي العبقري والفلكي الذائع الصيت ناصر الدين الطوسي (1201 - 1274) -والذي كان في خدمة الأمير الإسماعيلي الذي قتله هولالكو- وزيرا لماليته. لكن ناصر الدين كان شديد الحرص على مواصلة أبحاثه العلمية إلى جانب وظيفته؛ لذلك فهو في حاجة إلى مرصد فكان هذا الاقتراح، إلى جانب المطالبة باعتماد المبلغ اللازم لإقامته مدعاة لإشارة الشك والريب في قلب هذا البدائي المتوحش؛ لأنه ما كان يجول بخاطره أن علم الفلك هذا يتطلب إقامة مرصد، وأن المرصد يكلفه هذا المبلغ من المال. فأجابه ناصر الدين أن فائدة هذا المشروع سيثبتنها هولالكو من هذا المثال البسيط الذي سيقدمه له. فقد طلب من هولالكو أن يسمح له بصناعة حوض كبير من النحاس ويضع هذا الحوض على سطح القصر، وفي المساء لما اجتمع سائر الأعيان والوجوه حول الخان أمر ناصر الدين

سرًا بدحرجة هذا الحوض فأحدث صوتًا مخيفًا أوقع الرعب في قلوب جميع الحضور عدا ناصر الدين وهولاكو وكاد الآخرون يموتون رعبًا وفرعًا. فقال ناصر الدين لهولاكو تأمل أن الذي يعلم الأشياء لا يخشى وقوعها وهذا من فوائد علم الفلك، فالذي يفهم هذا اعلم لا يخشى ما قد يقه لأنه يعرف الأسباب؛ فإذا وقعت واقعة تقبلها العالم هادئ النفس لأنه عالم بها ولا يجهلها؛ فاقتنع الخان بكلام وزير ماليته وسارع إلى إجابة طلبه فرصد له الأموال الطائلة لبناء المرصد وتأثيثه فلما تم المرصد فرح به الخان فرحًا عظيمًا وأهداه مبلغًا كبيرًا من المال يقدر بعشرين ألف دوكات، كما زود المرصد بمكتبة تحتوي على أربعمئة ألف مجلد جمعها من مكتبات بغداد وسوريا والعراق، كما استدعى عددًا كبيرًا من علماء أسبانيا ودمشق وتفليس والموصل والمراغة ليعملوا تحت إشراف ناصر الدين ويضعوا الزيج الفلكية الجديدة بتكليف من الخان. أخذ ناصر الدين يوجه اهتمامه إلى السماء ومتابعة سير النجوم والأفلاك ومختلف الكوكبات واستنفدت هذه المراقبة من عمره زهاء الثلاثين عامًا، وذلك لأن زحل يحتاج إلى زمن يقرب من هذا لإتمام دورته، لكن هذا الخان البدوي غير المستقر اعتبر هذا الزمن طويلًا جدًا فأصدر أمرًا يقول فيه إن هذه التأمّلات وتلك الدراسات يجب أن تتم في زمن لا يتجاوز اثني عشر عامًا، وفعلا تم وضع جداول الخان في الزمن الذي حدده. لقد حصل ناصر الدين الطوسي على مرصده، وكان معهدًا للأبحاث لا يوجد ما يضارعه، وأصبح مشهورًا شهرة عالمية في أجهزته وأبحاث علمائه. مهر العرب في صناعة الآلات وتركيبها كما شاهدنا هذا من مثل أحمد بن موسى، وبذل العرب جهدًا مشكورًا في سبيل استخدام الماء والاستفادة منه، والماء كما نعلم هو سر الحياة وعليه تتوقف، ففيما يتصل بري الأراضي صنعوا أنواعًا مختلفة من الوسائل مثل: السواقي

والظلمبات والروافع، كما نجحوا في تركيب مضخات تعمل بالنار. والشيء غير المؤكد هو مدى محاولة العرب التغلب على الهواء والتخليق فيه، والواقع أننا نجد في حوالي عام 880 م في أسبانيا الطبيب بن فرناس يبني أول طائرة من قماش ورياش، وقد نجح فعلاً في التخليق بها مدة طويلة كما حاول القيام بعمليات انسيابية فسقط ولم يتحقق حلم «إيكاروس». لكن هواية صناعة الآلات عند العرب ظلت محصورة تقريباً في عمل آلات الرصد ومختلف الآلات الفلكية وما جاءهم عن اليونان لم يغنهم شيئاً لتحقيق أهدافهم التي كانوا يرومون تحقيقها، فقد أدخلوا على هذه الآلات الكثير من الإصلاحات، كما اخترعوا جديداً للرصد والقياس، وقد بلغوا بها حد الكمال وأخذتها عنهم أوروبا وظلت تستخدمها حتى اخترع المنظار البعيد. وحدث أن ابن ناصر الدين الذي كان رئيساً لمرصد المراغة زار يوماً ما هذا المرصد فاستولت عليه الدهشة من كثرة ما عاينه ورآه من آلات الرصد، ومن بينها آلة عبارة عن كرة مشتملة على خمسة أطواق لقراءة مواقع النجوم، وهذه الأطواق الخمسة مصنوعة من النحاس، وأول هذه الأطواق هو دائرة نصف النهار وكان مثبتاً في الأرض والثاني خط الاستواء والثالث سمت الشمس والرابع خطوط العرض والخامس الاعتدالان، وقد شاهد ابن ناصر الدين علاوة على ذلك دائرة لقياس السمت وتعيينه. ومع مرور الزمن أخذت هذه الحلقات في الكبر وهي المستخدمة في هذه الكرة ذات الحلقات الخمس النحاسية، وقد صنعها العرب كما وصفها بطليموس إلا أن المقاييس العربية كانت أدق وأضبط، وقد بلغ قطر الحلقة النحاسية ثلاثة أمتار ونصف المتر أو أكبر. وللإنسان أن يتساءل الآن: كيف استطاع العرب صناعة مثل هذه الحلقات العظيمة وهي تحتاج ولا شك إلى شيء كثير من الدقة والإتقان، فهل كان لدى العرب أجهزة تحول

الدائرة إلى كرات، أعني آلات خراطة وصناعة مثل هذه الحلقات النحاسية الثقيلة والتي كان يبلغ قطر الواحدة منها نحو خمسة أمتار، وصنعها ابن قرقة حوالي عام 1100 في القاهرة، وتطلبت الاستعانة بوسائل أخرى تشبه ولا شك آلات الخراطة الحديثة المستخدمة اليوم في أوروبا والتي توجد بها رقائق من الصلب قوية تدور وتقطع الحلقات. ولما انتهى ابن قرقة من إعداد حلقاته الكبرى في القاهرة اعترض عليه السلطان قائلاً: لو صنعت حلقة أصغر من هذه لوفرت على نفسك جهداً كبيراً، فأجابه ابن قرقة: لو استطعت أن أصنع حلقة طرفها عند الهرم والآخر يصل إلى الجانب الآخر من النيل لصنعتها، إذ كلما زادت الآلات حجماً كانت النتائج التي يصل إليها الباحث أدق إذ ما أصغر آلاتنا إذا ما قيست بعظم الكون. ولم ينجح العرب في صناعة الآلة ذات الحلقات والبلوغ بها فنيا مرتبة الكمال فقط، بل أضافوا إليها ثلاث حلقات يستطيعون بواسطتها عمل مقاييس الأفق فاستخدموا «الحداد» وهو الذراع المتحركة للقراءة تجذباً لعدم الدقة التي قد يقع فيها الباحث من جراء الاختصار على استخدام الجهاز المعروف باسم ذات الحلقات. وزيادة في الرغبة في الحصول على قياس دقيق جداً اخترع العرب آلات جديدة أخرى تقوم على نظريات جديدة وملاحظات جديدة وتجارب جديدة، وهذا الجهاز هو المعروف باسم السميت المربع وقد كان موجوداً في مرصد «مراغه» وهو من أحسن وأدق الآلات وقد ركبه جابر بن أفلح، وهذا الجهاز هو الخطوة الأولى التي مهدت لظهور الجهاز الحديث المستخدم في قياس المساحات المعروف باسم «ثيودوليت». وفي عام 1450 تمكن الألمان «يودنا ملر» أحد أبناء «كونيجزبرج» بإقليم «فرنكين السفلى»، والذي كان يطلق على نفسه «رجيومونتانوس» من تقليد جهاز جابر، وصنع جهازاً يشبهه تماماً وأقامه في مدينة

«نورنبرج». وفي نفس الوقت الذي كان فيه ناصر الدين الطوسي في شرق الدولة الإسلامية يعمل في مرصد المراغة ويراقب النجوم، كان يعيش ملك مسيحي في مدينة «بورجوس» في شمال إسبانيا، وكان هذا الملك قد اقتنع تمامًا بمقدرة المسلمين العلمية وتفوقهم، ولم يتردد في الاستفادة من هذه العبقرية الإسلامية. فهذا الملك المسيحي الذي كان يقدر المسلمين وعبقريتهم العلمية، المسلمين الذين كانوا أعداءه، هو الملك ألفونس العاشر ملك قسطنطينيا وقد عرفه التاريخ تحت اسم الحكيم ولو أنه لم يشتهر بكياسة سياسته أو إمامه بأطراف المعرفة أو الثقافة. وكل ما كان يمتاز به هو تقديره للثقافة الإسلامية وتبجيلها، وقد أولع بها حتى إنه أحبها حبًا أفلاطونيًا ولعل الناحية العلمية الإسلامية التي استولت على لبه بصفة خاصة هي نبوغ المسلمين في علم الفلك، هذا العلم الذي يكشف عن مقدرات البشر، والذي ينتقل بالإنسان من الأرض إلى السماء وفي الوقت الذي يكسب فيه الإنسان السماء يخسر الأرض، لذلك شغف هذا الملك جدًا بعلم الفلك الذي أتقنه العرب ونبغوا فيه بينما كانت أوروبا حتى الوقت تجهل هذا العلم جهلاً تامًا، أما هو -كما يأمل مستشاروه اليهود- فيجب أن يكون الأول الذي يشيد مرصدًا في مملكته مثله في ذلك مثل خلفاء العرب وحكامهم بل يجب أن يكون مرصده أكبر وأن يزوده بآلات وأجهزة أحسن وأكمل لكي يصير أكمل وأحسن مرصد في العالم. لكن لتحقيق هذه الغاية يجب عليه أن يستعين بالعلماء العرب أو اليهود الذين تخرجوا على الأساتذة العرب وأخذوا عنهم الكثير، لذلك أمر هذا الملك المسيحي بترجمة سائر الكتب العربية إلى اللغة القسطنطينية الدارجة وأسوة بما فعل العرب يجب أن تتركب وتقام أكمل وأدق حلقات في العالم. لكن أوروبا لم تكن حتى ذلك الوقت تتشعر بهذه الحياة العلمية التي وجدت طريقها إلى قلب ذلك الملك المسيحي، هذا الملك الذي كان

يفخر أيضًا بأنه يحمل لقب الملك الألماني ولو أن قدمه لم تطأ أرض ألمانيا. وأخذ يبذل كل جهده في سبيل خدمة العلم ونشره في بلاده دون أن يحمل بين طيات قلبه بغضًا لأعداء بلاده أو عقيدته، وإن ظلت مجهوداته مجهولة خارج بلاده، ولما شيد «رجيومونتانوس» في منتصف القرن الخامس عشر في مدينة «نورنبرج» جهاز الحلقات مستأنسًا بمواصفات بطليموس اتضح له أن هذا الجهاز لا يداني الجهاز العربي دقة وإتقانًا. أما جداول ألفونس فقد كان حظها أحسن فهي في الواقع من وضع الفلكي العربي «الزركلي» الذي عاش قبل ذلك بنحو مائتي عام في طليطلة، وقد ترجم الطبيب الملكي «دون أبراهام» كتابه إلى اللغة القسطنطينية فاعترف منه جميع فليكي أوروبا في دراساتهم فنحن نعلم أن «نيقولوس كوزانوس» قد اجتمع بأولئك الفلكيين عام 1436 باحثين اقتراحًا لتعديل التقويم إلا أنهم لم يوفقوا؛ لأن جميع الأسس الضرورية لمثل هذا العمل لم تكن متوافرة، وبالرغم من تقادم الزيج الفلكية في ذلك الوقت إلا أنها ظلت هي المعتمدة حتى أيام «كوبيرنيكوس». وكانت هي الأسس لحساب التقويمات السنوية، وفي عام 1551 فقط قام الأستاذ «رينهولد» من مدينة «فيتنبرج» بمحاولته الناقصة وهي الاستعاضة عنها بزيجة البروسية. ومن بين الآلات والأجهزة التي كانت في مرصد الملك ألفونس والتي أخذت عن الآلات والأجهزة العربية هذا العدد الكبير من الأسطرلابات المختلفة وأحسنها هو ذلك المعروف باسم الأسطرلاب الكروي، كما عثر في هذا المرصد على آله صغيرة في متناول اليد وسهلة الاستعمال، وهي عبارة عن أسطرلاب، وكانت أكثر تداولًا بين العرب من القطوع المخروطية. أما ذات الحلقات فكانت تستخدم في المرصد فقط بينما نجد هذه الآلة الصغيرة، بمساعدة كبسولة معدنية، تؤدي أجل الخدمات التي تؤديها

اليوم لنا ساعة الجيب فبواسطتها يستطيع المسلم تحديد أوقات النهار، فالصلاة والقبلة. كذلك كان من المستطاع بواسطة هذا الجهاز إجراء الحسابات الفلكية فكانت هذه الآلة التي أطلق عليها اليونان اسم ماسك النجوم أحب آلة توفيت عند العرب وأكثرها تنوعاً. وبينما لم يستخدم اليونان الأسطرلاب إلا في استعمالين أو أكثر قليلاً إذا بنا نجد في كتاب الخوارزمي حول الأسطرلابات ذكر ثلاثة وأربعين نوعاً، وبعد ذلك بزمان قصير نجد مؤلفاً آخر يذكر ما يقرب من ألف ويصفها وصفاً دقيقاً. وقد طور العرب الأسطرلاب وهدبوه كما استعملوه في مختلف الأغراض. وهناك نوع كروي من الأسطرلابات وآخر على شكل العدسة وثالث بيضاوي ورابع على هيئة بطيخة وخامس وكأنه عصا. والشيء الجدير بالذكر أنه يندر أن نجد فلكياً مسلماً لم يعن بنبأ الأسطرلابات واستخدامها، وأقبلت أوربا على هذا الأسطرلاب وأخذته، ففي القرن العاشر الميلادي أحضر بعض طلاب العلم المتجولين أولى هذه الآلات الدقيقة ذكرى لدراساتهم الطويلة في الجامعات العربية، وفي النصف الأول من القرن الحادي عشر كتب ألماني كتابين حول فوائد الأسطرلاب، والكتابان يفيضان بالاصطلاحات والآراء العربية. ومؤلف هذين الكتابين النادرين كان الابن التعس للجراف السويبي «فولفرد» وقد أصيب هذا الابن الشقي عند ولادته بشلل الأطفال فلزم المحفة منذ طفولته، وكان هذا الشلل الذي أصابه في عموده الفقري مؤلماً جداً حتى أصبح عاجزاً عن تحريك جسده دون مساعدة آخرين. ولما بلغ السابعة من عمره نقل هذا الطفل البائس «هرمان» إلى دير «ريشناو» حيث ظل به حتى بلغ الحادية والأربعين. لكن بالرغم من هذا الجسم المريض كانت روحه وثابة طموحة مرحة حتى جعلت من «هرمان» المشلول أو كما سمي نفسه «هرمانوس كونتراكتوس» أشهر وأعلم أستاذ في الدير.

والشيء الغريب حقًا أن هذا الشخص المشلول العاجز عن الحركة والتنقل أخذ يتأثر بالحضارة العربية تأثرًا عظيمًا، ولا يعرف هل كان تفاعله مع العلوم العربية جاءه عن طريق بعض خريجي الجامعات العربية الذين كانوا يقيمون في دور الضيافة في «ريشناو» ومعهم بعض الآلات العربية العجيبة والأسطرلابات في أيديهم، وكانوا يتفوهون ببعض الألفاظ العربية والاصطلاحات الفنية التي ترامت إلى سمع هذا المريض المشلول أو حصل عليها من طريق آخر؟ وفي كتب «هرمان» نجد هذه العبارات وتلك الاصطلاحات العربية ولو أنها أحيانًا غامضة مشوهة إلا أنها حية، وإن ظلت غريبة على المطلعين على هذه الكتب.

لقد وصف «هرمان» في كتبه الأسطرلاب وصفًا دقيقًا لكن أحدًا لم يجرؤ ويركب آلة لقياس الزمن وإبان العصور المتتالية نجد استخدام الأجهزة الآلية إذ ظل العلماء المسلمون منهمكين في تركيب هذه الآلات وصناعتها وتصديرها إلى بعض أجزاء أوربا المسيحية وعليها العناوين في اللغة اللاتينية. وفي القرن الرابع عشر فقط استطاع الغرب تركيب هذا الجهاز العجيب، فالأسطرلاب لا يمتاز بتحديد الزمان والمكان فقط بل يؤدي خدمات جليلة جدًا للبحارة في عرض البحار والمحيطات. وفي القرن السادس عشر ازدهرت الآداب والكتب التي اهتمت بالأسطرلاب وصناعته، ولم يأت القرن الثامن عشر إلا وكان البحارة المسيحيون يعتمدون عليه اعتمادًا كليًا في هداية السفن وتوجيهها، وظل الحال كذلك حتى حلت محله أجهزة أخرى. ولم يقف النشاط العقلي العربي عند هذا بل أقبل العرب على المزولة البسيطة لبطليموس وتفننوا واخترعوا منها أجهزة أخرى جديدة مثل: مزولة الحائط ومزولة السميت والمزولة الأخرى السهلة الحمل وغيرها من الآلات التي تجاوزت الثمانية عشر نوعًا. وكان البيروني يستخدم مزولة حائط قطرها سبعة أمتار ونصف

المتري، وهي مزولة أقل بكثير من تلك التي كانت موجودة في مرصد «أولوغ بيك»، إذ يبلغ قطرها أربعين مترًا. وصنع العرب نوعًا جديدًا أيضًا وهو المعروف باسم ذات السدس، وهي آلة بصرية ذات مقياس مدرج على شكل قوس دائري طوله سدس محيط الدائرة تستعمل لقياس الأبعاد «ذات الزوايا»، كما اخترع العرب «ذات الثمن» «الثمينة».

وفي أول مرصد بأوربا وهو أورانيبرج لتشييو براها في جزيرة «هفين باوست زيه» نجد الأجهزة العربية كذلك. وهي أول أجهزة قدمها العرب لأوربا وذلك بفضل هرمان ابن الجراف السويبي. وللعرب أيضًا يرجع الفضل في اختراع الساعات الشمسية التي استطاعوا بواسطتها تحديد وتعيين أوقات النهار بمساعدة النظرية الكروية للمثلث والجدول الذي كان يبين موقع الشمس. وخير ما اخترعوا في هذا الموضوع ساعة شمسية متحركة أسطوانية الشكل، وهذه الساعات الشمسية السفرية قد وصلت أيضًا إلى دير «ريشناو» حيث يعيش «هرمانوس كونتراكتوس»، واستطاع هو أن يصف تركيبها وصفًا دقيقًا، وقد تدفقت قطع من هذه الساعات السفرية فيما بعد على أوربا. وعند تركيب الساعات الشمسية لعب الخيال العربي كثيرًا، وبخاصة في الساعات التي تتحرك بواسطة الماء أو الزئبق أو الشموع المتقدة أو الأثقال. فقد اخترع الساعاتية العرب ساعات شمسية بالطبل فهي تحدث قرعًا في حوض عندما تبلغ الثانية عشرة ظهرًا. والساعات المائية التي تلقي عند كل ساعة كرة في حوض معدني. ثم نجد قرصًا وعليه الأفلاك وعندما يتحرك القرص تظهر الكوكبات أو عند تمام الساعة الثانية عشرة ليلا نجد في هيئة نصف دائرة شبابيك يضيء كل منها عقب الآخر بينما يمر بها هلال. وفي عام 807 م أهدى عربي وهو رسول هارون الرشيد واسمه عبد الله القيصر شارلمان في «إكس لاشبل» ساعة من هذا

النوع: الساعة كانت من المعدن: هكذا يذكر مؤرخ القيصر واسمه «إينهرد» في مذكراته «وكانت مركبة بطريقة عجيبة فنية جدًا. ساعة مائية بين اثنتا عشرة كرة، وعن طريق سقوطها يرن مضرب متصل بآخرها، وفيها أيضًا اثنا عشر فارسًا. وفي نهاية الساعة يقفز الفرسان من اثني عشر بابًا وبعد قفزهم تغلق الأبواب التي كانت مفتوحة من قبل. لكن الشيء الذي يثير العجب حقًا في هذه الساعة لا أستطيع الحديث عنه لأن الحديث عنه يتطلب زمانًا طويلًا..!»! واليوم يستولي علينا العجب عندما نقف أمام دار بلدية ونسمع دقات الساعة ونرى قرصًا يتحرك وشخصًا لا تستقر في مكان، كما فكر العرب من قبل ووجدوا لذة في مثل هذه الصناعة.

الابن الثاني لموسى • الفلكي

لم يتسلم العرب التراث اليوناني دون تفكير بل أخذوه وخلقوه خلقًا جديدًا وهذا حقيق أيضًا فيما يتصل بالآلات العلمية وكذلك مختلف العلوم الأجنبية، إذ لم يكد العرب يتسلمون هذا التراث العلمي حتى أقبلوا عليه ناقدين فاحصين لا مؤمنين مستسلمين لما وصل إليه غيرهم من نتائج ليبينوا بعد ذلك على أساس سليم. ويمتاز التفكير العربي بأنه لا يتقبل المسائل العلمية كحقائق مسلم بها ما لم يفحصها ويطبّقها حتى مؤلفات أرسطو أو بطليموس، فقد عرضوا لها ناقدين فاحصين فأصبحنا نجد مؤلفات تحمل ما معناه: حول الخطأ الذي وقع فيه «ثيون» عند حسابه الكسوف والخسوف: أو: حول اختلاف جداول بطليموس من التجارب

التي بها ثابت بن قرة¹. إن طبيعة العربي الواقعية دفعت العرب إلى إبداء ملاحظاتهم الخاصة، فإذا كان اليونانيون ينظرون إلى كل شيء على أنه كل ويخضعونه إلى قانون ما فإن العربي ينظر إلى الشيء على أنه سؤال ويحاول الإجابة عليه لا مرة واحدة بل مرات ومرات ومئات باحثًا فاحصًا. ولما كان الشيء الذي يهتم العربي هو الناحية العلمية والمواظبة على تأدية الصلاة في ميعادها أو اللحظة التي يظهر فيها الهلال، أعني هلال رمضان والاتجاه في الصحراء والحياة الموت حرص العربي على الحصول على النتيجة الحقيقية الصحيحة، وليس الأمر كذلك بالنسبة لليونان الذين لا يهتمون بالدقة المطلقة، كما قد يهربون من مراعاة الحساب الدقيق. ثم إن مشاهدة السماء ودراساتها ضرورة لا بد منها للمسلم لتأدية التزاماته اليومية، لذلك اهتم المسلمون بعلم الفلك ومن ثم تقدموا في صناعة الآلات والأجهزة، وكانت النتيجة المحتومة لكل ذلك بلوغ نتائج علمية عظيمة في إدراك كنه الشمس والقمر وسائر الأفلاك، ولم يقتنع الفلكي العربي بدراسة الزيج البطلمية بل ذهب بعيدًا فنقدها ووضع زيجه العربية وحتى هذه أعيدت دراستها ونقحت للثبوت من صحتها. وساهم الخلفاء والحكام والأمراء في تقدم الفلك فأجزلوا العطاء للفلكيين وأوقفوا الأموال الطائلة بل كفّلوا حياة العالم وأسرتة لا إبان حياته فحسب بل بعد وفاته أيضًا؛ لأن مثل هذه البحوث الفلكية كانت تطلب سعة في الرزق وسعة في الزمن. وأشهر الزيج الفلكية العربية وجدت طريقها إلى أوربا وظلت مستعملة فيها حتى

1. تقصد المؤلفة كتاب: قول في إيضاح الوجه الذي ذكر بطليموس أن به استخراج من تقدمه مسيرات القمر الدورية وهي المستوية لأبي الحسن ثابت بن قرة المتوفى سنة 288 هـ. مخطوطة بدار الكتب المصرية 1047 سيقات (المترجم).

ظهر عصر «كوبرنيكوس»، إذ أصبح من العسير استخدامها للقيام بالأرصاد المختلفة. أما زيج الخوارزمي والمأمون والبتاني وجداول ابن يونس المعروفة باسم الحاكمة والطليطالية للزركلي فهي التي كانت أساساً لزيج الملك ألفونس. أما الأهمية والنتائج التي بلغها وتوصل إليها العلماء العرب في الطبيعة والفلك فكانت مضرب الأمثال/ فعلماء الفلك في بغداد كما يقول الفرنسي «سديلوت» بلغوا في أواخر القرن العاشر مرتبة من العلم ليس بعدها من مزيد، لقد أدركوا ما كان يجب على العالم إدراكه قبل العدسات والمنظار، ولعل السر في عدم وصول مؤلفات كثيرة من وضع علماء العرب إلى أوروبا هو عدم ترجمة جميع مجلدات المكتبة العربية إلا اللاتينية. ومن أشهر علماء العرب الذين دفعوا الحركة العلمية في أوروبا إلى الأمام وطوروها هو العالم العربي الفرغاني، وكان معاصراً لبني موسى الذين كانوا يعملون في بغداد. لقد قاس الفرغاني خطوط طول الأرض وأدرك، وكان أول من أدرك، أن فلك الشمس كسائر الأفلاك الكواكب يتحرك مع مرور الزمن إلى الوراء، فكتاب الفرغاني في أصول علم النجوم قد ترجم في العصور الوسطى في أوروبا إلى اللاتينية ونشره «ميلنختون» عام 1537 م، وكانت هذه المخطوطة من مخلفات «رجيومونتانوس» في «نورنبرج». ومن بين العلماء المشهورين الذين تلامذوا نجمهم في الفلك ثابت بن قرة تلميذ محمد بن موسى فقد حسب ثابت هذا ارتفاع الشمس وطول السنة الشمسية، وغير ثابت بن قرة نجد البتاني (887 - 918 م)، وقد ذاع صيته في أوروبا في العصور الوسطى إبان حركة إحياء العلوم، وقد بلغ ما بلغ من توفيق عن طريق دقته الحسابية لمعرفة التفاوت بين خطوط الطول للسنتين المدارية والفلكية وعاونه على بلوغ هذه النتائج قياسه دوران الأرض حول الشمس، وقد استخدم لتحقيق هذه الغاية وسيلتين

ولم يكتف بواحدة لقد صحح أبحاث ومحاولات الخوارزمي بواسطة تجاربه التي قام بها لفحص ظهور الهلال وكسوف الشمس وخسوف القمر والزاوية الواقعة بين خطين يكونان زوايا متقابلة. أما المقدمة الفلكية لزيجه المشهورة فقد ترجمها «رجيو مونتانوس» إلى اللاتينية وزودها بشرح. وفي عام 1537 نشرها في «نورنبرج» مع كتاب الفرغاني فعرفت أوروبًا. وفي عام 1645 ظهرت طبعة جديدة في «بولونيا» مستقلة وعنوانها اللاتيني «كتاب محمد البتاني في الفلك مع تعليقات يوحنا رجيو مونتانوس». وقد اهتم «كوبرنيكوس» بالعلماء العرب وحتى حوالي عام 1800 م نجد الفرنسي «لابلاس» يستفيد من كتب ابن يونس القاهري في دراساته وأبحاثه. وقد قام البتاني كذلك بوضع حساب دقيق لدائرة البروج واستخدم وسائل جديدة لتحديد عرض المكان، وجاء بعده ابن الهيثم فتوصل إلى طرق أخرى حديثة؛ وذلك بفضل نظريته الخاصة بالأشعة وانكسارها. هذه النظرية التي كانت نقطة تحول في أبحاث العالم في الطبيعة وبخاصة الضوء¹.

والحسن بن الهيثم (965 - 1039 م) هو الذي أثر في أوروبًا تأثيرًا بعيدًا وعرفته تحت اسم «الحسن» وكان أشهر الأساتذة العرب الذين أخذوا بيدها في هذا المضمار من البحوث، فقد وضع نظرية حول حركات الأفلاك على أطباق غير شفافة وقد شغلت هذه النظرية العصور الوسطى كثيرًا كما خلفت لنا أثرًا في المكان الخاص بـ «شتم» بالقرن من مدينة «إينزبروك» حيث توجد إلى الأمام مائدة من خشب القرو ترجع إلى عام 1428 م، وقد صنعت في «أوجسبرج»، وهي تبين

1 تقصد المؤلف كتاب: المناظر تأليف أبي الحسن بن الحسن بن الهيثم البصري المصري المتوفى سنة 430 هـ (المترجم).

حركة الأفلاك الستة حسب نظريته وفي صورة نموذجية. لكن شهرة هذا العالم العربي لم تقم على هذه النظرية فقط؛ فضله على الفلك يتجلى في اكتشافه أن جميع الأجرام السماوية ومن بينها النجوم الثابتة ترسل نورها، عدا القمر الذي يستمد نوره من الشمس. وهذه النتيجة التي انتهى إليها ابن الهيثم نقلته إلى فكرة أخرى جديدة أدت إلى ثورة عارمة في علم الفلك فقد عارض ابن الهيثم العالمين الإسكندرانيين «أويقليد» و «بطليموس» فأثبت خطأ نظريتهما، وبذلك نجح في فرض آرائه الجديدة. والمسئول عن هذا كله كان نهر النيل والآراء التي قال بها خاصة بالفيضان السنوي واستغلالها في سبيل خدمة وادي النيل. لقد عاش ابن الهيثم كطبيب وموظف بالقصر في البصرة على الخليج العربي عندما علم في القاهرة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله أن رجلاً على استعداد لأن ينظم فيضان النيل، وبذلك يحل مشكلة من أعوص المشاكل التي تشغل بال سكان الوادي فاستدعى الخليفة هذا العالم من البصرة إلى القاهرة وعند وصوله استقبله الخليفة كعادته استقبال الملوك وقدم له مختلف الوسائل لتحقيق أهدافه. فسافر ابن الهيثم ومعاونوه حتى بلغ أعالي النيل، ومن ثم شرع في دراسة حالات النهر وتياراته في أسوان وغيرها من جهات النيل، وكان ابن الهيثم أنى ينتقل يشاهد من الآثار المصرية الفرعونية ما أثار دهشته وتقديره، فقد شاهد المعابد والمقابر وغيرها من الآثار التي ترجه إلى آلاف السنين فالمعابد شامخة والأهرامات قائمة فأمام هذه الأبنية الشاهقة التي تشهد بتفوق قدماء المصريين هندسيًا وفنيًا لم يسعه إلا أن يعترف بعظمة هذا الشعب المصري العظيم والذي كان من المهارة الهندسية بحيث خلق هذه المعجزات. وبالرغم من ذلك لم يحاول تنظيم الفيضان فلا بد أن هذا التنظيم من الأمور المستحيلة؛ لذلك خجل ابن الهيثم وعاد يائسًا قانطًا

إلى القاهرة فأثار فشله هذا سخط الحاكم وسخريته فعين ابن الهيثم في وظيفة إدارية لم تدخل إلى نفسه شيئاً من السرور وشاء سوء طالعهِ أن يرتكب خطأ وخشي ضب الحاكم وتنكيله به فتظاهر بالجنون ونجحت هذه الحيلة فحدد الخليفة إقامته في داره وضربت الحراسة عليه وعلى بيته واستولت الحكومة على ممتلكاته. وحدث أن الخليفة خرج مرة ممطياً جواده ولا يعلم بخروجه أحد وعندما بلغ أبواب القاهرة اختفى ولم يعرف له أثر فكان اختفاؤه لغزاً من الألغاز، وبذلك استطاع ابن الهيثم أن يتحرر من تحديد إقامته وفرض الحراسة عليه وتأمين ممتلكاته فترك سكنه واتجه إلى حي الأزهر حيث أقام هناك واضطر أن يكتسب قوته عن طريق النسخ، وهكذا قضى هذا الرجل التعس حياته حتى توفي. وقد كلفه بعضهم مرة أن ينسخ له مبادئ أوقيلايد والماجسطي لبطليموس فنسخهما بدون خطأ وفي غاية الدقة ليستطيع أن يتغلب على متاعب الحياة ويحصل على قوته اليومي. ومن الجدير بالملاحظة أن ابن الهيثم أدرك الأخطاء التي تردى فيها هذان العالمان فعارضهما وانتقدهما وبين أخطاءهما، فقد قال كل من أوقيلايد وبطليموس أن العين ترسل «أشعة بشرية» على الأشياء المراد رؤيتها، فأعلن ابن الهيثم خطأ هذا الرأي وقال إن العين لا ترسل شعاعاً، وإن هذا الشعاع ليس هو الذي يسبب الرؤية والعكس هو الصحيح فإن الجسم المرئي هو الذي يرسل أشعة إلى العين وإن عدسة العين هي التي تحوله. وكان هذا الرأي لابن الهيثم كشفاً جديداً قفز بالعالم العربي بخواص الحواس قفزة بعيدة جداً وصحح الخطأ الذي وقع فيه العالم القديم، وفسر لنا ابن الهيثم الضوء ومظاهره، كما أوجد بذلك قانوناً جديداً أثبت صحته وأيده بتجارب كثيرة مختلفة فكان ابن الهيثم هو صاحب النظريات العلمية المعتمدة على التجارب، وابن الهيثم هو وأمثاله من العلماء العرب هم

مؤسسو الأبحاث التجريبية وليس «روجر بيكون» أو «باكوفون فرولام» أو «ليوناردو ده فينشي» أو «جليلي»، فالعرب سبقوهم وبلغوا بأبحاثهم التجريبية المستوى الرفيع وأصبح اسم الحسن بن الهيثم هو همزة الوصل وهو النجم الذي أضاء الطريق ومهد لقيام الأبحاث الحديثة بعد أن سبق أوربا إليها. فابن الهيثم هو الذي استغل الزمن الذي مضاه مختارًا في سجنه، كما استغل أيضًا الأعوام التي تلت خروجه وقام بأبحاثه العلمية وتجاربه الخاصة بالبصريات الهندسية فخلق بذلك علمًا مستقلًا. وكيف يقع خسوف القمر إذا كان القمر جسمًا غير مضيء؟ وأنه يستقبل ضوءه من الشمس؟ فمثل هذا السؤال الفلكي دفع ابن الهيثم إلى خلق نظرية خاصة بتكوين الظل عن طريق أجسام نورانية. ومن هنا أوجد رأيه الخاص بمصادر الضوء، وأخذ يقوم بمختلف التجارب وأوجد دراسة خاصة بطبيعة إلقاء الظل كما أطلق هو نفسه هذه التسمية على بحثه هذا. وأول تجربة قام بها هي الخاصة بجهاز يشبه تقريبًا آلة التصوير وبها ثقب، وكانت هذه الآلة هي الأنموذج الأول لآلة التصوير، وقد أثبت ابن الهيثم عن طريق هذا الجهاز استقامة خطوط الضوء، ولم يكذب صدق عينيه عندما شاهد العالم وقد أصبح أسفله أعلاه بمجرد وضع الصورة وضعا عكسيًا. إن التجارب التي توصل بمقتضاها ابن الهيثم إلى هذا الفتح العلمي الجديد هي بعينها التي اهتدى إليها «ليوناردو ده فينشي» فيما بعد. لقد وجد ابن الهيثم تعليلًا لكسر الإشعاعات عندما تمر خلال وسيط مثل الهواء أو الماء، اعتمادًا على هذه الظاهر وتلك الحقائق استطاع ابن الهيثم معرفة ارتفاع الطبقة الهوائية المحيطة بالكرة الأرضية، والشيء الجدير بالذكر حقًا أن ابن الهيثم توصل إلى معرفة ارتفاع هذه الطبقة تمامًا وأنها خمسة عشر كيلو مترًا. ولم تقف أبحاث ابن الهيثم عند هذا، بل امتدت إلى هالة القمر والغسق وقوس قزح،

ونحن نعلم أن أرسطو قد فشل عندما حاول في شرحه تعليلها التعليل العلمي. وذهب ابن الهيثم بعيداً فطبق معلوماته على أجهزة البصريّات فدرس وحسب الانعكاس في قطاع المرآة الكورية أو المخروطية أعني الإشعاعات المتوازية التي توجد في نقطة الاحتراق، كما اهتدى أيضاً إلى قوانين تتلمذت عليه أوربا وعرفته تحت اسم «أرزاكيل» (الزركلي) فهو من بين الأساتذة العرب الذين أخذت عنهم أوربا الشيء الكثير. ولم يشتهر الزركلي بالفلك فقط بل بتركيب الآلات أيضاً فهو الذي صنع الجهاز الذي مدحه «رجيومونتانوس» وقال عنه ما معناه إنه أحسن جهاز وهو عبارة عن أسطرلاب الزركلي، وقد لاقى هذا الأسطرلاب شهرة عظيمة تتفق ومكانة الزركلي الفلكية. ففي القرن الخامس عشر نشر «رجيومونتانوس» مجموعة من الرسائل حول هذا الأسطرلاب.

وفي عام 1204 كتب الفلكي البافاري «يعقوب زيجلر» شرحاً لرسالة الفلكي الطليطلي وفي عام 1534 ظهرت ترجمة لاتينية وضعها (يوحنا شونر) في نورنبرج وترجمة عنوانها: (النظرية التي ظهرت حديثاً حول أسطرلاب الفلكي الزركلي). وقد اهتم بالمسائل الطبيعية والنجوم والفلك أيضاً مواطن من مواطني ابن الهيثم وهو لا يقل عنه شهرة وأعني بذلك المواطن «الكندي»، وقد توفي عام 873 م واشتهر في أوربا شهرة عظيمة وقد سمي فيما بعد باسم فيلسوف العرب ووضع نحواً من مائتين وخمسة وستين كتاباً في مختلف أنواع العلوم، ومن بينها بحث حول تقهقر الأفلاك واللغز الأول لعلم الفلك، وقد حاول اليونانيون معالجة هذا الموضوع فلم يهتدوا إلى نتيجة حتى جاء العالم العربي البطروجي الأندلسي وتوصل إلى الحل؛ كما أنه نقض نظرية بطليموس الخاصة بانحراف الأفلاك والدوائر التي ليس لها مركز مشترك، وبذلك مهد الطريق للعالم «كوبرنيكوس». أما كتاب البطروجي في الهيئة فقد

ترجمه «ميخائيل سكوتوس» عام 1217 وهو فلكي القيصر فريدرش الثاني إلى اللاتينية. والكندي هو أول من استخدم الفرجار لقياس الزوايا في الهندسة كما حسب أثقال بعض السوائل الخاصة وأجرى عدة تجارب على الجاذبية وسقوط الأثقال. أما كتابه حول سقوط الأجسام من أعلى فلم يحظ بمن يترجمه إلى اللاتينية، كذلك الحال مع نظرية الذرة التي وضعها عام 1000 م الطبيب القاهري علي بن سليمان، وقد عالج في رسالته الذرية هذه مسألة إمكانية تقسيم الجسم إلى جزئيات، وهذا التقسيم لا ينتهي، وأن الإنسان لا يصل إلى نتيجة من جسم غير قابل للتجزئة.

كذلك لم تلفت أوربا ملاحظات العرب المتعلقة بالبقع الشمسية والتي تنبتهت إليها أوربا عام 1610 م فقط، وما يقال عن البقع الشمسية يقال أيضًا عن دذبة محور الكرة الأرضية، ولو أن الناس لا يشعرون بها نظرًا لكبر الأرض. ومن الجدير بالذكر أيضًا أن أوربا لم تلفت إلى رأي البيروني الذي نادى به حوالي عام 1000 م (973 - 1048 م) وهو الخاص باعتبار الشمس مركز الكون من وجهة النظر الفلكية، وقد توصل إلى هذا الرأي من قبل «أريستارخ» أحد أبناء مدينة ساموس، وتوصل إليه بعد ذلك بقرن «سليكوس» الكلداني البابلي. وإبان عصر إحياء العلو ظهر العبقرى الألماني (كوبرنيكوس) وقبله بنحو خمسة قرون عرفه العالم العبي البيروني. فليست الشمس هي سبب الليل والنهار بل الأرض نفسها هي التي تدور حول محورها والشمس تجري مع الأفلاك، والحقيقة أن جميع الذين تجرأوا على نقل الشمس من موضعها سيظلون مدى الحياة بمعزل عن الوجود لا يفهمون أحدًا ولن يفهمهم أحد، لذلك ما أعجب التناقض الذي نادى به «كوبرنيكوس» حتى اضطهده أوربا المسيحية ونكلت به أشد التنكيل لأنه خالف تعاليم الكنيسة ورفض كلمة الكتاب المقدس. لكن إذا استثنينا هذه المعارضة

سواء كانت علانية أو سرية فالعالم «كوبرنيكوس» لم يكن هو أو الفلكيون الآخرون في وضع -وهم على ما هم عليه من أجهزة رصد لا يوجد بينها منظار مجسم- يسمح لهم بإثبات صحة آرائهم المناقضة للدين، لذلك كان لا بد من مرور أكثر من قرن على هذه الآراء لكي تفرض نفسها ويقبلها جمهور المفكرين. وما حدث لهؤلاء حدث من قبل للبيروني عندما جاء برأيه وذلك لعدم وجود الأجهزة التي تمكنه من إثبات صحة رأيه. وهكذا ظلت الأرض ثابتة في المكان الذي خصصه لها «هيبارش» في قلب الوجود، وحتى العرب الذين جاءوا بعده والذين اشتهروا بدقتهم الفلكية في مشاهدة الأفلاك ورصدها وخطوا بالعلم خطوات أبعد من تلك التي قام بها «هيبارش» عجزوا عن زعزعة الآراء الخاصة بالعالم. وحتى القرن الثاني عشر نجد الشكوك موجودة في آراء بطليموس الخاصة بالكون، لكن في الشرق العربي وبخاصة في إسبانيا ومراكش نقرأ كثيراً من الآراء التي تشكك في أقوال بطليموس وكان هؤلاء الناقدون متأثرين بآراء أرسطو. وهكذا نجد ابن باجة من سرجوسة يبدأ ببعث فكرة الاعتماد على البراهين الطبيعية للمظاهر السماوية. واستمر هذا النزاع بين أنصار أرسطو وأتباع بطليموس مستعراً بين أفراد مدرسة ابن باجة طيلة ثلاثة أجيال وبخاصة بزعامة أمثال: ابن طفيل وابن رشد والبطروغي، واستمرت الخصومة مستعرة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر في فرنسا وألمانيا وإنجلترا، وخلقت مناضلين أمثال: «ألبرت الأكبر» و «توماس فون إكوين» و «روجر بيكون» و «جان بوريدان» و «ديتريش فون فريبورج». وكان من نتائج المعركة العلمية بعث الوعي التفكيرية في أوروبا.

الابن الثالث الرياضي

أهم من خطوات التقدم التي خطاها علماء العرب بالعلوم، وأهم من الاختراعات التي توصلوا إليها اعتمادًا على رصدهم للكواكب، خلقهم هذا الجيل العلمي الذي قدموه لأوروبا. لقد كانوا أساتذة الرياضيات بخلاف الرومان الذين لم ينتجوا شيئًا في هذا الحقل اللهم إلا هذا النذر القليل جدًا ذا النتائج التافهة واختلاسًا بينما نجد النبوغ الرياضي اليوناني يكاد يقتصر على الهندسة ونظرية المساحات حتى إنهم أسدلوا على ما يعرف فيما بعد بعلم الجبر ستارًا هندسيًا. كذلك الهنود فقد مهروا في الحساب كما عالجوا حساب المثلثات جبريًا وحسابيًا. أما العرب فقد امتازوا بالجمع بين عظم العدد وعظم المساحة، وهذه هبة امتاز بها أصغر أبناء موسى ألا وهو «حسن». وبفضل هذا الاستعداد خلق العرب فروعًا جديدة من العلوم، كما طوروا غيرها تطويرًا تقدميًا عظيمًا ففاقوا بذلك اليونان والهنود، لذلك فالعرب وليس اليونان هم أساتذة أوروبا في النهضة العلمية الرياضية، وساعدتهم على النهوض بهذه الرسالة الأعداد الهندية، فقد خدمهم الخط إذ عرفوا في ذلك الوقت الأعداد الهندية كما أدركوا أهمية استخدام هذه الأشكال الصغيرة التي تزين كتاب «كنكاه» إلى إعجابهم بها والحرص على الاستفادة منها بالرغم من غرابتها عليهم. ففي معاهد الإسكندرية وسوريا كانت هذه الأعداد معروفة منذ زمن طويل دون أن تنال اهتمامهم بخلاف العرب وعقليتهم الرياضية، فقد أدركوا في ذلك الوقت أين وكيف يستخدمونها أعدادًا ورياضة، وبذلك نجح العرب في الاستفادة من هذه المادة الجديدة وفي فترة قصيرة أصبحت جهازًا طيعًا للإفادة منه. فكل تركيب حسابي وكل عملية حسابية فلكية سواء كانت معقدة أو سهلة أخذت تعتمد على

الأعداد، وأقبل العربي مسرورًا على كل عملية حسابية، ثم إن بعض التخطيطات الخاصة بالآلات الفلكية والتي لم تستخدم من قبل تناولها العربي إشباعًا للذاته الشخصية الحسابية، نعم إن التفاني في العناية بأجمل أنواع النظام، أعني الحساب قادهم إلى إتقان المسائل الحسابية التي حار فيها علماء العالم القديم فلم يجدوا لها حلاً. إن مثل هذا الرأي قد يعتبر مفاجأة، وذلك لأن لفظ «أريثماتيكا» لفظ يوناني، ومعناه لذة الاهتمام بالأعداد لكن هذه العملية والاهتمام بالأعداد بالنسبة لليوناني المتأمل عملية كمالية. فلما استيقظ الطفل وأدرك سر الأعداد والحساب، اهتم بنظريات الأعداد ورمزية الأعداد والأعداد الزوجية والفردية وغيرها، لكن ليس ها النوع من الحساب الذي يهتم التاجر في السوق. أما الحساب التجريبي العملي والذي نعرفه اليوم كفن حساب احتسابه اليوناني فيما بعد في هذا النوع الذي يعرف باسم تعبئة الجيوش. لقد كان هذا هو العلم المفضل عند الهنود، والهنود هم الذي خلقوه، ولكن كيف كان هذا؟ وكيف أصبح من الممكن البدء به؟ إن الهنود لم يدونوا فقط دينهم وفلسفتهم في الشعر وإلا لتساوت معهم في هذه الظاهرة شعوب أخرى ومنها الشعب العربي، لكن تميز الهنود كذلك بالفلك والرياضة وعبروا عنهما في لغتهم المقدسة الرفيعة وفي شعر يكتنفه شيء من الغموض. والعقلية الإسلامية الدقيقة الفاحصة جعلت من الحلبة القيمة بلورًا صافيًا، فالخوارزمي هو أول من جعل الحساب علمًا صالحًا للحياة اليومية العملية وحذا حذوه فيما بعد العلماء والفرص، فعنوا بالحساب وأضافوا إليه حتى جعلوا منه الأساس الذي شيدت أوروبا عليه فيما بعد علم الحساب الحالي. والفضل في كل هذا يرجع إلى أستاذ الجميع الخوارزمي. وإذا ذكر الخوارزمي ذكر فضله على علم الجبر، فهو أول من نظمه وخلق العرب منه علمًا مستقلًا، ومن علم الجبر الذي كان

يعني به في مصر أبو كامل واختصه البيروني ببعض مؤلفاته، وكذلك ابن سينا والكراديسي اعترف «ليوناردو فون بيزا» معلوماته الخاصة بالمعادلات التربيعية والتكعيبية التي كان يعملها ويدرسها من كتابه الأولى. وقد بلغ علم الجبر القمة على يد رجل نعرفه على أنه شاعر صوفي أو المفكر الحر وهو الفارسي عمر الخيام، فقد خطا بهذا العلم خطوات واسعة حتى جاء ديكارت وسار به بعيدًا. لكن علم الجبر الأوربي لم يبن على علم الخيام أو من سبقوه، فالعالم «ليوناردو فون بيزا» اعتمد على العلامة المصري ابن كامل، فمدرسة الخوارزمي التي تنتسب اسمًا وموضوعًا إلى الخوارزمي. فالجراف فون إيبيرشتين الألماني زعيم طائفة الدومينيكانيين اشتهر في القرن الثالث عشر باسم «يوردانوس نيموراريوس» (أي الذي ينتسب إلى غابات جبل أجه) علم أوربا حساب العرب وجبرهم، وقد وضع رسالتين هامتين حول الموازين والمقاييس اعتمد فيهما على المؤلفات العربية كما اعتمد في كتابه في الهندسة على كتاب أبناء موسى الثلاثة في الهندسة وكتاب ثابت بن قرة الملقب بلقب أوقليد العرب. أما أسلوب الرياضة الذي اختطته أوربا لنفسها، فقد كان في الواقع أسلوبًا جديدًا أو خلقًا جديدًا، فالثوب الهندسي الذي أسدله عليها اليونان جردها منه العرب وكسوها ثوبًا من الجبر والحساب؛ لأن العربي يميل بطبعه إلى الأشكال الهندسية ميله إلى العلاقة بين الهندسة وبين العدد والحساب، فالمسائل التي تتصل بحل المعادلات التربيعية وتقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام أو تقسيم الدائرة إلى خمسة والتي يعالجها اليوناني علاجًا هندسيًا مرئيًا يضعها العربي في معادلة جبرية ثم يحلها حسابيًا. فتحويل العرب الرياضة إلى جبر وحساب اقتبسته أوربا واستعملته وما زالت تستعمله حتى يومنا هذا. والعرب أيضًا هم الذين أوجدوا الحساب بالكسور العشرية بعد الشولة،

فالفلكي الكاشي¹ استكمل حساب الخانات، وذلك بتحويل الكسر الأول إلى خانات مثلاً الكسر.

8 ... 10

$$20, 8 = 2 \text{ ————— } = 2 \text{ ————— }$$

125 ... 100 وهذا مجهود لولاه ما استطاعت بائعة البيض أو بائع اللبن حل المسائل الحسابية العويصة، وكذلك التوصل إلى حساب اللوغاريتمات. وحتى اليوم ما زال الجبر في أوربا مطبوعاً بالطابع العربي فهناك الحرف (X) للإشارة إلى المجهول، وهذه الإشارة اتباعاً للترتيب الأبجدي استتبع استخدام الإشارة (Y) للمجهول الثاني و (Z) للمجهول الثالث فكل هذه الإشارات تحسست طريقها إلى أوربا عن طريق العربية، وقد يبدو هذا القول عجيباً؛ لأن العربية لا تعرف الإشارة (X) لكن المتأمل إلى العربية يجدها تعبر عن المجهول بلفظ «شيء»، ومن ثم اختصرت هذه الكلمة إلى الحرف (ش) ويقابل هذا الصوت في الأسبانية القديمة الصوت ((X)، وقد وجدت هذه الإشارة طريقها إلى المدارس الأوربية في الفرقة السابعة، إذ تستخدم للتعبير عن المجهول الإشارة الأسبانية ((X والتي هي العربية (ش) في ثوبها الجديد الأسباني. والعرب أيضاً هم الذين اخترعوا حساب المثلثات المسطح والكروي وهو علم لم يعرفه اليونان وتنبهوا إليه فقط عن طريق الخطوط المتقاطعة للعالم «منليوس» فظهر لهم هذا التطور المفيد. أما العرب فقد استخدموا عوضاً عنه نظرية الجيب والمستوى المماس

1 لعل المؤلف تعني كتاب: مفتاح الحساب (في علم الحساب) تأليف غياث الدين جمشيد بن مسعود بن محمود بن الطيب الكاشي المتوفى سنة 840 هـ (المترجم).

والقواعد الأساسية لحساب المثلثات، وبذلك وفق العرب في خلق علم جديد مفيد في الفلك والملاحة والمساحة. وعن طريق ترجمة الكتاب الشهير للعالم العربي أبي عبد الله محمد بن سنان ابن جابر الحراني المعروف بالبتاني وهو كتاب الزيج الصابي، شقت كلمة «جيب» الواردة فيه طريقها إلى سائر العلوم الرياضية، ولا سيما فهذا الكتاب قد لاقى شهرة عظيمة لا في الشرق فقط بل في أوربا أيضاً. وكلمة «جيب» العربية هذه ترجمت إلا اللاتينية «سينوس»، ومنها إلى مختلف اللغات الأوروبية. وعوضاً عن أوتار الأقواس للمربع الكروي نجد العلماء يستخدمون الجيب من جوانب وزوايا المثلث الكروي. كما عينوا وظائف «جيب التمام» و «المستوى المماس» و «ظل التمام» وحسبوا جداول الجيب وجداول المستوى المماس. ثم نجد الفارسي أبا الوفاء يذكر البتاني ويشيد به ونجح في الوصول إلى طرق أخرى لحساب جداول الجيب، وهذه الطرق تسمح له أن يحسب حتى ثلاث خانات من خانة العشرات العاشرة. وقد بلغ هذا الكشف أوجه على يد فارسي آخر وهو ناصر الدين الطوسي وزير مالية هولاكو. ولم تدرك أوربا هذا التطور أو تخطو به خطوة إلى الأمام إلا بعد قرون. وكذلك نجد التاريخ يعيد نفسه كما رأينا في تاريخ الجبر فمجهودات الفرس التي ختمت اختراعات العرب لم تجد طريقها إلى أوربا ولم تخرج من خارج العالم العربي. لذلك فأوربا لم تبين صرحها العلمي على مجهودات الفرس بل على المجهودات العربية، فعن الفلكيين العرب أخذت أوربا الحساب المعروف باسم الطريقة الستينية، وهي النظام القائم على اتخاذ الوحدة ستين قسماً.

وتقسيم الدائرة إلى ستين قسماً. وقد ابتدع البابليون هذا التقسيم الستيني للدائرة إلا أنهم لم يبلغوا الحساب الستيني والذي نجده عند اليونان، وقد خلطوا بينه وبين العشري والأعداد العشرية. والعرب فقط

الذي استكملوا الحساب الستيني، وبذلك أصبح حساب الفلكيين. والعرب أيضًا هم الذين سبقوا أوروبا بنحو سبعمائة عام قبل إنجلترا وألمانيا إلى إيجاد الحساب الخلافي، وصاحبها الفضل في إيجاده الطبيب الفيلسوف ابن سينا (890 - 1038) واللاهوتي الغزالي (1053 - 1111) وهما من أبناء فارس. والذي حدث أن ابن سينا تعلم وهو ابن عشر سنوات بينما كان يعمل في دكان تاجر فحم الحساب الهندي، ومن ثم ظهرت عبقريته الرياضية ونبوغه الفلكي فأضاف عن طريق بحوثه العلمية التي لم يسبقه إليها أحد الكثير من النظريات الطبيعية. كذلك عالج اللانهائي الصغر في الطبيعة والرياضة، ولا شك أن أوروبا لم تنتبه إلى «مثل» هذه النظريات الخاصة باللانهاشي الصغر، أعني الجسم الصغير صغرًا لا نهائيًا إلا في القرن السابع عشر الميلادي بفضل أمثال: «نيوتن» و «لبنيتز». أما الفارابي (870 - 950 م) فقد كان ثاني اثنين أولهما أرسطو عرفتهما الإنسانية، لقد كان الفارابي حكيمًا ورياضيًا عبقرًا وموسيقًا بارعًا، وقد اشتهر بمجادلاته العلمية مع علماء قصر الخليفة في دمشق، وكان الخليفة يشاركهم الأحاديث ويحضر المجادلات. وقد ألقى الفارابي كثيرًا من المحاضرات حول آلة القانون الموسيقية التي اخترعها هو واستخدمها لتهدة أعصاب خصومه عندما كانوا يثورون عندما يحمي ويطيس المجادلة، كما كان يعد المستمعين بالعزف عليه لتقبل وتتبع المناقشات الأخرى. واهتم الفارابي كثيرًا بالنظريات الموسيقية وبخاصة تلك التي تتصل بالإتلاف والفاصلة. وانتهت به هذه الدراسات التي عني بها كثيرًا إلى فكرة اللوغاريتمات التي نجد أصولها في بحثه حول أصول الفنون الموسيقية. ومن غير المعقول أن دراسات الفارابي أو نظريات ابن سينا الخاصة باللانهاشي الصغر هي التي أدت إلى ظهور مثل هذه الأفكار وتلك الاتجاهات فيما بعد في أوروبا إذ لا

صلى بين الماضي والحاضر، وحتى لما كاد يخبو الإشعاع العربي فإن العبقريّة العربيّة ظلت ترسل شعاعها إلى أوروبا التي كانت آخذة في اليقظة من سباتها العميق، فأوروبا عرفت تراث العالم القديم عن طريق العرب فقط فترجمة العرب للمخطوطات اليونانية والشروح التي وضعها العرب عليها والكتب التي ألفها العرب كل هذه كانت العامل القوي في النهضة العقلية الجرمانية وفي تغذيتها، فالعرب بأعدادهم وآلاتهم وحسابهم وجبرهم ونظرياتهم حول المثلاث الكروية وعلوم البصريات وغيرها وغيرها نهضوا بأوروبا ودفعوها إلى الحركة العلمية دفعاً، ومن ثم استقلت واكتشفت واخترعت وتسلمت زعامة العلوم الطبيعية.

وينتمي إلى نفس الأسرة أيضاً علم الفلك

هدفت العصور الوسطى إلى توجيه الأوروبيين وجهة خاصة بعيدة عن الاهتمام بالمظاهر الطبيعية والظواهر الفلكية، فقد حولت أنظارهم إلى الله والإيمان به، والاعتقاد في المعبود كان لا يتطلب منهم إلا تحديد مواعيد أعياد الكنيسة، هذه المواعيد التي كانت تتغير من عام إلى آخر. أما الاهتمام بالشمس والقمر والزهرة والمشتري وبعض الكواكب الأخرى وبخاصة المقدسة منها، فقد حرّمته الكنيسة على اتباعها اعتقاداً منها أن هذا الاهتمام قد يؤدي بالمسيحيين إلى الانزلاق إلى الوثنيين. أما الذين كانوا يكرسون حياتهم للكنيسة فاكثفوا بزيارة مدارسها التي كانت تعنى بقليل من المعرفة الضحلة التي ورثتها العصور الوسطى من المدارس الرومانية المتأخرة، وإن شخصاً مثل «بيوردانوس نيموراريوس» أزعج زملاءه الدومينيكانيين لما اعتمد على العلوم العربية التي أخذها عن بني موسى وغيرهم من علماء العرب، وقد

اضطرت هذه الحالة إلى الحصول على إذن خاص، وقد منح هذا الإذن له لأنه كان في الواقع رئيس الطائفة وقد منح هذا الإذن له وصدر قرار باستثنائه في الدستور الذي وضع عام 1228، والذي حرم الاتصال بالوثنيين بالرغم من رقيهم وازدهار حضارتهم. وحرم الدستور كذلك على أعضاء الطائفة دراسة فلسفة الوثنيين والفنون الحرة، وذهب الدستور بعيداً في التحريم فمنع الأعضاء حتى دراسة قواعد الحساب الأولية والتقويم الخاص بتحديد أعياد الكنيسة واستثنى بعض الحالات الفردية. لكن بالرغم من امتهان الكنيسة للمسلمين الوثنيين في نظرها!! إلا أن حاجة الكنيسة وأتباعها إلى العلوم والفنون الوثنية اضطرت أولئك المسيحيين إلى الاتصال بالمسلمين، وذلك في حالة ما إذا فات المسؤولين المسيحيين رؤية البدر في فصل الربيع. فإذا وقع هذا حار القديس المكلف واضطرب ولا ينقذه من مأزقه هذا إلا إرسال بعثة إلى مسلمي أسبانيا -عبدة الشيطان- حيث يسألهم أعضاء البعثة عن تاريخ أسبوع الآلام وعن ميعاد عيد الفصح أو القيامة. إن اهتمام أوروبا المسيحية بالتأمل في السماء ونجومها وكواكبها كان ضعيفاً جداً بل كان المسيحي الأوربي إذا نظر إلى السماء كانت نظرتة مشوبة بسوء النية والشك في أولئك الذين يتأملونها فكان الأوربي يرميهم بأقبح التهم والسبب، لكن هذا الموقف العدائي لم يمنع أمثال «جربرت فون أوريلاك» من تحدي أولئك الذي أعمارهم التعصب، وأقبل على علم الفلك دارساً وباحثاً مع احتفاظه بولائه للقيصر والدولة حتى أصبح «بابا». والشيء الجدير بالملاحظة والإعجاب والتقدير هو ذلك الأسطرلاب المحفوظ إلى اليوم في فلورنسا والذي كان يستخدمه «جوبرت» عندما أصبح بابا وتسمى باسم «سلفستر الثاني» في روما، وذلك لتعيين ارتفاع الشمس وقوس الليل والنهار، ولذلك أشيع عنه أنه تلقى هذا العلم على شيطان في

قرطبة، ومعنى هذه التهمة اللعنة الأبدية للبابا ولعلم الفلك. وللكنيسة الحق في موقف الحذر الذي تقفه، ففي الكتاب المقدس بعض الآيات التي تشير إلى أثر الأفلاك والكواكب في الكائنات الأرضية وقد حاول رجال الدين قصر هذا الأثر على الحيوانات والنباتات إلا أنه توجد بين الأجرام السماوية أخرى أشمل وأعم مثل: المذنبات، والظلام، وظواهر سماوية أخرى للأمراض والحروب والمصائب، ويجب على الكنيسة أن ترفض رسمياً الاعتقاد في أي أثر للكواكب على الإنسان وإرجاع جميع هذه الآثار إلى الله. لكن الكنيسة لم تنجح في هذا، إذ إن تردد أنصار الكنيسة في موقفهم من أثر السماء في الإنسان أفسح المجال للنجوم والأفلاك وتغلغل أثرها بين القوم. لذلك ليس بعجيب أن تجد تراجم الجداول الفلكية والتقاويم السنوية والكتب الفلكية التي كانت تصل أوروبا عن طريق أسبانيا رواجاً عظيماً. أما الإسلام فلم يهتم كثيراً بتأويلات النجوم والكواكب، ولا سيما أنه يرفض تقديس النجوم والأفلاك، ويدعو إلى عبادة الواحد الأحد رب العالمين فاطر السماوات والأرض، لذلك حرم الإسلام الاعتقاد في أثر النجوم بالنسبة لطبيعتها، كما حرم الاعتقاد في الأثر المباشر للنجوم أو الصلاة لها. لكن دراسة الفلك ضرورية فانه جلّ جلاله حض الإنسان على التأمل في السماء والنظر إليها، فباسم الله درست حركات النجوم وباسمه تعالى يبدأ كل بحث علمي، وهذه هي الميزة التي تحلى بها العرب وامتازوا على أوروبا المسيحية، وهذا هو المستوى العلمي الرفيع الذي حفظهم من التدهور والسقوط في الصوفية؛ لذلك كان علم الفلك أو الاعتقاد في القدر بعيداً البعد كله عن السحر والشعوذة وما إليهما من الخرافات التي تهدد حياة المسلم العربي، كما نتبين ذلك من مؤلفات العرب الفلكية التي وصلت إلى أوروبا. وعلم الفلك العربي أكثر من غيره من سائر العلوم الإسلامية لم يتجه هذا الاتجاه

الخاص بتأويل حركات النجوم في العالم الإسلامي إلا بتأثير الفرس فهم واضعو أسسه. ومعلم أبناء موسى منذ طفولتهم، وهو يحيى بن أبي منصور، كان فارسي المولد وكان كغيره من أبناء جنسه هاويًا دراسة الفلك كما كان منجمًا. والشيء الجدير بالملاحظة أن أبناء موسى الثلاثة لم يأخذوا شيئًا عن هواية هذا المعلم، وعلى النقيض من ذلك كانوا عمليين واقعيين وعلماء ناقدين. فالفارسي يؤمن منذ طفولته بعالم الخير والشر الناتجين عن النجوم، والفارسي في إيمانه متأثر بتعاليم زرادشت. أما الكواكب ذات الأثر الشرير والشهب فمن خلق إله الشر «أهريمان» وعن طريق مخلوقاته يحاول هذا الإله الشرير نشر الفساد وإحداث الفوضى والاضطرابات في العالم، فهو عن طريق الكواكب السبعة ينشر قوى الشر في الطبيعة حتى تسبب التعاسة وتجلب الشقاء لبني البشر. والعقيدة البدائية للبابليين في أن النجوم ما هي إلا كتابة سماوية تندمج وطبيعة آلهتهم الفلكية والعقلية اليونانية المغرمة بالهندسة وقواعدها تنظر إلى الأجرام السماوية نظرة هندسية، وهكذا أخذت هذه الديانة العلمية الوثنية تختفي تدريجيًا تاركة بقاياها في فارس كما اتخذت من أبنائها رسلا. ففي عام 760 م نجد المنجم الفارسي المتوفى حوالي 777 والمسمى «نوبخت» يزور، مزودًا بهذه المعلومات الكثيرة، قصر الخليفة العربي المنصور، فقد حدث عندما جاء العباسيون للحكم أن انتقل مركز الثقل السياسي للدولة من دمشق، مركز الأسرة الأموية التي جاءت من الصحراء، إلى بغداد حيث يكثر الماء والأراضي الزراعية الخصبة الممتدة على شاطئ النهرين. وقبل الشروع في بنائها وإرساء أساسها طلب «نوبخت» إلى الخليفة أن يحسب مركز الأقلاك ويختار ساعة سعيدة لبناء المدينة فكلف الخليفة الفارسي «نوبخت» واليهودي «ما شاء الله» رصد هذه الساعة التي يجب أن تولد فيها المدينة، كما

طلب إليهما مراعاة مقاييس المدينة التي سميت «بغداد» أي مدينة السلام. ومن ثم نجد «نوبخت» الفارسي يعين فلكي الخليفة ومستشاره الخاص ومستشار كثيرين ممن جاءوا بعده، ولا غرو في أن يصير أستاذًا لكثير من مفسري الطوابع. وهكذا نجد الفرس يهتمون بجميع المصادر الفلكية القديمة، سواء كانت هندية أو غير هندية كالبابلية لتويكروس وببتيين، وقد ترجمت جميع هذه المصادر وحفظت في قصور الأمراء العرب، وكان كبير دعاة هذه الحركة والمشجعين لإحيائها العالم «ما شاء الله» الذي ذاع صيته فيما بعد في أوربا. وقد بلغ علم التنجيم عند العرب شأواً بعيداً في الوقت الذي ازدهرت فيه الدراسات الفلكية، وقد تخرج عليهم كثيرون من اليهود والفرس فذاع صيتهم لا في الشرق فقط بل في أوربا أيضاً فنحن نجد من أبناء فارس أبا بكر بن الحاسب وعبد العزيز القبيصي، واشتهر الأول في أوربا تحت اسم «البوباث» والثاني «الكابيتيوس»، كما نجد أيضاً اليهودي «سهل بن بشر» الذي عرف في أوربا باسم «سهل» وتلميذ ما شاء الله المسمى «البوهلي» واليهودي الفارسي المشهور «أبو معشر» المتوفى عام 886 م واشتهر في أوربا باسم «البومسر» وكان يعد من بين أعظم منجمي العرب. ويمتاز بأن أحداً لم يسبقه واهتم بمصدر ووسيلة تدريس هذه المادة اهتماماً ملفتاً، فقد جمع أبو معشر جميع ما في متناوله وجعل منه خليطاً عجيباً، كما امتدت يده دون خجل إلى مؤلفات وأعمال الآخرين مثل «سند بن علي» ونسبه إلى نفسه، وبذلك (فقط) استطاع أن يضع كتاباً عظيماً يتفق وعمره المديد الذي بلغ مائة عام. وكتابه هذا لا تكاد تخلو منه مكتبة أوربا فقد بلغ شهرة لم يبلغها كتاب آخر غيره في أوربا المسيحية، وإن اشتهر بالغموض. وفي حلبة السباق على علم التنجيم نجد عربياً ممتازاً ألا وهو الفيلسوف الكندي الذي وضع كتاباً حول التنبؤ

بالطقس، وهذا هو الموضوع الذي اهتم به العرب أيضاً، ومنذ العصر الجاهلي، وبذلك اكتسب الكندي المنجم شهرة عظيمة. فهذا العربي الجنوبي والذي ينتسب إلى قبيلة كندة اليمنية الملكية وهو أحد أفراد بيت أمراء البحرين لم ينج من حسد وحقد بعض معاصريه ومن بينهم بنو موسى، فقد كرهوه وحقدوا عليه حتى قامت بينهم وبينه مشادة؛ لأن خصومه استغلوا حالة التزمت الديني التي كانت متفشية وقتذاك، كما استغلوا وفاة المأمون الذي اشتهر بسعة الأفق ورحابة الصدر، استغل بنو موسى كل هذه الظروف ووضعوا يدهم على مكتبة الكندي ونقلوها من داره. وحدث في ذلك العصر أن الخليفة المتوكل أمر محمداً وأحمد نجلي موسى بحفر قناة على دجلة فكلف الأخوان المهندس الفرغاني الذي عرفناه في مصر عند مقياس النيل، وأبلى بلاءً حسناً واشتهر في أوربا باسم «الفرجانيوس» بتنفيذ هذا المشروع. لكن المقاول المطالب بالتنفيذ ارتكب خطأ شنيعاً، فقد حفر القناة وجعلها أكثر ارتفاعاً من مصبه في دجلة حتى إنه عند انخفاض منسوب المياه لا يجري الماء وحاول ابنا موسى إصلاح الخطأ فعجزا فنار الخليفة الذي كلفه هذا المشروع مآلاً كثيراً على ابني موسى وأمر بإحضارهما، وكلف الفلكي اليهودي والمنجم «سند بن علي» الحضور وفحص الخطأ، فإذا ثبت أن ابني موسى هما سبب هذا الخطأ أمر الخليفة بصلبهما على شاطئ القناة، ومما زاد الطين بلة أن هذا اليهودي الحكم كان عدواً لدوداً لابني موسى وللكندي، والشيء الجدير بالذكر أن اليهودي «سند بن علي» هو بعينه الذي سطا عليه اليهودي أبو معشر وسرق كتابه ونسبه إلى نفسه. فلم يبق أمام ابني موسى وهما في هذا الوضع السيئ إلا أن يرجوا اليهودي إنقاذ حياتهما وأن يغفر لهما خطاياهما معه، ولكن «سند بن علي» استغل هذه الفرصة وطلب إليهما قبل كل شيء تسليم الكندي كتبه، وبعد

ذلك يفكر في معاونتهما. وهنا نجد محمدًا للمرة الثانية وهو في هذا المركز الحرج يضحى بكرامته ويقدم للكندي مكتبته ومعه مستند خطي من الكندي يثبت تسوية المسألة بينهما، وبعد ذلك فقط دبر اليهودي «سند بن علي» الأمر واحتال حيلة جيدة فأخبر الأخوين أنه مسرور برد المكتبة إلى الكندي. وأنه الآن على استعداد لإحاطتهما علمًا برأيه في موضوع القناة وما بها من خطأ. الواقع أن هذا الخطأ لا يمكن الاهتداء إليه ومعرفته طيلة الشهور الأربعة التالية وذلك لأن فيضان نهر دجلة وزيادة مائة يخفي هذا الخطأ. وهناك تقويم لبعض المنجمين يقرر أن أمير المؤمنين لن يعيش حتى ذلك الحين لذلك إنقاذًا لحياتكما سأخبره أن أحدًا منكما لم يرتكب خطأ، فإذا صدق المنجمون نجونا نحن الثلاثة وإذا كذبوا وعاش الخليفة وجاءت المدة التي يتناقص فيها الماء فسنموت نحن الثلاثة. وحدث أن قتل الخليفة بعد شهرين ونجا الثلاثة المتأمرين. وكيف لا يثق «سند بن علي» وهو المنجم المشهور في أقوال المنجمين؟ وفي هذه الحالة صدق المنجمون إذ تنبأوا بالحظ والسعادة كما حقق القاتل نبوءتهم، لكن كثيرًا ما يكذبون ويستحقون سخرية العلماء، فقد حدث أن تنبأوا بالشقاء والبؤس الذي يشير إليه التقاء الكواكب في برج الميزان عام 1186 م، كما لم تقع الثورات التي قالوا بها، والتي ستنتج عنها الحروب والكوارث الجوية. أما وقوع الموت المفاجئ بسبب القتل فهذه مسألة أخرى. . . وقد سبب سوء استعمال الجهلاء للعلوم كثيرًا من الأذى والامتهان والحط من قدرهم وقدر العلم، لذلك هاجم أمثال البيروني أولئك الأفاكين بألفاظ قاسية واتهمهم بأنهم الدخلاء على علوم الفلك والتنجيم، وبخاصة تصرفات أمثال أبي معشر الخاطئة، كما انتقد جرة أولئك الجهلاء الذين لا يؤثرون إلا في أمثالهم. وهاجم الزركلي المنجمين بحرارة وشاركه في ذلك الشاعر «السيمري»، فقد وضع كتابًا

في نقض أقوال المنجمين، وكتب يوسف الهروي في «خدع التنجيم»، وابن سينا الذي هو صديق حميم للبيريوني والفارسي الأصل والعالم الفيلسوف طالب بإلغاء ومنع وتفسير سير النجوم. وكان من نتيجة هذا الهجوم أن اختفى عدد كبير من زعماء المنجمين المشعوذين الأدعياء، وبخاصة عندما تشعبت علوم الفلك والتنجيم فذهب الزبد وبقي ما ينفع الناس، واستطاع المنجمون العرب الوقوف على أقدامهم ولم يمض زمن طويل حتى أخذ التنجيم يتنقل من التجار في الشوارع مقدمًا لهواة الحساب الفرصة الكاملة للاهتمام بالأعداد والقيام بعملية حساب الجداول الخالية من الحساب والتقويم السنوية الضرورية لعملية التنبؤات، وعاون المنجمين على ذلك ارتفاع مستواهم في الرياضيات والحساب وبخاصة في حساب المثلثات الكروية ومفرداتها الدقيقة التي تتطلب الدقة والمهارة الحسابية. ومن هنا نفهم سر استعانة علم الفلك العربي بجداول علم التنجيم واعتمادًا عليها تفوقت على ما وصل إليه البابليون في التنجيم، وكذلك الهنود واليونان. وهذا التفوق في التنجيم كان الناحية الوحيدة التي انفرد بها العرب في بلادهم العربية، ما لم يعتقد الإنسان في الاستفادة من الديانات الفلكية السابقة. وقد أثر العرب عن طريق الفلك والتنجيم في أوروبا أثرًا بعيدًا وساعدهم على هذا جهل رجال الكنيسة ورهبان المسيحية الذين كانوا يحتكرون التنجيم، بالرغم من تفاهة معلوماتهم فيه وعوضًا عن مناقشتهم هذه التعاليم وتلك النظريات أخذوا ينظرون وكأنها تأويل للنجوم وطوالعها، ومن هذه الناحية وجد علم الفلك طريقه إلى أوروبا والأوربيين، وعاون على ذلك آلات الرصد التي أقامها الفلكي الدينماركي «تيشو براها» (1546 - 1601) في مرصده، وعاون على هذا أيادي الملك البيضاء التي أمدت المرصد بكثير من الأجهزة النافعة رغبة منه في الحصول على التنبؤات الدقيقة الخاصة

بالتقلبات السياسية التي قد تتعرض لها مملكته والعمل على تجنبها. ولم يقف علم التنجيم عند الأمراء ومن في منزلتهم بل تعداها إلى الباباوات، فقد أسس «ليو العاشر» كرسياً لتفسير طوابع النجوم في جامعة روما، كما نجد منجمين باباويين يعينون ليوليوس الثاني يوم وساعة تتويج البابا له كما يحددون وقت انعقاد مجلس البابا والكرادلة لبولس الرابع. وهكذا نجد علمي الفلك والتنجيم يسيران معاً زمناً طويلاً، فقد ترجم «ميلنشتون» رسائل التنجيم لبطليموس، كما ألقى في «فيتنبرج» محاضرات حول تأويل مطالع النجوم وحركاتها، واستهل «تيتشو براهام» سلسلة محاضراته في جامعة كوبنهاجن بالحديث عن التنجيم فكانت هذه المحاضرة اعترافاً صريحاً منه بهذا العلم. وتكسب كل من «جليلي» (1564 - 1642 م) و «كبلر» (1571 - 1630 م) قوتها اليومي عن طريق التنجيم، ولو أنهما كان يدركان أن الذي ينتظر الإجابة منهما على أسئلته إنما هي صادرة من الكواكب فقط وبدون إرادة وأخلاق الإنسان الذي فقد ذكاه الذي منحه الله إياه، واعتقد كلا العالمين أن الحياة تتطلب منهما شيئاً من اللباقة استرضاء للجهلاء وكسباً لعطفهم. نعم إن علم التنجيم علم جنوني كما قال «كبلر» وكما صاح: «أيها الإله العظيم أين أراد علم الفلك العظيم الحياة ما لم يرزق التنجيم؟ إن العالم أجن من المجانين وعلماء الفلك كادوا يموتون جوعاً لولا أن أرسل الله لهم هذا العلم الجنوني علم التنجيم». وكما هاجم البيروني وابن سينا شعوبة المنجمين، كذلك فعل مارتين لوتر إذ صب جام غضبه على هؤلاء الأفاكين، وقال إن التنجيم ليس علماً ولا يمكن للإنسان أن يعتمد عليه. وتجريد الأرض من مكانتها الممتازة في الكون بواسطة آراء ونظريات «كوبير نيكوس» قضى على أواصر القرابة بين الفلك والتنجيم، ولو أن العلوم الحديثة بعثت التنجيم من جديد وأجلسته على قارعة الطريق كما

جلس من قبل عشرات القرون. أما الفلك فقد أخذ يرقى ويتبوأ مكاناً
رفيعاً لم يبلغه من قبل، وسواء علم الفلك أو علم التنجيم فإنهما ما بلغا
ما بلغا دون فضل العرب عليهما ثقافياً وعلماً.

الكتاب الرابع الأيادي الشافية

الشفاء العجيب عند الإفرنج

«من عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة -قرب أفقة عند منبع نهر إبراهيم في مشال لبنان- كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يدوي مرضى من أصحابه»، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له «ثابت». فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: ما أشرع ما داويت المرضى، قال: «أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة، وامرأة قد لحقها نشاف (بله) فعملت للفارس لبيخة، ففتحت الدملة وصلحت، وحملت المرأة ورطب مزاجها، فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيئاً يدويهم. وقال للفارس: أيما أحب إليك أن تعيش برجل واحدة أو أن تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة. قال: «أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعة، فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب، وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها.

فضربه وأنا أراه ضربة واحدة فما انقطعت فضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته، وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها فحلقوه، وعادت تأكل من مأكلمهم الثوم والخردل، فزاد بها النشاف. فقال: الشيطان قد دخل في رأسها، فأخذ الموسي وشق رأسها صلياً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت في وقتها، فقلت لهم: ما بقي لكم إلي حاجة؟ فقال: لا؛ فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه». إن الأمير أسامة بن

منقذ، ابن أخي حاكم شيزر، (1095 - 1188 م)، هو الذي سخر من هذه الحادثة التي شاهدها أيام شبابه وعبر عنها في كتابه الاعتبار في فصل عقده لها عنوانه: طبائع الإفرنج وأخلاقهم. إن رواية أسامة بن منقذ ليست دعاية أعداء كما قد يتبادر إلى الأذهان، وليست محاولة مقصودة للنيل من عدو محترم هو في نفس الوقت عدو للعرب، فنحن نقرأ بعد ذلك بقرن حديقاً يريه لنا مؤرخ ثقة يدور حول «الماركجراف ديدو الثاني» فقد كان هذا الرجل قصيراً يصعب عليه التنفس لضخامة جسمه وقد لاقى حتفه على يد «روخلينز» و «جويز»، وذلك لأنه كان ملازماً للقيصر هينريش السادس في رحلته إلى خطيبته في أبوليا، فخاف من القيام برحلته هذه لكثرة شحمه أولاً ولحرارة إيطاليا ثانياً؛ لذلك استشار طبيباً في ذلك فبقر بطنه واستخرج منه الشحم، وهذا حادث لا يقل عن حادث الطبيب الإفرنجي في البلاد المقدسة. فمن التجارب التي تجمعت لدى الأمير أسامة بن منقذ والمعاملة القاسية التي تعرض لها الفرسان المسيحيون وذهب عدد كبير منهم ضحيتها، أصبح لا يحمل أي احترام أو تقدير للطب الإفرنجي، وهو على حق إذا ما اعتقد أنه لا طبيب إلا الطبيب العربي ولا دراسة طبية ناضجة تقوم على أسس علمية إلا في البلاد العربية ولا صيدلة إلا في البلاد العربية، كما لا توجد مستشفيات تضارع تلك القائمة في مختلف البلاد العربية، فهذه مستشفيات ممتازة بمعاملها وكفاية أطبائها ونظافتها ومستواها وتوفر وسائل العلاج والراحة والنقاة لنزلائها حتى كانت مضرب الأمثال، فهل يستغرب أن يستعين الإفرنج بالأطباء العرب؟ ويستطرد الأمير أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار ويحدثنا: ومن عجيب طبهم ما حدثنا به «كليام دبور» (غليوم دبور) صاحب طبرية، وكان مقدماً فيهم، واتفق أنه رافق الأمين معين الدين رحمه الله من عكا إلى طبرية، وأنا معه

فحدثنا في الطريق قال: «كان عندنا في بلادنا فارسٌ كبير القدر فمرض وأشرف على الموت فجننا إلى قس كبير من قسوسنا وقلنا: تجئ معنا حتى تبصر الفارس فلاناً؟ قال: نعم. ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفي. فلما رآه قال: أعطوني شمعاً. فأحضرنا له قليل شمع فليّنه وعمله مثل عقد الأصبع، وعمل كل واحدة في جانب أنفه، فمات الفارس، فقلنا له: قد مات. قال: نعم، كان يتعذب فسدت أنفه حتى يموت ويستريح». وضع اليد، طرد الشيطان، صلاة هذه كانت أحسن أدوية للشفاء كان يستخدمها الأطباء الأوروبيون وهم في أزياء القسيسين والرهبان لشفاء المرضى من أمراضهم الجسدية. «هل أحد بينكم مريض، فإن كان الأمر كذلك فليستدع الإنسان عجائز الحيّ ليصلوا من أجله بعد أن يدهنوه باسم المسيح بالزيت، وصلاة الإيمان لا تكفي لشفاء المريض»، هكذا علم يعقوب الرسول، لكن يسوع نفسه طبيب الجسد والروح شفى حوارِيَّيه والآخرين الذين أراد شفاهم بوضع يده وطرده الشيطان؛ لقد شفى مرضى الأعصاب والعقول والبرص والدوستناريا والنزيف الدائم والأمراض الأخرى. والمسيح لم يشف فقط من الأمراض بل منح تلاميذه بركة الله، لقد منحهم القوة للتغلب على الأرواح الشريرة فكانوا يطردونها، وشفوا بذلك مختلف الأمراض، لقد كلفهم شفاء المرضى وتطهيرهم من البرص والأورام، كما أحيوا الموتى وطردهوا الشياطين. ولا يحتاج الحواريون لتنفيذ مشيئة السيد المسيح إلا إلى الإيمان الكامل، فالعقيدة هي سر الشفاء، فالذي يؤمن يساعد ويتحقق طلباته، هكذا تعلم الكنيسة، وقد عرفت جيداً كيف تفرض نفسها وتدعي شفاء الجسد والروح. أليس الاعتماد على العقاقير الدنيوية كالأعشاب والجنود يضاعف الاعتماد على الله وقوته؟ إن الشياطين والأرواح الشريرة هي التي تحاول إبعاد الإنسان عن الله والاعتماد عليه، تحاول

إبعاد الإنسان عن خالقه، وقد نجحت الشياطين حقاً في إضلال الأغبياء وضعاف الإيمان فلجأوا إلى مثل هذه الأدوية وتلك العقاقير. «إن جميع الأدوية ومختلف أنواع العلاج نشأت أصلاً من وسائل الشعوذة والضلال» هكذا قال أحد آباء الكنيسة ألا وهو «تتيان» وقال أيضاً: «إن جميع هذه العقاقير الطبية بأنواعها المختلفة من صنع الوثنية وحضرتها في صيدلية الطبيعة»، «وذلك لأنه عندما يشفى مريض بعقاقير مادية ويثق الإنسان في مثل هذه العقاقير ومفعولها وقدرتها على الشفاء فإن ثقة مثل هذا الإنسان في الله وقوته يجب أن تكون أعظم، فلماذا لا يعتمد على الله فقط؟ ولماذا لا يتجه إلى الله القوي العظيم؟ أو يفضل المريض أن يشفى كما يشفى الكلب عن طريق العشب، والوعل بواسطة الأفاعي، والخنزير بسرطان البحر، والأسد بالقردة؟ لماذا نقدر الأشياء الأرضية؟». والكنيسة ترى أن استخدام أدوية أخرى غير تلك التي تصفها هي أعني أدوية الروح، كذلك ترى أن احتراف الطب وإجراء عمليات جراحية، عمل مشين يتنافى ومكانة رجال الدين وكرامتهم. وقد استمرت هذه العقيدة سائدة عدة قرون بين الأطباء الدارسين، فقد كانوا عرضة لكثير من الإهانات واللعنات وبخاصة إذا كان الطبيب جراحاً حتى ولو فصد فصدًا لاستخراج الدم فإن الكنيسة لن تغفر له هذا العمل المشين، وفي شيء من الإيجاز لقد حرمت الكنيسة على رجال الدين مباشرة الجراحة، وتركت هذه العملية الجراحية لأناس يعتبرهم المجتمع من الطبقة الدنيا التي كان ينظر إليها باحتقار. وغالبًا ما كان الجراحون يتوارثون هذه المهنة عن آبائهم وأجدادهم، فهي مهنة وراثية ولو أنهم كانوا في نظر الشعب أطباء. ألم يكونوا هم الذي اختارهم الله للقيام بالعمليات الجراحية ويؤدون هذه المساعدات وتلك الخدمات؟ أما موقف الكنيسة منهم فمعروف فيهم ألا تتق فيهم ولا تعترف بهم، كما لا تعترف

الكنيسة بالدواء الذي لا تقررته الكنيسة أو الأطباء الذين لا تعترف هي بهم. فالذي لا يخفف الآلام بل يزيد بها أحياناً إيلاماً يرتكب خطيئة كبرى مع المريض، فهؤلاء الأطباء الجهلاء الذين كانوا يقومون بالعمليات الجراحية عن طريق السكاكين الحادة والإبر كانوا موضع احتقار أسقف الإفرنج «جريجور فون تور» (540 - 594 م) فهو يقول: «ماذا يستطيع الأطباء أن يفعلوا بآلاتهم؟ إن مهنتهم تزيد الآلام ولا تخففها فهم يفتحون العين ويجرحونها ويقطعون فيها بآلاتهم المدببة، وأنهم بذلك يقربون آلام الموت من المرضى دون أن يساعدوا المرضى ويمكنوهم من الرؤية، وما لم تتخذ سائر الوسائل وتراعى الترتيبات الضرورية فإن الرؤية ستختفي، لكن إلها لديه آلة من الصلب واحدة وهي إرادته ولديه مرهم واحد وهو قوته على الشفاء». ومن حسن الحظ أن هبت من إيطاليا القوطية الشرقية ريح جديدة حاولت مطاردة هذه الريح الراكدة الفاسدة المشحونة بالخرافات، ولعل مما ساعد على هذا البعث الجديد أن إيطاليا كانت في ذلك الوقت محتفظة بعدد من الأطباء الشعبيين ثم انضمت إليهم جماعة أخرى من أطباء الجرمان عن طريق اللونجبرديين فقوت ساعدهم وساند كل طبيب الآخر وعاونه على الحياة. ففي أيام «تيودوريش الأكبر» ومستشاره «كسيودور» ازدهرت المدارس القديمة وترعرعت وأمد كل من «أماليسفتنا» و «أثالاريش» المعاهد العلمية بكثير من المساعدات التي عاونتها على النهوض بمهمتها. ففي تلك اللحظة عندما لجأ في الشرق «بوستنيان» إلى العلوم اليونانية مأواه الأخير، أكاديمية أثينا، أسس «بنديك تفون نورسيا» في الجبال المطلة على نابولي البيت الأصلي للطائفة التي ينتمي إليها وهو الدير المعروف باسم «مونت كسينو»، وكان يعني المعجزات أكثر من عنايته بتخريج العلماء، لكن «كسيودور» رئيس وزراء ملك الغوط أجهد نفسه في سبيل

تأسس المجامع العلمية في روما وجنوب إيطاليا حرصًا منه على المحافظة على البقية الباقية من العلوم الرومانية الشعبية فأدخلها الأديرة الأوربية محافظة عليها من الضياع، وهي التي انحدرت إلينا من العالم القديم أولاً، وتطويرًا للحياة العلمية في الأديرة ثانيًا. فمنهج الدراسة بالأديرة كان لا يعني بمادة الطب باختلاف الرياضيات والعلوم الطبيعية بالرغم من ضالة هاتين المادتين أيضًا. والواقع أن الشعب الروماني لم يخلق من الطب علمًا، وما نجده في أوربا مصدره ترجمة ضعيفة فقيرة لبعض المخطوطات اليونانية والبيزنطية، هذا إلى جانب مجموعة من الوصفات الطبية وقليل منها المفيد النافع. أما هذا النوع الذي عرفته أوربا وفيه شيء من الفائدة فيرجع تاريخه إلى مائتين أو ثلثمائة سنة بعد ذلك، وقد أخذته أوربا عن العالم القديم وعن طريق العرب الذين نهضوا بهذه المادة نهضة جبارة، في الوقت الذي كانت أوربا عاجزة لا عن قراءتها فقط بل عن فهمها أيضًا. أما الشيء المهم الوحيد الذي ابتدعه الرومان وفهمه رجال الأديرة فدائرة معارف «سسلزوس». وهكذا نجد مادة الطب في وضع أسوأ من أوضاع المواد الأخرى، فالطب كغيره لم يطلب في الأديرة لذاته بل لخدمة العقيدة؛ لذلك لم تتقدم دراسته أو تثمر الثمار المرجوة، وكان يكتفى علميًا بالنسخ والجمع. والظاهرة الغالبة في أوربا في ذلك العصر التقشف والبعد عن الحياة الأرضية والالتجاء إلى الكنيسة وتعاليمها واحتقار الحياة الدنيا، هذه هي الغايات التي كان يصبو إليها الأوربي حينذاك. والتاريخ يحدثنا أن القديس «نيلوس فون روسانو» وقد جاءه يومًا يهودي يدعى «دونولو» (910 - 1005 م) كان قد درس الطب في جنوب إيطاليا على يد أطباء عرب عرضًا عليه خدمته وهو فخور بما حصله من علم في الطب احتقره القديس وطرده، وقال له: إن أحد اليهود ذكر: خير للإنسان أن يعتمد على الله لا على

إنسان آخر؛ ولما كنت أعتمد على الله وعلى سيدنا يسوع المسيح فلست في حاجة إلى طبك. ثم نجد الواعظ الصليبي المشهور «برنرد فون كليرفو» (1090 - 1153 م)، وقد كان معاصرًا للأمير العربي أسامة بن منقذ كثيرًا ما يشفي المرضى بشيء من الإعجاز إلا أنه حرم على رهبانه الذين كثيرًا ما تعرضوا لأمراض الأجواء غير المناسبة لهم حرًا عليهم الاستعانة بالأطباء أو تناول الدواء، وقد علل هذا التحريم بقوله: ليس من المستحسن أن يشفوا أرواحهم فاستخدام الوسائل الأرضية يضرهم. ولم يكن هذا التحريم ركنًا من أركان الإيمان أو العبادات بل الإيمان العميق الذي غرسه الكنيسة فيهم؛ ثم مع توالي العصور وكثرة الحوار والمجادلات حوله أصبح أرسخ قدمًا من أي شيء آخر. إن المحافظة على صحة الجسد أمر بل وصية وصى بها الله، وذلك لأن مرض الجسد يعوقه عن تأدية فروضه نحو الله، لكن أهم من العناية بالجسد إنقاذ الروح من الوقوع في الخطيئة، لذلك لا يجوز للمريض الذي يتلوى من الحمى أن يستعين بطبيب قبل إعلان التوبة إلى ربه، فقد تقرر عام 895 م في المجمع الديني الذي عقد في «نانتيس»: «على القسيس عندما يبلغه أن أحد مسيحيي طائفته قد مرض أن يتوجه إلى المريض ويرشه بماء مقدس، ويصلي معه ثم يبعد سائر أعضاء الأسرة ويعترف المريض له ويرجوه أن يطهره دينيًا وأرضيًا من الخطايا، فبدون اعتراف لا علاج»، وهكذا أصبح هذه القرار ناموسًا يحترم وينفذ. وفي عام 1215 م نجد البابا «أينوسنس الثالث» في اجتماع عقد في قصر «لاتران» البابوي في روما يقرر وجوب احترام هذا الناموس والحرص على تنفيذ أوامره، كما يقرر منع علاج الشخص الذي يطرد من الكنيسة لأن مثل هذا المريض المطرود لم يعترف بعد، وسبب المرض خطيئة الروح، كما قال بذلك يسوع المسيح إذ ذكر مرة لمريض

شفاه من المرض: انظر لقد شفيت فلا ترتكب خطيئة مرة أخرى حتى لا تصيبك مصيبة أخرى (إنجيل يوحنا الإصحاح 5 آية 14). وقد فهم القديس «كريزوتومس» من كلمات السيد المسيح أن مصدر المرض الخطيئة التي يرتكبها الإنسان فإذا اعترف المريض شفي من المرض، وذلك لأنه إذا ذهب السبب ضاع المسبب، وإذا رفض المريض الاعتراف، ورفض الطبيب المسيحي علاجه واضطر المريض إلى الالتجاء إلى طبيب آخر يهودي أو مسلم ليعالجه طرد المريض المسيحي من الكنيسة، وذلك لأنه بمسلكه هذا يهدد سلام روحه تهديدًا مباشرًا. ولكي نتبين مدى انزعاج الكنيسة عند وقوع مثل هذه الحالات يكفي أن نقرأ خطاب «برنارد فون كليرفو» حيث جاء فيه: «لقد جاء إليه راهب بعد أن ثار وترك الدير وشكا رئيسه بألفاظ قاسية، لأن هذا الرئيس تجرأ وقرر مساعدة طبية للمستبدين واللصوص والذين طردوا من الكنيسة المسيحية». نعم. هكذا كان الإفرنج، والمسلم يعجز عن إدراكه، فهذا هو ذا ابن رضوان الذي كان نقيب أطباء القاهرة في منتصف القرن الحادي عشر، والذي كانوا يلقبونه بلقب «تمساح الشيطان» ذكر مرة في صدى الحديث عن واجبات الطبيب «أن يكون مأمونًا ثقة على الأرواح والأموال لا يصف دواء قتالا ولا يعلمه، ولا دواء يسقط الأجنة. يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه». أما المسلمون في القدس ودمشق فقد كانوا يجهلون تمامًا ما يجري في مستشفى الإفرنج، وكانوا لا يتصورون هذا النظام الذي فرضه فرسان طائفة اليوحنايين على ذلك المستشفى القائم في القدس، فقد اشترط أولئك اليوحنايون على الجرحى الذين يرسلون إلى المستشفى أن يعترفوا أولاً ويذكروا كل ما صدر عنهم من أعمال سيئة، ومن ثم يتناولون لقمة من الخبز الذي يسمى «جسد المسيح»؛ وبعد كل هذه الإجراءات فقط يسمح بإجراء الإسعافات

الأولية للجريح. أما في الوطن فقد كانت طائفة البنديكتيين هي التي تقوم بعلاج المرضى، وعن هؤلاء انتقلت هذه الوظيفة إلى سائر الأديرة الأوروبية، وكان الراهب مطالبًا عند ممارسته هذه المهنة باتباع الحب المسيحي من حيث العناية بالنفس البشرية والعمل على تخفيف آلامها، لذلك أسست هذه الطائفة في مختلف الجهات أماكن الضيافة للرحالة والحجاج والأطفال غير الشرعيين واليتامى والشيوخ والفقراء والمرضى. أما البيوت المخصصة بالمرضى فلم تعرفها أوروبا قبل نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وفقط بعد اتصال أوروبا الصليبية بالشرق العربي حيث اقتبس المسيحيون نظم المستشفيات والملاجئ، ولو أن أوروبا ظلت زمنًا طويلًا تحارب الأطباء ولا تعينهم في المستشفيات اعتقادًا من المسيحيين بأن رسالة الكنيسة فيما يتعلق بالمرضى هي تخفيف الآلام لا الشفاء. ومن أوائل المستشفيات، حسب قول شاهد عيان، ومن أحسن المستشفيات الأوروبية ذلك المستشفى المعروف في باريس باسم «أوتيل ديه» أي «فندق الله»، وهذا المستشفى كما تصفه المراجع التي وصلتنا كانت أرضه مرصوفة بالطوب المغطى بالقش وعليه يتزاحم المرضى. . . أقدام هؤلاء إلى جانب رءوس أولئك، والأطفال إلى جانب الشيوخ والنساء بجوار الرجال.. وأصحاب الأمراض المعدية مع غيرهم جنبًا إلى جنب، كما نجد نساء قد جاءهن المخاض وأطفالًا من المغص يتلون، ومصابين بالحمى يهزون، ومرضى السل يسعلون، وآخرين بالأمراض الجلدية ينهشون. وإذا أضفنا إلى هذا قذارة المستشفى، وكثرة الهوام والحشرات، ونقص الضروريات، وشكوى المرضى ألم الجوع والعري، أدركنا السر الذي اضطر القائمين عليه إلى فتح أبوابه ليلاً نهارًا تمكينًا لأهل المريض ومعارفه من إطعامه هذا الطعام الذي أودى بحياة الكثيرين من نزلائه. أما تهوية المستشفى فقد

كانت من الرداءة بحيث اضطرت الممرضين وغيرهم إلى وضع اسفنجة مبللة بالخل على أفواههم، وخاصة أن جثث الموتى كانت تظل في أماكنها أيامًا طويلة حتى تنقل. وكان المرضى هم الذين يقاسون من هذه الحالات أشد الأهوال وأكرها، من رائحتها الكريهة التي تبعثها، وتجمع الذباب حولها.

مستشفيات وأطباء لم ير العالم نظيرهم

والدي العزيز: إنك تسأل عما إذا كنت تحضر لي نقودًا عند زيارتك، والواقع أنني عندما أغادر المستشفى تصرف لي إدارته كسوة جديدة وتسلمني خمس قطع نقود ذهبية أنفق منها عقب خروجي من المستشفى مباشرة حتى لا أضطر إلى العمل وأنا في حاجة إلى الراحة للنقاها. فأنت يا والدي لست في حاجة إلى بيع ماشية من مواشيك، والشيء الوحيد الذي أطلبه منك سرعة المبادرة، إذا ما أردت، زيارتي حيث أقيم الآن في قاعة ذوي العاهات إلى جانب حجرة العمليات، والوصول إليها سهل يسير، فعند دخولك من المدخل الرئيسي للمستشفى اتجه إلى القاعة الخارجية الواقعة جهة الجنوب وهي المصحة الشعبية التي نقلت إليها عقب سقوطي، وهناك يكشف على المريض مساعدو الأطباء وبرفقتهم الطلبة. أما المريض الذي لا يحتاج إلى علاج داخلي في المستشفى فيحصل على كشف بالدواء الذي يحتاج إليه، ويتناوله من صيدلية المستشفى. وبعد الكشف عليّ كتب اسم في سجل المستشفى وعرضت على كبير الأطباء، وقد حملني ممرض إلى قسم الرجال بعد أن أدخلني الحمام وألبسني ملابس نظيفة للمرضى. وعلى يشارك أيضًا تجد المكتبة والقاعة الكبرى للمحاضرات حيث يدرس كبير الأطباء للطلاب، وهذا

المكان يقع خلفك. أما الطريق الواقع في جهة اليسار من فناء المستشفى فيؤدي إلى قسم النساء، لذلك يجب عليك أن تلتزم دائماً ناحية اليمين ماراً بقسم الأمراض الباطنية، وقسم الجراحة. وعندما تسمع موسيقى أو غناء في قاعة من القاعات فانظر إلى داخلها إذ قد أكون في القاعة النهارية للاستجمام والترويح عن النفس حيث تجد كتباً وموسيقى للتسلية. ولما زارني صباح اليوم كبير الأطباء ومعه مساعده والمرضون وكشف، أملى عليّ طبيب القسم شيئاً لم أفهمه، وقد شرح لي بعد ذلك أنني قد أغادر السرير غداً وأترك المستشفى قريباً. والواقع أنني لا أريد مغادرة المستشفى فكل شيء هنا في غاية النظافة والجمال، فالأسرة وثيرة وأغطيتها من القماش الدمشقي الأبيض وعليها أخرى هشة ناعمة كالقطيفة. وفي كل غرفة ماء جار وبها تدفئة تستخدم شتاء. أما وجبة الطعام فغالباً ما تتكون من الطيور أو شواء الضأن لأولئك الذين تحتل صحتهم مثل هذا. إن جاري قد تمارض نحو أسبوع طالباً في إطالة البقاء بالمستشفى ليتمتع بلحم صدر الفراخ، إلا أن كبير الأطباء تبينه وأخرجه من المستشفى البارحة بعد أن تبين جودة صحته من أنه أكل رغيماً وفرخة كاملة. إذن احضري يا والدي قبل أن تعد لي آخر دجاجة! فالحالة كما يصورها الخطاب نستطيع أن ننسبها إلى القرن العشرين الذي كثيراً ما نشيد به. والواقع أن هذه الرسالة تصور مستشفى من المستشفيات الكثيرة التي كانت منتشرة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي قبل ألف عام من الهيمالايا إلى البرنات؛ ففي قرطبة نجد في منتصف القرن العاشر خمسين دمشقي. أما بغداد، وقد فاقت غيرها واشتهرت بمستشفياتها منذ عهد هارون الرشيد، فمواقع المستشفيات قد أحسن اختيارها صحياً، كما زودت جميع غرفها ومحال الغسل بها بالمياه الجارية المأخوذة من نهر دجلة، وكان هذا شيئاً بدهياً. فعندما

شرع السلطان عضد الدولة في بناء مستشفى جديد كلف الطبيب المشهور الرازي اختيار أنسب مكان وأصحّه، وأن عضد الدولة استشاره في الموضع الذي يجب أن يبنى فيه اليمارستان، وأن الرازي أمر بعض غلمانه أن تعلق في كل ناحية من جوانب بغداد شقة لحم؛ ثم اعتبر التي لم يتغير ولم يسهك فيها اللحم بسرعة فأشار بأن يبنى في تلك الناحية، وهو الموضع الذي بنى فيه اليمارستان. وفي القاهرة لما أراد صلاح الدين تحويل قصر من قصوره إلى المستشفى الناصري اختار من بينها القصر الذي لا تكثر في قاعاته جموع النمل. وقد شيد أولئك الملوك الأخيار إلى جانب القصور التي زودوها بمختلف وسائل الأبهة والراحة كثيرًا من دور الخير والبر حيث توفرت فيها وسائل النوم والراحة أو الإقامة حتى لكبار رجال الدولة، كما أن المستشفيات كانت مزودة ببعض قاعات النوم والحمامات المفتوحة للجميع. ومن أشهر المستشفيات الإسلامية المستشفى الكبير المعروف باسم المنصوري أو دار الشفاء أو مارستان قلاوون، ولما تم بناؤه توجه السلطان في ركب عظيم، ولما بلغ اليمارستان استدعى قديمًا من الشراب فشربه وقال: «قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني»، وأوقفه السلطان على الملك والمملوك، والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة، ومن مات جهزه وكفن ودفن. ورتب فيه الحكماء الطبائعية والكحالين والجراحية والمجبرين لمعالجة الرمد والمرضى والمجروحين والمكسورين من الرجال والنساء ورتب الفراشين والفراشات والقومة لخدمة المرضى وإصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام، لكل مريض فرش كامل. ولم يحصر السلطان أثابه الله هذا المكان المبارك بعده في المرضى. بل جعله سبيلًا لكل من يصل إليه في سائر الأوقات من غني وفقير. ولم

يقتصر أيضًا على من يقيم به من المرضى بل رتب لمن يطلب وهو في منزله ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية. ويذكر القوم عن أطباء دمشق ضاحكين عن الأمير الفارسي وشهيته في الطعام. فقد زار مرة مستشفى نوري رائحة دجاجة محمرة، فقرر التمارض وأخذ يتردد على المستشفى عدة مرات ففحصه الطبيب المختص فلم يجد به أي أثر لمرض فاحتار الطبيب فسأله هذا الفارسي الجشع سؤاليين كشفًا للطبيب سر تمارضه إلا أن الطبيب المهذب لم يدع الفرصة تمر دون أن يشير إلى مريضه بالتوجه إلى قسم الأمراض الباطنة ووصف له طعامًا يتناوله مرتين يوميًا وهو عبارة عن فطائر محشوة بالعسل وبداخلها قلوب فراخ وفراخ سمينة وحلوى ومختلف أنواع الأطعمة الشهية اللذيذة، وبعد ثلاثة أيام تلاشت مقاومة المريض وساءت صحته فقال له الطبيب: «ثلاثة أيام كرم عربي؛ وقد انتهت فتوكل في رعاية الله وحفظه والسلام عليكم». أما مستشفى نوري هذا فقد أسسه الرجل الإنساني الذي كان يعني بشئون رعيته ألا وهو السلطان نور الدين زنكي (1146 - 1174)، وقد شيده من فدية حصل عليها لإفراجه عن ملك من ملوك الإفرنج كان قد أسره وسجنه. ومن هنا كانت ترسل الأدوية إلى المنصور قلاوون القائد المصري الشاب عندما أصيب بالقرب من دمشق في مرارته. وبعد شفائه امتطى المنصور صهوة جواده وتوجه إلى المستشفى؛ ومنذ ذلك الوقت طارده فكرة «واحة السلام» بينما كان يخوض غمار المعارك؛ إنه يذكر القاعة ذات الهواء العليل في المستشفى، ويذكر الأسرة البيضاء ذات الفراش الوثير. فنذر الله أنه - متى اعتلى عرش الحكيم- سيشيد للمرضى مستشفى كهذا. فلما جاءت له السلطنة وقى بوعده ونذره، وأنفق على بناء المستشفى مالا كثيرا وشيده في الشارع الممتد بين برج القاهرة. هذا هو المستشفى المنصوري،

وإنه حقاً قصر عظيم مؤثث أحسن تأثيث، وكان أحدث وأكمل مستشفى على سطح الكرة الأرضية. وليس فقط الخلفاء والسلاطين أو الأثرياء هم الذين شيّدوا المستشفيات بل كذلك الأطباء مثل: سنان بن ثابت وثابت بن سنان الابن والحفيد للفلكي العظيم ثابت بن قرّة، لقد أسس هؤلاء المستشفيات والمصحات ودور الإسعاف المتنقلة، كذلك شيّدوا مستشفيات الأسرى. ففي عام 923 م أسس الوزير ابن الفرات في بغداد من ماله الخاص مستشفى لموظفيه حيث يعالجهم الأطباء مجاناً. وفي ميافارقين صارع الموت ابنه الحاكم فوعد والدها الطبيب المعالج أنه إذا شفاها قد له وزنها ذهباً. والطبيب هو زاهد العلماء، وقد استطاع شفاء الفتاة إلا أنه اعتذر عن قبول الذهب ورجا الحاكم أن يشيد بالمال مستشفى، فاستجاب والد الفتاة وهو ناصر الدين وشيد المستشفى وأوقف عليه المال الكثير والأراضي الواسعة للإنفاق عليه. وكان المرضى يعالجون فيه مجاناً سواء كانوا أغنياء أم فقراء، كما كانوا لا يدفعون شيئاً نظير إقامتهم في المستشفى، وحتى العلاج كان يصرف لهم مجاناً، وعلاوة على ذلك يتناول المرضى الملابس والنقود للإنفاق على الخصوصيات لمدة شهر بعد ترك المستشفى. فمن أين كان يدفع جميع هذا؟ الواقع أن الإنفاق على مثل هذه المؤسسات العظيمة كان يتطلب إيراداً منتظماً ثابتاً ودقيقاً، فالمستشفى المنصوري مثلاً كان يحتاج سنوياً إلى مليون درهم، وكان هذا المبلغ يؤخذ من إيرادات أملاك الدولة التي يرصد دخلها للمستشفى عند الشرع في بنائه. أما إدارة الأملاك فكانت في يد أناس مشهود لهم بالأمانة والكفاية تستطيع الدولة أن تعتمد عليهم وتراقبهم، كما أن إدارة المستشفى كانت غالباً في يد أمير. أما السلطان فكان حريصاً على الإلمام بكل ما يجري في المستشفى عن طريق التفتيش أو الاستجواب. وتعرض مستشفى بدر غلام المعتضد لضائقة مالية فكتب

والد ثابت بن سنان رسالة إلى أبي الحسن علي بن عيسى يشكو إليه هذه الحالة ويعرفه ما يخلق المرضى من ضرر: قال ثابت بن سنان: وكانت النفقة على البيمارستان الذي لبدر العضدي بالمخرم من ارتفاع وقف سجاح أم المتوكل على الله، وكان الوقف في يد أبي الصقر وهب بن محمد الكاذاني، وكان قسط من ارتفاع هذا الوقف يصرف إلى بني هاشم، وقسط إلى نفقة البيمارستان، وكان أبو الصقر يروج على بني هاشم ما لهم ويؤخر ما يصرف إلى نفقة البيمارستان ويضيقه، فكتب والذي إلى أبي الحسن علي بن عيسى يشكو إليه هذه الحال ويعرفه ما يلحق المرضى من الضرر بذلك وقصور ما يقدم لهم من الفحم والمؤن والدثار وغير ذلك عن مقدار حاجتهم، فوقع على ظهر رقعته إلى أبي الصقر توقيعا نسخته أنت أكرمك الله تقف على ما ذكره، وهو غليظ جداً، والكلام فيه معك خاصة فيما يقع منك يلزمك وما أحسبك تسلم من الإثم فيه، وقد حكيت عني في الهاشميين قولاً لست أذكره وكيف تصرفت الأحوال في زيادة المال أو نقصانه ووفوره أو قصوره، ولا بد من تعديل الحال فيه بين أن تأخذ منه وتعجل للبيمارستان قسطاً، بل هو أحق بالتقديم على غيره لضعف من يلجأ إليه وعظيم النفع به، فعرفني أكرمك الله ما النكتة في قصور المال ونقصانه في تخلف نفقة البيمارستان هذه الشهور المتتابعة وفي هذا الوقت خاصة من الشتاء واشتداد البرد، فاحتل بكل حيلة لما يطلق لهم ويعجل حتى يدفأ من في البيمارستان من المرضى والممرورين بالذثار والكسوة والفحم، ويقام لهم القوت ويتصل لهم العلاج والخدمة، وأجبنني بما يكون منك في ذلك وأنفذ لي عملاً يدلني على حجتك واعن بأمر البيمارستان فضل عناية إن شاء الله تعالى. ومن إيراد هذه الأراضي كانت تدفع كذلك مرتبات الموظفين كما أن مدير المستشفى كان مكلّفاً بإعداد سجل لجميع

المصاريف اليومية ومنه نتبين ميزانية المستشفى ومرتبات الأطباء وغيرهم وأثمان الأدوية والأجهزة الطبية. وكان كبير الأطباء هو المسؤول عن سائر أطباء المستشفى، وهو يختار عادة من بين زملائه الأطباء حسب مواهبه وكفايته وقدرته. وقبل أن يختار الرازي مثلاً رئيساً للأطباء أثبت أولاً تفوقه على مئات من الأطباء المتخصصين في مختلف الأمراض، وكان عدد أطباء المستشفى الذي يديره يبلغ أربعة وعشرين طبيباً منهم الجراحيون والكحالون والطبائعيون والمجبريون، وكان كل طبيب يشرف على قسم خاص، كما كانوا يتناوبون الخدمة.

وقد كتب ابن أبي أصيبعة الطبيب الشاعر، والذي درس الطب في بلده دمشق كثيراً، تقريراً لطبيب عيون قد يصلح أن يكون من إنتاج العصر الذي نعيش فيه: «أبو المجد بن أبي الحكم هو أفضل الدولة أبو المجد بن أبي الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي من الحكماء المشهورين والعلماء المذكورين والأفاضل في الصناعة الطبية والأمثال في علم الهندسة والنجوم، وكان يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ويجيد الغناء والإيقاع والزمر وسائر الآلات، وعمل أرغناً وبلغ في إتقانه وكان اشتغاله على والده وعلى غيره بصناعة الطب وتميز في علمها وعملها وصار من الأكابر من أهلها، وكان في دولة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله. وكان يرى له ويحترمه ويعرف مقدار علمه وفضله، ولما أنشأ الملك العادل نور الدين البيمارستان الكبير جعل أمر الطب إليه وأطلق له جامكية (مرتباً) وجراية وكان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه». وحدثني شمس الدين أبو الفضل بن أبي الكحال المعروف بالمطواع رحمه الله أنه شاهده في البيمارستان، وأن أبا المجد بن أبي الحكم كان يدور على المرضى به، ويتفقد أحوالهم ويعتبر أمورهم وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى فكان جميع ما

يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك. قال: وكان بعد فراغه من ذلك وطلوعه إلى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة يأتي ويجلس في الإيوان الكبير للبيمارستان وجميعه مفروش ويحضر كتب الاشتغال. وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية وكانت في الخورستانين (المدخلين) اللذين في صدر الإيوان، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه ثم تجري مباحث طبية، ويقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب إلى داره. . . أما المستشفيات الكبرى فقد كانت في نفس الوقت هي المدارس العليا للطب فالمواد التي علمها أبقرط وجالينوس وكبار العلماء العرب كان يتلقونها الأطباء الناشئون في المحاضرات العامة تحت عقود المساجد وفي المدارس الطبية الخاصة التي كان يديرها الأطباء، وكذلك في المستشفيات والعيادات، وبينما كان يكتفى في الأديرة الأوربية ومدارسها بتحصيل العلوم في الكتب إذ بنا هنا في العالم العربي نجد العلوم يقوم بتدريسها علماء عمليون يمارسون الطب بخلاف الحال عند المسيحيين الذين كانوا يلوون ألسنتهم بنظريات جامدة جافة ويتجنبون بطريقة صوفية لمس الكائن الحي. ففي المستشفيات العربية وحول الأسرة البيضاء كان الطبيب يطبق النظري على العملي، كما كان يستطيع فحص الجسد وتشريحه وفهمه وتقريبه إلى الأذهان. وابن أبي أصيبعة يحدثنا في طبقاته في عهد دراساته في دمشق، وكيف كان الطلبة يرافقون الأستاذ عند زيارته للمرضى، وكيف كانوا يدرسون عميلاً مختلف الحالات عندما يفحصها الأستاذ ويشخص المرض ويصف العلاج، بل كثيراً ما كانوا يسمعون المناقشة التي تدور بين رئيس الأطباء وزميل له مشهور، فكانت زيارة الطلاب للمستشفى

ذات فائدة مزدوجة: الدرس أولاً ونظام المستشفى ثانياً. هكذا كان يتكون الأطباء العرب، ومثل هذا النظام لم يعرفه العالم من قبل اللهم إلا في العصر الحديث فقط. وقد بلغ من حرص الدولة الإسلامية على المصلحة العامة أنها لم تكن تسمح لطبيب بمزاولة ما تخصص فيه من طب إلا بعد أن يؤدي امتحاناً نظرياً وعملياً وتمنحه الدولة إجازة ينص فيها على مادة تخصصه. ولم يكن هذا التشريع مقصوراً على شرق العالم الإسلامي بل كان له نظيره في الأندلس. ويذكر المؤرخون أن تاريخ تشريع الحصول على مثل هذه الشهادة يرجع إلى عام 931 م عندما علم الخليفة المقتدر أن طبيباً ببغداد ارتكب خطأ تسبب عنه موت المريض، لذلك أصدر الخليفة أمراً بإجراء امتحان لسائر الأطباء الذين يزاولون هذه المهنة، ولم يستثن من هذا الامتحان إلا الأطباء الذين يعملون في مستشفيات الدولة، لذلك أمر بتكوين مجلس للأطباء وعين سنان بن ثابت رئيساً له. ولمعرفة مدى انتشار مهنة الطب وقتذاك يكفي أن نذكر أن عدد أطباء بغداد الذين كانوا يعملون خارج الحكومة بلغ نحو تسعمائة طبيب ... في الوقت الذي لم يكن فيه في كل حوض نهر الرين طبيب واحد. وبعد قرنين من وفاة الطبيب سنان أي في القرن الثاني عشر كان كبير أطباء بغداد هو «ابن التلميذ» المتوفى عام 1164 م. ومن النواذر التي كانت تقع في الامتحانات في ذلك الوقت ما ذكره ابن أبي أصيبعة في طبقاته عند حديثه عن أمين الدولة «ابن التلميذ» الذي كان قد قلده الخليفة رئاسة الطب ببغداد، أنه لما اجتمع إليه سائر الأطباء ليرى ما عند كل منهم من هذه الصناعة كان من جملة من حضره شيخ له هيبة ووقار وعنده سكينة، فأكرمه أمين الدولة، وكانت لذلك الشيخ درجة ما بالمعالجة، ولم يكن عنده من علم صناعة الطب إلا التظاهر بها، فلما انتهى الأمر إليه قال له أمين الدولة: ما السبب في كون الشيخ لم

يشارك الجماعة فيما يبحثون فيه حتى نعلم ما عنده من هذه الصناعة؟ فقال: يا سيدنا وهل شيء مما تكلموا فيه إلا وأنا أعلمه، وقد سبق إلى فهمي أضعاف ذلك مرات كثيرة. فقال له أمين الدولة: فعلى من كنت قد قرأت هذه الصناعة؟ فقال الشيخ: يا سيدنا إذا صار الإنسان إلى هذا السن ما يبقى ما يليق به إلا أن يسأل: كم له من التلاميذ، ومن هو المتميز فيهم؟ وأما المشايخ الذين قرأت عليهم فقد ماتوا من زمن طويل؛ فقال له أمين الدولة: يا شيخ هذا شيء قد جرت العادة به ولا يضر ذكره، ومع هذا فما علينا، أخبرني أي شيء قد قرأته من الكتب الطبية؟ وكان قصد أمين الدولة أن يتحقق مما عنده، فقال: سبحان الله العظيم.. صرنا إلى ما يسأل عنه الصبيان، وأي شيء قد قرأته من الكتب.. يا سيدنا لمثلي ما يقال إلا أي شيء صنفته في صناعة الطب، وكم لك فيها من الكتب والمقالات؟ ولا بد أنني أعرفك بنفسي. ثم إنه نهض إلى أمين الدولة ودنا منه وقعد وقال له فيما بينهما: يا سيدي أعلم أنني قد شخت وأنا أوسم بهذه الصناعة، وما عندي منها إلا معرفة اصطلاحات مشهورة في المداواة، وعمرى كله أكتسب بها، وعندى عائلة، فسألتك بالله يا سيدي مش حالي ولا تفضحني بين هؤلاء الجماعة. فقال له أمين الدولة: على شريطة، وهي أنك لا تهجم على مريض بما لا تعلمه ولا تشير بفصد ولا بدواء مسهل إلا لما قرب من الأمراض، فقال الشيخ هذا مذهبي منذ كنت ما تعديت السكنجيين والجلاب. ثم إن أمين الدولة قال معلئًا والجماعة تسمع يا شيخ أعذرنا فإننا ما كنا نعرفك، والآن قد عرفناك استمر فيما أنت فيه فإن أحدًا ما يعارضك. ثم إنه عاد بعد ذلك فيما هو فيه من الجماعة، وقال لبعضهم: على من قرأت هذه الصناعة، وشرع في امتحانه فقال له يا سيدنا إنني من تلامذة هذا الشيخ الذي قد عرفته وعليه كنت قد قرأت صناعة الطب، ففطن أمين الدولة بما أراد

من التعريض بقوله وتبسم ثم امتحنه بعد ذلك. وحرصًا على تنفيذ اللائحة الطبية فيما يتعلق بالامتحانات وتخصص الأطباء وضع امتحان في الجراحة لجراح جاء فيه؛ هل درس هذا الجراح تشريح وجراحة «بولوس فون إيجينا» و «على بن العباس»؟ وهل يلم هذا الجراح بجبر العظام والالتواء ومعالجة الحصوة واللوز وإزالة سحابة العين وفتح الخراجات؟ وهل هو ملم بالبتر أو فتح الجمجمة (تربينة)؟ وكان إذا نجح طالب الطب في الامتحان يمنح إجازة تجيز له مهنة الطب وتخصص الجراحة الصغيرة، وهي تنص بعد البسملة على منح الطالب حق ممارسة مادة تخصصه حتى شفاء المريض كما تذكر حقه في فصد العرق وإزالة البواسير وخلع الأسنان وخياطة الجروح وختان الرضع.. كذلك تحتم عليه وجوب استشارة رؤسائه ومعلميه ذوي الخبرة والمعرفة. أما مجالس الأطباء التي كانت تعقد لمدارسة الحالات الصعبة المعقدة فقد كانت ضمناً آخر لتجنب الوقوع في الأخطاء الفنية وضماناً لدقة وصحة تشخيص المرض والعلاج. وأكبر المستشارين من بين الأطباء سنًا هو الذي يرأس المجلس ويتول أصغرهم سنًا تسجيل المحضر. وعند إجراء العمليات الجراحية الكبر يساعد الطبيب زميله كما هو الحال اليوم في أوربا، فنجد أحد الأطباء يقوم بعملية التحذير وذلك بواسطة قطعة من الإسفنج مبللة بالحشيش أو زهرة البسلة ومن ثم يضعها أمام أنف المريض لتخديره ثم هناك طبيب ثان يراقب نبض المريض وثالث يجري العملية وبكل عناية ودقة وحذر عندما يستخدم المبضع، فالجرح يجب ألا يكون كبيرًا جدًا أو عميقًا جدًا. أما المساعد فعليه أن يحجز الجلد بجراحة صغيرة دقيقة. وإذا ما فرغ الجراح من اتخاذ جميع هذه الاستعدادات يأخذ في إجراء العملية وليكن بخفة ليخلص الخراج من النسيج المحيط به، كما على الجراح ألا يتلف وعاء أو يفصل

عصبًا. فإذا أصاب عرقًا فعليه أن يربطه بعناية ودقة حتى لا يغطي ويغمر الدم موضع العملية فيعوقه من إجراء العملية بدقة وعناية. فإذا كشف الجراح على الخراج ليتحسس فليؤكد أنه لا توجد بقايا صغيرة بالجسم، ومن ثم يستبعد جميع البقايا بدقة، وإذا ما أخرج الخراج وانتزع فليسرع ويرجع الجلد إلى موضعه الأعلى. أما الزيادة فليستأصلها، وبعد ذلك تُجرى عملية الخياطة بأعصاب قطعة. هكذا كان يعلم علي بن العباس. ويذهب علي بن العباس بعيدًا ويقرر أن الطب قد لا يفيد في حالة السرطان فهو يطالب الجراح بانتزاعه من العضو المطب، وذلك بإزالة كل ما حول السرطان حتى لا تتبق جذور المرض في الجسم، ثم بعد العملية يجب وضع قطعة من القماش مبللة بالنيبيذ لتجنب حدوث تلويث ولالتئام الجرح. لذلك تجب مراعاة العناية الكاملة عند إجراء مثل هذه العملية فالعناية لا تقصر على العضو المريض بل تمتد إلى سائر أجزاء الجسم، والطبيب مطالب عند الكشف على المريض أن يوجه إليه السؤال تلو السؤال، وعلى الطبيب أن يسأله عن الآلام التي تؤلمه وكيف يعيش وما هي عاداته وما هي الأمراض التي أصيب بها من قبل وما هي الأمراض الموجودة في الأسرة؟ كل هذه المسائل يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار. أسئلة لا تنقطع توحى إلى الإنسان كما لو أنها حديثة بنت اليوم يوجهها الطبيب إلى المريض وهو يكشف عليه كسفاً دقيقاً. على الطبيب أن يتفرس في وجهه ولون وحالة الجلد والشعر وعمق التنفس، وهكذا يكون لنفسه صورة من المريض وحالته وطبيعته، ومتى فرغ الطبيب من ذلك يشرع في دراسة حالته العقلية فيوجه إليه مختلف الأسئلة ليتأكد من أن إجابته معقولة وليست مشوهة مضطربة. وكذلك على الطبيب أن يأمر المريض بأن يأتي أفعالا بعينها ليتأكد من قواه العقلية ومد طاعته وإلى أي حد سينفذ المريض بأن يأتي أفعالا

بعينها ليتأكد من قواه العقلية ومد طاعته وإلى أي حد سينفذ المريض نصائح الطبيب وأوامره. وبعد ذلك يحاول الطبيب أن يعرف اتجاهاته الخلقية، وما هي الأشياء التي تثيره وتؤلمه أو تفرحه وتسعده. ثم يطلب إلى الطبيب أن يهمس إلى المريض عن بعد لمعرفة حالة السمع، والنظر إلى الأجسام عن قرب أو بعد لاختبار قوة الأبصار، كما يفحص لسان المريض وقوته الجسدية، وذلك بأن يقدم له أثقالاً مختلفة يحملها ويأمره أن يقبض على أشياء بعينها وبقوة. ويجب على الطبيب أن يراقب حركات المريض وسكناته ويتأكد من حالة قلبه، وذلك عن طريق النبض، ولكي يتبين حالة عضله يأمره بالاستلقاء على الأرض باسطاً ذراعيه وساقيه. أما الكشف على الكبد والكلية فيتم عن طريق اللمس والبول والبراز. ومما يثير الإعجاب حقاً ما توصل إليه العرب عن طريق النبض وتحليل البول، فقد كانوا يعتمدون على هذا التحليل متى توافرت له شروط خاصة. وقد توصلوا عن طريقه إلى أشياء خافية كثيرة. ومن أشهر الأطباء الذين نبهوا في هذا ابن قرة، حتى إن أبا الحسن السري -أحد شعراء سيف الدولة بن حمدان- مدحه بقصيدة لما شفاه من التهاب في الجيب بالقلب، جاء فيها:

هل للعليل سوى ابن قرة	**	بعد الإله وهل له من كاف
أحيا لنا رسم الفلاسفة الذي	**	أودى وأوضح رسم طب
فكأنه عيسى بن مريم ناطقاً	**	يهب الحياة بأيسر الألفاظ
مثلت له قارورتي فرأى بها	**	ما اكتن بين جوانحي وشغاني
يبدو له الداء الخفي كما بدا	**	للعين رضراض الغدير الصافي

ومبالغة في الدقة والعناية، نجد ابن سينا ينصح ويقول: يجب ألا نعتمد كل الاعتماد على النتائج؛ وذلك لأن ما نصل إليه من فحص البول يجب أن يتم بشروط خاصة؛ فالبول يجب أن يكون أول بول الصباح، ويجب ألا يمضي زمن طويل بين الحصول عليه وفحصه. وإبان الليل يجب على المريض ألا يشرب كثيرًا من الماء أو يأكل شيئًا له لون خاص مثل الزعفران أو الرمان، ويجب على المريض ألا يتحرك كثيرًا أو يقوم بأعمال كثيرة غير تلك العادية التي يأتي بها كل يوم، مثل الصوم أو الاستيقاظ متأخرًا أو إجهاد الجسم إجهادًا فوق العادة، وذلك لأن هذه الأعمال تسبب الجوع، فينتج عنه هيجان البول. كما أن الاضطجاع الجنسي يعكر البول، وكذلك القيء. أما النتائج التي يحصل عليها الإنسان عن طريق تحليل البول فتتوقف على اللون والقوام والوضوح أو عدمه والرواسب والكمية والرائحة والرغوة وأقل فرق بين هذا البول والبول الطبيعي، كما أن أقل تغيير في حالته تستدعي الانتباه والاهتمام وتؤخذ بعين الاعتبار، ويجب أن تسجل جميع الملاحظات. وقد درجت المستشفيات العربية على استخدام نظام التسجيل والعناية به والاعتماد عليه، سواء فيما يختص بالفحص أو التشخيص أو العوارض المختلفة، كذلك التعليمات المتعددة وآثارها وتطور الحالة العامة، وبالاختصار. كنا نجد في المستشفيات تسجيلًا للمرض وحالاته يكاد يكون تاريخًا له. فمن هذه التسجيلات التي تؤرخ للمريض والمرض في المستشفيات الكبرى ببغداد ومدينة الري الواقعة في قلال الجبال في الربع الأول من القرن العاشر تم وضع مؤلف قيم في الطب، وقد ظل مئات السنين مستخدمًا كمرجع طبي دراسي لأطباء أوربا. فهو سجل للتجارب العملية، والتي يجب على الأطباء مراعاتها وعلى الطلبة

دراستها، وقد وضع هذه المجموعة أكبر طبيب في العصور الوسطى
وأحد عظماء أطباء العالم والإنسانية في مختلف العصور.

أحد نوابغ الطب العالميين في مختلف العصور

قبل ستة قرون امتلكت كلية الطب بباريس أصغر مكتبة في العالم.
وكانت محتوياتها كتابًا واحدًا، وهذا الكتاب لمؤلف عربي. لقد كان مؤلفًا
قيمًا جدًا حتى إن صاحب الجلالة ملك جميع المسيحيين لويس الحادي
عشر أراد مرة استعارته فدفعت تأمينًا اثني عشر ماركًا فضة ومائة ريال
ذهبًا، وكان غرضه من استعارته تمكين أطبائه الخصوصيين من
الحصول على نسخة منه للرجوع إليها إذا ما طرأ على صحة صاحب
الجلالة طارئ ما. فهذا الكتاب الذي كان يكون مكتبة كلية طب جامعة
باريس يومًا ما عبارة عن موسوعة لسائر المعارف والعلوم الطبية منذ
العصور اليونانية القديمة حتى عام 925 م، ولم تضاف القرون الأربعة
التي مضت على كتابته شيئًا يذكر في عالم الطب، فكان هذا الكتاب
الطبي العظيم جدًا والذي وضعه عالم عربي لا تدانيه جميع هذه الرسائل
التافهة التي كانت تملأ مختلف المكتبات التي عرفتها الأديرة المسيحية
الأوربية. وكان الباريسيون يقدرون حقًا قيمة هذا الكتاب الذي تتكون
منه مكتبتهم الطبية، حتى إنهم أقاموا لمؤلفه نصبًا تذكاريًا في المدرج
الأكبر لكلية الطب، واليوم ما زال طلاب مدرسة الطب يشاهدون يوميًا
صورته وصورة عربي آخر عندما يجتمعون في قاعة المحاضرات
الكبرى في شارع «سان جرمان ده بريه»، وقد أطلقت أوربا على
مؤلفنا العربي الرازي واسمه الكامل- أبو بكر محمد بن زكريا- لفظ
«رازي» . وقد ولد الرازي في مدينة الري بخراسان الواقعة شرقًا قليلًا

من طهران الحالية، وكان ذلك في منتصف القرن التاسع الميلادي عندما استطاع حفيد شارلمان تقسيم دولة الكارولينجيين. أما سكان جبال خراسان فقد كانوا شقرا الشعور حتى إن العرب أطلقوا عليهم لفظ «ثعالب الري الحمر». وكان الرازي أشقر اللون عظيم الجسم. ولما كان طفلا لم يظهر شيئا من النبوغ، وقد غنى وعزف على العود إلا أنه لم يمتاز على زملائه واهتم مثلهم بالدراسات الفلسفية واللغوية والرياضية ولم تظهر عليه معالم النبوغ التي توحى بأنه سيصبح شخصية ممتازة في المجتمع الإسلامي اللهم إلا في الموسيقى فقد أبدى نوعا من التفوق. وكان يكتسب قوته اليومي بمختلف المهن والوسائل، وهكذا ظل على هذا المنوال حتى بلغ الثلاثين من عمره، وكان ناقما على حياة البطالة التي يحياها، وكان متعطشا إلى عمل يشغله كل وقته فترك مهنة الصيرفة ومسقط رأسه وتوجه إلى بغداد شأنه في ذلك شأن كثيرين ممن سبقوه معتقدا أن الدهر الذي كثر له حيث هو قد يبتسم له في بغداد كما ابتسم لسابقيه. وما كاد يصل إلى عاصمة العباسيين حتى أقبل بحماس على دراسة الطب فبدأ أولا بأخذ اللغات اليونانية والفارسية والهندية ومبادئ الطلب على حنين بن إسحق الذي كان رئيس مترجمي أبناء موسى وكثيرين من الخلفاء. وبعد إتقانه هذه المواد وإلمامه بها الإلمام الكافي عاد إلى الري كمدير لمستشفاهها، لكنه لم يقنع بهذا، وبعد قليل من الزمن تقدم ليشغل وظيفة كبير أطباء المستشفى الكبير بالعاصمة التي تجاوز سكانها المليون ونصف المليون نسمة. وقد تقدم لشغل هذا المنصب نحو مائة طبيب إلا أن الاختيار وقع عليه، ومن حسن طالعه أن أصبح كذلك الطبيب الخاص للخليفة ففتحت له أبواب القصر وأصبح مرموقا من الجميع. وهكذا أخذ نجمه يسطع وشهرته تنتشر لا كطبيب فحسب بل كأستاذ أيضا فقصده الطلاب من مختلف أنحاء الدولة، ومنهم

نفر من الأطباء الذي سمعوا عن شهرته العلمية وتجاربه الطبية آملين الاغتراف من بحر علمه الزاخر، فكانوا يرافقونه عند القيام بجولته اليومية في المستشفى، فكانت محاضراته وعياداته تغص بطلاب المعرفة وعشاق العلم من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه وآخرون. إن مثل هذا الإقبال على عالم لم يحدث من قبل، فقد كان الأستاذ الرازي أكبر مرجع في الحالات العسيرة التي يصعب الفصل فيها تشخيصًا وعلاجًا وهو الأمل الأخير لمن يقاسون أشد الآلام، حتى قصده المرضى وغيرهم من مختلف نواحي البلاد سعيًا وراء الشفاء والمعرفة. هكذا يتحدث القوم عنه حتى بعد وفاته بقرنين فابن أبي أصيبعة يذكر: «ومما حكي عنه من بدائع وصفه استدلاله قال القاضي أبو علي المحسن بن علي بن أبي جهم التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة: حدثني محمد بن علي بن الخلال البصري أبو الحسن أحد أمناء القضاء، قال: حدثني بعض أهل الطب الثقات أن غلامًا من بغداد قدم الري وهو ينفث الدم، وكان لحقه ذلك في طريقه، فاستدعى أبا بكر الرازي الطبيب المشهور بالحدق صاحب الكتب المصنفة فأراه ما ينفث ووصف ما يجد، فأخذ الرازي مجسته ورأى قارورته واستوصف حاله منذ بدأ ذلك به، فلم يقد له دليل على سل ولا قرحة ولم يعرف العلة فاستنظر الرجل ليتفكر في الأمر، فقامت على العليل القيامة وقال: هذا يأس لي من الحياة لحق المتطبب وجهه بالعلة، فازداد ما به، وولد الفكر للرازي أن عاد إليه فسأله عن المياه التي شربها في طريقه فأخبره أنه قد شرب من مستنقعات وصهاريج، فقام في نفس أبي بكر محمد بن زكريا الرازي المتطبب الرأي بحدة خاطر وجودة الذكاء أن علة كانت في الماء فحصلت في معدته، وأن ذلك النفط للدم من فعلها. فقال له: إذا كان في غد جذتك فعالجتك ولم أنصرف أو تبرأ ولكن بشرط أن تأمر غلمانك أن يطيعوني فيك بما

أمرهم به فقال: نعم، وانصرف الرازي فجمع له ملء مركنين كبيرين من طحلب أخضر فأحضرهما من غد معه وأراه إياهما وقال له ابلع جميع ما في هذين المركنين، فبلع الرجل شيئاً يسيراً ثم وقف فقال: ابلع.

فقال: لا أستطيع، فقال للغلمان: خذوه فأنيموه على قفاه ففعلوا به ذلك وطرحوه على قفاه وفتحوا فاه وأقبل الرازي يدس الطحلب في حلقه ويكبسه كبساً شديداً ويطلبه ببلعه شاء أم أبى ويتهدده بالضرب إلى أن بلعه كارهاً أحد المركنين بأسره والرجل يستغيث فلا ينفعه مع الرازي شيء إلى أن قال: الساعة أقذف، فزاد الرازي فيما يكبسه في حلقه فذره القيء فقذف، وتأمل الرازي قذفه فإذا فيه علقة، وإذا هي لما وصل إليها الطحلب قرمت إليه بالطبع وتركت موضعها والتفت على الطحلب. فلما قذف الرجل خرجت مع الطحلب ونهض الرجل معافى». إن كفاية الرازي الطبية لا تعدلها كفاية طبيب آخر منذ عهد جالينوس، فقد كان الرازي لا يمل العمل ولا يعرف الكلل في سبيل اكتساب المعرفة والتوسع في معلوماته الطبية ليس فقط حول أسرار المرضى الذين كانوا دائماً يحظون برعايته بل بالاطلاع وإجراء الأبحاث الكيماوية إذا ما أوى مرضاه إلى مضاجعهم، ولم يقف أمر عند هذا بل كثيراً ما قام بالأسفار البعيدة وراء البحث والاطلاع فكان على اتصال دائم بقطاع علماء عصره، كما اشتهر ببحثه طلابه على التحلي بجميل الأخلاق وكريم الصفات فمهنة الطب شريفة لا يرهاها إلا الطبيب الشريف؛ لذلك كثيراً ما حذر تلاميذه كتابياً وشفوياً من أعمال النصب والاحتيال، وهكذا أصبح الغلام الذي كان يحاول التكسب عن طريق الموسيقى والصيرفة طبيباً عالمياً مشهوراً موضع عطف الأمراء وتقديرهم. كان الرازي حبيب الشعب وصديقه ومعبود الفقراء والمحتاجين، فقد كان يعالجهم بدون أجر ويعاونهم على الشفاء من ماله الخاص بينما يقنع هو

بالقليل اليسير. لقد توفي عام 925 م فقيرًا معدمًا فكرمه الحاتمي أوصله إلى ما يقرب من التسول، وحسد زملائه وحقدهم عليه ودسهم له دينيًا وسياسيًا أقصاه من مختلف الأعمال والوظائف التي كان يعيش منها سواء في بغداد أو الري. لذلك حنت عليه أخته خديجة بعد أن عضته الفاقة وأصبح من المتعذر عليه إيجاد قوته اليومي وآوته إلى بيتها.

وهكذا نجد الرازي وقد غربت شمس حياته بمضي الأيام الأخيرة في بؤس وشقاء بينما خلف وراءه أيامًا كلها سعادة وهناء. الرازي الذي ساعد الآلاف فقد بصره وأصبح ضريراً بسبب السياط الذي ألهب بها ظهره حاكم خراسان المستبد المنصور بن إسحق، لأنه قام ببعض التجارب الكيميائية ولم ينته فيها إلى نتيجة. ولا شك في أن هذا السياط هي التي أدت إلى فقدانه بصره. ومما هو جدير بالذكر أن كحالا زار الرازي لفحص عينيه فسأله الرازي عن عدد جلد العين فتلعثم الكحال ولم يحر جواباً، فقال الرازي: إن الذي يجهل هذا يجب ألا يستخدم مبضعه في عيني، وبالرغم من كل المحاولات التي بذلت لإقناعه بإجراء العملية لصالح بصره رفض الرازي وقال: «لقد رأيت كثيراً من العالم حتى سئمته». وهكذا نجد الرازي وقد سبقت عقليته وروحه وأبصرت عيناه الميتين ما قدر له ودونه على الورق: لعمرى ما أدري وقد آذن البلى بعاجل ترحال إلى أن ترحالي. وأين محل الروح بعد خروجها من الهيكل المنحل والجسد البالي إن الحصاد الذي جنته الإنسانية من حياة الرازي الغنية بالكفاح والجهاد في سبيل الطب وتقدمه عظيم جداً، فأخته خديجة تذكر أنه ترك أكثر من مائتين وثلاثين مؤلفاً ورسالة، وهذه المؤلفات لا تعالج الطب أو الكيمياء فقط بل تناولت كذلك الدين والفلسفة والفلك والطبيعة والرياضيات، فهناك رسالة عنوانها: بسبب أن المغنطيس يجذب الحديد، وأخرى عن الفراغ، وكتاب هيئة العالم غرضه

أن يبين أن الأرض كروية وأنها في وسط الفلك وذو قطبين يدور عليها، وأن الشمس أعظم من الأرض والقمر أصغر منهما، وما يتبع ذلك من هذا المعنى. ومن مؤلفاته كتاب في العلم الإلهي على رأي أفلاطون وقصيدة في العلم الإلهي. وكتاب الخمسين في أصول الدين. ويؤثر عن الرازي أنه كان يعتقد أن مجلسًا من خمسة عناصر إلهية يدير العالم، وهذا يعارض تعاليم الإسلام، كما وضع كتابًا يدعو إلى شيء من الحرية الدينية ويفصل بين الأخلاق والدين ويدعو إلى حياة جريئة لا يهددها الوعد أو الوعيد في العالم الآخر، وذلك لأن العقل والمعرفة يثبتان عدم وجود الحياة الأخرى بعد الموت. كذلك خلف لنا الرازي كتبًا في الطب و بعض القصائد الغزلية. وإلى جانب هذه الأكاداس المكسدة من المخطوطات يوجد صندوق مزدهم بلفائف التعليقات، وأخرجت السيدة بطاقة قرأها عبد الله بن سودة فإذا هي تعرض للحمى المتقطعة التي تعود المريض ربما كل ستة أيام وأحيانًا كل يومين أو أربعة أو كل يوم، وهذه الحالات الثلاث تصحبها قشعريرة ببرودة ويعتاد المريض كثرة التبول فأبدي رأيه وقال: «إن هذه هي عوارض الحمى المتقطعة أو تكون خراجًا في الكلى. وبعد مدة يظهر قيح في بول المريض، لذلك أخبرته أن الحمى لا تعود ثانية، وهكذا كان، والذي عاقني في أول الأمر هو صعوبة تشخيص المرض والتأكد من أن سبب المرض هو وجود خراج في الكلى؛ لذلك رأيت بادئ ذي بدء أن هذه الحمى المتقطعة نشأت عن طريق الالتهاب، وهذا عليل معقول ومقبول، وعلاوة على ذلك فالمريض لم يشك أمامي من الصعوبة التي يلقاها في الحقوين عند القيام، كما لو أن ثقلاً معلقاً فيهما، وقد فاتني أن أسأله عن هذه الحالة. وكثرة التبول عللتها حسبما أعتقد بسبب وجود الخراج في الكلى، فلو كنت أعلم أن والد المريض كان عنده ضعف في المثانة وكان يقاسي من

هذا المرض كثيرًا وأن ابنه يعاني من نفس المرض في أيامه العادية عندما كان معافى، فواجبنا أن نعني به عناية خاصة إن شاء الله. وعندما بال المريض القيح مع البول أمرت له باستخدام مدر للبول حتى تخلص البول من القيح، وبعد ذلك وضفت له خلات الألومنيوم وبخورًا و. . .».

وهنا تنتهي الورقة، ومن ثم أمسكت خديجة بورقة أخرى: «أبو بكر بن هلال يشكو آلامًا في المعدة» و «محمد بن عيسى مصاب بالتهاب في مفاصل الحقوين» فلا فائدة من الكشف عليه أو علاجه. وظل الصندوق مقفلًا زمنًا طويلًا ثم حضر ابن العميد وزير السلطان إلى الري، ومن ثم توجه إلى المنزل الذي توفي فيه هذا الطبيب الشهير، فسلم خديجة مبلغًا كبيرًا من المال وأخذ الصندوق بما فيه وجمع أطباء المدينة وتلاميذ الرازي وكلفهم بالاطلاع على هذه الأوراق ومراجعتها وتنظيمها بحيث يتكون منها كتاب يصلح للنشر. وقد تحققت هذه الرغبة، وكان هذا السفر هو الموسوعة التي عرفت فيما بعد باسم كتاب الحاوي أو الجامع الكبير أو الجامع الخاص بصناعة الطب، وهو يعرف في أوربا باسم «كونتيننس» وهو موسوعة تقع في نحو ثلاثين مجلدًا تعالج الموضوعات الطبية المختلفة من عهد أبقرات حتى عصر جمعه، فما أعظم هذه المعلومات وأقيمها التي كان يعرفها الرازي! لقد اطلع على جميع ما وقع في يده من كتب الطب واستشهد في الحاوي بمختارات من المراجع اليونانية والهلينية والهندية والفارسية والسريانية والعربية، مع الدقة في ذكر المراجع عند الحديث عن كل مرض من الأمراض التي عالجها أو اهتم بها، وإلى جانب ذلك كان يذكر رأيه الخاص وتجاربته ليجعل من موسوعته كتابًا أقرب إلى الكمال ليتوج به حياته، إلا أن العمى الذي أصابه والموت الذي اختطفه حالًا دون تحقيق هذه الأمنية. أما تلاميذه فقد تناولوا هذا السفر العظيم وتقاسموه بينهم لإعداده للنشر،

لذلك ظهرت فيه بعض الخلافات نظرًا لتعدد المؤلفين، فنحن نجد فيه اختلافًا في العرض والتأليف واختلافًا في المنطق عن سائر مؤلفات الرازي الأخرى. وهناك كتابان آخران للرازي وجدا شهرة أكبر وأعظم من الحاوي، كما ترجما إلى مختلف اللغات، وهما يعالجان الطب بطريقة منتظمة، كما يتحدثان عن مختلف الأمراض التي تنتاب الإنسان من رأسه حتى أخمص قدمه وأعراض هذه الأمراض وتطورها وعلاجها في المستشفى وطبها. وقد أهدى المؤلف الكتاب الذي عرف باسم المنصوري إلى حاك خراسان وهو يعرف في اللاتينية باسم أي «كتاب الطب المنصوري» أو «الكتاب المنصوري»، وللرازي أيضًا كتاب الأقطاب وكتاب الشفاء في ساعة، وقد وضع الأخير استجابة لرغبة الوزير ابن القاسم بن عبد الله، وذلك عقب مناقشة دارت حول المدة التي يجب أن يعالج فيها المرض فقال بعض الأطباء الحاضرين: إن علاج المرض يحتاج إلى الزمن الذي احتاجه للظهور. فقال الرازي عن هذا الاجتماع: لقد قالوا هذا حتى يسمحوا لأنفسهم بزيارة المريض مرات عديدة ليحصلوا على أكبر مبلغ ممكن، فاندesh الوزير عندما سمع مني أن بعض الأمراض قد يشفى في ساعة، ورجاني أن أكتب له في هذا كتابًا، وها هو الكتاب. ومن كتب الرازي الكثيرة الانتشار كتابه الخاص بأولئك الذين لا يتيسر لهم استدعاء الطبيب، وهو أول معجم طبي للاستعمال في البيت، وهو يصف الأمراض المختلفة بدقة فائقة كما يصف علاجها بواسطة مواد متوفرة في كل مكان وبأدوية موجودة في كل مطبخ وكل بيت. أما مؤلفه الخاص بعلاج مرض بعينه فله شهرة عظيمة، وهذا هو الكتاب المعروف باسم «كتاب الجدري والحصبة»، فقد فصح الرازي بهذا الكتاب حقًا جديدًا لم يطرقه أحد من قبل، والرازي في كتابه هذا يفحص الحالة في طبيعتها، كما يستطيع إصدار حجه غير

مقيد بآراء الآخرين التي أصبحت وكأنها قوانين يجب احترامها والأخذ بها. أما الرازي فهو يصدر رأيه اعتمادًا على تجاربه الخاصة والنتائج التي انتهى إليها. إن مثل هذا المنهج في البحث وهو الاعتماد على تشخيص المرض كما هو حسب وضعه وأثره في المريض مستخدمًا وسائله الطبية الخاصة جديد في عالم الطب. ويجب أن نذكر هنا كتابًا صغيرًا وضعه الرازي وهو يعتبر حجة في مادته، وقد طبع في أوروبا في الفترة الممتدة بين عامي 1498 - 1866 م أربعين مرة، وإلى هذا المؤلف ترجع هذه البحوث الخاصة بالنقرس والحصوة وأمراض المثانة والكلى وأمراض الأطفال. كذلك يهتم الرازي بحالة الطقس ومختلف مواقع الأقاليم من حيث الحرارة والرطوبة والرياح والحالة الصحية للمساكن وتزويدها بالحمامات كما كان يهتم بتنقية هواء المساكن عن طريق البخور لطرد الروائح الكريهة وتهوية غرف المرضى، كما يحرص على وجود الحرارة المعتدلة والمياه الصالحة للشرب والغسل والاستحمام. إن جميع الأشياء التي كان يعنى بها هذا الطبيب العربي والتي تبين مدى المستوى الذي بلغته العناية الصحية في العالم الإسلامي كانت جميع هذه الوسائل وتلك الاتجاهات قذى في عيون رجال الكنيسة وخطيئة كبرى، ولذلك كانت الكنيسة قبل الحروب الصليبية لا تحار هذه الاتجاهات فقط بل كانت تعدّ الألعاب الرياضية ومختلف أنواع النشاط الجسماني من كبرى الخطايا وتتعارض مع البكارة. ويذكر عن الرازي أنه كثيرًا ما استخدم المرضى وغيرهم لنقل المرضى إلى أصح الأماكن؛ لأنه يعتبر الهواء العليل من أحسن الأدوية وهو لديه لا يقل عن أهمية عن العقاقير النباتية التي كان يفضلها الرازي على سواها، وكان المريض يتناولها كما هي في حالتها الطبيعية. وإن لم تفد هذه العقاقير المريض استعانة عنها بالكيماويات، لذلك وضع كتابًا وأكثر في إعداد

الطعام والأغذية الحمية. كما كان كثيرًا ما ينصح باستخدام طرق خاصة لإعداد الطعام الصحي المفيد فمثلاً قبل طهي البقول الجافة يجب سكب الماء الذي استخدم لتطريتها حتى لا يتسبب هذا الماء في إحداث الغازات عند تناولها. وهو يقدم كذلك إرشادات أخرى للطهي وحفظ الهليون والبادنجان والبصل والخيار والفلفل الأسباني في الخل، كما يقدم الرازي أحسن النصائح لعمل المرببات وبخاصة تلك المصنوعة من البرتقال والقراصيا والورد والمشمش وغيرها. وفي الحالات التي يمكن فيها شفاء المرض عن طريق الأطعمة ينصح الرازي الطبيب المعالج ألا يستخدم العقاقير، وإذا كان من الممكن استخدام الأدوية البسيطة فليتنجب المركبة. أما إذا كان الدواء المطلوب جديداً فتجب تجربته في الحيوانات قبل استعماله لمعرفة أثره ومفعوله الكيماوي في أعضاء جسم الإنسان.

وفيما يتصل بالزئبق فالرازي يعتقد أنه غاز ضار كثيراً، ولو أنه استخدم خطأ بسبب آلاماً مبرحة في أسفل البطن والأمعاء إلا أنه بعد ذلك لا يترك أثراً في الجسم الذي يعود إلى حالته الطبيعية كما كان من قبل، وبخاصة إذا باشر المريض شيئاً من الحركات الرياضية، ويذكر الرازي أنه استخدمه مع شخص كان في منزله وانتهى إلى النتائج التي ذكرها، وقد تبين الرازي أن هذا الشخص كان يتلوى ويتقلب هنا وهناك كما تصطك أسنانه ويضغط بيديه على جسمه. أما الزئبق الحلو وبخاصة الزئبق المصعد ففي غاية الخطورة وهما من السموم الحادة كما يسببان آلاماً قوية في أسفل البطن وكذلك كثيراً من المغص والبراز المختلط بالدم. أما بخار الزئبق أو الزئبق المصعد فقد يسبب أيضاً شلل الأطفال. إن الرازي لم يكن في طليعة الأطباء فقط بل كان من أوائل الكيمائيين أيضاً، لقد كان العالم المتواضع الذي عالج الكيمياء علاجاً علمياً حقيقياً، وقضى على هذه الخرافات التي كان يتصور الأقدمون أنها جوهر

الكيمياء السحري، أعني أن وظيفة الكيمياء هي استخراج الذهب لا أكثر ولا أقل، ومن ثم أخذ الرازي ينظر إليها على أنها علم يعني قبل كل شيء بالتجارب والتحليل لا الشعوذة، وكان الرازي أول كيميائي استخدم هذا العلم في خدمة الطب. وقد شاع بين الشعب أن هذا العالم الفاضل توصل إلى حجر الحكماء، وذلك لأن الرازي قد غمر شعبه بهباته وعطاياه وكرمه الحاتمي، واعتقد القوم أن هذا الثراء لا بد أن يكون مصدره حجر الحكماء الذي اهتدى إليه الرازي والذي بواسطته يستطيع أن يحول سائر المعادن إلى ذهب. واتسع الخيال أمام الشعب حتى تصور أن الرازي يطهي طعامه في أنية ذهبية، وأن أواني المطبخ من الذهب الخالص. والرازي الطبيب المخلص الوفي لطبه، والذي اعتقد أن الطب خلق لدعم الفضيلة والأخلاق الفاضلة، وحرص الحرص كله على الدعاية للخلق الكريم والفضيلة وبخاصة بين الأطباء، لذلك لم تمض على وفاته ستة أعوام حتى أدخل نظام الامتحان في مهنة الطب، وكان هذا الامتحان نظريًا وعمليًا. وإلى الرازي يرجع الفضل في محاربة الدخلاء والمشعوذين بين الأطباء وبذلك فرض العناية على تدريس الطب وتخريج الأطباء. ألم يهتم الرازي -منذ أول عهده بالطب- بتثقيف طلابه وحثهم على وجوب العناية بتشخيص الأمراض، وهذا التشخيص الذي دفع اليونان منذ القدم إلى الاهتمام بتحليل البول؟ لقد هاجم الرازي الدخلاء على مهنة الطب وكان عنيفًا في هجومه فجاء بالحجج العلمية والنفسية التي تدحض بطلان دعوى أولئك المشعوذين، فقد كانوا يدعون أنهم عن طريق فحص بول المريض يستطيعون معرفة ماضي المريض وحاضره ومستقبله. وقد بلغ من خبث هؤلاء المشعوذين أنهم يرسلون من يتلصصون على المرضى وعلى أخبارهم وأحوالهم ويحيطون أولئك الأدعياء بجميع تلك الأخبار فيستغلونها لابتزاز أموال

أولئك المرضى، فكان المشعوذ مثلاً يزور المريض ولا يوجه إليه أسئلة ما فيثق فيه المريض ويدرك أن تشخيص هذا الشخص الدعي لمرضه أغناه عن توجيه الأسئلة إليه. ويذكر الرازي متندراً أنه عندما أخذ يمارس مهنة الطب قرر ألا يوجه أسئلة لمريض إلا بعد أن يتسلم بوله ويدرسه، وكان هذا المسلك مدعاة إلى التقدير والإعجاب. ولما أدرك القوم أنني أخذت أكثر من الأسئلة تضاعلت ثقتهم في معرفتي وقالوا لي علانية اعتقدنا أنك عندما تشاهد البول تخبرنا عن كل شيء حدث لنا أو يحدث. أما الآن فقد انقلبت الآية؛ وعبئاً حاول الرازي إقناع القوم أن ما يتطلبونه منه لا يمت إلى مهنة الطب بصلة، ووضح أن المشعوذين هم الذين أدخلوا في روعهم أن الطبيب يجب أن يتبين كل شيء من البول ولا حاجة إلى جميع هذه الاستجابات. وإذا كان الطبيب يتعرف إلى كثير من خصائص المرض من عوارضه، ويعرف خصائص لا يذكرها له المريض، فإن ما يصرح به المريض أهم وأدق وبخاصة إذا ما علم القوم أن هذا المريض صاحب البول قضى ليلة البارحة مع امرأة عجوز أو نام على جانبه الأيمن وكذا ساعة بالليل وهلم جرا من هذه السخافات ... ويعتقد القوم خطأ أن مثل الطبيب مثل الساحر يجب أن يتم الشفاء على يده في اللحظة والثانية؛ لأن الأثر الملحوظ المفاجئ هو الذي يترك أثراً في نفس القوم، وقليلون هم الذين يقدرّون مجهود الطبيب؛ إن الناس كثيراً ما يتحدثون عن شفاء كشاف المعجزات إلا أنهم ينسون أو يخفون الإخفاق الذي قد يقع بسبب عدم تحقيق هذا الإعجاز. فهذا النطاسي البارع كان كذلك إنساناً عظيماً وكان كذلك طبيباً إنسانياً، وبالرغم من حرص العالم القديم على أن يكون الطبيب لا طبيباً فحسب بل على جانب عظيم من الخلق الكريم، فإن الطبيب الشاب كان لا بد من أن يقسم قسم أبقرط وكان يؤدي هذا القسم أمام الإله «بولون» الإله الطبيب، وأمام

«إسكليبيوس» و «هيجيايا» و «باناكيا» وجميع الآلهة والآلهات. ويقسم الطبيب كذلك بأن يكون نافعًا مفيدًا وحفيظًا على الأيمان والأخلاق في كل بيت يدخله به مريض كما، لا يقسم بمساعدة المريض الميئوس منه. وعلى النقيض كان من واجب الطبيب عدم مساعدة المريض الذي لا يرجى شفاؤه، فالطب كما جاء في رسالة أبقرات هو الفن الذي يشفي المريض تمامًا من مرضه وتخفيف وطأة آلام الأوجاع القاسية والابتعاد عن أولئك الذين لا يرجى شفاؤهم، وذلك بسبب استفحال المرض فيهم وإزمانه. ففن الطب لا يجدي معهم. ثم جاء الإسلام بتعاليمه الإنسانية الرفيعة فاستنكر المسلمون هذا النوع من المعاملة الذي ظل قرونًا طويلة دستورًا للطب والأطباء في كثير من بلاد أوربا والشرق الأدنى، ونادى مسلم بوجوب تغيير تلك الأوضاع وبأن أول واجب على الطبيب هو العناية بالمريض حتى لا يرجى شفاؤه، وهذا المسلم هو الرازي، فقد تبين أن رسالة الطبيب الحقيقية تكمن في أن على الطبيب أن يفتح مرضاه بأن حالتهم في تحسن، وأن يمنحهم الأمل في الشفاء، ولو كان غير واثق من نتيجة علاجه، فكما أن الجسد يخضع لتأثير الروح كذلك الطبيب يجب عليه أن يدخل أمل الشفاء إلى ذلك الجسد المريض مطاردًا الموت وباعثًا الحياة. ومن الجدير بالذكر أن أحد أبناء «كيزر برج» ألا وهو «جيلر» نادى مرة قائلًا: إن الطبيب الذي يعلم أن المريض قريب من الموت، ولا يخبر المريض بهذا ثم يحاول شفاؤه ويدخل إلى نفسه أمل الشفاء إن مثل هذا الطبيب يحول دون شرعة انتقال المريض إلى خالقه. أما المسلم فعلى نقيض المسيحي يقول على الطبيب أن يفهم المريض أن مرضه قابل للشفاء وأن شفاء المريض غير ميئوس منه.

هكذا يقول مواطن الرازي ألا وهو ابن سينا، إن المريض الذي يعالجه الطبيب نفسيًا وإن المريض الذي لا يرجى شفاؤه لأنه مريض

مرضًا عقليًا مثله في رأي الرازي يجب أن يعامل معاملة كلها إنسانية، ولم يكن هذا مذهب الرازي فقط أو ابن سينا فقط بل الأوربيين، وإن ظلت أوربا قرونًا طويلة غير مدركة لقيمة المبادئ الإسلامية السامية. ففي أوربا نجد الشعب يجني ثمار البذور التي غرسها اليونان وغدتها المسيحية ولا شك في أنها كانت من أبشع الغلات. فالمريض المصاب بمرض مزمن غير قابل للشفاء وبخاصة المريض بعقله كان المجتمع الأوربي المسيحي ينظر إليه طيلة العصور الوسطى وحتى أواخر القرن الثامن عشر على أن هذه المصيبة إنما هي عقوبة إلهية ابتلاه الله بها تكفيرًا عن خطيئة ارتكبها المريض قبل أن يمرض، أو أن هذا المريض أصبح جسدًا للشيطان. لكن أوربا لم تهمل هذا النوع من المرض بل قررت طرد الأرواح الشريرة التي تستولي على المرضى، والمريض بعقله إن كان ذكرًا يجب عليه أن يرتدي ثوبًا مرقعًا ملونًا وببده جرس ومطرقة، يعلن بهما المريض عن نفسه ويخبر كل طفل بذلك في جميع الحارات التي يجتازها، وهنا يتحول المريض إلى شخص للسخرية. لكن من الذي يقرر أكان المريض مؤذيًا أم مسالمًا؟ حتى عام 1498 نقرأ أن مجلس فرنكفورت لجأ إلى دير القديس «أنشتات» راجيًا إرسال راهب لفحص مريض مصاب في قواه العقلية، وبه مس من الجن، وهذا المريض يدعى «يعقوب جويش» ورجا المجلس أيضًا الدير أن ينقل هذا المريض إلى الدير والعمل على طرد هذه الروح النجسة. أما الحالات المستعصية من الأمراض العقلية، والتي يتعذر فيها طرد الشياطين، فإن مثل هؤلاء المرضى يغلون بالسلاسل ويلقى بهم في السجون أو يحجزون في بيوت المجانين أو برج المعتوهين. أما في ميناء هامبورج فكانوا يوضعون في صندوق المجانين، وهناك يسلم هؤلاء المرضى إلى أناس غلاظ القلوب ينهالون عليهم ضربًا ولكرًا ولكمًا، ويعرف هؤلاء

الجلادون باسم «عبيد المجانين» وهم يسومون أولئك المرضى سوء العذاب حتى تفارق الروح الجسد، وهدف هذا التعذيب هو طرد الشيطان من الجسد! ويحدثنا التاريخ أن شخصًا من سكان فرنكفروت اتهم عام 1451 بالجنون؛ لأنه لعن القربان المقدس وعوقب كما لو أنه مالك لقواه العقلية. وفي عام 1490 اتهم شخص بالجنون وهو يدعى «كونتس فوجل»، كما أصيب أيضًا بالبرص؛ لأنه عاب في الذات الإلهية. أما المريض بالأمراض العصبية عند اليونان فكان يسلم لأهله وهم يحولون دون ما قد يرتكبه من أضرار، كما أن أسرته هي التي توفر له أسباب الراحة. لكن إذا انتقلنا إلى البلاد العربية وجدنا الحال غير الحال فالمريض يوضع في مستشفى خاص بالأمراض العصبية وتحت إشراف السلطان، الذي كان يزورهم أسبوعيًا ويتولى الأطباء العناية بهم ورعايتهم بخلاف الحال في أوروبا فقد ظلت حتى القرن التاسع عشر تعاملهم معاملة المجرمين، وأسبانيا فقط هي التي احتفظت بالتراث العربي فكان تضع مثل هؤلاء المرضى في مستشفيات تعرف باسم «الأبرياء». أما إنجلترا فلم تقبل على الأخذ بمذهب العرب في معاملة هؤلاء المرضى إلا عام 1751. وفي أواخر القرن الثامن عشر نجح الطبيب الفرنسي «بينيل» في فرنسا في إخراج هؤلاء المرضى المكبلين في الأغلال من الدير ووضعهم تحت الرعاية الطبية. وليس فقط مرضى الأمراض العصبية هم الذين ابتلوا بهذه المعاملة الوحشية القاسية بل شاركهم فيها مرضى آخرون وهم أولئك الذين لا يستطيع الإنسان معرفة أسباب أمراضهم، حيث نسبت جميعها إلى الشياطين؛ لذلك كانت وسائل التخلص من هذه الأرواح النجسة الضرب والتعذيب؛ وظل الحال كذلك حتى القرن التاسع عشر إذ نجد الطبيب الشاعر «يوسنينوس كرنر»، أحد أبناء قرية «فينزبرج» وهو الصديق الحميم لشاعر ألمانيا الخالد

«جوتة»، ومع هذا الطبيب الشاعر بعض أساتذة جامعة ميونخ أمثال: «شوبرت» و «بادر» و «فون رينجسيس»، وكذلك أستاذ جامعة توبنجن وهو «إشيمير» وأستاذ جامعة «ليبزج» المسمى «هينروت» يحددون الكتابة في موضوع حلول الأرواح الشريرة في الناس، ويعتقدون كذلك أن الإصابة بها تأتي بسبب الخطايا التي يرتكبها بعض الناس. أما الشفاء منها فلا يتم إلا بطرد الشياطين؛ وذلك عن طريق الصلاة والابتهاال والتوجه إلى القديسين. فهذا التزاوج الجديد بين الطب والديانة المسيحية نادى به عام 1824 م أستاذ جامعة «ليبزج» المسمى «فينديشمان» فقد قال كلماته المشهورة: «إن المرض يحل بالنفس التي ينصرف صاحبها إلى الملذات والشهوات فتتهيج الروح وتثور. أما الطبيب الذي يجهل طرد الأرواح الشريرة فهو لا يدرك العلاج الصحيح لمثل هذه الحالات، لذلك فالقوم في حاجة إلى علاج مسيحي». وهناك مثل عربي معناه أن الذي يشغل نفسه بجمع اللألى يجب أن يحرص على عدم إتلافها، كذلك الإنسان الذي يتصدى لعلاج الأجسام البشرية وهي أكرم وأشرف ما خلق على هذه الأرض، فهذا المعالج يجب أن يكون على جانب عظيم من الحذر كما عليه أن يبذل كل ما في وسعه من عناية. وفي شخصية الرازي تتجلى جميع هذه الصفات وتلك المثل التي يتصف بها الطبيب العربي. إنه الطبيب الذي لا يجاري. كان يدرك رسالة الطبيب ويدرك مسئوليته تجاه الإنسانية كطبيب. إنه نصير المحتاجين، وعون الضعفاء والمعوزين، والأستاذ الأمين الذي يجب أن يوكل إليه تخريج أجيال الأطباء لأنه قادر على تحمل الأمانة. والرازي أيضًا مؤلف الموسوعات والطبيب الخبير بمختلف أنواع الأمراض التي درسها السابقون وتوسع هو فيها بحثًا ودرسًا ونقذًا، كما كان الطبيب العلمي الماهر، والباحث الكيميائي المستقل، وصاحب التجارب العملية،

كما كان العالم المرتب الأفكار المنتظم في أعماله، وبذلك أدخل على الطب النظام والوضوح والتنسيق.

قيود الماضي

إن اضطراب الهضم الذي قاسى منه الخليفة المنصور زمناً طويلاً، والصداع الدائم الذي أصاب بعد ذلك بعشرين عاماً الخليفة هارون الرشيد دفعا إلى التفكير في إيجاد وسيلة للشفاء، لذلك خرجت أفراس البريد مرتين من قصر الخليفة ببغداد وقطعت نحو خمسمائة كيلو متر متجهة إلى أسافل دجلة ثم انحرفت شرقاً مخرقة البادية إلى جنديسابور بالقرب من الخليج العربي لإحضار مدير مدرسة الطب الساسانية القديمة، وكان من الأطباء ذوي الشهرة البعيدة، فأسرة بختيشوع كانت من الأسر العريقة في الدراسات الطبية حيث مارس أفرادها أجيالا وأجيالا هذه المهنة كما تولوا تباغاً تطبيب الخلفاء. ومن هؤلاء الأطباء وصلت المعرفة اليونانية التي كانت سائدة ومنتشرة في جنديسابور، ولم يقتصر الأمر على الطب اليوناني فنحن نجد الطب الهندي يشق طريقه إلى دار الخلافة أيضاً وذلك على يد الطبيب الهندي «منكاه» ومواطنه «صالح بن بهلة» الذي أعاد الحياة إلى عم الخليفة هارون الرشيد بعد أن اعتقد القوم أنه فارقها. ودخلت قصر الخليفة من هذين العالمين كتب الطب الهندية كذلك فنافست غيرها، ومع مرور الزمن أخذت تؤدي رسالتها. وبعد قرن من الزمن نجد العرب يلمون بسائر أنواع المعارف من يونانية وهندية وسريانية وفارسية، ولما نزع الرازي لأول مرة عام 880 م إلى بغداد وجد الطريق سهلاً معبداً أمامه، فمختلف المراجع الطبية القديمة قد نقلت إلى العربية ونقحت واستكملت، هذا مع الإشارة

إلى المجهودات العظيمة التي بذلها العلماء العرب في الطب وقتذاك وبخاصة أمثال: الكندي والكناني ويحيى بن ماسويه وأفراد أسرتي ثابت بن قرة وحنين بن إسحق. وهكذا نجد الطب العربي يخطو خطوات هامة بعد أن اجتاز مرحلة البدء، فقد ظهر الرازي وجعل الطب علمًا عربيًا مستقلًا قائمًا بذاته، كذلك الحال مع الرازي والطب العربي، فكلاهما نهضا بالطب نهضة أبعد وأعمق مما كان عليه من قبل، فقد أخذ الطب اليوناني تجارب وعلوم الشرق القديم ومصر، ومن ثم استقل وشق طريقه إلى الحياة. وأبقراط هو الذي اعترف له العالم بفضلته فلقبه بلقب «أبي الطب»، وإن كان الطب اليوناني في عصره لم يكن على الأعتاب بل كان قد خطا خطوات واسعة في سبيل التقدم، كما أن أبقراط لم يكن هو أول من ابتدع الطب في اليونان بل كان حلقة في سلسلة طويلة، إلا أن المعرفة التي تحلى بها أبقراط لم يكتسبها عن معاصريه لأنهم لم يأتوا بجديد. أما الرسائل التي ظهرت فيما بعد في الإسكندرية حاملة اسم أبقراط فلم تشتمل إلا على معلومات قديمة إلا أنها تهتم بالحديث عن الصلة بين الطبيب والمريض. وكما رأينا العرب يتبرمون من المشعوذين والدخلاء كذلك الحال عن اليونان، وقد سبق إلى ذلك أبقراط فانبري مهاجمًا أولئك الأدعياء، وأخذ يتحدث عن الطبيب المثالي، الطبيب الحر لا الكاهن من بين رجال الدين الخاضعين لمؤثرات أخرى دينية. أما المبادئ الإنسانية التي نادى بها أبقراط فهي إنسانية عامة تربط بين جميع الأطباء وفي مختلف الشعوب والأمصار، كما تجعل منهم وحدة قوية. ونحن نجد أبقراط من ناحية أخرى مثالا يتحذى به وإليه تنسب طريقة معالجته الخاصة للأمراض ومعاملة المريض. وهذه الطريقة تعارض الوسيطيتين اللتين كانتا مستخدمتين وسائدتين في تاريخ الطب القديم، وباستخدام الطريقة المدرسية أصبحتا قويتين وعارضتا

مدرسة «أسكليبيادن» في «كنيدوس» و «كوس» التي كان يمثلها أبقرات. فحكيم «كوس» استفاد بأهم خصائص الطبيعة اليونانية الخيالية الفلسفية التي تصبغ ما يشاهده اليوناني بلونها، فهذه الطبيعة إن أفادت في الرياضيات والطبيعات فهي ضارة بالطب القائم على التجارب كما هو الحال مع الفلاسفة الطبيعيين ومعهم كثيرون من الأطباء اليونانيين.

أما أبقرات فكان يعتقد أن هذا ليس هو الطريق السوي للطب، وذلك لأنه طريق محفوف بالمخاطر، فالوسيلة الوحيدة لتحقيق هدف الطبيب هو طريق التجارب والاختبارات والعمل، وبخاصة دراسة المريض وهو على سرير المرض. أما سائر الطرق الأخرى فجامدة تسير على وتيرة واحدة فلسفية وتنظر للأمراض وكأنها وقد صبت في قالب واحد لا تحوير فيه ولا تغيير، والواقع أن كل مرض يحتاج إلى عناية خاصة ودراسة خاصة؛ لأن المرض يكون حالة مستقلة متصلة بالبيئة والزمان والمكان. وهكذا نجد أبقرات ينساق وراء شيطانه ويؤمن بنظرية «أمبيدوكليس» الخاصة بالعناصر الأربعة الأولية، ففي كل إنسان معافى سليم أربعة أنواع من العصير الرئيسي: الدم والمخاط والمرارة الصفراء والمرارة السوداء وخواصها المختلفة بالرغم من امتزاجها مع عناصر أخرى. فالمرض هو اضطراب في نسب الامتزاج، فهذا الاعتراف بالحرص على تشكيل العالم وفهمه على هيئة صور أثبت أبقرات تقديره للفلسفة اليونانية كما ترك الباب مفتوحاً أمام الخيال والأفكار المتأخرة.

ولم تترك فكرة تصور الكون على هيئة صور الفرصة لمن ينتظرها، إذ من بين التلاميذ وتلاميذ التلاميذ من عمل على خنق نظرية التطبيق والتجربة؛ وذلك بسبب انتشار نظرية عناصر العصير الأربعة، ومع الفلاسفة العظام أمثال: أفلاطون وأرسطو انتصرت نظرية الاستنتاج

على التجربة واستنباط الحقائق الطبية من المستشفى، وبذلك أصبح الطب يدرس وينظر إليه على أنه علم وليس مجرد تجارب تكتسب من المستشفى، وهكذا نجد الطب إلى طريق وعر خطأ بسبب آراء أولئك الفلاسفة الأقدمين، ومما يؤسف له حقاً أن الطب ظل يسير في هذا الطريق قرونًا عديدة. ولما جاء جالينوس (130 - 201 م) حقق الهدف السامي للطب عن طريق علمي صحيح ومنطق رياضي سليم، وأقام حول علم الطب سياجاً متيناً، واستخدم جميع الطرق الهندسية بحيث استطاع الاستفادة من كل مجهودات الماضي، فخطا بالطب خطوات علمية موفقة وخرج به من حيزه اليوناني الضيق إلى المحيط العالمي الواسع. فهذا البناء الخالد للطب والذي شيدته العلوم القديمة ترك أثراً في الأجيال المتعاقبة لا يقل أهمية عن أثر علم الفلك القديم وعلم الماجسطي لبطليموس. فقد قام على نظريات فلسفية متأرجحة عوضاً عن أن يقوم على أثاث ثابت من الخبرة العلمية التي تعتمد على التجارب والمستشفيات. فمن هو الشخص الذي لم يتأثر بهذه العقلية الإيحائية؟ ومن هو الشخص الذي أصابه ضرر من دراسات وأعمال جالينوس الذي كان يؤمن أن مثل هذه المحاولات من حقه ولو أنها كثيراً ما شابها الخيال؟ لذلك نجد القرون العديدة تحني هاماتها احتراماً لجالينوس وتقديرًا. ولم يدم الحال قطّ على هذه الوتيرة فقد أخذت أعمال وفضائل جالينوس تخفي وتتضاءل تدريجيًا، وذلك عندما أخذ الطبيب الحديث يتحرر من التأملات، ومن ثم أخذت تظهر العلوم المتحررة غير المتأثرة بمؤثرات خارجية، وذلك في أوائل القرن السابع عشر بسبب اكتشاف الدورة الدموية الكبرى على يد الإنجليزي «هارفي». والواقع أن فكرة الدورة الدموية لم تخطر على بال جالينوس. أما نظرياته الهوائية فقد شرحها كما فحصها في الكبد بمساعدة التدفئة الدخيلة حيث يتحول

الطعام إلى دم، يسيل جزء منه في الأوردة ويسير في اتجاه مستقيم إلى جميع الأعضاء والأجهزة إلا أن جزءاً منه يجري في الوريد القلبي ومن ثم الوريد الأجوف الصاعد إلى الجيب الأيمن للقلب. وهنا نجد الحرارة الدخيلة تسبب غليان الهواء وتنقيته، حيث نجد البقايا عبارة عن هباب يتخلص منه عن طريق أوردة الرئتين والرئة والزفير. ومن الجيب الأيمن للقلب يجري جزء من الدم النقي في شرايين الرئة إلى الرئة لتغذيتها. أما البقية الباقية فتتسرب عن طريق المسام الموجودة في الحائط الفاصل للقلب إلى القلب اليسار، حيث يختلط مع هواء الشهيق الذي يجري في أوردة الرئتين، ويتحول هذا الخليط بواسطة الحرارة الدخيلة إلى مصدر الحياة، ويجري في سائر شرايين الجسد. هذا هو رأي جالينوس في القلب من حيث علم الأحياء، وظل هذا الرأي سائداً حتى جاء «وليم هارفي» عام 1616 م وقضى على أخطاء جالينوس وآرائه الخاصة بالقلب. أما «هارفي» فقد ظهر ونادى بآرائه الجديدة هذه بعد أن مضى نحو ثلاثة وستين عاماً على مجيء الإسباني «ميخائيل ثروت» عام 1553 م، وتحدث للمرة الأولى عن دورة دموية وهي المعروفة باسم الدورة الصغرى أو دورة الرئة. وبعده بفترة قليلة جاء الإيطاليان «كولومبو» و «كيسلبينو» وأدخلا بعض التصحيحات على آراء جالينوس. وهكذا كان الوضع في تاريخ الطب حتى عام 1924 م. ففي ذلك العام (1924 م) تقدم شاب مصري إلى كلية الطب بجامعة «فريبورج» بإقليم «بريسجاو» برسالة في غاية الأهمية وفي اللغة الألمانية. ولا شك في أنه إذا ثبتت صحة النتائج التي انتهى إليها هذا الطبيب، فإن الفصل الخاص بالتاريخ العلمي لهذا الموضوع الطبي يجب أن يكتب من جديد. وفي ألمانيا نفر قليل من المستشرقين الذين يهتمون بالمخطوطات المحفوظة بمكتبة الدولة، ويقوم هؤلاء الأساتذة

بفحصها ويقابلون بين ما يذكره الدكتور التطاوي وما جاء في هذه المخطوطات، وبعد دراسة فاحصة قرر أولئك المستشرقون أن الطبيب المصري على حق فيما ذهب إليه، وقد ثبت أن طبيباً عربياً عاش في القرن الثالث عشر الميلادي، وأن هذا الطبيب العربي أدرك مدى الخطأ الذي تردى فيه جالينوس. فالطبيب ابن النفيس هو أول من فكر في موضوع الدورة الدموية، وكان ذلك قبل «هارفي» بنحو أربعة قرون أو ثلاثة قرون قبل «ثروت». وقد بلغ ابن النفيس مكانة ممتازة بين أطباء عصره حتى إنه لما توفي رثاه أحد شعراء عصره بقوله: «إنه فريد عصره»، وإن العالم لم ير مثيلاً له منذ عهد ابن سينا. ابن أبي أصيبعة (1201 - 1270) الطبيب ومؤرخ الطب العربي، هو ابن طبيب عيون وحفيد مدير مستشفى العيون في دمشق. وقد ذكر لنا سير نحو ثلثمائة وتسعين طبيباً من أشهر أطباء العرب، لكن ما هو السبب الذي دفعه إلى تجاهل هذا الطبيب الشهير جداً والذي بلغ في عالم الطب منزلة قد لا يدانيه فيها أحد؟ ! إن هذا سر غامض حقاً، فابن النفيس كان معاصراً لابن أبي أصيبعة ومواطناً له، بل كان زميلاً له في مدرسة الطب وفي نفس المستشفى الذي عمل فيه الاثنان. لقد ولد كلاهما في دمشق وفيها ترعرعا، وعندما ولد ابن النفيس عام 1210 م كان ابن أبي أصيبعة قد أدرك السابعة، ودرس كلاهما الطب وتتلّمذ على أستاذ واحد ألا وهو ابن الدخوار. وقد كان مديراً لمستشفى نوري، وقد اشتهر لمحاضراته العلمية التي كان يرتادها الكثيرون فضلاً عن تدريسه العلمي في المستشفى وثروته الخيالية، ولما لم يترك ذرية تبرع بقصره الكبير ليكون مدرسة للطب، وألحق بها عيادة خاصة، كما أوقف عليها إيراد أملاكه للإنفاق عليها. وقد درس على هذا العالم الفاضل ابن أبي أصيبعة وابن النفيس كتب الرازي وابن سينا ورسائل جالينوس الذي كان يحترمه كثيراً؛ وقد

اعتاد ابن أبي أصيبعة إذا ما سمع شيئاً من أقوال جالينوس أن يسخر من أستاذه ويصيح: هذا هو الطبيب! ثم لا تلبس طويلاً حتى نجد الطبيبين الشابين يلتقيان في المستشفى الناصري في القاهرة. هذا المستشفى الذي أنشأه صلاح الدين، لكن ابن أبي أصيبعة لم تطل إقامته في مصر وتركها إلى أطراف بادية الشام حيث التحق بخدمة أمير شامي، وهكذا نسي رفيقه وزميله. أما ابن النفيس فقد كان أحسن حظاً إذ أصبح رئيساً للمستشفى الناصري، وظل هكذا مدة طويلة رئيساً لأطباء هذا المستشفى، ويلقي محاضرات عن جالينوس وابن سينا ارتجالاً دون أن يستعد لها. ويروي الذين حضروه أنه إذا ما أراد وضع رسالة طبية تدفقت آراؤه ومعلوماته كالنهر الفياض دون ما حاجة إلى الاستعانة بمراجع أخرى. ويحكى أنه كان مرة في حمام من حمامات القاهرة يغتسل بصابون مصنوع من زيت الزيتون فخرج من الحوض ودخل غرفة بالحمام وهناك أمر بإحضار ورق وقلم ومداد وأخذ يكتب رسالة حول «النبض»، وعندما فرغ منها عاد إلى الاستحمام ثانية. وكان ابن النفيس طويل القامة نحيل القوام ورأسه رأس علماء. وإلى جانب مهنته كطبيب وعالم شغف كذلك بعلوم الشريعة والنحو المنطق والفلسفة، وكان يقرأ على الطلاب في مدرسة الشريعة المعرفة باسم المسرورية علوم الشريعة والحديث. فهذا العالم الشاب الذي ثقف شباب الأطباء المصريين في مؤلفات كبار علماء الطب أمثال: جالينوس وابن سينا، هذه المؤلفات التي كان يجيدها ويلم بها، اشتهر باستقلاله في تفكيره حتى إنه لم يتردد في نقدها ونقد غيرها من مؤلفات الآخرين. ويمتاز ابن النفيس على أستاذه ومعظم زملائه بالشك وقوة النقد فهو لا يتقبل آراء الآخرين سواء كان جالينوس أو غيره على أنها حق لا يأتيها باطل بل هاجمها وقلل من أهميتها. أما الآراء المتداولة والنظريات التعليمية، فلو يعرضها على

طلابه إلا بعد الدرس والتمحيص مهما كانت مصادرها وتفاوتت مقادير أصحابها وتباعدت العصور التي عاشوا فيها. والجرأة التي اقتحم بها «هارفي» هيكل تقديس القديم ومزق أستاره وفضح قدسيته مكنته من فتح باب النقد والبحث العلمي على مصراعيه، كذلك كان الحال مع الباحث العربي ابن النفيس، فقد كان جريئاً جداً حريصاً على الاحتفاظ بحريته العلمية والمناداة بما يعتقد؛ وهو من المنادين بأن فحص أي عضو من أعضاء الجسم يتطلب من الباحث قبل كل شيء الملاحظة الدقيقة والدراسة العلمية النزيهة ولا مراعاة لأي اعتبار آخر قد يحول دون حرية البحث أو إبداء الرأي أعني عدم الاكتراث بمكانة صاحب الرأي سواء كان من القدامى أو المحدثين. وليس هذا المذهب هو مذهب ابن النفيس فقط بل قد اتبعه الرازي أيضاً ونهج على نهجه «هارفي»؛ فابن النفيس و «هارفي» اعتمدا على المشاهدة والتجارب الطبيعية.

وهناك فروق في تكوين مختلف الحيوانات، لذلك يجب أن نستعين بعلم تشريح مقارن؛ هكذا نادى ابن النفيس ونادى بوجوب ملاحظة الفوارق وأخذها بعين الاعتبار. وقد أثبت التشريح للعالم الباحث الأمين ما يأتي:

1 - أن القلب يتلقى غذاءه من الدم الذي يجري في الأوعية (وليس كما كان يعتقد قديماً عن طريق الحوض اليميني للقلب) التي تتخلل القلب؛ وبذلك يكون ابن النفيس أول من تنبه إلى وجود الدورة التاجية.

2 - أن الدم يندفع إلى الرئة ليتشبع بالهواء وليس لتغذية الرئة (كما أشار إلى ذلك متأخراً هارفي).

3 - هناك وصلات بين شرايين الرئة وأوردتها، وهذه وصلات تتحكم في الدورة الدموية في داخل الرئة (وهذه الحقيقة التي اهتدى إليها ابن النفيس قد ادعاها لنفسه «كولومبو» وقال إنه صاحبها).

4 - أن أوردة الرئة ليست ممثلة بهواء أو هباب (كما اعتقد جالينوس، وأضاف على ذلك قوله إن الأوردة تجري في اتجاهات عكسية) بل بالدم.

5 - أن جدران شرايين الرئة أسمك من جدران الأوردة ومكونة من طبقتين. هذه هي الاكتشافات العظيمة جدًا التي اكتشفها ابن النفيس، وظلت زمنًا طويلًا منسوبة إلى ثروت وبخاصة الآتية:

6 - ليس للحائط الفاصل في القلب مسام، وكل ما في الأمر أن الدم يكون دورة، وبين هذين الحوضين الموجودين في القلب لا توجد ثغرة موصلة وذلك لأن هذا الحائط الفاصل في القلب مغلق وليست به فتحات مرئية كما يعتقد البعض أو غير مرئية كاعتقاد جالينوس، وذلك لأنه ليست للقلب مسام ومادته في تلك الجهة سميكة؛ ولا شك في أن هذا الدم بعد أن يصير رقيقًا يندفع إلى الرئة عن طريق شرايينها ليجوس خلالها ويمتزج بالهواء منقياً الجزء الدقيق منه، ومن ثم يجري هذا الدم في أوردة الرئة متجهاً إلى الحوضين اليساريين للقلب بعد أن يكون قد امتزج بالهواء. وهكذا وصفت الدورة الدموية الصغرى وصفاً دقيقاً سهلاً يكاد يكون نفس العبارات التي استخدمها فيما بعد «ميخائيل ثروت»، وإن اختلف «ثروت» عن ابن النفيس في شيء فإنما في العبارة التي ساقها ويذكر فيها أن لون دم أوردة الرئة أحمر فاتح. فإذا استثنينا هذه الملاحظة التي أوردها «ثروت» الإسباني، فعباراته تتفق مع عبارات ابن النفيس الطبيب المصري. وقد جاءت عبارة ابن النفيس في

شرحه الذي وضعه على كتاب القانون لابن سينا والخاص بالتشريح. فهل هذا الشبه القوي بين الإسباني وابن النفيس العربي جاء صدفة؟ ثم هل عرف «ثروت» الإسباني، الذي اشتهر حتى زمن قريب جدًا بأنه مكتشف الدورة الدموية الصغرى وفاضت كتب تاريخ الطب في أوروبا بالحديث عنه بأنه صاحب الفضل في الاهتداء إليها، وشرح ابن النفيس على قانون ابن سينا؟ أما ميخائيل ثروت أو كما يعرف في الإسبانية باسم «ميجويل ثرافيدا»، فقد ولد عام 1509 م من أسرة نبيلة في «فيلا نويفا» بأرجون وكان ميلاده يصادف مضي ثمانية عشر عامًا على خروج العرب من إسبانيا، ومعنى ذلك أنه ولد في عصر كان النزاع فيه محتدمًا بين العرب وأعدائهم وانتهى بأيلولة ملكية هذه البلاد الجميلة إلى السادة الجدد واندمج العدد الباقي من المسلمين في المجتمع الجديد. لكن الشيء الجدير بالذكر أن الشبان المسيحيين في ذلك الوقت كانوا قد أقبلوا على الثقافة العربية والآداب العربية إقبالًا عظيمًا وذهبوا بعيدًا، فكانوا يفاخرون بالمهامم باللغة العربية أدبًا وثقافة؛ مما اضطر أسقف قرطبة إلى إبداء أعمق الحزن وأشد الأسف على إقبال المسيحيين على لغة العدو وأدبه. وهو يذكر أيضًا أن جميع الشبان المسيحيين كانوا لا يعنون إلا بالعربية وآداب العرب حتى إن «ميجويل»، مواطن الطبيب «أرنلد» من «فيلا نويفا» كان يجيد اللغة العربية نطقًا وكتابة، وقد استطاع أن يترجم في سهولة كثيرًا من الكتب الطبية العربية دون مساعدة عربي أو يهودي. ولا عجب إذن إذا قلنا إن المعاهد العليا الأوروبية ظلت زهاء ثلاثة قرون تعتمد على المؤلفات العربية فقط، ولا غرابة كذلك إذا أغرى هذا التراث العقلي العربي العدو الذي كان دون العربي عقلًا وثقافة وعلمًا، فأقبل الأوروبيون على الاغتراف من حياض المعرفة العربية بالرغم من يقينهم بأن هذه الثقافة قد تكون مصدر خطر عليهم. أما

المذهب المسيحي القائل بالتثليث مثلاً، فقد كان له وضع خاص مختلف، فنحن نجد «ميجويل» ولم يتجاوز الخامسة والعشرين ينتقد التثليث انتقاداً مرّاً ويهاجمه ويسفه المؤمنين به علماً بأن معارضي أصول الإيمان المسيحي كانوا عرضة لأشد أنواع التعذيب من الكنيسة وبخاصة أن هذه الأصول الدينية كانت من وضع الكنيسة، لذلك كان المفكرون الأحرار يؤثرون الهرب على الوقوع في قبضة رجال الكنيسة، لذلك نجد «ميجويل» يتنكر تحت اسم آخر ويهرب ويختفي في مطبعة في فرنسا، وهنا التقى بالرجل الذي أخذ بيده وأقحمه في المعركة الخاصة بالعروبة، كما رسم له مستقبل حياته والطريق التي يجب على «ميجويل» السير فيه. هذا الرجل هو الطبيب والمفكر الفرنسي الحر الذي كان يعني كثيراً بالدراسة العربية الطبية ويقابل بينها وبين ما خلفه اليونان. لذلك نجد «ميجويل ترافيدا» أحد أبناء مدينة «فيلا نويفا» وهو الذي يعرف أيضاً باسم «ميجويل ثروت»، يقرر دراسة الطب في فرنسا في باريس وفيينا وبادوا، وقد ظل «ثروت» زومناً طويلاً متنكراً تحت اسم مستعار يضعه على كتبه، كما احترف مهنة التطبيب وعمل كطبيب خاص. وفي عام 1551 م أصدر رسالة حول بطلان التثليث فواجه بها الرأي العام صراحة فسرعان ما هاجمه القدر. ثم نجد «كفلين» يشي بالمؤلف ويقول إنه «ثروت»؛ لذلك هاجمه زبانيته وألقوا به في سجن مدينة جنيف، ففاسى كثيراً من الأمراض وويلات التعذيب التي يخجل «ثروت» من ذكرها، وقد افترسته البراغيث تقريباً وليس عليه قميص يستتره كما كان يرتعد من شدة البرد وهو في أسماله الممزقة، لذلك استدعى «ثروت» هذا الشخص المسمى «كفلين» وأبدى له رغبته في أن يحكم بعديل في قضيته، لكن قضية «ثروت» هي التي كانت السبب في القضاء عليه وتعذيبه حتى فارقت روحه جسده. ففي عام 1553 م

أحرق «ثروت» حيًا في جنيف ومعه كتابه الذي كان قد ظهر في ذلك الوقت حول «إحياء المسيحية» وهو الكتاب الذي يتحدث فيه أيضًا عن هذه المسألة الهامة الخاصة بالدورة الدموية الصغرى. وقد اهتم «ثروت» كثيرًا بالطلّ العربي فهمًا ودرسًا ونقدًا فنجده يعرض لطبخ المشروبات عند العرب، ويقابل بينه وبين ما ذكره جالينوس خاصًا بطبخ الأنواع الرئيسية للعصير ونظرياته حول هذا الموضوع، فهل كان تحت يد «ثروت» شرح ابن النفيس على هذا الكتاب الطبي العظيم لابن سينا الذي توجد منه نسخة في مكتبة الإسكوريال بالقرب من مدريد؟ وفي هذا الشرح الذي احتفظت منه الإسكوريال بنسخة نجد الكشف العربي العظيم الذي أثار أثرًا مباشرًا في العلوم الأوروبية. لكن «ثروت» لم يكتف بما ذهب إليه بل أخذ يوزع ضرباته وهجومه على جالينوس، هذا الهجوم الذي لم يؤثر على أفكاره وعرضها بخلاف خليفته «كولومبو» الذي لم يعرف الكتاب المشار إليه والمنسوب إلى «ثروت»، لذلك لم يندفع في تيار النقد لجالينوس ومهاجمته. إلا أن «ميجويل ثروت» كان بطبعه ملحدًا وكل الأدلة تؤيد أن الصورة الكاملة التي رسمها ابن النفيس عالم التشريح العربي للدورة الدموية أغنت الإسباني عن الجري وراءها والبحث عنها وشن حرب على جالينوس. والشيء العجيب حقًا أن شرح ابن النفيس على قانون ابن سينا، هذا الشرح الذي يعتبره العرب من أحسن ما كتب عن القانون، لم يترجم إلا في الهند. أما المخطوطات العربية لهذا الشرح فما زالت مكدسة مع مئات غيرها في دور الكتب الغربية والشرقية لا يهتم بها عالم أوربي أو آخر عربي حتى ظهر بغتة الشخص الذي يجمع بين إجادة اللغة العربية والمعلومات الطبية الفنية وحقق أمنية ابن النفيس التي ذكرها حيث قال: «لو لم أعلم أن مؤلفاتي ستعيش بعدي حوالي ألف عام ما ألفتها»، لكن المسؤولية عن هذا كما

يذكرها ناقل الخبر سيؤديها الشخص الذي يريده ابن النفيس. أما تاريخ كشف العالم العربي الذي ظل مدة طويلة مغمورًا مجهولًا، والذي عاش في القرن الثالث عشر، فإنه يؤيد كيف أن المجهودات العربية العلمية وبخاصة في الطب عظيمة جدًا، وأن الأحكام الارتجالية القائلة إن العرب كانوا عالة على اليونان هراء في هراء، وأن الذين يرددون مثل هذا الادعاء مثلهم مثل البغواء، والكشف الأخير الذي اهتدى إليه الدكتور التطاوي يثبت أن العلماء العرب أطول باعًا وأعمق بحثًا وأدق نقدًا من زملائهم المسيحيين وبخاصة في العصور الوسطى، كما أن الدكتور التطاوي أثبت أنه لم يبال بآراء العلماء السابقين ولم يكثر بموقفهم أو موقف من جاءوا بعدهم. يشقون طريقهم «جالينوس - وإن كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه - الحس أصدق منه». فهذه الجملة اعتراف صريح قاله الطبيب والعالم البغدادي الذي كان من أصدقاء صلاح الدين ألا وهو عبد اللطيف البغدادي (1162 - 1231 م)، وقد تنقل في مختلف عواصم شرق العالم الإسلامي ودرس في مدارسها، وقد جاء في «كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر»: «ومن عجب ما شاهدناه أن جماعة ممن ينتابني في الطب وصلوا إلى كتاب التشريح، فكان يعسر إفهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان، فأخبرنا أن بالمقس تلاً عليه رمم كثيرة فخرجنا إليه فرأينا تلاً من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه أقل من الموتى به تحبس ما يظهر منهم للعيان بعشرين ألفاً فصاعداً، وهم على طبقات في قرب العهد وبعده. فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علماً لا نستفيده من الكتب، إما أنها سكنت عنها أو لا يفي لفظها بالدلالة عليه، أو يكون ما شاهدناه مخالفاً لما قيل فيها، والحس أقوى دليلاً من السمع، فإن

جالينوس - وإن كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما يبشره ويحكيه- الحس أصدق منه». ثم بعد ذلك يتخيل لقوله مخرجًا إن أمكن، «فمن عظم الفك الأسفل، فإن الكل قد أطبقوا على أنه عظامان بمفصل وثيق عند الحنك، وقولنا الكل إنما نعني به ها هنا جالينوس وحده فإنه هو الذي باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينه، وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقي لم يخرج إلى لسان العرب. والذي شاهدناه من حال هذا العضو أنه عظم واحد وليس فيه مفصل ولا درز أصلاً، واعتبرناه ما شاء الله من المرات في أشخاص كثيرة تزيد على ألفي جمجمة بأصناف من الاعتبارات، فلم نجده إلا عظمًا واحدًا من كل وجه، ثم إننا استعنا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا فلم يزدوا على ما شاهدناه منه وحكيانه، وكذلك في أشياء آخر غير هذه، ولئن مكنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكي فيها ما شاهدناه وما علمنا من كتب جالينوس. ثم إنني اعتبرت هذا العظم أيضًا بمدافن بوصير القديمة المقدم ذكرها فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصل ولا درز، ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة إذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرق، وهذا الفك الأسفل لا يوجد في جميع أحواله إلا قطعة واحدة.». ولو اعتقد أبقرات ومن جاءوا بعده أن الطفل يتحرك تلقائيًا ويخرج من الرحم فإن علي بن العباس هو أول من تنذبه إلى هذه الظاهرة، وهو مكتشف وظيفة الرحم وأنه بانقباضه يطرد الجنين؛ كما كتب علي بن عباس عن أورام الرحم وعنق الرحم وسرطان البطن. وابن العباس هو الذي سبق «دروين» بنحو ألف عام ونادى بالرأي القائل بنشأة الأجناس وتأقلمها ببيئتها المحيطة بها. كذلك العظام قد تصاب بالالتهاب، هكذا يقرر ابن سينا مخالفًا آراء الأقدمين الذين يقولون: «إن الأنسجة ضعيفة التماسك مثل أنسجة المخ والأنسجة القوية

كتلك التي نجدها في العظام غير قابلة للالتهاب»، فهذا الرأي خطأ، فأولاً هو يفرق بين التهاب جلد المخ، وهو التهاب معد، وبين الالتهابات الأخرى المعدية، وبذلك يقدم لنا أول تشخيص خلافي لتصاب الرقبة والالتهاب الثانوي لجلد المخ، ثم نجده في عصرنا هذا. فهذه الصورة العامة التي عرف العالم القديم بعضها وفاته البعض الآخر تجعل علم الأمراض العربي في منزلة أرقى وأبعد من هذا العلم عند اليونان وبخاصة عند جالينوس، بالرغم من أنه ذكر تحليلات هامة تاهت فيها عبقريته؛ لأنه كان حريصاً على إخضاع الحقائق لإثبات صحة نظرياته.

لقد علم الرازي العرب الفحص الحر والتفكير المستقل. أما رسالته في الجدري والحصبة فهي الأولى من نوعها التي صورت هذا المرض تصويراً علمياً صحيحاً؛ مما اضطر علماء القرن الثامن عشر الميلادي إلى الاعتراف لها بأنها خير رسالة كتبت في هذا الموضوع؛ لأن الرازي استطاع أن يميز بين النقرس وغيره. أما ابن سينا فهو أول من استخدم التشخيص الخلافي مفرقاً بين الالتهاب الذي يصيب الضلوع والالتهاب الرئوي والألم الذي يصيب الأعصاب الوربية، وخراج الكبد وحالات الالتهابات الأخرى. وابن سينا يفرق بين أعراض مغص المصران والمغص الذي يصيب الكلى، كما أنه خالف مذهب اليونان عند معالجة الشلل وبخاصة شلل الوجه، فقد شخصه ابن سينا وعالجه معتمداً على أسباب موضوعية بخلاف اليونان الذي شخصوه في حدود نظرية العناصر الأربعة وهي المرة السوداء والمرة الصفراء والدم والبلغم، لذلك عالج اليونان الشلل عن طريق الوسائل الحارة، وظلت هذه الوسيلة مستعملة حتى ظهر الطبيب العربي «صاعد بن بشر بن عبدوس» فخالف الأطباء اليونانيين وسفه آراءهم واستخدم طريقة ما زالت مستعملة حتى يومنا هذا «فإنه أخذ المرضى بالفصد والتبريد

والتدريب ومنع المرضى من الغذاء فأنجح تدبيره وتقدم في الزمان بعد أن فاصداً في البيمارستان، وانتتهت الرياسة إليه فعول الملوك في تدبيرهم عليه فرفع عن البيمارستان المعاجين الحارة والأدوية الحارة ونقل تدبير المرضى إلى ماء الشعير ومياه البرور، فأظهر في المداواة عجائب». أما ابن سينا الفيلسوف العظيم فهو أول من تعرف على الحمى الفارسية؛ وكذلك مختلف الأمراض التي يتسبب عنها مرض الصفراء وجودة المدينة وهي الدودة التي قد توجد تحت أنسجة الجلد. أما الطبيب الرازي فقد نهج منهج ابن سينا في العناية بالطب العملي فاكتشف حشرة الجرب، وكيف أنها هي السبب في ظهور هذا المرض الذي اكتشف علاجه ابن زهر في إسبانيا. فهذا الطبيب والفيلسوف الأندلسي، والذي يداني الرازي علماً ومكانة، يدين له الطب كثيراً، إذ كان هو أول من شخّص أمراض الالتهابات الجلدية فوصفها وصفاً دقيقاً كما عرض للالتهاب الرطب والجاف لكيس القلب، وهذا مرض يخالف سائر أمراض الرئة، ثم ذكر أيضاً نشأة التغذية الصناعية ومختلف أنواع التغذية عن طريق الأنبيب، وهو يصف هذه الحالات وصفاً دقيقاً لا يقل عن اهتمامه بعرض سرطان المعدة، وقد اهتم به إبان حياته في السجن فشاهده ودرسه في سجين آخر كان معه في نفس القاعة. وكان السرطان الموضعي هو عبارة عن مرض السرطان للعضو، فقد لاحظ هذا أولاً ابن سينا، وهو أيضاً الذي لاحظ العدوى التي قد تنتشأ عن السل الرئوي وعن خطر الإشعاعات الشمسية على المصابين بالسل.

والقول بأن بعض الأمراض المعدية مثل الجدري الأسود قد يمنح الجسم حصانة مدى الحياة قد نادى به الطبيب والفيلسوف العربي ابن رشد أحد أبناء قرطبة والذي اشتهر في العصور الوسطى في أوروبا باسم «أبي روز». وبعد قرنين من عصر ابن رشد أصدر القيصر مكسميليان

الأول أمرًا عاليًا أعلن فيه أن مرض الجدري وسيلة من وسائل الله لتهديب البشر وعن طريق هذا المرض ندرك مدى عذاب الله، وأولئك الذي لا يؤمنون بهذا كفار. وفي أواخر القرن الثامن عشر نجد أوروبا تستخدم التطعيم ضد الجدري كوسيلة لتحسين الجسم ضده، وهذا التطعيم بعينه قد سبق فيه العرب الأوروبيين واستخدموه في العصر الجاهلي، وبدافع وقاية الجسم من هذا المرض أيضًا كما هو الحال في عصرنا هذا. أما وسيلة العرب إلى تحقيق هذه الغاية فتطعيم الجسم بمصل مخفف من المرض، فيهيح هذا المصل الجسم وينبهه، ويجعله مستعدًا لمقاومة المرض، وذلك عن طريق خلق حالة مرض مصطنعة، ويكتسب الجسم بهذه الطريقة الحصانة المطلوبة. أما طريقة العرب فتلخص في أنهم كانوا يفصدون فصدًا بسيطًا في الكف بين الإبهام والمعصم، ومن ثم يأتون بجزء من محتويات بثرة من بثور الجدري الذي يكون قد أصيب به جار أو قريب في صحة جيدة، ويضعونه على الفصد، ومن ثم يدلكونه، بخلاف الصينيين الذين كانوا يضعون صديد الجدري -عن طريق كيس صغير مغموس في هذا الصديد- في أنف الشخص المراد تطعيمه. وإذا ذكرنا أطباءنا العرب يجب ألا ننسى ابن ماسويه مشخص مرض البرص في القرن التاسع الميلادي، ولم يكن هذا المرض كما اعتقدت أوروبا المسيحية لعنة من الله، وقد اهتم به كثيرون من الأطباء العرب ومن بينهم أحد أبناء القيروان ألا وهو ابن الجزار فقد أجاد تشخيصه وعلاجه، وكان العرب يعزلون صرعى هذا الداء الوبيل في مستشفيات خاصة وتحت رعاية أطباء مختصين بخلاف الحال في أوروبا التي جردتهم من حقوقهم الإنسانية فنهبهم المجتمع وصلت عليهم الكنيسة صلاة الميت، وذلك لأن طرد الفرد من المجتمع البشري في أوروبا كان عملاً كنسيًا، وكانت زيارة المرضى بالبرص من اختصاص

رجال الدين والمدنيين، فإذا كان المريض تحت رعاية أحد رجال الدين فعليه أن يشعر وهو في شقائه وبؤسه أنه جثة حية. ففي فرنسا كانت الكنيسة تعتبر هذا المريض، الحي الميت، فتحرمه هي أيضًا من حقوقه الكنسية فينقل المريض إلى قبر مفتوح حيث يصلي عليه قسيس ويهيل عليه التراب ثلاث مرات كما يفعل مع الموتى الحقيقيين، ومن ثم ترسله الكنيسة إلى دار خاصة أعدت لهؤلاء المعذبين الذين يمضون بها البقية من حياتهم. وقد ظلت هذه الحالة سائدة في أوروبا حتى القرن السادس عشر الميلادي كما يذكر «جيلرفون كيزربرج» فقد ورد عنه أنه قال: اليوم وفي مختلف الجهات والأماكن الكنيسة نجد القساوسة وحدهم هم الذين لهم حق الفصل في مثل هذه الحالات. كذلك الوباء القاتل المميت الذي كثيرًا ما كان يقضي على الأخضر واليابس كما حدث في القرن الرابع عشر حيث أهلك الكثيرين من سكان القارة، فمثل هذا الوباء لم يفهمه العرب على أنه وقع بسبب قوى ما وراء الطبيعة أو قوى سحرية، فالحدود بين الذين يصدر عن الأحكام معتمدين على المنطق والعقل وأولئك الذين يؤمنون بالخرافات -ومن الأسف أن نقرر هذه الحقيقة- كانت تمامًا كالفروق القائمة بين العرب العلماء النبهاء والمسيحيين الذين كانوا دون المسلمين كثيرًا. وإن الرأي الذي أعلنه أستاذ جامعة مونيخ عام 1348 م، ذلك العام الذي تفشى فيه الوباء وانتشر، قد قال فيه إن مصدر تكاثر هذا المرض هو نظرة المرضى؛ لذلك نصح الطبيب أو القسيس أن يطالب المريض بإغماض عينيه أو تغطية وجهه بملاءة من الكتان، وبذلك يستطيع المعالج لمس المريض وفحصه دون خوف أو وجل. وفي سويسرا وجنوب فرنسا نجد الشعب يتهم اليهود بأنهم سبب انتشار الوباء واستشرائه؛ لذلك هاج القوم اليهود وأحرقوهم. ولا شك في أن مثل هذا الحادث أشنع وأفظع من الوباء وأثاره. وفي «نازبون» و

«كركاسون» اندفعت جموع الشعب، وهاجمت الإنجليز أعداء المملكة فقطعوهم وأشعلوا فيهم النيران. واعتقد آخرون في الوباء وظهوره بأنه أقبل دخائًا خانقًا من السماء، واعتقد «كونرات فون ميچينبرج» أن الزلازل الأرضية التي تفجر الشرايين الأرضية هي التي تسبب الأوبئة التي تصيب الإنسانية. وقال آخرون إن سببه التقاء المشترى بزحل والمريخ في 20 مارس 1345 م ظهرًا وفي تمام الساعة الواحدة مساءً وتحت درجة 14 من الدلو. وفي مقدمة الذين نادوا بهذا الرأي الطبيب البلجيكي «سيمون ده كوفينو». أما الذين يقعون تحت الأفلاك ذات الأثر البعيد التي اشتهرت ببغضها للإنسان مثل زحل فهم الذين يأتيهم الموت.

أما الرأي العام فقد عبر عنه «بوكاشيو» في تقريره عن وباء الطاعون الذي حل بالقوم ذلك العام، وقد ذكر «بوكاشيو» في تعليقه: «بسبب أثر الأجرام السماوية أو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان مما أغضب الله فقرر إخافة الإنسان الذي مصيره إلى فناء»، وهو يقول أيضًا: «ومما زاد الطين بلة جهل الناس وعدم رغبتهم في الرجوع عن غيهم ...»؛ لذلك يدعو إلى إقامة صلوات التوبة مرات لا مرة واحدة، وفي شكل جماعات كثيرة. وفي المخيمات البشرية لذلك ازداد الوباء تفشيًا.

وفي تلك اللحظة يعود عربي بالأمن الضائع -الذي فارق الأوربيين وانطلق إلى السماء- إلى الأرض، وذلك باتخاذ الاحتياطات الضرورية القريبة المنال. ففي عام 1348 م وهو عام الطاعون نجد السياسي والمؤرخ والطبيب الأندلسي الخالد الذكر ذا الرئاستين الفقيه الكاتب أبا عبد الله محمد المعروف بابن الخطيب (1313 - 1374 م) يطلع على العالم المعذب برسائلته في الطاعون وأسبابه وعلاجه والوقاية منه ووجوب الاحتياط من العدوى الناتجة عن لمس المريض أو الاختلاط به

أو القرب من برازه. فالعدوى كما أثبت ابن الخطيب قائمة تؤيدها التجارب والنتائج القاطعة، وابن الخطيب يحذر من ويلاتها ويقول بوجوب الابتعاد عن المرضى وعن ملامستهم أو الاقتراب من ملابسه أو استخدام أوانيهم وأدواتهم، وزيادة في الحيلة قال إن قرط المريض قد يسبب الموت للذي يلعبه ولجميع أفراد الأسرة بل المدينة بجميع سكانها. ويدعو الطبيب العربي إلى وجوب تحصين الناس من هذا المرض الذي قد يفد إلى بلادهم عن طريق شخص أجنبي قادم من بلد أجنبي. ولا شك في أن إدراك الأخطار التي قد تنجم عن العدوى المتنقلة يعتبر من أهم الخطوات الهامة في تقدم علم الطب، والفضل في بلوغها يرجع ولا شك إلى العرب الذين توصلوا إليها بينما ظل العالم القديم قروناً عديدة يتخبط في ويلات الأمراض وأخطارها، وهكذا أدى الطب العربي أجلّ الخدمات الإنسانية. ويشارك ابن الخطيب الوزير الغرناطي هذا الرأي طبيب عربي آخر، وهذا الطبيب الأندلسي هو ابن خاتمة، أحد أبناء مدينة «الماريا» الإسبانية، فهو يقرر: إذا اتصل إنسان بمريض انتقل إليه نفس المرض بعوارضه، فإذا بصق المريض الأول دمًا بصق الآخر كذلك، وإذا أصيب المريض الأول بخراج انتقل الخراج الثاني، وكما أن الثاني قد أصابته العدوى من الأول فالمريض الثاني قادر كذلك على نقل المرض إلى الآخرين. وبغته أدركت أوربا بعد ثمانين عامًا من هذا الكشف العربي أن المرض -إذا ما ظهر- هو الوباء، ويجري الإنسان بعيداً عن المريض خوف العدوى، لكن هذا الفرار لا ينقذه من حالة الذعر التي تحل به وتستولي عليه، لذلك لجأ إلى الطلاسم عليها تقيه شر الوباء وأخطاره، كما استعان أيضاً بالبخور اعتقاداً منه أنه يطارد الهواء السام المتصاعد من باطن الأرض والمعروف باسم عفونة اليونانيين. ثم نجد بعد انتشار الوباء الثاني العظيم في ذلك القرن، أعني

عام 1382 م، أن «شالين ده فيناريو» الأستاذ بجامعة مونبيلييه الذي كان الوسيط بين العلوم العربية وبين جنوب غرب أوروبا، وعن طريقه شقت الثقافة العربية الأندلسية طريقها إلى هذا الصقع من أوروبا نجد هذا الأستاذ، بفضل هذه العلوم. قد استطاع أن يكتب كتابه عن الوباء، فيقرر أن شيئاً واحداً هو المسئول عن انتشار الوباء، وذلك الشيء هو انتقال العدوى. لذلك نجد الحكومة تتخذ بعض الاحتياطات للوقاية من انتشار المرض، ومن أولى البلاد التي سلكت هذا المسلك إيطاليا وبخاصة البندقية؛ لأنها عن طريق اتصالاتها بالشرق اكتسبت خبرة عظيمة وعينت عددًا من الأطباء العرب في مستشفياتها ومصحاتها لإدخال الطب العربي واستخدام القواعد العربية الصحية في جميع دور العلاج.

ثم نجد الوزير الأندلسي الذي ألف كتابًا حول نشأة الجراثيم يحل اللغز المشكل حول العدوى وانتقالها، فهي لا تنتقل إلى أناس خصوصيين ملازمين للمرضى بينما ترتفع في أفراد آخرين إذا ما دنوا من مريض. لقد أثبت هذا الطبيب العربي أن انتشار المرض يتوقف على درجة استعداد جسم الإنسان الملازم للمريض، فلا بد من أن تتوفر عوامل خاصة لانتقال العدوى، وبخاصة أن العدوى قد تنتشر بسرعة ودفعة واحدة أو تدريجيًا، وقد تكون قوية عنيفة عند شخص وضعيفة بسيطة عند آخر أو لا توجد بتاتًا. والاستعداد لقبول المرض هو الذي قد يؤدي بالمريض أو ينجيه منه بدون صلاة أو أي أثر للكواكب والأجرام. قد نستفيد من المسلمين الكلاب (!!) ما ينفعنا. وقد كان، فقد أغنى الجراح العربي الأندلسي أبو القاسم المتوفى عام 1013 م العلم بأبحاثه التي أفادت الطب كثيرًا وبخاصة فيما يتصل بالأمراض التي تصيب الدم، فقد فحصها أبو القاسم وراقبها في أسرة بعينها، وهكذا نجد قبل ظهور «برسيفال بوت» (1713 - 1788 م) بنحو سبعة قرون يقوم الطبيب

العربي أبو القاسم بدراسة التهابات المفاصل وسل الصلب، هذه الأمراض التي نسبت فيما بعد إلى الإنجليزي «بوت» وسميت «سوء بوت». لقد أدخل هذا الطبيب العربي كثيرًا من التجديدات لا في الجراحة فحسب بل في كي الجراح وتفتيت الحصوة الموجودة في المثانة، وكذلك في التشريح الجسماني وتشريح الحيوانات لإجراء التجارب والبحوث أيضًا، كذلك خطأ بالطب اليوناني فيما يتصل بأمراض النساء خطوات واسعة إذا أدخل عليه كثيرًا من الإصلاحات سواء في التشخيص أو العلاج أو الأدوات. كما أوجد وسائل جديدة للولادة وبخاصة لتدارك الحالات التي قد يوجد عليها الجنين في الرحم سواء من ناحية وضع يده أو ساقه أو ركبته أو وجهه. وهو أول من نادى باستخدام طريقة العصص هذه الطريقة التي كثيرًا ما أنكرها «سورانوس» وأسلافه.

أما الطريقة المعروفة اليوم باسم طريقة «فلخر» الطبيب المولد (1856 - 1935 م) وهو أحد أناء مدينة «شتوتجارت» فمن اختراع الطبيب العربي كذلك، وهو أول من نادى باستخدام طريقة رفع الولادة عند الوضع تسهيلات للولادة. وأبو القاسم هو صاحب فكرة وطريقة عملية استخراج الحصوة المهبليّة، كما أنه مخترع المرأة المهبليّة وعملية توسيع المهبل عند الولادة تسهيلات للوضع، كما علم وعالج الشذوذ الذي قد يوجد في الفم أو الفك واستخدام الخطاف لاستخراج الزوائد الأنفية.

وأجرى عمليات ناجحة في القصية الهوائية بقطع أفقي لخادمه. وأبو القاسم هو الذي أجرى العملية المشهورة التي تمنع تدفق الدم من الأوعية الدموية الكبرى، ولم تعرف أولاً هذه العملية إلا بعد وفاة أبي القاسم بستة قرون وكان أول من اشتهر بها الجراح الفرنسي «أمبرواز باريه» وكان ذلك عام 1552 م، ولولا أبو القاسم وتفوقه ونجاحه في القيام بعمليات

البتر ما استطاع الطب أن يخطو هذه الخطوات العظيمة. ولأبي القاسم يرجع الفضل الأكبر في تقدم الجراحة، وإليه يدين الجراحون بالكثير مما توصلوا إليه في عصرنا الحاضر، فهو السباق إلى مختلف أنواع الخيطات الجراحية مثل المشكولة أو تلك التي تشبه حياكة الفراء ثم الرّفو، وبخاصة فيما يتصل بالعمليات الجراحية التي تجري في البطن.

فهو يستخدم إبرتين في خيط واحد، هذا فضلا عن استخدام مصارين القطط والأوتار في الجراحات الخاصة بالمصارين. وهو ينصح عند خياطة الجراح وإجراء العمليات الجراحية أسفل السرة برفع الحوض والساقين. وهذا الوضع هو الذي أخذته أوربا فيما بعد عرف باسم وضع «ترندلينبورج». وقد استخدمت أوربا هذه الطريقة في أوائل القرن العشرين بعد أن أطلقت عليها اسم الجراح الألماني الشهير «فريدريش وترندلينبورج» (1844 - 1924 م)؛ ومما يؤسف له حقًا ندرة ذكر اسم مخترعها الطبيب والجراح العربي أبي القاسم. وطبيبنا العربي هذا هو صاحب الطريقة المثلى في معالجة الكسور المفتوحة للعظام فهو صاحب فكرة ترك ثغرة في رباط الجبس، وهذه الثغرة يجب أن تملأ بدقة وعناية، ومن حسن الظن أن وصلتنا مجموعة كبيرة من الصور التخطيطية الخاصة بجراحة العيون والأسنان والعمليات الجراحية الأخرى والآلات الضرورية لإجرائها، وقد استكمل الطب العربي جميع هذه الإمكانيات في الوقت الذي كان فيه أطباء أوربا لا يعرفون شيئاً عنها بالرغم من الحاجة الماسة إليها لإجراء العمليات الجراحية. أما أهم ميزة يتميز بها العرب على اليونان من الناحية الطبية فهي طب العيون، فقد اهتم الأطباء العرب بالعيون وأمراضها وطرق علاجها اهتماماً عظيماً حتى إن هذا الفن من الطب لقي تشجيعاً عظيماً وبخاصة بفضل المجهودات الجبارة التي بذلها علماء الطبيعة العرب. والعبقريّة التي

أبدوها في البصريّات، وهذا علم يعتبر وبحق علمًا عربيًّا. وأول كتاب جاءنا في طب العيون عامة هو ذلك الذي وضعه حنين بن إسحق، وبفضل حنين والمؤلفات الرفيعة جدًا التي ألفها علي بن عيسى وعمار الموصلي أصبحت لدينا الأسس التي شيدت عليها أوربا علم طب العيون في مدارسها، وظل الحال كذلك حتى أواخر القرن الثامن عشر. وفي السنوات الأخيرة قدمت لنا أرض أمراض العيون الدواء الناجع الذي اكتشفته، وكذلك القطرة المستخرجة من نبات مصري طبي وهي مفيدة لإزالة الغشاوة التي قد تعلقو البلورية كما تفيد في حالات الصرع أو الصّاع الجزئي. والعرب هم الذي أظهروا نبوغًا عظيمًا في تعرف نشأة العاهات الجسمانية التي تعرف الآن باسم «أورثو بيدي» وعلاجها والوقاية منها، فالطريقة المتبعة حتى يومنا هذا في أوربا عند إرجاع عظم الكتف إلى وضعه الطبيعي تعرف باسم الطريقة العربية. وإلى جانب وسائل العلاج «تيرابي» التي كانت مستخدمة قديمًا أعني الحمامات الساخنة والحمامات الباردة، يذكر ابن سينا كعلاج جديد الحمامات المتناوبة، كما اخترع الحقنة الشرجية وقربة الثلج، كما يرجع إلى الرازي الفضل في استخدام الشعر في خياطة العمليات الجراحية في العصور الوسطى؟ كذلك من الأشياء الأصيلة وذات الفضل العظيم على الإنسانية: طريقة العرب في التخدير، وهم يختلفون فيها عن الهنود واليونان والرومان الذين كانوا يسكرون المريض. أما الطريقة العربية في تخدير المريض فهي العمل على تخديره لا لتخفيف الآلام فقط بن تسهيلًا للجراح للقيام بعملية الجراحية دون أن يشعر المريض بالألم، أعني استخدام طريقة التخدير الشامل لكل الجسم. ومن العجيب أن هذا التخدير قد نسبته الأوروبيون أيضًا إلى طبيب إيطالي، ومن ثم إلى أهالي الإسكندرية الذين تعلموه عن العرب. أما طريقة إجرائه فغمس قطعة من

الإسفنجة في عصير من مادة الحشيش ومستخرج زهرة البسلة ونبات السكران، ثم تخفيف قطعة الإسفنجة في الشمس، وعند استخدامها تطري وتوضع في أنف المريض عند إجراء العملية فيمتص المخاط السائل، ولا يلبث المريض أن يغط في النوم ولا يشعر بالآلام العملية القاسية. وقد أخذت أوروبا هذه الطريقة عن العرب إلا أنها لم تستمر طويلاً؛ وذلك بسبب الاهتداء حوالي عام 1844 م إلى وسيلة أخرى تخدر المريض لا عن طريق الإسفنجة وما بها من سوائل، بل عن طريق التنفس. ولم تلبث هذه الطريقة طويلاً حتى حلت محل القديمة. وما أصاب التخدير العربي أصاب كثيراً من الاختراعات العربية وبخاصة ما يتصل بالجراحة وشفاء الجروح، فمثلاً المطهر الذي انتقل من العرب إلى شمال إيطاليا لم يعيش طويلاً واختفى لمدة ستة قرون مرة أخرى. ومن سوء الحظ أن الفكرة اليونانية القائلة بمبدأ تكوين الكون من أربعة أنواع من العصير ظلت تعمل عملها حتى اعتقد الأطباء اعتقاداً عجيباً يقول إن تقيح الجرح هو الوسيلة الطبيعية لتطهيره؛ لذلك كان الطبيب يستعين بإحداث تقيح صناعي وتنشيطه، وقد زلت فكرة أبقرات هذه حية يعمل بها الأطباء زهاء ألف عام، حتى جاء ابن سينا فكان أول من عارضها وحاربها ونادى بالعكس. وكانت نتائج آراء ابن سينا قيمة جداً وجاءت بالعجب العجيب، فقديمًا كان الجرح لا يشفى إلا بعد أن يمضي عليه زمن طويل قد يتجاوز الأسابيع المليئة بالآلام والأوجاع، بل قد تمضي الشهور قبل أن يلتئم الجرح. أما الآن فالجرح يشفى في يومه، فقد تجنبت نظرية ابن سينا لا إحداث التقيح فقط بل نادت بوجود عدم إثارة الجرح سواء كانت هذه الإثارة آلية أو كيميائية، واكتفى الطبيب باستخدام كمادات ساخنة بالنبيذ الأحمر المعتقد لتجنب إحداث قيء، وهذه وسيلة جبارة تقضي على الجرثومة في مهدها. وقد تنبه عام 1959 م الأستاذ

الفرنسي «مسكلير» من مدينة «بورديو» إلى مفعوله كمضاد حيوي تمامًا وهو لا يقل مفعولا وأهمية عن البنسلين. أما هذا العلاج وهذه الطريقة في التفكير فتتفق والتقاليد العربية القديمة والاستعداد العربي الجبار لعلاج الجروح، ولا يستطيع أحد أن ينكر على العرب قوة الاختراع والأصالة في التفكير، فللعلاج الجروح المنتنة اخترع العرب الجاهليون وسيلة فعالة، وهذه الوسيلة لم تعرفها أوربا إلا في القرن العشرين، وهي المعروفة اليوم باسم المضاد الحيوي، فمن سرور الحمير والجواميس استخرج العرب مادة متعفنة وهي التي يصنع منها البنسلين والإسبرجيلوس، ومن هذه المادة كونوا مرهمًا وعالجوا به الجروح الملتهبة فنجحوا نجاحًا باهرًا. أما إذا كانت الالتهابات في الحلق فقد استخلصوا المضادات الحيوية من العفن الذي يتكون في الخبز وألقموه للمريض كما هي العادة حتى اليوم عند البدو، فإن مثل هذه الوصفات كنا ننظر إليها لو وقعت قبل خمسين سنة على أنها عمل همجي مزعج: أما اليوم فأعجبنا لا ينقطع من مثل هذه الوصفات القديمة التي هي عبارة عن مضادات حيوية تلطف الالتهابات وتقاومها بل تقضي عليها. إن هذه المضادات الحيوية العربية كانت تقضي كذلك على هذه الجراثيم الخاصة التي ينتج عنها مثل هذا المرض، وإن هذه الوسيلة يتمثل لنا فيها اليوم أحدث أنواع العلاج حتى يظهر شيء جديد. حديثه أيضًا وسيلة العرب لعلاج مرضى العقول. فقد عالج العرب الهوس ومختلف الأمراض العقلية عن طريق النوم وبواسطة الأفيون وقد استخدمت أوربا هذه الوسيلة حتى عصر قريب. وعلاوة على ذلك فجميع المعلومات التي وصلتنا والخاصة بعلاج الأمراض العصبية تتفق ومجهودات الطبيب المعالج الذي كان يضع نفسه موضع المريض يحاول شفاؤه بوسائل نفسية. والعلاج النفسي يلعب عند العرب دورًا

هاما لا في الأمراض العصبية فقط بل حتى في حالة الأمراض الجسدية. وقد وضعوا كتبًا كثيرة تهتم باستخدام الوسائل النفسية للعلاج، فهناك كتاب أثر الموسيقى في الإنسان والحيوان لابن الهيثم العالم الشهير في الطبيعيات، وقد بدأ حياته العملية كطبيب، وكان ينادي بوجوب الاستعانة بالوسائل النفسية إلى جانب العقاقير الأخرى؛ فالعلاج النفسي متمم ولا شك للأدوية الأخرى، وذلك لأن العلاج النفساني يرفع القوى المضادة للمرض ويناصررها للتغلب عليه، وقد طالب ابن سينا بذلك وألح في وجوب الاهتمام بالعلاج النفساني على أنه خير وسيلة لتغيير البيئة الكئيبة المحيطة بالمريض، وفي هذا التغيير خير ضمان للقضاء على المرض والإسراع بشفاء المريض. وكان ابن سينا يلح في وجوب استخدام الموسيقى وإحاطة المريض بأصدقائه وأحبابه.

* * *

ومن النادر أن نجد أوروبا تعرف ما تعرف من أعمال العرب الإنشائية الخالقة وتعترف بأصالتها العربية، وأنها قد أخذتها عن العرب اعترافها بالأعداد العربية والجبر العربي والأسطرلاب العربي. إننا نقرأ مثل هذه الاعترافات في الوقت الذي ينسب فيه كثير من الاختراعات العربية ظلمًا وخطأ إلى الإنجليز والفرنسيين. لكن التاريخ يثبت ويؤكد أن العرب بمؤلفاتهم العظيمة هم أساتذة أوروبا، وهذه الكتب قد استخدمت قديمًا لتخريج أطباء بغداد وقرطبة، وهذه الكتب أيضًا هي التي تخرج عليها عدد كبير من الأجيال سواء في العالم الإسلامي أو المسيحي الأوربي وبخاصة في الطب، فمؤلفو هذه الكتب العربية لم يكن يخطر ببالهم أن كتبهم ستجد هذا الإقبال وذلك الرواج. وفي أواخر القرن العاشر الميلادي نجد العلامة «جربرت فون أوريلاك» يجمع قواه

ويضع كتابًا نظريًا في الطب في الوقت الذي نجد فيه البلاد العربية تستخدم الطب عمليًا لا نظريًا فقط في مكافحة الأمراض. فالعلاج كان عند العرب عنصرًا اجتماعيًا اشتراكياً، والمستشفيات بلغت أوج عظمتها وكانت أحسن ما عرفته الإنسانية في تاريخها الطويل. كان العرب يتطلبون كفاية ممتازة لا في الطب فقط بل في سائر العلوم المتصلة به، فهناك العناية بالدرس والدقة في الامتحانات والاستعداد لمزاولة المهنة في المستشفيات وتدريب الطلاب حيث توجد مواد الدراسة والتدريس متوافرة لأولئك الطلاب. لكن ماذا كان يوجد؟ إن بعض المؤلفات اليونانية كانت ضرورية للتعليم، ولا يمكن إغفالها أو الاستغناء عنها لكن ما هو موقف الطالب الذي يريد أن يكون فكرة عامة عن الطب؟ يذكر علي بن العباس الطبيب الخاص للسلطان عضد الدولة والذي كان معاصرًا للأوربي «جربرت فون أوريلاك» أنه لم يجد في كتب المتقدمين والمحدثين من الأطباء كتابًا شاملاً يعالج جميع فروع الطب ومعرفتها معرفة لا يستغني عنها من يريد الإلمام بالطب، فعلي بن العباس ينتقد سائر المراجع الطبية التي كانت موجودة وقتذاك. فأبقرط يوجز في الكتابة والكثير من عباراته غامض وفي حاجة إلى شرح وتفسير. وجالينوس وضع كتبًا كثيرة وكل كتاب منها يعرض لقسم خاص من الطب إلا أن مؤلفاته كثيرة التكرار وتتصف بالاستفاضة فلا يوجد من بين مؤلفاته كتاب واحد يصلح للدرس والتحصيل للمبتدئين، وهكذا نجد عليًا يعرض لكل كتاب شرحًا ناقدًا يائسًا هذا رأيه مثلاً في مؤلفات أمثال «أوريباسيوس» و «بول فون إيجينا»، ثم يقول إنها جيدة إلا أنه ينقصها المنهج وهي صعبة على الطلاب وليس من السهل تحصيلها. ثم نجد المحدثين ليسوا أحسن حالا من سابقهم فهام أولاء هرون وسرابيون وماسويه والرازي قد وضعوا كثيراً من الكتب إلا أنها

غير صالحة للدرس، وحتى كتاب المنصوري للرازي -بالرغم من أنه لم يترك شيئاً إلا ألم به وعرض له- ليس في شمول الحاوي الذي هو المثل الكامل للكتاب العلمي. حقيقة أن جميع الكتب موجودة في الحاوي وهو الكتاب المثالي لولا عدم ترتيب فصوله وانقطاع الصلة بين مادته، وهذه صفات يجب أن تتوافر في الكتاب ليصير كتاباً دراسياً. والرازي لم يقسم كتابه إلى فصول وأبواب كما ينتظر القارئ من عالم بالطب كالرازي الذي اشتهر بسعة الاطلاع والأسلوب القوي العلمي، فمثل كتاب الحاوي كما وصلنا يدعو إلى العجب حقاً، ويظن أن الذي حدث لهذا الكتاب يجب أن يكون أحد أمرين: إما أن الرازي كتب ما كتب كمذكرات لأجل الذاكرة وبخاصة عندما تتقدم به السن، لأنه خشي أن شيئاً ما قد يصيبه أو يصيب مكتبته، وإما أن هذه المذكرات كتبت لتعاونه عند تأليف كتابه وتبويبه، وتنسيقه، ولما عاجلته منيته لم يستطع تحقيق هذه الأمنية، لذلك نجد مجموعة غير مختارة تتجلى فيها الآراء المختلفة لكثيرين من الأطباء، كما أنها تشتمل على كثير من الزيادات، ولذلك تضخمت صفحات الكتاب حتى إن عدد الأغنياء الأثرياء الذين يستطيعون شراء هذا الكتاب كان قليلاً جداً لغلاء ثمنه. ويفهم من مقدمة الحاوي أن الرازي قصد من تأليفه معالجة كل ما هو ضروري لحفظ الصحة وعلاج الأمراض والأشياء التي يجب على كل طبيب حاذق أن يعرفها. ومن حسن الحظ أن جميع الأفكار والأمانى التي قصد إليها الرازي وحالت منيته دون تحقيقها قد أنجزها علي بن العباس إنجازاً كاملاً، فقد وضع كتاباً يعتبر خير الكتب التي ألفت لتدريس الطب، فهو وسط بين تفصيل الحاوي وإيجاز المنصوري، وقد أهداه إلى السلطان عضد الدولة مؤسس المستشفى الكبير في بغداد، وهو الملك الذي ناصر العلوم وأخذ بيد العلماء، كما أحصى له الصوفي النجوم الثابتة، لذلك

أطلق علي بن العباس على كتابه اسم: الكتاب الملكي. وإنه لكتاب ملكي حقًا إذ يستحق من القارئ حتى يومنا هذا كل إعجاب وتقدير. وإننا نلms في هذا الكتاب الروح العلمية والعبقرية الجبارة والنهج العلمي القديم، فقد رتب كتابه أحسن ترتيب كما بوبه أحسن تبويب، وهو من هذه الناحية أيضًا يعتبر من أحسن المخطوطات التي وصلتنا، كما سلك في تأليفه مسلكًا فذاً، فأكثر من الجداول التي تسهل وتبسط المادة على القارئ وصاغ كتابه على هيئة أسئلة وأجوبة عرض فيها للمادة عرضاً حديثاً ينم عن فهم المؤلف وحسن إدراكه لمادته وعمق تخصصه حتى جعل مادة الطب وللمرة الأولى واضحة جلية ومثالية للطلاب «فالعرب هم الذي أدخلوا النور والنظام على المؤلفات الغامضة، والتي جاءتنا مهلهلة مضطربة عن العالم القديم» هكذا يذكر مؤرخ طب ويعترف بذلك: «فقد جعلوا من المقتبسات الجافة والمعلومات المجموعة والمجردة من العقل والفهم، هذه المعلومات التي وضعها البيزنطيون كتباً علمية حقًا، فقد نظموها وقسموها حسب تخصصها، لقد أدرك العرب أن الغرض من هذه الكتب يجب أن يكون التعليم فصاغوها الصياغة التي حققت هذا الهدف، وذلك في لغتهم العربية القومية الحية وليس في لغة ميتة فكانت كتبهم مثالا علمياً عظيماً» (نويبورجر). لذلك لا عجب إذا اعترفت أوربا بالعرب أساتذة لها ومعلمين، وأخذت عنهم علومها الطبية وكتبهم التي امتازت على ذلك الخليط المشوش الذي تركله اليونان. فأيتها أحسن للحظ والتعليم؟ ! أليست هي هذه الكتب العربية التي وضعت في صيغة سؤال وجواب كتلك التي ألفها حنين بن إسحق وثابت بن قرة ومئات آخرون؟ ! إن إيساغوجي لحنين لتعليم آراء جالينوس، وسائر مؤلفات ابن رضوان وغيرها كانت من الكتب التي لا يمكن أن يستغني عنها طالب طب، كما أنه ليس هناك أنفع لطبيب من الأطباء من جداول

ابن جزلة التي رتب فيها الأمراض ترتيب الأفلاك في الجداول الفلكية، وهذه الجداول تمكنه من إلقاء نظرة عامة على الأسباب والتشخيص وطريقة العلاج للفقراء والأغنياء، وقد ذكر فيها قرابة ثلثمائة واثنين وخمسين مرضاً. أو هل هناك أنفع من جداول ابن بطلان حول فوائد ومضار الطقس والغذاء والحركة أو السكون والنوم أو اليقظة ووسائل التغلب على هذه الأضرار؟ ! لقد كان ابن بطلان يزاول مهنته في بغداد في الوقت الذي كان يبأشرها ابن رضوان في القاهرة، فقد كان ابن رضوان أستاذاً ممتازاً ونقيب أطباء مصر، وقد قامت بين الطبيبين خصومة حادة تبادلا فيها الرسائل العنيفة، فكانت الخصومة عبارة عن حرب رسائل بين الطبيبين، ويرجع سببها إلى ادعاء ابن رضوان أن معظم العلوم تعود أصولها إلى اليونان، فهذه الدعوى من ابن رضوان وقوله إن دراسة الطب يجب أن تعتمد أصلاً على الكتب اليونانية آلمت العلماء العرب؛ والواقع أن دعوى ابن رضوان هذه كانت تشهيراً فقط بابن بطلان الذي نشأ في بيئة فقيرة إذ كان ابن سقاء، لذلك اضطر لابن إلى كسب قوته عن طريق العمل وما كان يستطيع الحصول على كتبه إلا بشق الأنفس، وذلك عن طريق نبوءاته الفلكية، ومن هذه الكتب التي كان يشتريها بدريهمات قليلة حصل ابن بطلان على معلوماته الطبية. ولكنهما -بالرغم من اختلاف وجهتي نظرهما- قد التقيا في الشعر والنكات اللاذعة، وبخاصة أن ابن رضوان الذي اشتهر بالمشاكسة كان لا يترك فرصة سانحة لمهاجمة خصمه إلا انقض عليه منتقماً منه بالرغم من بعد الشقة بينهما، فابن بطلان كان مقيماً في بغداد وابن رضوان في القاهرة. ومما يذكر أن ابن رضوان وضع رسالة عنوانها: إن جهل ابن رضوان حكمة بالنسبة لابن بطلان! فقد سخر فيها من ابن بطلان، وقال إن ابن بطلان لا يستطيع قراءة رسائله؛ كما وضع ابن

رضوان رسالة أخرى فيه: رسالة إلى أطباء القاهرة خاصة بأحدث الأشياء عن ابن بطلان؛ وهكذا دواليك. وأراد الخصم أعني ابن بطلان الانتقام من ابن رضوان فلجأ إلى الشعر مخاطبًا ابن رضوان الذي كان يلقبه ابن بطلان بلقب «تمساح الجن»: فلما تبدى للقوالب وجهه نكصن على أعقابهن من الندم وقلن وأخفين الكلام تستترًا ... ألا ليتنا تركناه في الرحم ومع مضي الزمن نجد التجارب العملية للحياة الطبية تستدعي وضع كتاب قيم وجد إقبالا عظيما من القراء ألا وهو كتاب الرحلة المعروف باسم زاد المسافر للفقراء، وهو كتاب يتحدث في شيء من الدقة والإيجاز وفي أسلوب سهل مفهوم عن أسباب الأمراض وتشخيصها وعلاجها وبخاصة هذه الأمراض التي قد تنزل بالإنسان إبان أسفاره، ومؤلف هذا الكتاب طبيب واسع الخبرة فيما تعرض له، فهو طبيب أسفار ورحلات، ففي كل عام كان يركب البحر صيفًا مغادرًا تونس مرافقًا السفن في حملاتها وأسفارها وحروبها ضد الكفار في البحر، وهذا الطبيب هو ابن الجزار فقد كان يغلق عيادته الخاصة في القيروان إبان شهور القيظ ويبحر كطبيب للسفن في أسطول المسلمين إلى شواطئ وسط إيطاليا وشمالها وجنوب فرنسا أو شمال إسبانيا وربما مرة إلى نهر التيبر شمالا حتى روما والقديس بطرس. وقد سجل ابن الجزار جميع تجاربه التي جمعها في رحلاته هذه، وأضاف إليها ما جمعه من رحلته حاجًا وضمنها كتابه المفيد جدًا والذي ترجم قديمًا إلى اللاتينية والعبرية واليونانية، ويرجح أن النسخة العربية التي وصلتنا هي ترجمة عن الترجمة اليونانية. والواقع أن هذا الكتاب المهم جدًا كان هدف المؤلف وغايته فهو شامل لجميع أمراض الشعوب فشخصها ووصف لها الدواء، وهو كتاب لا يستغني عنه إنسان. ثم نجد الطبيب علي بن العباس يهدي الطب كتابه المشهور «الكتاب الملكي»، فهو ثاني

كتاب بعد المؤلف الذي تصدر عالم التأليف عمرًا طويلاً، فالعالم القديم لم يعرف لمثل هذا الكتاب مثيلاً، والآن لا نعدم ظهور المنافسين. ففي الغرب كتب أبو القاسم (936 - 1013 م) نجم الجراحة العربية في قصر الحكم الثاني في قرطبة كتابه الشهير الذي ضمنه تجاربه، وهو المعروف باسم: التصريف؛ والجزء الثالث من هذا الكتاب هو أساس الجراحة الأوربية، الذي دفع من قيمة هذا الفن الشافي الذي كان محتقراً في أوربا، وهو يعتمد على علم التشريح الذي هو فرع من الطب وله نفس الأهمية التي للفروع الأخرى. كذلك ظهر في الأندلس ابن زهر (1091 - 1062 م) وهو من أشرة أشبيلية، وقد اشتهرت هذه الأسرة بالطب وهي ترجع أصلاً إلى الوطن العربي أعني إلى الجزيرة العربية، وأشهر كتبه: التيسير؛ وهو كتاب لا يستغني عنه الطب، فهو كتاب جيب الطبيب، كما أنه يشير إلى أن مؤلفه من أحسن علماء التشريح ومن أكثرهم خبرة بتاريخ الأمراض ومن أبرع الأطباء الذين خدموا المستشفيات. فاسمه لا يقل لمعاناً في تاريخ الطب العربي عن الرازي، كما أنه لا يقل شهرة عن أبقرط حيث يتفق معه في السمو بالطب وتخليصه من الفلسفة والدين مع التواضع والاستقلال في المشاهدات والتفكير. وأهم كتبه هو ذلك الكتاب الذي أهداه إلى تلميذه النابه وصديقه الشهير «ابن رشد» (1126 - 1198 م)، وقد أجابه على حسن صنيعه معه بكتابه «الكليات». لكن جميع وأجود كتب الطب التي وضعها الأطباء العرب بما فيها الكتاب الملكي وسائر مؤلفات اليونان وعلماء الإسكندرية تتضاءل أمام: قانون ابن سينا، فقد ترك هذا الكتاب الذي وضعه أمير الأطباء أثراً بعيداً ظل قوياً فعالاً عدة قرون لا في الشرق فقط بل في الغرب أيضاً، وهو في تاريخ الطب لا يعدله كتاب آخر. فقد ضم هذا الكتاب بين دفتيه سائر فروع الطب نظرياً وعملياً مع تنوع

مواضيعها، وتمكن المؤلف منها فأجاد عرضها وأحسن تأليفها وأبدع تنظيمها وتبويبها، وخرج الكتاب في صورة قلماً نجد كتاباً آخر يدانيه فيها. فقد ذكر مؤرخ الطب «سيد هوف» حول هذا الكتاب ما معناه: «إنه إنتاج شامل كأنه صلب في بوتقة، وهو وحيد في نوعه بين سائر المؤلفات الطبية في مختلف العصور». ومما يؤسف له حقاً أن مجموعة من ملاحظات وأبحاث ابن سينا التي أراد أن يلحقها بقانونه قد ضاعت من قبل نشرها ففقدت الإنسانية بفقدانها ثروة علمية طائلة، وذلك لأن العبقريّة الجابرة لابن سينا قد أثرت عن طريق هذا الإنتاج العلمي تأثيراً عظيماً حتى إن الخلف عجز عن هضم آثاره أو الاستفادة منها الاستفادة الكاملة والإنسانية تمجد ابن سينا تمجيد العالم القديم جالينوس وبخاصة أنها تشعر أن تعاليم ابن سينا جاءت مكملّة لتعاليم جالينوس. ولهذا التقدير لابن سينا أسبابه التي نلّمسها في ترتيب وتنظيم وإيضاح وعمق معلوماته ومؤلفاته التي امتازت على سفسطة واضطراب جالينوس، فضلاً عن عدم صحة ما جاء في مؤلفاته من معلومات سطحية مشحونة بالأخطاء وبخاصة عند حديثه عن السوائل، كما ذكر ذلك «فون فيلامو فيتس موليندورف». إن ابن سينا هو العالم الذي استطاع -وبحق- القضاء على شهرة جالينوس وسائر اليونانيين، وابن سينا هو الذي حطم هذا التمجيد وذلك التقديس لعلماء اليونان قروناً عديدة. وابن سينا هو العربي الثاني الذي يطل إلى جانب الرازي من قاعة محاضرات كلية طب باريس، وابن سينا هو أكبر أساتذة الطب ومعلم أوروباً فترة لا تقل عن سبعة قرون.

يقظة أوربا

كل أوربا تعرف أن شهرة «سالرنو» قد خلدها، فهي التي شفت المرضى في جميع أصقاع العالم، وهي تستحق أيضاً الشهرة التي نالتها: «إني أعتز بفضل العلم الذي حصلته في جامعة (سالرنو)» هكذا قرر الابن الشاعر ابن الفارس الألماني عام 1162 م في كولونيا لمستشاره الدولة «رينالد فون دسل»، وكان عمر هذا الشاعر لم يتجاوز الثالثة والعشرين عندما كان سعيداً بدراسته الطبية وفي مدرسة أطباء «سالرنو» الواقعة على خليج «بستوم» بالرغم من أنه اعتل جسدياً ومالياً عندما عاد إلى الأمير الذي كان يرعاه ويعطف عليه. لقد عقد هينريش الفقير أمله الأخير على «هرنمان فون آو» وأطباء «سالرنو» في القرن الثاني عشر، وبخاصة بعد أن حاول عبثاً الشفاء في «مونيبلية»، وسالرنو كانت قبلة قاصدي العلاج في أوربا وغيرها، ولذلك قصدها ولیم الفاتح الذي صار فيما بعد ملكاً على إنجلترا طلباً لعلاج نفسه من جرح أصابه في حرب، كما قصد أطباء سالرنو الذين طبقت شهرتهم الآفاق ابنه الجراف «روبرت» النورماندي استشفاء من الجرح الذي أصابه عند القدس عقب عودته من الحملة الصليبية الأولى عام 1001 م، وصاحب الجراف النورماندي إلى سالرنو زملاؤه الفرسان الذين عادوا من الأراضي المقدسة. إن المرضى من مسيحيي أوربا لم يكن أمامهم للاستشفاء إلا سالرنو، فهي الواحة المنيرة الوحيدة وسط ذلك العالم القحط، كما أن جماعة سالرنو كانت هي الجامعة الوحيدة في العالم، عدا الدولة الإسلامية، التي يدرس فيها الطب دراسة عملية وكان أساتذتها يتمتعون بثقافة طبية وطبية ولو أنها لا تقارن بتلك التي نعرفها في العالم الإسلامي وبخاصة في دمشق أو قرطبة. لكن

بالرغم مما في جامعة سالرنو من نقص إذا ما قورنت بالجامعات الإسلامية كانت مع ذلك أحسن جامعة مسيحية. والسبب في ذلك هو أن جامعة سالرنو الطبية جامعة علمانية خالصة وهي الوحيدة وسط هذه البيئة التي عرفت بممارستها الطب اللاهوتي. فمديرو وأساتذة سالرنو متزوجون، وإلى جانب الذكور من الأساتذة نجد الإناث أيضاً، وكانت أبوابها مفتوحة أمام الطلاب من مختلف الجنسيات والعقائد. أما متى نشأت جامعة سالرنو وكيف وظهرت فهذا موضوع القصص والأساطير. وقصة سالرنو كغيرها من القصص والأساطير، ولا بد أن تحتوي على شيء من الحقيقة. فهنا خبر يذكر أن الذين أسسوها أربعة: يوناني ولاتيني ويهودي والعربي «أدلا»، وهو ولا شك أن العربي «عبد الله» إلا أن هذه التسمية العربية قد أسيء فهمها، ففهمت على أنها «أدلا» واشتراك عربي في تأسيس مدرسة سالرنو الشهيرة شيء بدهي وبخاصة أن سالرنو تقع في جنوب إيطاليا والجنوب كما يحدثنا التاريخ كان طيلة القرن التاسع الميلادي منطقة احتلال عربية، وهذا ليس بعجيب وبخاصة إذا أدركنا موقع صقلية العربية وتقارب الأوضاع بين صقلية وجنوب إيطاليا. ولعل أجمل صورة تصور لنا العلاقات في ذلك الوقت بين صقلية وجنوب إيطاليا ومدي الأثر العربي الإسلامي في تلك المنطقة ما يروى عن اليهودي الصغير «دونولو» فقد تعلم العربية في مدينة بالرمو عندما كان أسيراً، ولما أخلى سبيله درس الطب العربي في جنوب إيطاليا وعلى يد طبيب قدم إلى جنوب إيطاليا من بغداد. وهناك أدلة أخرى ملموسة لمساهمة العرب في تأسيس جامعة سالرنو. ومن المؤكد أنه قبل انصرام القرن التاسع الميلادي أثار أطباء سالرنو إعجاب الأوروبيين الذين لم يعتادوا مثل هذا التقدم العلمي الطبي من قبل، ومن الثابت أن العلم والمعرفة والتجربة التي تدفقت في السبعين، بل الثمانين،

سنة التي انصرمت من القرن الحادي عشر وفي سالرنو هي التي أكسبت هذه الجامعة هذه الشهرة الخالدة التي عمّ فضلها فشمّل جميع أنحاء المعمورة؛ وبديهي أن هذا العلم وما إليه وتلك المعرفة لم تكن معرفة رومانية أو أخرى قديمة بل حكمة عربية إسلامية. وقبل أن يُدخِل «ليوناردو فون بيزا» الحساب العربي إلى أوروبا بنحو قرن ونصف قرن، كان «قنسطنطين» القرطاجني الإفريقي يتزعم نشر الثقافة والعلوم الطبية العربية في سالرنو، وبذلك وعن هذا الطريق أخذت العلوم الطبية العربية تتسرب إلى مختلف الأنحاء الأوروبية. وقد نجح قنسطنطين فسجل لنفسه في صفحات الثقافة الأوروبية اسمًا خالدًا وشهرة عظيمة فاقت تلك التي نالها «ليوناردو فون بيزا»، والسفر في هذا لا يرجع إلى عبقريته ونبوغه فإن استعداده العلمي أقل كثيرًا من استعداد «ليوناردو»، لكن قنسطنين كان أمهر منه في التأثير على عصره. وهذا هو تاريخه كما نستخلصه من الأساطير والقصص التي وضعها مؤرخوه: في العام الذي ولد فيه الراهب «هيلدابرند» الذي أصبح فيما بعد البابا جريجور السابع، أعني عام 1020 م ولد قنسطنطين في قرطاجنة، ولا نعلم شيئًا عما إذا كان مسلمًا أو مسيحيًا، حرًا أو عبدًا أو عتيقًا اعتنق المسيحية فيما بعد، كما لا نعرف شيئًا عن اسمه الأصلي وهو مثل «ليوناردو» نما وترعرع في البحر الأبيض المتوسط وفي محيط التجارة الشرقية وتجارة البحر الأبيض المتوسط، وقنسطنطين مثل ليوناردو قام برحلات كثيرة في الشرق طالبًا العلم والمعرفة والمغامرات، وقد قضى نحو نصف سني حياته في التحصيل والتجوال حيث كان يبيع العقاقير والأدوية، ولذلك كان على اتصال بالأطباء العرب، وكان هذا الاتصال وثيقًا، وحدث في تلك الفترة أن توفي ابن سينا وابن الهيثم. وفي بغداد ثم في حلب وأنطاكية وشيزر التقى بابن

بطلان الذي كان في ذلك الوقت قد التحق بخدمة أمير شيرز وهو جد أسامة بن منقذ. وفي القاهرة كان ابن رضوان يقوم بالتدريس واتسعت شهرته. ولما بلغ قنسطنطين الأربعين زار كتاجر للعقاقير والأدوية صقلية العربية وسالرنو المجاورة لها وبذلك دخل وللمرة الأولى أرض الإفرنج، وفي حديث بينه وبين أخي أمير سالرنو وكان طبيباً قام بدور الترجمة بينهما بعض موظفي القصر من العرب تبين منه الضيف الشرقي البون الشاسع جداً بين الطب العربي والطب الأوربي، كما أدرك الفرق الكبير. لذلك وعد أطباء سالرنو بأنه سيمدهم بكثير من الأدوية والعقاقير الطبية العربية بل ببعض ثمرات العقل العربي. ثم عاد قنسطنطين إلى القاهرة، وكان في إبان شبابه يلتقط هنا وهناك بعض المعلومات الطبية، ثم درس عندما بلغ سن الرجولة الطب في المدارس الشرقية دراسة منتظمة. وزار سالرنو مرة أخرى متأبطاً عدداً كبيراً من الكتب، وكانت سالرنو في ذلك الوقت وكل جنوب إيطاليا تحت حكم الهرزوج النورماني «روبرت جويسكارد»، وبعد أن تعرف قنسطنطين على البلاد ولغتها أخذ يعمل جاهداً فألف الكتاب تلو الكتاب، وكل كتاب يثير إعجاب القراء. إن مثل هذا الرجل يجب أن يكون عظيمًا جدًا فمثله لم تعرفه سالرنو من قبل، لكن قنسطنطين قرر لكي يؤلف وينتج أن يعتزل الناس، وأنه أحوج ما يكون إلى الهدوء؛ لذلك انتقل إلى جبل كسينو، الذي أُلّف فيه أشهر كتبه الطبية وساعده الراهبان «أتو» و «يوحنا» في تقويم لغته اللاتينية الركيكة. وحدث أن أقبلت يوماً ما فرقة من الفرسان الشقر الفيكنج ومعهم أبناء الصحراء الذين لوحتهم الشمس فبددت هذه الفرقة الهدوء الذي كان يعيش فيه قنسطنطين، وقد جاء ملك النورمان نفسه وهو «روبرت جويسكارد» يحيط به نفر من النورمان المشوقي القوام والمسلمين المخلصين له، وإلى جانبه سار شيخ في

مسوح الرهبان والملك يرشد الشيخ. ويلوح أن السن والأمراض قد تجمعت وبقسوة شديدة على هذا الكهل، وبدأت معالمها واضحة على وجهه المحروم من الحنان والعطف، وهذه القسوة وتلك الشيخوخة لم تقوسا ظهر هذا الشيخ، فقد سار في رفقة الملك متزن الخطا لا يلتفت يميناً أو يسرة ويدب على الأرض المرسوفة كما لو أنه من حديد لا يعبأ بالتقاليد التي لم يضعها هو نفسه. ثم تختفي الضوضاء التي أحدثها الفرسان، كما اختفى معها الفرسان والهرزج، وظل الشيخ وحيداً، وعاد الهدوء إلى جبل كاسينو، وهو هدوء لا يختلف كثيراً عن هدوء القبور.

لقد استقبل قنسطنطين المؤلف والكاتب مريضاً قد حطمته السنون والعلل، ولذلك حمل إلى سفح الجبل حيث الدفء والطقس المعتدل وكبار الأطباء في جامعة سالرنو. وفي مايو عام 1085 لفظ هذا الكهل نفسه الأخير وقد حرمه البابا من الكنيسة وطارده حساده وأعداؤه الرومانيون، ومن القيصر لم يلق إلا الشقاء والاضطهاد لأنه كان عدوه اللدود. وهكذا انهار الرجل حزيناً وحيداً. إنه ابن الفلاح التوسكاني الذي سمي لوقت قصير جريجور السابع ولقبه أحد أتباعه بلقب: «الشیطان المقدس». وقد عاش قنسطنطين بعد جريجور عامين فقط، وبينما كان يهوى نجم هذا ظهر نجم آخر سطع وتلألأ، وذلك نجم هذا المؤلف الذي وضع كثيراً من الكتب إبان إقامته في جبل كاسينو، وكانت هذه الكتب تنحدر إلى الوادي فترسل ضوءها ساطعاً إلى سكان مدينة سالرنو. نعم إن هذه الكتب دونت في لغة لاتينية ركيكة إلا أن محتوياتها كانت قيمة جداً، فهي تعالج أمراض العيون والجراحة والكيمياء والغذاء وأمراض البول والحمى. وما أعظم المهارة التي أبداهها عندما دون الكتاب الأصلي زاد المسافر «فياتيكوم»، وكتابه الهام الرئيسي الذي يحوي جميع فنون الطب والمسمى «ليبر بنتيجني». فما أعظم العبقرية! إن هذه الشهرة

دامت أربعين عامًا كاملاً. ومن ثم قد فضح أمر هذا الرجل الذي ولد في قرطاجنة وثبت أنه لم يكن عالمًا بل تاجرًا خبيرًا، فقد استطاع أن يستغل خبرته التجارية هذه استغلالاً عظيماً فأقبل على البضاعة القديمة ولفها في رق جديد مضللاً المشتريين، فالذي حدث أن الحروب الصليبية عرفت بعض الأوروبيين بالشرق ثقافة ولغة وتجارة. كما أن المواد التي تخصص فيها قنسطنطين لم تعد غير قابلة للمنافسة فقد ظهر في السوق منافسون له. ففي اللحظة التي قرر فيها الطبيب اللومباردي إسطفان أحد أبناء مدينة بيزا إنقاذ ما يمكن إنقاذه في أنطاكية من كتب العلوم الطبية وتقديم هذه الكتب إلى أوروبا المسيحية أخذت شهرة قنسطنين في أوروبا تتوارى وتخبو. وبينما نجد في عام 1127 إسطفان يترجم إلى اللاتينية الكتاب الكامل في الطب والمعروف باسم الكتاب الملكي الذي ألفه علي بن عباس تبين إسطفان حقيقة هذه المادة التي سطا عليها قنسطنطين ونسبها إلى نفسه. لقد درس إسطفان الطب في سالرنو الواقعة على خليج «بستوم»، وظل يدرس العلوم الطبية نحو ثلاث سنوات أعجب فيها إعجاباً منقطع النظير بمؤلفات قنسطنطين. أما الآن وقد بين في الشرق ما تبين فقد استطاع في سهولة ويسر كشف القناع وإمالة اللثام عن هذا الشخص الدعي الذي نسب إلى نفسه الكتاب الملكي. وكان هذا هو البدء فقط. ففي صقلية اهتدى المترجم «ديمترىوس» إلى أن كتاب قنسطنطين الموسوم باسم «ده أوكوليس» ما هو إلا كتاب حنين في شفاء العيون، والكتاب المعروف باسم «فياتيكم» ما هو إلا كتاب ابن الجزار المعروف باسم زاد المسافرين. أما كتاب الغذاء وكتابا البول والحمى فما هي إلا ترجمة من كتاب «إسحق يوداكوس». وكذلك كتاب قنسطنطين في التشريح فهو من تأليف علي ابن عباس، وتبين العالم اليوم أن كتابه في الكيمياء مأخوذ عن الرازي. أما بعض مؤلفات أبقرات وجالينوس فقد

عرف عليها قنسطنطين عن طريق الترجمة العربية التي قام بها حنين ابن إسحق وحفيده حبيش، فقد أحضرها قنسطنطين معه إلى إيطاليا، لذلك لم يستطع سرقتها ونسبتها إلى نفسه لوجود النسخ اليونانية الأصلية. أما أسماء العلماء العرب فلم تكن معروفة في إيطاليا، وقد تجاهلها قنسطنطين متعمدًا ولم يقف عند ذلك بل محا من عليها أسماء مؤلفيها ووضع اسمه هو معللاً هذا بقوله حتى لا يأتي آخر ويسرق مجهوداته. إنه لص مجرم ينادي ويصيح اقْبضُوا على السارق بينما يسرق هو الأشياء ويضعها في حقيبته، وإذا استثنينا بعض الحالات الفردية فإن القوم لم يستنكروا عليه سرقات، وظلت كتبه تحمل اسمه، وذلك لأن الناس لم يحترموا حق التأليف والملكية كثيرًا أو لم يراعوا حرمة هذا الحق. ولا غرابة في هذا فحامي قنسطنطين وهو كبير أساقفة سالرنو واسمه «الفانوس» قد سبقه إلى هذه السرقات، فترجم كتابًا عن اليونانية إلى اللاتينية ونسبه إلى نفسه! والمؤرخ الفرنسي العظيم للطب وهو «دارميرج» قد هاج قنسطنطين الإفريقي مستخدمًا أقسى ألفاظ السب والقذف، ولو أنه أوجد له بعض العذر لسرقاته العقلية، إذ نجد «دارميرج» نفسه يتحمس ويقترح رسميًا وجوب إقامة نصب تذكاري على مرتفعات سالرنو ليشاهده الجميع، وذلك تقديرًا لترجمته الكثير من الكتب العربية الطبية وتعريف أوروبا بها فساهم في بعث الأوروبيين من الموت إلى الحياة. رجال ساعدوا قنسطنطين في ترجمته من العربية إلى اللاتينية تلميذه المحبوب الشاب العربي يحيى بن أفلح الذي انتشله قنسطنطين من الفقر والفاقة واعتنى به وأدخله في الديانة المسيحية وأسماه «يوحنا أفلاتيوس» أو أيضًا «يوحنا سراكينوس الشرقي». وقد عظم شأنه بعد وفاة معلمه وأصبح طبيبًا مشهورًا في سالرنو كما أشرف على مخلفات قنسطنطين. أما تلميذه الآخر فقد سمي «أثو» وأصبح

ماهرًا في الطب كذلك حتى اختارته القيصرية «أجنيس» طبيبًا خاصًا لها كما كان قسيسها أيضًا. وقد نقل إلى سيدته الأشياء التي ترجمها أستاذه في شعر روماني. وتلميذ ثالث لقسطنطين هو «بارتولميوس» وقد نسخ على منوال أستاذه فاهتم بالعلوم العربية، وقد نقل كتابه «بركتيكا» إلى الألمانية سواء تلك الخاصة بالمرتفعات والجبال أو لغة سكان الوديان والسهول كما ترجم أيضًا إلى الدنماركية، وعن طريق هذه التراجم انتقلت العلوم الطبية العربية إلى أوروبا في القرن الثالث عشر. وفي عام 1250 نجد «برتولد فون رجينز برج» يستخدم بعض الألفاظ العربية في عظاته، وهذه الأسماء كان قد ذكرها قسطنطين وتلميذه «بارتولميوس». فجميع هذه الظواهر كانت قطرًا مبشرًا بقرب الغيث، ولو أن هذا القطر قد تساقط على أرض صخرية. أما أثر هذا القطر في إخصاب الأرض وإيناعها فقد كان عظيمًا جدًا، فلا طبيب في سالرنو إلا استفاد من المراجع العربية استفادة عظيمة، كما لا يوجد كتاب خاص بالطب إلا اعتمد على المراجع العربية اعتمادًا قويًا، وإن امتزجت بالتقاليد القديمة التي كانت سائدة في سالرنو. ويجب ألا نعتقد أن هذا الأثر العربي الطبي قد أثر في الدراسات الأوروبية عن طريق الكتب فقط بل جاء أوروبا عن طريق الطبيب نفسه الذي لم تكن على عينه غشاوة ورأى أن يرى ما هو كائن. أما مسرح كل هذا فقد كان الشرق: كانت مصر، التي كانت ميدانًا للحملة الصليبية الخامسة. ففي عام 1218 التقى في الأراضي المقدسة من الصليبيين الإيطاليين طبيب عظيم من مدينة بولونيا، وقد فرضت وظيفة الطبيب «هوجو» عليه، بالرغم من أنه كان في سن السبعين ومن نسل أشراف اللونجورديين البورجونونيين والذين كانوا يقيمون في «لوكا» والذي كان يتقاضى مرتبًا قدره ستمائة ليرة لمدى الحياة، أن يمضي فقط ثمانية شهور سنويًا فقط في بولونيا

مزاو لا مهنته كطبيب شرعي. أما بقية العام فيجب أن يرافق فيه المحاربون البولونيون في حروبهم. وحصل أن الحصار الطويل الذي ضرب على دمياط الواقعة في نهاية دلتا النيل سبَّب كثيرًا من الأهوال من مجاعة وبرد وأمراض مما فرض على الطبيب كثيرًا من الأعمال والخدمات، هذا إلى جانب الخسائر الفادحة والمعارك الخاسرة التي بذلت في سبيل الاستيلاء على الحصن، وقد انتهت جميعها بإلحاق الهزيمة بالمسيحيين وانتصر جيش السلطان الذي كان في موضع بين اليأس والأمل، لذلك انصرف الطبيب هوجو إلى علاج أولئك البولونيين من أمراضهم وجروحهم وكسر عظامهم. وحدث عند ذاك أن هوجو أدرك أن كثيرين من الأعيان أخذوا يفضلون عليه زملاءه الآخرين بالرغم من أن رجال الدين المسيحي والمجالس المسيحية كانوا يقررون دائمًا خروج الأطباء الآخرين على الكنيسة، لكن ماذا يجدي موقف رجال الدين هذا؟ هم يحرمون، يnehون ويحذرون ويهددون ويتوعدون بالعاقبة السيئة التي تنتظرهم. وغالًى رجال الكنيسة في تنفير القوم من الاستعانة بالأطباء والتشهير بهم فاتهموهم بأنهم تحت ستار طبهم ومعالجة المرضى كانوا يتربصون بالمسيحيين الذين يقصدونهم ويوقعون بهم أشد الأضرار، كما قد يقتلونهم خنقًا بالحبال. لكن بالرغم من كل هذه الشائعات الكاذبة والتهديدات بالطرد من الكنيسة لم يتردد الماضي في زيارة الأطباء سعيًا وراء الشفاء على يد أولئك الأطباء الأعداد. ولم يكن هذا الوضع مشرفًا للطبيب الشيخ الذي كان يداوي الجروح ويتقلد منصبًا رسميًا. ففي هذه السنوات الثلاث وجد «هوجو» الفرص السانحة لمشاهدة ومعايشة الجراحين المسلمين الذين كانوا موضع المدح والتقدير من الجميع ولو أنهم كانوا أيضًا موضع اللعنة. وكان «هوجو» إذا ما اضطر إلى الذهاب إلى مستشفياتهم الحربية وجدها معدة أحسن إعداد ومزودة

بأحدث الآلات وكانت حمولة ثلاثين أو أربعين جملاً. وقد شاهد «هوجو» هنا، في المستشفيات الإسلامية علاج الجروح فأدرك أن ما تعلمه هو كان خطأ شنيعاً. لقد تبين (هوجو) أن المهنة التي كان يمارسها زهاء خمسين عاماً والتي أخذها عن كتب الطب منذ عهد أبقرات حتى عالم سالرنو المسمى «روجر» والتي كان يعتقد فيها من قبل إنها الحكمة كل الحكمة باطلة وما حصّله كان لغواً وقبض ريح. لقد علمت تلك المراجع: أن الصديد هو البلسم الشافي، وظهوره ضرورة لا بد منها لشفاء الجرح، ولتكوين هذا الصديد كان لا بد من دهن الجرح ببياض البيض وزيت الورد، وكثيراً ما أدت هذه الطريقة إلى أوحم العواقب. أما الأطباء المصريون المختصون في علاج الجروح، فكانوا يستخدمون الأربطة المغموسة في النبيذ المعتق الساخن وحول الجرح الرباط العادي، ومن ثم يتركون هذا الرباط على الجرح خمسة أو ستة أيام، وتكون النتيجة سرعة الشفاء دون أن يتسبب هذا العلاج في ظهور حالة خطيرة، هذا إلى جانب أن هذه الوسيلة تقفل الجرح بواسطة طبقة جلدية رقيقة ناعمة دون تجعد، وهذه الوسيلة كانت تستخدم أيضاً في علاج الجروح التي تطراً على الأعصاب أو الأوعية. ولعلاج الكسور كان المصريون لا يستخدمون هذه الآلات القاتلة كما هو متبع في وطن «هوجو»، كما أن ما علمه هو في أوربا سماعاً يشاهده الآن بعيني رأسه. وشاهد «هوجو» كذلك الأطباء المصريين وكيف كانوا يعالجون مشوهي الأجسام، فإذا أصيب شخص بجرح بليغ يستدعي بتر ذراعه أناموه أولاً، ومن ثم خدروه عن طريق الحشيش والسكران ونبات اللقاح، وذلك بغمس قطعة من الإسفنج في خليط من سائل هذه المواد وبذلك لا يشعر المريض البتة بهذه الآلام المبرحة. ولما عاد «هوجو» إلى وطنه عام 1221 استغل تجاربه ومعلوماته التي حصّلها إبان حياته في غمار

الحروب الصليبية معالجًا المرضى البولونيين مدة ثلاثين عامًا قضاها في وظيفته، وكان توفيقه في عمله عظيمًا جدًّا، وما تعلمه عن العرب أخذ يلقنه لأبنائه وأحفاده قائلًا: في حالة الجروح يجب تجنب الالتهاب أو القيح. كما أخذ يدرس أبسط الطرق لعلاج الكسور والتخدير عند إجراء العمليات، وذلك عن طريق عقاقير مخدرة. ولما توفي وقد بلغ مائة عام ترك في بولونيا مدرسة للجراحة ظلت تعمل بتعاليمه زمنًا طويلاً، وقد خلفه عليها ابنه «تيودريش فون بوردومي»، ولما كان ابنه هذا من رجال الدين كان لا بد له من الحصول على إذن خاص لممارسة مهنة الطب والجراحة، وذلك لأن الطب كان في ذلك العصر مهنة مشينة في نظر الكنيسة، كما أراد تجنب عبارات اللوم والتفريع التي قد توجه إليه إذا ما أخفق في عملية أو أكثر من العمليات الجراحية التي قد يجريها.

لكن من حسن حظ «تيودريش» أنه لم يعرف إخفاقًا في مهنته وذلك بفضل الطرق والتعاليم الجديدة التي لقنه إياها والده، لذلك أحب مهنته، كطبيب حبًّا شديدًا كما ازداد إقبال الزوار على عيادته في بولونيا حتى إنه ينصرف عن إجراء عملياته الجراحية بالرغم من تعيينه أسقفًا بالقرب من «رافينا». لكن هذه الفترة الجديدة التي بدأت بداية تبعث على الأمل قضي عليها بالإخفاق. فالكتاب الخاص بالجراحة الذي وضعه «فلهم فوق ساليكيتو» الذي عاش مدة في بولونيا درس بها الطب، فكانت حياته امتدادًا لنشاط الشيخ «هوجو» ثم نشاط ابنه هذا الكتاب الجديد لم يذكر شيئًا عنهما، بل تجاهل حتى اسميهما. فما سبب هذا الموقف الغامض من مؤلف هذا الكتاب؟! هل هو الحسد والحق على الزملاء؟! إن مؤلف هذا الكتاب لم يسجل كلمة واحدة حول علاج الجروح عن طريق النبيب أو التخدير عن طريق الإسفنجة المبللة، وتبعه في هذا التجاهل تلميذه «لانفرنكو». أما «هينريش فون موندفيل» الذي

أخذ الجراحة عن «تيودريش» فهو الوحيد الذي ذكر -وبإعجاب- طرق علاجه العظيمة والنتائج المهمة الناجحة التي انتهت به أن وصفه لأستاذه عبارة عن قصيدة مدح وثناء على الجرح الذي يبرأ بسرعة دون حدوث صديد، وهكذا مضت ستة قرون دون تقدم في علاج الجروح بالرغم من كل المجهودات القيمة التي بذلت، لذلك كانت الضحايا تذهب الواحدة بعد الأخرى. أما فيما يتصل بالتخدير فقد خطا خطوات تقدمية. ففي مجموعة الوصفات الطبية كمجموعة ترياقات نيقولا نقرأ ما يستفاد منه أن التخدير قد استخدم فأُنقذ حالات كثيرة من خطر الموت المحقق، كما أن المبالغة في إعطائه للمريض كانت سبباً في القضاء عليه، كما أن الكنيسة حاربت التخدير اعتقاداً منها أن المادة المستخدمة في إعدادها هي مادة شيطانية، وهكذا نجد التخدير يؤدي خدمة جليلة في خدمة المريض فلا يشعر بالألام المبرحة التي يتعرض لها. والشيء الذي تعلمه «هوجو» اللوكي كان ضئيلاً جداً، لكن من كتاب الجراحة المنسوب لابنه تعلم كيف أن السيد «هوجو» كان يستخدم مادة التخدير، كما كان يخدر تخديراً موضعياً؛ وذلك بربط الجرح بمادة مكونة من النبيذ وبقايا الكتان، ثم يلفه بقطعة قماش ناعمة. كما أنه انتقد طريقة جالينوس عند علاج الجروح الحديثة، لكن توفيقه كان عظيماً جداً عندما استخدم طريقة ابن سينا. ثم نجد تياراً عربياً ثقافياً ثانياً يغمر أوروبا، فظهر ابن سينا، كما نجد «فريدريش الأول برباروسا» يهتم بالفلك، وقد حاول الاستفادة من كل ما هو جديد عند الآخرين فأرسل «جريرد» اللونجباردي من بلده الحبيب «كريمونا» إلى إسبانيا. وفي ذلك الوقت ظهر في كولونيا على الرين طالب الطب الشاب الألماني الملقب «أركيبويتا»، وأخذ يشيد بمجد مدرسة سالرنو التي ازدهرت وأينعت بفضل الثقافة العربية والحضارة العربية الإسلامية. وقد كلف القيصر رسوله «جريرد فون

كريمونا» بالتوجه إلى طليطلة لإحضار الماجسطي ليطليموس، فحدث أن استولت عليه الدهشة من عظمة العلوم العقلية العربية والثقافة الإسلامية فأثر البقاء على العودة فأقام هناك عشرين عامًا، ولم يقتصر على ترجمة الماجسطي من العربية إلى لغة علماء أوروبا بل ترجم أكثر من ثمانين كتابًا أحضرها معه إلى بلده، قبل أن يتوفى في كريمونا عام 1187 م، أعني بعد مائة عام من انتقال قنسطنطين إلى الدار الآخرة. إن ما ترجمه «جريرد» وأحضره إلى وطنه كان من خير الكتب وأحسنها، ومن بينها الكتاب الملكي وبعض المصادر العربية الطبية التي تأتي في المرتبة الثانية، وكان قد أحضرها سابقًا. أما كتب الطب العربي التي ترجمها «جريرد» وجاء بها إلى بلده فكانت خليطًا من شتى الكتب ولكثيرين من المؤلفين أمثال: أبقراط وجالينوس والتي نقلها حنين بن إسحق إلى العربية، إلى جانب الشروح العربية التي كتبت عليها كتلك التي وضعها ابن رضوان. أما المؤلفات الأخرى فكانت أمهات الكتب العربية في شتى العلوم والآداب العربية، ومن بينها كتاب المنصوري للرازي وكتاب الجراحة لأبي القاسم والقانون لابن سينا. ومن ثم أخذ سيل التراجم والترجمة يتدفق من إسبانيا وصقلية وشمال إيطاليا. ومن مدينة «بادوا» جاء كتاب الكليات لابن رشد وهو يعرف اليوم في اللاتينية باسم ((colliget)، كذلك كتاب التيسير لابن زهر وقد ترجم مرتين. وفي عام 1279 جاء من صقلية كتاب الحاوي وهو الكتاب العظيم للرازي ويسمى (Continens Rha-sis) وقد قام بترجمته اليهودي الذي تربى في سالرنو واسمه فرج بن سليم، وقد صرف فيه نصف حياته مترجمًا، أعني حتى القرن السادس عشر. ثم جاء شيء جديد لم يكن معروفًا من قبل، وهو قديم قدم قانون ابن سينا ومشهور شهرته، أعني كتاب زاد المسافر، كما أن مؤلفات الرازي وابن رشد

ترجمت أكثر من مرة. وهكذا بعثت في أوروبا نهضة عقلية، ومن ثم أخذت تتطور وأصبحت ضرورة لا بد منها لجميع المشتغلين بالعلوم.

قال ابن سينا

كما ينتشع الإسفنج الظمآن بالماء والأرض الجافة الخالية بالغيث، كذلك كانت ظروف العالم عندما جاءت سحب العلوم والمعرفة والثقافة العربية الإسلامية، فقد هطلت عليه كتباً امتازت بحسن التأليف ودقة التبويب وبراعة العرض وأخرى مترجمة قد اتسمت ببركاكة الأسلوب وضعف العبارة. وما كاد المجتمع الإسلامي وغيره من المجتمعات التي اتصلت بالمسلمين ثقافياً أو حربياً أو تجارياً يتسلم هذه الهبة العقلية حتى تفتحت العقول فأزهرت وأينعت وجاءت إلى الإنسانية بالخير العميم.

وإذا تركنا الشرق إلى الغرب واتجهنا إلى سالرنو وجدناها -وقد استقبلت الموجة الثقافية الإسلامية الأولى- تنهض وتتطور وتتبوأ مكاناً سامياً جعلها ذات شهرة عالمية، ثم لم تكد تهضم ما تناولته حتى جاءت موجة ثانية لكن هذه المرة من خلف الحصون الإسبانية حيث تدفقت ينابيع الحضارة العربية على مونبيلييه فبعثت فيها وفي سائر الأنحاء الأوروبية حياة جديدة فنية نلمس آثارها العلمية الطبية لا في مونبيلييه فقط بل بولونيا وبادوا وباريس وأكسفورد أيضاً. ومن أكبر مظاهر إقبال أوروبا على تحصيل العلوم العربية هذا الشغف العظيم باقتناء الكتب التي ظهرت في تلك العصور، والتي كانت عربية التأليف إنسانية الغايات، وحتى ما ألفته أوروبا وقتذاك إنما كان صورة من المؤلفات العربية، وما أقبلت أوروبا على ما أقبلت عليه إلا سداً للفراغ العلمي الذي كان مخيماً عليها ومحاولة للحاق بالعرب في مختلف أنواع العلوم والفنون والآداب.

والكتب الأوربية التي ظهرت -وإن افتقدت أحيانًا الاصطلاحات العربية- قد استمدت مضمونها ودلالاتها. ولعل أكثر الكتب دراسة واستشهادًا مؤلفات أمثال: ابن سينا وأبي القاسم والرازي وابن زهر وحنين بن رسيح وإسحق يهودا. وكما طرق العرب قديمًا أبواب الثقافة اليونانية كذلك الحال عند أربا الظمأي فإنها أقبلت واعتمدت في نهضتها على المراجع اليونانية العربية، وكانت هذه الكتب هي كل شيء في الطب، إلا أن الأزهار الأجنبية لم تتأصل جذورها في الأرض ولم تزدهر وتورق بل نمت في حدود ضيقة جدًا؛ لذلك بدت وكأنها أزهار ذابلة.

وكانت النتيجة أنه لم يظهر طب أوربي، كما ظهر في الشرق طب عربي منذ عصر الرازي، وأصبح عند العرب طب عربي خالص، وظل الأوربي عربيًا طيلة عصر الإنسانيين بالرغم من وجود أمثال «باراسيلسوس» بل امتدت فترة قيام الطب الأوربي المعرب حتى أوائل العصر الحديث. والسبب في تأخر ظهور الطب كعلم أوربي هو طبيعة العصر وطبيعة نظرة الأوربيين للحياة واهتمامهم بالإنسان فقط، وكل شيء خالق يتجمد ويكتفي فيه بالتفكير فقط، فنحن نجد الكنيسة تتطلب من المسيحيين الاستسلام بدون قيد أو شرط لها ولتعاليمها والخضوع لسلطانها، بينما أولئك الذين يدرسون ينتمون في الواقع إلى الطائفة المستقلة التي تفكر كيفما طاب لها التفكير، ونجد الأطباء العرب يحيون في معترك الحياة في الوقت الذي نجد فيه جميع معاهد الدروس -إذا ما استثنينا سالرنو والجامعة الحكومية في صقلية وفي نابولي- تخضع خضوعًا تامًا للكنيسة وتعاليمها. فالفرد المسيحي يجب عليه أن يأتمر بأوامر الكنيسة ويؤمن بها إيمانًا أعمى ولا يجوز له مناقشة ما تفرضه عليه، فالمسيحيون هم خدم الكنيسة، وهذه العادات وتلك الصفات أصبحت طبيعة ثانية للمسيحيين. فإذا حاد المسيحي عن هذا الطريق

وأخذ يهتم بما يجده أو يراه حتى بجسده أو بالمرضى سعيًا وراء جمع المعلومات والتجارب، ضل الطريق القويم فطريق العقل يؤدي إلى الغرض والهدف. وتحديثنا المصادر التي جاءتنا أن الوعي قد استيقظ في ذلك الوقت مسترشدًا ببعث التشريع الروماني في مدرسة الحقوق بمدينة بولونيا، وأخذت طريقة التفسير والتعريف والمناقشة مع استخدام المنطق ومراعاة الأصول المختلفة تنتشر منذ عهد «أنسلم فون كنتبري»، ومنذ التعرف على أرسطو بفضل العرب. فإذا تم مع التشريع والتقنين فلماذا لا يحدث مع اللاهوت أو الطب؟ فما هو حلال للقانون حلال لللاهوت فيما يتعلق بالعقائد الكنسية وحلال للطب ولتعاليم العرب وجالينوس وأرسطو، فهذه العلوم العربية هي أهم شيء بالنسبة لهم، هي معجزتهم هي قانونهم هي إنجيلهم، قانون ابن سينا. وأين ينشأ الطب إذا لم يجد في هذه القلعة التي عطرها القانون والتشريع والحقوق تربة خصبة له؟ ! في بولونيا نجد «تاديو الديروتى» يهتم بالقانون وشرحه، وقد نجح في تعاليمه التي أصبحت عقيدة لتلاميذه أجيالا متتابعة ومن بينهم أولئك الذين كرسوا حياتهم للطب فكانوا رسله وإن تزيوا بأزياء عربية. لقد قدس أولئك الرسل العلماء العرب والعلم العربي وبخاصة ابن سينا والرازي، وظل هذا التقدير قائمًا حتى القرن السابع عشر، وأصبحت عبارة «روح ابن سينا» من أكبر الألقاب التي يتشرف بحملها الطبيب الأوربي أو الطب عامة. أما درجة الامتياز التي كان لا ينالها إلا فطاحل الأطباء الأوربيين فهي «شعار ابن سينا»؛ وفي القرن السادس عشر أطلق لفظ «ابن سيني» على جميع أتباع ابن سينا. وأين ينشأ الطب إذا لم يجد في هذه القلعة التي عطرها القانون والتشريع والحقوق تربة خصبة له؟ في بولونيا نجد «تاديو الديروتى» يهتم بالقانون وشرحه، وقد نجح في تعاليمه التي أصبحت عقيدة لتلاميذه أجيالا متتابعة ومن

بينهم أولئك الذين كرسوا حياتهم للطب فكانوا رسله وإن تزيوا بأزياء عربية. لقد قدس أولئك الرسل العلماء العرب والعلم العربي وبخاصة ابن سينا والرازي، وظل هذا التقدير قائماً حتى القرن السابع عشر، وأصبحت عبارة «روح ابن سينا» من أكبر الألقاب التي يتشرف بحملها الطبيب الأوربي أو الطب عامة. أما درجة الامتياز التي كان لا ينالها إلا فطاحل الأطباء الأوربيين فهي «شعار ابن سينا»؛ وفي القرن السادس عشر أطلق لفظ «ابن سيني» على جميع أتباع ابن سينا. أما المؤلفات التي ظهرت في ذلك العصر فكانت تحمل الصورة الصادقة لتعاليم ابن سينا وطريقته في التأليف والبحث، كما أننا نجد احتذى مؤلفوها غير ابن سينا من العلماء العرب. وغير «نادو» نجد «بيترو» من «أبانو» وهو ابن رجل قانوني لنجو باردي، وكان مغرمًا بابن سينا وابن رشد وكانت له عقلية منطقية تستطيع إدراك الحقائق الطبيعية، التي قد تنشأ عنها حقائق تتعارض والتجارب، وعن طريق الفلسفة توصل إلى نتائج لا تقبل الشك خاصة بشارب الشعير الذي لا يسبب حمى؛ وذلك لأن عصير الشعير عبارة عن خلاصة بينما الحمى شيء طارئ، وعن طريق المنطق استطاع أن يثبت دون صعوبة أن النار ليست جسمًا باردًا بل ساخناً، وعن طريق هذه المعاملة المنطقية ضرب مثلاً كيف أن الإنسان يستطيع أن يحصل على آخر نقطة من الدم دون أن يجهد حواسه أو عقله. والواقع أن التأملات الفلسفية قد خلقت الناحية التجريبية أو العملية أو التطبيقية، وأن استبداد النظرية التي أصبحت غريبة على الحقيقة خاصة بالتجارب الطبية قد سخرت منها العقيدة الشعبية في هذا الشهر: جالينوس والعلامة أبقراط .. علماني أنه .. حيث يوجد ماء يوجد بلل .. وإن لم يمت فستحسن صحته! ثم إن الكتب التي التزمت المنطق وبراعة الأسلوب مثل كتاب القانون نالت إعجاب أولئك الذين يقدرّون فصاحة

اللغة وبلاغتها. لكن علماء الطب من الأوروبيين فهموا هذه الكتب همًا خاطئًا فخرجوا منها بنتائج لا تتصل والعلوم العربية بصلة ما وهي منها بريئة. فالعلوم العربية يجب ألا تنتهي إلى عقلية هؤلاء العلماء الأوروبيين، وقد راعت جامعة سالرنو الدقة العلمية بفضل العقلية الناضجة التي امتازت بها فخرجت طبًا حقيقيًا. وهذا يؤيد هذا التسامح العقائدي الذي دفع إلى السير في طريق الجامعات العربية في الدراسات الطبية، كما نلاحظ هذا في جامعة مونبيلييه التي تأثرت بمختلف التيارات والأهواء، وبالرغم من ذلك تمسكت بتقاليدها السليمة وفتحت صدرها منذ البدء للثقافة العربية التي أقبلت عليها من مختلف الجهات وتأثرت بها مونبيلييه حتى النهاية دون التأثير بالظروف المدرسية الأوروبية. ولا أدل على أهمية العرب والعربية والدور الهام الذي قام به العرب في ميادين الثقافة والحضارة، من أن الباحث كان مضطرًا إذا ما أقبل على عمل بحث من البحوث إلى دراسة اللغة العربية دراسة دقيقة، كما نشاهد هذا الظاهرة مع الإسباني الشهير، الذي انحدر من أسرة غوطية غربية واسمه «أرنلد» وهو أحد أبناء مدينة «فيلانويفا» (135 - 1311) فنحن نعلم أن «أرنلد» هذا فعل في بلده ما فعله من قبل «ميجويل ثرافيدا»، فهو لم يكتف بدراسة اللغة العربية وإتقانها بل أقبل على العقلية العربية وتعمق في إدراكها ودراسة الكتب العربية الطبية كما اتصل بالأطباء العرب فحصل على علم ومعرفة تميز بهما على سائر مواطنيه وانفرد من بينهم بعدم اكتراثه بعلوم وآراء مفكري أوروبا. فأقبل على العلوم العربية فجنى منها بعض ثرائها. كما أبدى تجاهلاً لأولئك العلماء الذي كانوا سببًا في نشر الغباوة والجهل بين الأطباء اللاتين، وكرس حبه وتقديره لأمثال: علي بن عباس وابن زهر والرازي الذي سلب عليهما نوره وعلمه. فالرازي هو الرجل الذي اشتهر بالبحث

والتعمق والإنتاج والتقدم والقيام بالتجارب الخاصة. والسبب الذي من أجله قدر «أرنلد» الرازي فاحتل من نفسه مكانة رفيعة هو بعينه الذي رفع من منزلة «أرنلد». وصفات الرازي كذلك هي التي احتذتها جامعة مونبيلييه فآلت أن تفكر التفكير الحر أسوة بالرازي، وأن تذود عن حرية الرأي والبحث العلمي كما فعل الرازي أيضاً. وهناك فرع آخر من فروع الطب يقوم دليلاً على بعد العرب عن الانحرافات والالتواءات الأوروبية الطبية، وهذا الفن هو الجراحة. فالجراحة تدين للعروبة في تطورها وتقدمها السريع بعد أن كانت مهنة من المهن الحقيرة، وسرعان ما بلغ الجراح منزلة قاضي الجنايات. ففي عام 1163 م صدر قرار من المجلس الأعلى يمنع تدريس الجراحة في مدارس الطب، كما أن الجراحة اعتبرت مهنة مشينة تدنس شرف وكرامة الطبيب الذي يمارسها، بخلاف العرب الذين أقبلوا عليها وألوهها عنايتهم فأصبحت علماً من أجل العلوم وأشرفها بل أصبحت الفن الطبي الوحيد الذي يتطلب اليقظة والانتباه وسرعة الإدراك وسلامة الطبيب وقواه، لأنه هو الفن الطبي الذي يأتي بنتائج إيجابية. وقد أخذت الجراحة تنبؤاً مكاناً رفيعاً في أوروبا على يد «روجر فون سالرنو» اللنجو باردي وتلميذه «رولند» و «هوجو فون بورجو جنوني» وابنه «تيودريش»، ثم قدر للجراحة أن تخطو خطوة أبعد بفضل «فلهم فون ساليست» اللنجو باردي وتلميذه الذي تفوق عليه وهو «لانفرنكو»، ثم الفرنسي «جوي ده شوليك». والشيء الجدير بالملاحظة حقاً، هذه الحقيقة التي تدحض الافتراءات التي افتريت على الجراحة والجراحين، أعني هذا التقدم الذي أحرزته الجراحة على يد أمثال: أبي القاسم وابن سينا. وبفضل الأخير خاصة انتقلت إلى أوروبا واشتركت اشتراكاً كلياً مع علم التشريح، ومن ثم ينتهي بها المطاف إلى هذا التقدم العظيم الذي أحرزته الجراحة في

الطب الحديث. ومرة أخرى نجد العرب يتقدمون لإنقاذ هذا العلم من خطر جديد أحرق به وفي أوقات حرجة جدًا، وليس هذا الموقف بجديد على العرب فقد سبق لهم أن سارعوا إلى إنقاذ الطب من سيطرة اللاهوت واستعباده وإفقال الطريق أمامه. لقد دنت ساعة الامتحان للطب والأطباء عندما انتشر وباء عام 1382 وحرار الطب وأخفق الأطباء، في ذلك الوقت كان الطب العربي يتحدث عن الوباء وعن العدوى التي قد تصيب الإنسان من جرائه، وهذا بدوره قد ينقل جراثيم المرض إلى كثيرين ممن قد يتصلون بالمريض. وحدث أيضًا أن انتشر الوباء مرة أخرى وكانت أوروبا مستعدة لمكافحته وتجنب ويلاته فمنعت السفن التي يشتبه في وجود المرض بها من الاقتراب من الموانئ الإيطالية، ثم تقرر التبليغ عن جميع حالات المرض. وقام أول بناء للعزل ومنعت الاجتماعات وأحرقت جميع الأشياء الملوثة بجراثيم المرض، فكل هذه الاحتياطات تقوم دليلًا على أن أوروبا أخذت بالرأي العربي الخاص بطرق مقاومة المرض والحد من انتشار العدوى، وقد زلت هذه الوسائل متبعة حتى يومنا هذا. وبدهي أن هذه الاحتياطات التي أتت بأحسن النتائج في سبيل مقاومة الوباء والقضاء عليه لم تتعارض وتعاليم الكنيسة فالعبارات الواردة في العهد القديم والخاصة بالعقوبات والعذاب الذي قد يلحقه الله بالمذنبين على يد ملائكته شاهدة على عدم انحراف المسيحيين عن تعاليم دينهم، إذا ما فهمت على أنها لا تحمل إلا معنى رمزيًا. إن الإيمان بالآيات الواردة في الكتاب المقدس حالت لمدة عدة قرون دون تقدم البحوث الخاصة بالعدوى، فإلى جانب سرير المريض كان يقف الطبيب العظيم والعالم المشهود له بالكفاية العلمية لكنه لا يستطيع أن يقدم للمريض أدنى مساعدة؛ وذلك لأن العلوم الطبية قاست الكثير من التخمّة التي أصابت الأوروبيين الذين عجزوا عن فهم العلوم الأجنبية.

كما أن العلوم الأوروبية لم تتقدم قط حتى في الوقت الذي كان يصرح فيه لخريج الطب الحديث وتحت إشراف طبيب آخر بمعالجة المريض، إذ إن سائر معلوماته كانت في الواقع مستقاة من الكتب والصور المأخوذة عن رسومات خيالية خاطئة. أما الدراسة العلمية في المستشفيات كما هو الحال عند العرب فلم تكن مستعملة في أوربا، فمدرسة الطب كانت مقطوعة الصلة بالمستشفى، فلما عاد الصليبيون وشاهدوا ما شاهدوا عند العرب، وفي مدارس الطب العربية طالبوا بإدخال هذه النظم في أوربا، وأخذ البابا إينوسنس الثالث يطالب جمعية روح القدس ببناء المستشفيات وجمع المرضى فيها كما أشرفوا هم على رعاية أولئك المرضى في المستشفيات التي كانت خالية من الأطباء. وفقط في عام 1500 م عين ولأول مرة في مستشفى ستراسبورج طبيب دائم مقيم، وكان هذا بعد ثمانية قرون من تشييد الخليفة الأموي الوليد للمستشفى العربي، الذي عين له عددًا كبيرًا من الأطباء المختصين في مختلف الأمراض. وبعد ستراسبورج نجد في مستشفى ليزج عام 1517 ثم «أوتيل ديه» في باريس عام 1531 م. وفي منتصف القرن السادس عشر حدث أن طبيبًا من «فيرونا» أخذ يدرس شرح ابن سينا في مستشفى «بادوا» مع دراسة علمية، فأثار هذا التجديد العجب. فقد قصد «بادوا» طلبة من مختلف البلاد ليشاهدوا العرض الجديد لنصوص ابن سينا وجاينوس مطبقًا على المرضى ويشترك الطلاب مع أستاذهم. كذلك نسج على نفس المنوال طبيب آخر كان يعمي في مدينة «إينجولستات» إلا أن هاتين الحالتين كانت وحيدتين، وفي القرن الثامن عشر فقط نجد الطبيب الشهير الذي كان يعمل في مستشفى «هرمان بيرهافا» ولو أنه من مدينة ليدن يطبق العلم على العمل في المستشفى بالرغم من الحالة البدائية التي كانت عليها المستشفيات الأوروبية عامة في ذلك الوقت، فقد

كانت تستحق السخرية حقًا فضلًا عن عدم ملاءمتها للقواعد الصحية. وبالرغم من ذلك فقد خطا هذا النطاسي البارع بالدراسة الطبية خطوة واسعة. ولما انبثقت حركة إحياء العلوم والاهتمام بالعلوم اليونانية كان من المتوقع أن تؤثر في مكانة الطب العربي، لكن شيئًا من هذا لم يحدث، وعلى العكس، بخلاف ما وقع مع الفنون وسائر العلوم العقلية وبخاصة الفلسفة. أما العلوم القائمة على التجارب والخبرة فلم تستفد شيئًا من العلوم اليونانية. وفيما يتصل بالطب وسائر العلوم التجريبية أو التطبيقية التي أخذها العرب عن اليونان وقدموها لأوروبا. فقد كانت أيسر قبولًا وأكثر رواجًا من تلك التي عرفت في بيزنطية بل امتازت عليها بحسن التنسيق وجمال العرض ودقة الملاحظة، ولم تقتصر هذه المفاضلة على البيزنطية فقط بل امتدت إلى اليونانية أيضًا. أما كتب أمثال: علي بن العباس وابن سينا فقد كانت مثلًا لامعًا في التأليف وترويض هذه المواد الجامحة، فقد تناولت هذه الكتب ما جاءها وخلفته خلقًا جديدًا فأضافت إليه الشيء الكثير فاستعاض القارئ عن سفسطة جالينوس علمًا غزيرًا جديدًا لا يستغني عنه باحث أو طالب معرفة، ومعنى هذا استعباد جديد وتبعية جديدة وحيلولة دون خلق جديد في عالم التأليف. وعلاوة على ذلك فقد كانت التراجم الجديدة المباشرة للكتب اليونانية تتصف بالفوضى والاضطراب وضعف الفائدة بخلاف تلك التراجم التي اعتمدت على العربية. وقد كشف الإنسان عن مؤلفات أمثال: «روفوس» و «بولوس» و «سيلسوس» ونقلها إلى لغة العصر إلا أن تقادم عهدها جعلها لا تصلح للعصر الذي ترجمت فيه بخلاف الحال مع المؤلفات العربية التي ترجمت في نفس الوقت إلى اللاتينية مثل القانون لابن سينا الذي ترجم مرة في دمشق وأخرى أحسن وأدق في إيطاليا. لكن هناك شيئًا هامًا أثر بواسطته الإنسان في الأطباء ولو

أن هذا الشيء لا يمت إلى الطب بصلة فهو إنتاج لغوي نبه القوم إلى وجوب الاهتمام بفحص النصوص وتحليلها وإن كان هذا الاتجاه قد صرف القوم عن فهم المعنى إلى الأسلوب بما فيه من فصاحة وبلاغة، لكن حتى هذا لم يصرف الأوربيين عن الاهتمام بأساتذتهم العرب وذلك لأنهم قد تبينوا مدى تفوق العرب على اليونان، فمن بين الأطباء المشهورين الذين زينوا جبين القرن الخامس عشر والذي طارت شهرتهم إلى كل مكان: ابن سينا والرازي وابن زهر وعلى بن عباس وأبي القاسم، وقد كانوا المثل الأعلى في الطب، كما أنهم هم أساتذة الذين خلفوهم وبخاصة في الطب العملي. وقد انصرف نفر من العلماء إلى دراسة التراثين العربي واليوناني والمقابلة بينهما وبخاصة فيما يتصل بالطب ومعرفة مدى أثر اليونانيين على الأطباء العرب الذين خلقوا الطب العملي التجريبي، وقد قدم أولئك العلماء إحصائية عن هذا الأثر.

ومن أهم الكتب التي ألفت في هذا الموضوع كتاب الجراف «فراري دا جرادو» أستاذ جامعة بافيا الذي وضع شرحًا وتفسيرًا للكتاب التاسع من كتاب المنصور للرازي، وهو أول كتاب طبي طبع عام 1469. ففي مؤلفات «فراري» جاءت إحصائية تبين أن ابن سينا ذكر أكثر من ثلاثة آلاف مرة والرازي وجالينوس ألف مرة وأبقراط مائة وأربعين مرة. والجدير بالملاحظة إلقاء نظرة على الطبقات القديمة للكتب الطبية وأولها ولا شك قانون ابن سينا، فقد ظهر هذا الكتاب في فبراير 1473 في ميلانو، وبعد عامين ظهرت الطبعة الثانية، بينما ظهر في نفس الوقت شرح ابن سينا، وقد نشره ذلك الإيطالي، وهو الكتاب المعروف باسم «روح ابن سينا» وظهرت طبعة ثالثة للقانون قبل طبع أول رسالة جالينوس؛ ومن ثم أخذت تتوالى الطبقات، فظهرت الطبقات الأولى لكتب المنصور والحاوي للرازي، ثم الكليات لابن رشد وإيساغوجي

حنين بن إسحق والذي يعرف الآن برسم «يوحنتيوس». ثم كتاب الأظعمة لإسحق يهوذا والكتاب الملكي لعلي بن عباس، وهكذا حتى عام 1500 ظهرت الطبعة السادسة عشرة لكتب القانون بينما لم تظهر لجالينوس إلا طبعة أولى في مجلدين. وفي القرن السادس عشر بلغت الطبعات للقانون العشرين، ومن ثم أخذت تتوالى حتى منتصف القرن السادس عشر، وهكذا نجد قانون ابن سينا هو أكثر الكتب الطبية دراسة وانتشاراً في عالم الطب. أما طبعا شرحه فلا تحصى. وفي القرن السادس عشر فقط، أخذ الطب الأوربي يشعر بالخجل من الطب العربي، وذلك لأنه ظل زمناً طويلاً ينقل ويقتبس ويأخذ عن العربي حتى إنه كان صورة مشوهة منه، ولا يوجد مثل أصدق يصور لنا الحالة التي كان عليها الطب الأولى من هذه العبارات الخاوية التي تدل على لا شيء والتي قالها «باراسيلسوس» في ميدان السوق بمدينة «بازل» عندما أحرق علانية كتب جالينوس وابن سينا مما أثار غضب الشعب. لكن يجب ألا يتبادر إلى أذهاننا أن هذه العملية التي قام بها «باراسيلسوس» جاءت بنتيجة ما فالعلم العربي ظل قائماً يزين رؤوس العلماء المفكرين، ودور الكتب الأوربية لم تتوان في اقتناء هذه الكتب العربية والتنافس في هذا الاقتناء والمفاخرة به بل حتى حقائب الأطباء كانت غاصة بهذه المؤلفات العربية الطبية. نعم إن ميخائيل ثروت هاجم وانتقد الشراب العربي الذي اعتمد على مبدأ العصير اليوناني، لكنه في نفس الوقت نشر الاختراع العربي للدورة الدموية الصغرى دون أن يذكر المراجع العربية التي أخذ عنها. أما أستاذه في التشريح «سيلفيوس» فقد كتب عام 1545 شرحاً على الرازي هو نفسه أبو التشريح وأبو الطب الأوربي عامة؛ كذلك نعلم أن الألماني «أندرياس فيزاليوس» قد تعلم اللغة العربية أيضاً وأجهد نفسه في سبيل إعادة نشر الكتاب التاسع من الكتاب

المنصوري لمؤلفه الرازي وفي لاتينية أسلم وأقوم. كما ظهر من الكتاب العربي العظيم الموسوم باسم كتاب الحاوي في الفترة الممتدة بين عامي 1486 و 1542 خمس طبعات كاملة، كذلك عدة طبعات من بعض فصوله. أما كتابه عن الجدري والحصبة، فقد طبع بين عامي 1498 و 1866 أكثر من أربعين مرة، وقد ظلت هذه الرسالة الصغيرة موضع اهتمام وتقدير العالم المتمدين زهاء ألف عام وما زالت حتى يومنا هذا المرجع الهام الذي يستغنى عنه والمثال الذي يحتذى. ومن المؤلفات القيمة التي لها مكانة لا تقل عن معاجم الجيب، تلك الجداول التي وضعها ابن جزلة وابن بطلان، فقد ترجمت هذه الجداول أكثر من مرة إلى اللاتينية وعليها اسم المؤلف في صيغة لاتينية غامضة جدًا، وقد ترجمت إلى الألمانية وظهرت في مجلد واحد تحت اسم مفاده «جداول الشطرنج الصحي». أما الكتاب الملكي لعلي بن العباس، فقد شاعت الأقدار أن ينال خطوة عظيمة وذلك عن طريق عالمين من العلماء الإنسانيين تجمع بينهما صلات القرابة في مدينة نورنبرج. ففي حوالي عيد ميلاد عام 1493 م تسلم العالم النورنبرجي الطبيب الشهير «هارتمان شيدل» رسالة من بادوا حيث كان يدرس صديقه الشاب «هيرونيموس هولز شوهر» أبلغه فيها عظم فرحه لشرائه الكتاب الطبي العربي الشهير جدًا، الذي ظهر حديثًا في ترجمته اللاتينية في مدينة البندقية. أما مترجمه فهو «إسطفان فون بيزا» فما كان من «شيدل» إلا أن أطلع زميله الطبيب «هيرونيموس مينزر» طبيب مدينة نورنبرج على هذه الرسالة، وقد كان «مينزر» هذا إلى جانب طبه هاويًا القيام بالرحلات ودراسة الجغرافيا، وهو الذي أرسل إلى ملك البرتغال رسالة تحثه على وجوب الاهتمام بتمكين «كولومبوس» من القيام برحلته إلى الهند مجتازًا الطريق البحري الغربي. وكان هذان الطبيبان

يهويان اقتناء الكتب المطبوعة الحديثة؛ لذلك فرح «مينزر» كثيرًا عندما أطلع على مضمون هذه الرسالة وحصول «هير ونيموس هولز شوهر» على هذا الكتاب القيم، كما أعجبه تقديره واهتمامه بالعلم هذا التقدير الذي دفعه إلى شراء هذا الكتاب؛ لذلك قرر «مينزر» إهداء «هولز شوهر» كريمته الوحيدة كزوج له. فقد كان كتاب علي بن العباس هو الدافع إلى هذا الزواج الذي تم بين «هيرونيموس هولز شوهر» و «دورثيا مينزر» وهكذا أصبحنا نجد «هولز شوهر» يصير عضو مجلس المدينة وعمدة نورنبرج و «هولز شوهر» هذا هو الذي رسمه الفنان الخالد «ديرر». كذلك من الكتب التي لقيت رواجًا عظيمًا وأقبل عليها المترجمون كتاب «دليل المسافرين» أو «الرحلة»، وقد نبه إلى عظيم فائدته قنسطنطين الإفريقي. ففي باريس وكولونيا وجامعات أخرى كان يدرس هذا الكتاب كمادة إجبارية على الطلاب، وظل الحال كذلك مئات السنين. وهو يعتبر إلى جانب إيساغوجي حنين بن إسحق والمنصوري للرازي والتيسير لابن زهر والكليات لابن رشد والقانون لابن سينا من أهم الكتب الرئيسية في برامج الدراسة الطبية في مختلف الجامعات حتى القرن السادس عشر في أوروبا. وفي جامعتي «توبنجن» و «فرنكفورت» الواقعة على الأودر كانت برامج كليات الطب تعتمد حتى القرن السادس عشر على مؤلفات ابن سينا والرازي. وبالرغم من أن الغرب تنكر للغرب إلا أن المؤلفات العربية وبخاصة ما يختص منها بأمراض العيون ظلت متداولة حتى القرن الثامن عشر، وقد دخل كثير من اختراعات العرب وتجاربهم القيمة الطب الدولي بالرغم من إخفاء الأسماء العربية والتغاضي عن ذكر فضل العرب. لكم من هم الذين لا يزالون يعرفونهم اليوم؟ ومن يعرف المؤثرات الطبية العربية التي أخذت تلعب دورها في أوروبا منذ عهد قنسطنطين الإفريقي؟ ومن يعرف

حتى اليوم عظمة وخطورة الدور الذي قام به العرب في سبيل تطور ونشأة الطب في أوروبا؟ إن «أجريبا فون نتسهيم» هو الشخص الوحيد بين الإنسانيين الذي قاسى منه كثيرون، وهو شاب من كولونيا وكان يسمى «هينريش كورنيليس»، وكان يغني أغنية هامة في أثر العرب في الطب. فالعرب كما يقول: مشهورون، حتى إن الإنسان يعتبرهم خالقي هذا العلم، وكان من السهل إصدار مثل هذا الحكم إذا لم يستخدم العرب كثيرًا من الألفاظ اللاتينية واليونانية، وبذلك كشفوا النقاب عن حقيقتهم، فكتب ابن سينا والرازي وابن رشد لا تقل أهمية عن كتب أبقراط وجالينوس، وقد بلغت الكتب العربية مكانة هامة في العلوم حتى إن استخدامها كان ضرورة لا بد منها للوصول إلى الشفاء. أما الطبيب الذي لا يستخدمها في العلاج فقد يتسبب في موت المريض الذي يعالجه. أليست هذه نبوءة أن القديسين من الأطباء المسيحيين والصيادلة، والذين اختصهم الباب فيلكس الرابع في أوائل القرن السادس الميلادي بكتدرائية قديمة في الفوروم رومانوم كانوا حسب صلاة القديسين عربًا؟ !

أنصاب العبقرية العربية

قديسو الأطباء والصيادلة .

من الخطأ أن تذكر «كورماس» على أنه الطبيب، ودميان هو الصيدلي. حوالي عام 300 حينما عاش الأخوان العربيان، فيما يقال، لم تكن المهنتان الشافيتان قد انفصلتا بعد، كذلك الحال في العصر اليوناني. فالطبيب كان عادة هو الصيدلي وإن كان له مساعدون يحضرون له الدواء ويعدونه، فهم الذين كانوا يجمعون له البذور ومختلف أصناف العطارة، وكان هناك تجار يبيعون الأدوية والعقاقير والعطور والأصباغ

الضرورية لحياتنا اليومية. لكن الطبيب كان هو الشخص الذي يناول المريض الدواء بيده، وذلك لأن تقسيم العمل والفصل بين المهن والحرف يصبح ضرورة عندما تتزايد هذه العقاقير وتتكاثر الأدوية، ثم كثر المخترعون وتزايد عدد المخترعات فتطلب هذا إعدادًا خاصًا لأنها أصبحت في الواقع أدوية جديدة. فجميع هذه الحالات حدثت وبكثرة في الطب الإسلامي العربي. إن الدولة العربية لم تكن دولة ثقافة وعلوم فقط بل كانت أيضًا مركزًا للتجارة العالمية. ففي البلاد العربية كانت تلتقي الطرق التجارية العالمية التي كانت تجتاز البحار والقارات القريب منها والبعيد .. إنها كانت الشرايين التي تغذي الشرق والغرب والشمال والجنوب بمختلف أنواع السلع مستعينة بالسفن التي اشتهرت باسم «جنك» أو الجمال والبغال حاملة كنوز مختلف البلاد والعقاقير والأعشاب وغيرها من الأدوية الحيوانية التي لم يعرفها الأطباء الأقدمون ولم يحفظوها في الجرار الفخارية، وقد جلبها العرب من الصين والهند وإفريقيا وسيلان (سرنديب) وملقا وسومطرة ومن شواطئ البلاد والجزر الأخرى. ولم يكن هذا بالشيء الجديد فطرق القوافل قديمة قدم العصر الحجري. أما وقد تطورت الظروف فقد أصبح التجار أكثر خبرة ودراية بالتصدير والاستيراد وبخاصة فيما يتعلق بالأدوية التي حصلوا عليها كذلك عن طريق الرحلات الاستطلاعية الكشفية. وامتازت المستشفيات العربية الإسلامية بأن كل طبيب فيها كان يستطيع الحصول على أدوية جديدة ويجري تجاربه عليها وأن يسجل هذه النتائج في سجلات خاصة أعدت لهذا الغرض، ولم يكتف بالتسجيل فقط بل كانت هذه النتائج تنشر بين مختلف الأطباء والمستشفيات على أنها أدوية مجربة، وبذلك تقدم كهدية للطب للاستفادة منها. لذلك نجد عددًا كبيرًا من الأدوية التي كانت حتى ذلك الوقت غير معروفة مثل: القهوة

والكافور والكبابة والمن والأرجان، واللبان، وجوز الطيب والعنبر والأسطراغالس وأخرى كثيرة جدًا، ومن ثم انتقلت بواسطة العرب إلى أوربا، كذلك تلك العقاقير التي لم يولها الإنسان من قبل اهتمامه، فقد أصبحت عقاقير طبية لا يستغني عنها الطب والصيدلة وأغراض أخرى. وهكذا نجد الأطباء العرب يصفون القهوة لعلاج القلب كما يستخدمونها مسحوقة لعلاج التهاب اللوز والإسهال والجروح العسيرة الشفاء، والكافور لتنبيه القلب والكبابة لمكافحة الديدان. واستعاضوا عن الدواء القوي المألوف الذي ظل مستخدمًا عدة قرون، وكثيرًا ما كان يتسبب في إحداث القيء أو الإسهال والذي ورثه القوم عن اليونان بأوراق السنا والتمر الهندي والخيار الشنبر والعود والروند المهدئة المليئة المقيئة. وقد نادى باستخدامها ودعا إليها مختلف مؤلفات ماسويه والرازي كما نجد «محمدًا التميني» وهو أحد أبناء القدس يخترع مادة عالمية ضد التسمم، وقد خلدت هذه المادة اسمه وبحق إذ أطلق على المادة المسهلة التي اخترعها والتي تساعد على الهضم اسم مفتاح الفرح ومنعش الروح، وهناك أدوية أخرى يونانية كانت مستخدمة بالرغم من الأضرار الجسيمة التي قد تنشأ عنها فلما تناولها العرب خفوها عن طريق عصير الليمون أو البرتقال أو إضافات أخرى. أما الأدوية التي كان يركبها جالينوس من خليط خاص فقد استعاض عنها ابن سينا بآخر أبسط لا ضرر منه. وفي كتاب القانون لابن سينا نجده يذكر ما لا يقل عن سبعمئة وستين دواء، وقد انتقلت جميعها إلى النباتات والصيدلة الأوروبية. وبعض هذه الأدوية ما زالت محتفظة بأسمائها العربية حتى اليوم مثل: عنبر، دار صيني، زعفران، خشب الصندل، السني، الكافور، تمر هندي، عود، حشيش، خلنجان، جوز الطيب. وفي الشرق عرفت مؤلفات أبقراط وجالينوس، كما جمع «ديوسكوريدس» كل ما يتصل

بطب العالم القديم، وقد وصل هذا الكتاب إلى أوروبا عن طريق بعثة دبلوماسية، فالقيصر البيزنطي قنسطنطين السابق الذي عرف كيف يؤثر على الحكام العرب، وأرسل عام 948 م بعثة خاصة مزودة بكتاب غني بالرسوم إلى حاكم الأندلس، وكان القيصر يطمع عن طريق هذه الهدية القيمة في النجاح في عقد محالفة مع عبد الرحمن الثالث ضد خليفة بغداد. ولما لم يوجد في الأندلس من يستطيع فهم يونانية هذا الكتاب فهماً جيداً لتقدير قيمة هذه الهدية الثمينة طلب عبد الرحمن من بلاط القسطنطينية إرسال مترجم إليه. وفي عام 951 م وصل إلى قرطبة الراهب نيقولا، وكان يستطيع التفاهم مع الأطباء هناك باللغة اللاتينية، وهكذا تعاون معهم وترجموا هدية القيصر إلى العربية. لكن عرب الأندلس لم يكونوا متخلفين في علم النبات والعقاقير فالطبيب الخاص للخليفة وهو ابن جلجل ألف كتاباً عن مآخذ ديوسكوريديس، ومن ملاحظاته الخاصة وتجاربه الكثيرة جمعت لديه المادة لوصف أكثر من ألف وأربعمائة عقار نباتي ومواد أخرى قد يستعاض بها. وعقاقير ابن البيطار (1197 - 1248) أعني ابن الطبيب البيطري، وهو أكبر عالم نباتي عربي جمعها عدا المواد الحيوانية والمعدنية. فالكتاب يحتوي على جميع الصيدلة في عصره، وقد كان كتاباً عظيماً جداً علمياً وفنياً، فابن البيطار لم ينقع بدراسة مؤلفات نحو مائة وخمسين عالماً سبقوه في البحث والدرس وذكرهم جميعهم ودرس كتبهم دراسة فاحصة ناقدة بل قام هو بتجاربه الخاصة عليها، فقد رحل من مالقا مسقط رأسه وزار جميع بلاد إسبانيا ومراكش وشمال إفريقيا ومصر وسوريا وآسيا الصغرى، وقد شاهد بعينه، واقتنع، أكثر من ألف وأربعمائة مرة بكل ما دونه. ومن الجدير بالبحث حقاً العناية بابن البيطار عند درسه وتأليفه لنذكر كيف كان التأليف في أوروبا، وكذلك كيف استفاد قنسطنطين

الإفريقي والعلماء الأوروبيون من هذه المصادر العربية الفنية. فابن البيطار يذكر في مقدمة كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ما يأتي: «الحمد لله الذي خلق بلطيف حكمته بني الإنسان واختصه بما علمه من بديع البيان وسخر له ما في الأرض من جماد ونبات وحيوان وجعلها له أسبابًا لحفظ الصحة وإمالة الداء يستعملها بتصريفه في حالتي عافيته ومرضه بين الداء والغذاء. نحمده حمد الشاكرين ونصلي على أنبيائه أجمعين «وبعد» فإنه لما رسم بالأوامر المطاعة العالية المولوية السلطانية الأعظمية الملكية الصالحية النجمية لا زالت نافذة في المغرب والمشارق وأرزاقها شاملة لكافة الخلائق وبواترها ماضية في قمم الأعداء والمفارق بوضع كتاب في الأدوية المفردة نذكر فيه ماهياتها وقواها ومنافعها ومضارها وإصلاح ضررها والمقدار المستعمل من جرمتها أو عصارته أو طبيخها. والبدل منها عند عدمها قابل عبد عتباتها وغذى نعمتها هذه الأوامر العالية بالامتنال وسارع إلى الانتهاء إليها في الحال ووضع هذا الكتاب مشتملا على ما رسم به وعرف بسببه، وأودع فيه من ذلك أغراضًا يتميز بها عما سواه ويفضل على غيره بما اشتمل عليه وحواه. (الغرض الأول) بهذا الكتاب استيعاب القول في الأدوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام والاستمرار عند الاحتياج إليها في ليل كان أو نهار مضافًا إلى ذلك ذكر ما ينتفع به الناس من شعار ودثار، واستوعبت فيه جميع ما في الخمس مقالات من كتاب الأفضل «ديسكوريدس» بنصه. وكذا فعلت أيضًا بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في الست مقالات من مفرداته بفصه، ثم ألحقت بقولهما من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكره ووصفت فيه عن ثقات المحدثين وعلماء النباتيين ما لم يصفاه وأسندت في جميع ذلك الأقوال إلى قائلها وعرفت طرق النقل فيها بذكر ناقلها

واختصت بما تم لي به الاستبداد وصح لي القول فيه ووضح عندي عليه الاعتماد. (الغرض الثاني) صحة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرره عن المتأخرين فما صح عندي بالمشاهدة والنظر وثبت لدي بالخبر لا الخبر ادخرته كنزاً ثرياً وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيه سوى الله غنياً، وما كان مخالفاً في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية للصواب والتحقيق أو أن ناقله أو قائله عدلا فيه عن سواء الطريق نبذته ظهرياً وهجرته ملياً، وقلت لناقله أو قائله لقد جئت شيئاً فرياً. ولم أحاب في ذلك قديماً لسبقه ولا محدثاً اعتمد غيري على صدقه. (الغرض الثالث) ترك التكرار حسب الإمكان إلا فيما تمس الحاجة إليه لزيادة معنى وتبيان. (الغرض الرابع) تقريب مأخذه بحسب ترتيبه على حروف المعجم مقفي ليسهل على الطالب ما طلب من غير مشقة ولا عناء ولا تعب. (الغرض الخامس) التنبيه على كل دواء وقع فيه وهم أو غلط لمتقدم أو متأخر لاعتماد أكثرهم على الصحف والنقل، واعتمادي على التجربة والمشاهدة حسب ما ذكرت من قبل. (الغرض السادس) في أسماء الأدوية بسائر اللغات المتباينة في السمات، مع أنني لم أذكر فيه ترجمة دواء إلا وفيه منفعة مذكورة أو تجربة مشهورة. وذكرت كثيراً منها بما يعرف به في الأماكن التي تنبت فيها الأدوية المسطورة كالألفاظ البربرية واللاتينية وهي أعجمية الأندلس إذ كانت مشهورة عندنا وجارية في معظم كتبنا، وقيدت ما يجب تقييده منها بالضبط وبالشكل والنقط تقييداً يؤمن معه من التصحيف ويسلم قارئه من التبديل والتحريف إذ كان أكثر الوهم والغلط الداخل على الناظرين في الصحف إنما هو من تصحيفهم لما يقرأونه أو سهو الوراقين فيما يكتبونه «وسميته» بالجامع لكونه جمع بين الدواء والغذاء واحتوى على الغرض المقصود مع الإيجاز والاستقصاء، وهذا حين أبتدي وبالله أستعين

وأهتدي فأقول. . فهذه العبارة ليست ألفاظًا جوفاء أراد بها المؤلف التهويل والتضليل، فلدينا من الأدلة ما يثبت كيف كان هذا العالم دقيقًا ومفكرًا عميقًا، فابن أبي أصيبعة زميل ابن النفيس في دراسة الطب على الدخوار الذي كان تلميذًا أيضًا لابن البيطار، فقد ذكر أن أول مقابلة معه كانت في دمشق وفي عام 633 هـ، 1235 م وقد درس عليه ورافقه في بعض رحلاته النباتية. وكانت عاداته أن يذكر ما قاله «ديوسكوريديس» في كتابه وفي لغة يونانية صحيحة كما درسها إبان مدة دراسته في بلاد الروم (آسيا الصغرى). وابن البيطار يذكر «ديوسكوريديس» كما أراد أن يعرض لوصف وخواص دواء من الأدوية، ومن ثم يتبع هذا الرأي بأقوال جالينوس. وفي النهاية يذكر آراء الأطباء المعاصرين سواء اتفقوا أم اختلفوا ثم يبين موضع الخطأ. ويذكر ابن أبي أصيبعة كذلك أنه كان عندما يعود إلى منزله فاحصًا ملاحظات ابن البيطار في مختلف مراجعها يجده صادقًا عالمًا بكل شيء، وأغرب شيء فيه أنه اعتاد أن يذكر الفصل والمناسبة الخاصة سواء عند ديسكوريديس أو جالينوس أو الآخرين، وقد جاءت الأدوية العربية مساعدات أخرى عظيمة الفائدة جدًا، وهذه المساعدات مدهشة من حيث الكثرة والاختراعات الحديثة وهي أصلا عبارة عن مخلفات أشياء ومواد أخرى لم تحقق غايتها العلمية. إن العثور على حجر الحكمة الذي بواسطته يمكن تحويل المعادن غير الثمينة إلى ذهب، أعني المادة المؤثرة أو «الإكسير» الذي يمنح الإنسان صحة جيدة وعمرًا طويلا. فبلوغ هذه الغاية كان أمل الإنسانية وحلمها منذ عصور طويلة، وكانت تسعى جاهدة في سبيل تحقيقه. فقد استولى على الإنسان العجب عندما حاول صهر المعادن وأدرك بالمشاهدة تحولها فبلوغ هذا الهدف لم تحققه مصر أو اليونان أو فارس أو العرب، كما عجز عن تحقيقه أيضًا

الكيمائيون الأوروبيون. لكن هذه الآمال التي اختلطت بعناصر روحية غير مرئية تناولها العرب وعالجوها بوسائلهم العلمية المنتظمة. وذلك لأن العقيدة الإسلامية والإيمان بالله الواحد الأحد، الملك القوي، عدو لهذه الخرافات وتلك الخزعبلات التي تتعارض والإيمان بالله العلي العظيم. كذلك نجد إلى جانب الإسلام وتعاليمه عاملاً آخر وهو الكيمياء، وقد تسربت بصورتها الصوفية وطرقها الإعجازية إلى الجماعات الساذجة أو المشعوذة المهرة وهم كما يقول ابن اللطيف ساخرًا هناك ثلثمائة وسيلة لجعل الناس أغبياء، تحويل المعادن، وعزل المواد المؤثرة، وقد دفع هذا الوضع المسلمين المتعلمين إلى القيام ببحوث منتظمة وتحليل العناصر والتفرقة، والتعريف في معاملهم للوصول إلى شيء لم يصل إليه أحد من قبل «التجربة الكيماوية». فقد حاول اليوناني المفكر شرح وتعليل المعرفة عن طريق الفلسفة فباشّر كيمياء نظرية وفلسفية طبيعية حيث نلاحظ هذه الحقيقة في الهلينية الشرقية العملية المدركة للتجارب التي جمعت ونظمت وهذا هو نشأة العلوم الطبيعية.

أما العرب فهم أول من ابتدع طريقة الملاحظة والملاحظة الدقيقة المنتظمة وتحت شروط صناعية تتكرر في كل وقت وتتغير وتراقب، وكان العرب هم سادة هذا الموقف. لقد خلق العرب الكيمياء التطبيقية التجريبية بمعناها العلمي المعروف لما ومن ثم طوروها، كما يعترف بذلك المؤرخ الإنجليزي «كستوم»، حتى بلغت مكانة عالية رفيعة دفعت إلى اكتشاف الكيمياء العضوية وغير العضوية العصرية، وذلك بغية الوصول بها إلى المكانة التي بلغتها على يد العرب. فعوضًا عن تحقيق الأمنية القديمة الخاصة بالحصول على الذهب بلغ العرب بالكيمياء مرحلة أخرى مكنتهم بفضل التجارب العملية التي قاموا بها من تحقيق تراكيب كيماوية جديدة، كما توصلوا إلى طرق كيماوية حديثة. ففي

أواخر القرن التاسع نجد الكيمياء العربية تأخذ في الصعود فتبهر أنظار العالم بنورها الوضاء ولمعانها الباهر، وذلك بفضل شخصية عرفت باسم تنكري. وهذا الشخص الذي تدين له بالشيء الكثير جدًا يجب أن يكون سياسيًا من كبار زعماء وشيوخ الطائفة الإسماعيلية، هذه الطائفة المتحررة المسلمة المتطرفة، وقد عرف هذا العالم باسم «جابر» وكتب كسياسي كثيرًا من المؤلفات السياسية متسترة بأثواب الفلسفة والعلوم، وكان «جابر» هذا شخصية مستقلة استقلالاً عجيباً جباراً حقاً «لقد كان عالمًا مشهورًا ولو أنه عربي». قال هذه العبارة رجل ممن اشتهروا بعداوتهم للعرب. فعوضًا عن صهر المعادن التي كانت معروفة في عصره اخترع «جابر» وسيلة أخرى للصهر والتحليل وذلك عن طريق حامض ملح البارود أو حامض الملح وخليط من حامض الملح وملح البارود، و «جابر» هو صاحب جميع هذه الأحماض ومحضرها. وهكذا استطاع «جابر» ومن جاءوا بعده الحصول على مركبات عديدة من بينها أكسيد الزئبق والزنجر، والزرنيخ، والنوشادر، ونواتر الفضة، والشب، وأملاح النحاس، والقلي الكاوي، ماء القلي، وأخرى كثيرة.

ويفرق العلماء بين الحامض والقلي كما لاحظوا زيادة وزن المعادن عند الأكسدة والكبرية وأدركوا أولاً أن النار تخمد عند انعدام الهواء. وإلى العرب يرجع الفضل في خلق العمليات الكيماوية الأساسية مثل: التبخير والتبلور والكلسنة والترشيح والتقطير، حيث فرقوا بين التقطير المباشر، وذلك الذي ينتج عن طريق الرمل أو الماء. وقد استخدم الكيماويون العرب في عملياتهم هذه وتحاليلهم المنتجات الزجاجية العظيمة للعمال المصريين أو السوريين وبخاصة منتجات مصانع حلب حيث كانت مصنوعاتهم الزجاجية من أهم مواد التصدير العربية إلى الخارج وبخاصة سائر الأجهزة الكيماوية الزجاجية التي يحتاج إليها في

سبيل إجراء التجارب وأنابيب الاختبار التي لا يستغني عنها معمل، وفي المدن السورية نجد الجهاز الذي اخترعه العرب للتقطير ألا وهو «الإنبيق» وكذلك «الأثال». وهذان اللفظان يطلقان حتى اليوم على جزأي جهاز التقطير أعني العلوي والسفلي. وقد استخدم أبو القاسم عند التقطير جهازاً آخر، وهو عبارة عن فرن يشتعل فيه الوقود آلياً وكان يغلق الأواني الزجاجية المتداخلة في بعضها بعضاً عن طريق لفها بقطعة من قماش الكتان. وقد استخدم العرب الإنبيق لتنظيف الخل وعمل النبيذ والعرق من البلح عدا تطهير الماء غير النقي، وهكذا أصبح من الميسور تطهير الماء كيميائياً وإعداده للتجارة واستخدامه للدواء. وبهذه الطريقة كان الرازي أول ما استحضر هو حامض الكبريتيك، ومن الوسائل الحامضة المحتوية على مواد نشوية أو سكرية استخرج الكحول (الكحل) ومعنى اللفظ الحرفي «الأكثر رقة». والكحل هو في الأصل مسحوق الأنثيمون الناعم وكان يستخدمه الكحالون (أطباء العيون)؛ لذلك نجد طبيب العيون المشهور «علي بن عيسى» يلقب بلقب الكحال. وكان العرب يقطرون مختلف أنواع الزيوت في أوان فخارية مزججة. ومن أكبر الأدلة التي تؤيد مدى نشاط العرب في الحقل الكيميائي هذه الاصطلاحات الفنية التي لا تحصى والتي ما زالت إلى اليوم مستخدمة بالرغم من عروبتها، وقد جاءت طريقها إلى مختلف اللغات العالمية، ولا يقتصر استخدامها على الكيميائي فقط بل حتى ربات البيوت أيضاً. ومن هذه الألفاظ: كيميا، الكيميا، الإنبيق، الشب، العصارة، والحنظل، والعصارة القلي، الكحل، الأثال، الملغم، النيل، الإثمد، العرق، لازورد، بدوار بنزين، لبان جاوي، بازهر = بنزهير، بورق، ترياق، درياق، (مكان) الدرايق، إكسير قلي، قلفثار، لك، نظرون، رهج الغار، صداع، طلق. . ومما هو جدير بالذكر أن الكيميائي كان عند إجراء تجاربه قد

تتبقى لديه بقايا تصلح للعلاج فكان الرازي أول من استخدم الكيمياء لخدمة الطب، وهذا ما لجأ إليه فيما بعد «باراسيلسوس». لقد تنبه الرازي إلى أنه عن طريق تحسين وتشكيل المواد الأولية الطبيعية يحصل على أدوية جديدة لا توجد في الطبيعة، وبذلك رفع من شأن الكيمياء الطبية وساوى بينها وبين الأدوية المستخرجة من النباتات. لكن قبل استخدامها كان الرازي يجرب هذه العقاقير الناتجة عن تركيبات صناعية وبطرق صناعية في الحيوان. هكذا نجد التركيبات الزئبقية التي تطورت واستخدمت في العلاج، كما استطاع عن طريق التجارب التي أجراها على الحيوان استكمال استخدام الأفيون والحشيش من الناحية العلاجية وبخاصة في التخدير. ومن المواد العلاجية والأدوية التي أوجدها الرازي هذا الصنف الذي ما زال يحمل اسمه في فرنسا ويعرف باسم «بلانك رازي»، وقد تطورت هذه التسمية في فم الشعب وأصبحت «بلانك ريزين» أي العنب الأبيض. ويدين الطب أيضًا للكيمياء العربية للوصول إلى عدد كبير جدًا من الأدوية مثل الشراب المستخرج من تقطير بعض الأعشاب والمن أو السكر. وهذا النوع من الأدوية يلعب دورًا خطيرًا في شفاء كثير من الأمراض، وذلك لأن شراب الجلاب وهو هذا الشراب الحلو المرطب أكثر رقة عند طبخه وإعداده من الشراب العادي. كذلك الفواكه المقنّدة في عسل أو سكر أو أجزاء أخرى من النباتات، لقد عرفتها أوربا عن طريق العرب فلفظ (قند هو لفظ عربي بمعنى سكر). كذلك يطلق الرازي على نوع من أدوية علاج العيون «سيف» وهو يتعاطى في شكل ملبس، وقد تمكن الرازي من تحويل شراب الرب وهو هذا العصير النباتي إلى حبوب، وذلك عن طريق طبخ العصير؛ وبذلك جعله سهل التناول في الطريق وأثناء السفر. وأدرك الرازي بعض المتاعب التي يقاسيها المرضى من جراء

تجرع الدواء المعروف باسم «رب» فقد كان رديء الطعم، لذلك لما حوله إلى حبوب كساه بطبقة حلوة من السكر أي جعله ملبسًا كما هو الحال اليوم. من هذا النوع المعروف في أوربا باسم «دراجا» وإلى الرازي يرجع الفضل في استخدام عصير الفواكه وطبخه وإضافة العسل أو السكر إليه ومواد أخرى، وصنع منه ملبسًا، وذلك بصب هذا الخليط بعد طبخه على رخام وتشكيله حسب المطلوب. أما العادة السائدة اليوم والخاصة بتذهيب أو تفضيض الحبوب (البلوعات) فترجع في الواقع إلى ابن سينا، وذلك لأنه كان يعتبر الذهب والفضة من المواد المنبهة للقلب أو الدورة الدموية، لذلك استخدم الذهب والفضة لكساء أو طلاء الحبوب التي تبلع. وقد أظهر العرب براعة فائقة في إعداد الأربطة واللبخ والمعاجين والمساحيق، هذا عدا علاج الالتهابات التي تحدث تحت الجلد أو الخراجات ومختلف أنواع الأمراض الجلدية وسائر الجروح ووقف الأوجاع ومنع تقيح الجروح حيث أوجد العرب المضادات الحيوية على أساس البنسلين والإسبرجليوس وغيرهما من المواد التي لم نعرفها إلا منذ عهد قريب، كذلك استخدام النبيذ وهو لا يقل فائدة عن غيره، والبن المطحون، وقد أحضر هذه الطريقة إلى أوربا كيماوي ألماني وأطلق عليها «فحم البن». وقد ذكر أن العرب أنقذوا منذ ثلاثين عامًا حياته بالبن، ومن ثم استخدم البن في ألمانيا في شفاء الالتهابات المزمنة وقد جاء بنتائج عظيمة. وقد حضر العرب أيضًا معاجين تجفيف الجروح تمامًا مثلها مثل اللبخة أو الرباط اللاصق. ومن الواضح أن مثل هذا الدواء الذي يشفي مختلف الأمراض كان يحضر بنفس الطريقة التي تستخدم اليوم في المعامل الحديثة، إن هذا الدواء فوق ما يتصوره الإنسان وهو يتطلب معرفة خاصة ونشاطًا خاصًا ومهارة خاصة من الشخص الذي يقوم بتحضيره. وفرق العرب كذلك بين الذين يعدون

الدواء وأولئك الذين يأمرّون بإعداده وبتعبير أدق لقد أوجد العرب الصيدلي ومهنة الصيدلة. فالصيدلي بدراسته والمسئولية التي يتحملها يمتاز على تاجر الأدوية العادي في العصور الأولى، لذلك كانت منزلة الصيدلي منزلة عالية رفيعة. وقد أسس العرب أول صيدلية عامة في القرن الثامن الميلادي، وكان ذلك أيام حكم الخليفة المنصور، فكان كل مستشفى يحتوي على صيدلية كاملة شاملة، وكانت أخرى في جنديسابور. وأوجد العرب أيضاً صيدليات محمولة ترافق المستشفيات المحمولة. وكانت الصيدليات وما إليها من مستشفيات محمولة عسكرية خاضعة منذ عهد الخليفة المأمون في القرن التاسع الميلادي للرقابة الحكومية، وكما كان يوجد أيضاً نقيب للأطباء، كذلك الحال مع الصيدلة إذ كانت توجد في كل مدينة نقابة للصيادلة لها نقيب، كان يختبره الصيادلة ويمنحهم الشهادات التي تخول لهم حق ممارسة المهنة، وقد كان ابن البيطار نقيباً للصيادلة زمناً طويلاً في القاهرة وخلفه «الكوهين العطار»¹، وهو مؤلف كتاب ما زال إلى اليوم مشهوراً موجوداً في الشرق مستخدماً في الصيدلة. وكانت الصيدليات خاضعة لتفتيش حكومي دقيق، فقد كان يراقبها موظفون من مصلحة الصحة، كما كانت تخضع في نفس الوقت لرقابة التموين وهي الرقابة التي كانت تشرف أيضاً على الطحانيين والخبازين وتجار البن ومحلات المواد الغذائية مطالبة بمراعاة النظافة: نظافة المحال والأواني، وجودة البضاعة ودقة الموازين والمكاييل واللحوم في المذابح الواقعة خارج المدن والجزارة

1 تعني المؤلفة كتاب الدستور في العلاج البرئي، ويعرف بالدستور البيمارستاني لأبي الفضل داود بن أبي نصر، أو البيان لكوهين العطار المتوفى عام 634 هـ.

تجنبًا لوقوع تسمم في الأغذية أو انتشار وباء. وعند تحضير الأدوية يجب على الصيدلي أن ينفذ التعليمات المطلوبة بكل دقة، فهو مقيد بقوانين رسمية تتصل بالتحضير والمواصفات الطبية لأمثال: ماسويه وسابور بن سهل والعنتري وابن التلميذ وآخرين. إن مراعاة القواعد الصحية والصحة العامة صورة مثالية احتذتها أوربا ففي الشرق نجد التعليمات الخاصة بتأسيس المستشفيات وتنظيمها والعناية بها خيرًا ألف مرة من مثيلاتها في أوربا، والتي أمر البابا جماعة روح القدس بتشبيدها. أما موضوع تنظيم جماعة الأطباء والصيدالة فقد وضع في أيدي رجال يقظين حريصين مدركين لحاجة المرضى، كما أدركوا مباشرة الفوائد والمنافع الجليلة للتقدم العربي، ولم تحل العقائد الدينية دون إدراك هذا كما أن هذه العقائد لم تغلق عقولهم. وحصل اللقاء في صقلية التي خضعت لحكم العرب مدة لا تقل عن 250 سنة، لذلك أدخل العرب إلى البلاد الأنظمة والقوانين واستقرت في البلاد، ولما جاء الملك النورماني روجر الثاني دعم وثبت ما وجده. ففي عام 140 أصدر قانونه الخاص باعتبار الأطباء، كما فعل من قبل الخليفة المقتدر في بغداد لكيلا تتعرض حياة الرعية للخطر لجهل الأطباء أو قلة خبرتهم. وفي عامي 1231 و 1240 قيل عن القيصر فريدريش الثاني بعد أن استقر له الأمر إنه يفهم كل داء وكل دواء، لذلك كان في نشراته الطبية يرمي إلى إقرار جميع القوانين والأنظمة التي كانت سائدة بين الأطباء والصيدالة العرب المستوطنين في مملكته في صقلية. وهذه المذشورات هي غالبًا تكرار لقوانين روجر الخاصة بامتحان الطبيب على يد مجلس من المدرسين في سالرنو، ومبالغة في جودة التحصيل زادت مدة الدراسة وأصبحت ثمانية أعوام، كما أن السماح للطبيب بمزاولة الطب كان يمنح عن طريق مندوب للقيصر وفي حضوره الشخصي. وهنا

أيضًا كما هو الحال في الدولة العربية نجد الحرص على الفصل بين الطبيب والصيدلي، كما نجد عناية كبرى توجه للإشراف على الصيدليات، وتحضير الأدوية والتعاليم الخاصة التي تحتم وجوب اتباع كتاب صيدلة رسمي والعمل بما جاء به. فهذا الكتاب كان يستخدم كمرشد لإعداد الأدوية، ووجوده يؤيد قيام هيئة للصيادلة والصيدليات عامة، وهذا ما يفترض القانون وجوده. وفي الجهات الأوروبية الأخرى كانت مثل هذه التعليمات موضع الاستنكار والعجب، إذ إن الدولة وليست الكنيسة هي التي تولت الإشراف على الحالة الصحية العامة، كما أننا نجد القيصر هنا سلك مسلك الخليفة والسلطان في الشرق وهو الذي يشعر كذلك بالمسؤولية وجوب النهوض بها للفائدة العامة من الناحية الصحية للرعية، وكان يدقق في وجوب مراقبة السماح للأطباء بمزاولة المهنة ويشترط في الطبيب الشرف والضمير والمهارة الكافية. ويجب أن يقسم الطبيب والصيدلي قسما أمامه، كما راقبت الحكومة الصيدليات، وفقدت الطائفة الدينية كل سلطان خاص، وكان هذا تحديًا صريحًا للكنيسة، كما أدرك هذا البابا جريجور التاسع ولم يسعه إلا أن يلتزم الصمت أمام القيصر وتحديه وبعض المساوئ التي يقترفها. ثم أصبحت قوانين فريدرش الثاني هي الأساس الذي اعتمدت عليه القوانين الطبية فيما بعد، وهكذا نجد الخطوات الأولى تتخذ في أوروبا، وفي العصور الوسطى المظلمة في سبيل الدخول في عصر جديد، وبفضل هذه القوانين وتلك الخطوات فقط نستطيع أن نقول إننا الآن حديثون متقدمون، كما أن الواقع أن القنطرة التي عبرتها أوروبا لبلوغ هذه المرحلة شيدها العرب في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. فتأسس الصيدليات عامة وافتتاحها وإيجاد جماعة الصيادلة ومهنة الصيدلة بالمعنى العربي والمعنى الحديث في هذا المعنى العربي ظل فترة ما

قائماً في شمال الألب. ففي الوثائق القديمة نجد لفظ «أبوتيكاً» يستخدم للدلالة على حانوت العطار، وفيما بعد استخدمت هذه الكلمة للتعبير عن الصيدليات في معناها الحديث. وتحدثنا المصادر العربية أيضاً أن فكرة تركيب الدواء اعتمدت قبل كل شيء على مجموعة الوصفات الرسمية، وهي المعروفة باسم «فرما كوبيين» وهي التي يتحتم على الصيدلي مراعاتها والعمل بها وقد ظلت متبعة حتى القرن السابع عشر إذ كان الصيدلي يجهز الدواء حسب هذه المجموعة. وعن طريق التجارة وبخاصة مع البندقية انتقلت العقاقير والأدوية العربية إلى أوروبا. وساعد على نشر الصيدلة في أوروبا قرب صقلية العربية من أوروبا أولاً وترجمة قنسطنطين الإفريقي للكثير من كتب الطب العربية ثانياً، ولم يقف أثر هذه النهضة على صقلية وجنوب إيطاليا بل بلغ وادي الرين كما هو ثابت من مؤلفات «هيلدجارد فون رينجن»، وبعد وفاة قنسطنطين بزمان قصير نجد عميد مدرسة سالرنو وهو «نيكولوس بريبوزيتوس» يضع كتاباً في المواصفات العلاجية على غرار الكتب العربية، وظل هذا الكتاب مستعملاً لأجيال كثيرة من الصيادلة الذين ظهروا فيما بعد كما أصبح مثل كتاب «سركا إنستنس» الذي كان يستخدم كثيراً، وهو يشمل على المواد المضادة لعالم آخر من علماء سالرنو. ولم يقف الأثر العربي عند هذا الطريق بل شق طريقه إلى أوروبا أيضاً عن طريق بيزنطة، وذلك بفضل مؤلفات (شمعون زيت) و «نيكولاوس ميريبسوس» التي كانت متأثرة تأثيراً قوياً بالمؤلفات العربية. وقد رحلت هذه الكتب البيزنطية إلى دور كتب الصيدلة في أوروبا، ومن هذا الطريق أيضاً أثرت الثقافة العربية في الصيدلة. ومن الجدير بالذكر أن الثقافة العربية في ذلك العصر كانت قد بلغت شهرة عظيمة جداً في أوروبا حتى إن الأطباء في شمال إيطاليا إذا ما أرادوا رفع قيمة مؤلفاتهم نسبوها إلى

العربي ماسويه الصغير من بغداد وأنه هو مؤلفها وهو فيما يقال تلميذ ابن سينا الشهير العظيم فنسبوا كتابهم الخاص بالمضادات إلى المؤلف الذي صاغوا اسمه صياغة لاتينية ألا وهو «جرايادين ماسويه الصغير»، وهكذا ضمنوا الشهرة لكتابهم، وهذا دليل من الأدلة الكثيرة على محاولة تقليد الاستفادة من الصيدلة العربية. ثم نجد العلوم العربية تخطو خطوات واسعة تكاد تكون خيالية، والفضل في ذلك يرجع إلى كيمائي مجهول عاش في القرن الثالث عشر، ومن إنتاجه العلمي نتبين إلمامه التام بجميع المراجع العربية. وقد اشتهر هذا الكيمائي العربي باسم «أبقراط الكيمياء» وهو «جابر» وفي اللاتينية «جبير»، وقد فطنت إلى مكانته العلمية سائر الهيئات حتى الأوروبية منها وصار اسمه في العربية ضمناً علمياً رفيعاً لكل بحث من البحوث، وأن البحث بعيد عن التهويش والسفسطة. لكن شهرة كل من الرازي وابن سينا الشعبية العامة كان يجب استغلالها ليحظى بالوصول إلى الهيئات العلمية العليا ومختلف الدوائر العلمية العربية التي كانت تقدر الرازي وابن سينا. فالمعروف أن ابن سينا كان خصماً عنيداً للكيمياء، والذي حدث أن أية محاولة لكسب أصدقاء وأنصار للمؤلفات الكيميائية التي تحمل اسمه كانت محاولة رابحة. ولعل أول كتاب في الصيدلة بالمعنى الحديث هو ذلك الذي صدر لمؤلف تسمى باسم عربي، وهو طبيب إيطالي كان يدرس الصيدلة في القرن الخامس عشر في مدرسة سالرنو، فقد تسمى هذا الإيطالي باسم «صلاح الدين» وكان يحترم ويقدر أولئك الذين كانوا يشجعون العلم والعلماء والذين كان هو في خدمتهم، فاقترح الاستفادة من تلك الكتب التي لا يستغني عن اقتنائها صيدلي، وكان ثلثاً عدد هذه الكتب التي يجب أن تتكون منها المكتبة الصيدلانية عربياً. ولا عجب في هذا فالخمس المشهورون في العلوم الطبيعية في أوروبا في العصور الوسطى

كانوا يقومون على أكتاف العرب. وهؤلاء الخمسة هم الفرنسي «فنسنت ده بوفيه» وقد توفي عام 1264، والأسبانيان «ريموندوس للوس» (1232 - 1316)، و «أرنلد» أحد أبناء «فيلا نويفا» (1235 - 1312) ثم الجراف الألماني «ألبرت فون بولشتيدت» (1193 - 1280)، وهو يسمى «ألبرتوس مجنوس»، والإنجليزي «روجير بيكون» (1214 - 1292) وكانوا جميعهم يدرسون في باريس مؤلفات كبار العلماء العرب. وقد أقبل جميعهم على دراسة الكيمياء، وقد أعمتهم فكرة البحث عن حجر الحكمة الذي يحول المعادن ذهبًا، وكذلك أثره في إطالة العمر. وكان العرب هم المرجع الوحيد لهؤلاء الباحثين عن حجر الحكمة، وكان هذا بدهيًا، لذلك كان هؤلاء الكيميائيون في حالة تصوف ويقظة مثل «ريمون ليل» أو «ألبرت» الذي كان يتظاهر بالسعي وراء العلم والحقيقة العلمية فقط. ولم يهتد أولئك العلماء إلى نتائج جديدة أو مستقلة، وقد انتهت جميع محاولاتهم إلى تأييد ما توصل إليه العلماء العرب، وكان الأوروبيون عبارة عن مترجمين فقط. اثنان من بين هؤلاء العلماء حرصا على الاستقلال العلمي وحرية البحث، وهذا الاثنان نظرًا إلى الصيدلة العربية والكيمياء العربية على أنهما مادة حية وهذه المادة يجب أن تخضع للبحث والتجارب، وبذلك فقط يستطيع إنقاذ الصيدلة والكيمياء والعلوم العربية من الضياع. فهذا العالمان المتحرران اللذان سارا في نفس الطريق الذي سبقهما إليه الرازي، هما «روجير بيكون» و «أرنلد» المنتسب إلى مدينة «فيلانويفا». لكن من الناحية العلمية لم يتفوق «بيكون» على زملائه المعاصرين ففكرة التجربة أخذها عن العرب لكن أخذها نظريًا أكثر منها علميًا، وهذا هو المرشد الذي هدى اللاحقين من العلماء إلى الاتجاه إلى الكيمياء التجريبية. لذلك كان كل من «روجير بيكون» و «أرنلد» في عصرهما كالنجمين الساطعين

الذين خرجا من العصور الوسطى المظلمة إلى النور، فهنا نجد هذه الروح التي انبعثت من حكمة الوزير العربي الطبيب الشاعر ابن الخطيب الغرناطي حيث قال في صدد الحديث عن العلم: «ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة، والتدرب في طرق النظر وتصحيح الأدلة، وهذه هي الغاية القصوى في الملة ..». إن الأثر المباشر للعرب على أوروبا في الصيدلة ظل طيلة عصري الإنسانية والنهضة، بل ظل تأثيره قائماً حتى القرن التاسع عشر. ففي عام 1758 أعيد نشر أجزاء من مفردات ابن البيطار. وفي عام 1830 استخدمت مراجع عربية كمصادر أساسية للصيدلة والوصفات العلاجية الأوروبية. وفي عام 1832 أعيد نشر كتاب عربي فارسي يرجع إلى القرن الثاني عشر وقد جمع هذه المخطوطة الأرمني «مخيثار». ثم تنقطع الصلة الأدبية. لكن حتى اليوم فكل مستشفى بنظامه وكل معمل كيميائي وكل صيدلية وكل مخزن أدوية إنما هو نصب تذكاري للعبقريّة العربية. وكل حبة مسكرة أو مفضضة إنما هي تذكّار صغير مرئي من الطبيبين العربيين العظميين وأستاذي أوروبا ألا وهما الرازي وابن سينا.

الكتاب الخامس سيوف العقل

المعجزة العربية

العام ألف. . . والآن ينشر تاجر الكتب البغدادي ابن النديم فهرسه الذي يقع في عشرة مجلدات تشتمل على أسماء جميع الكتب التي ظهرت

حتى ذلك الحين في اللغة العربية، سواء في الفلسفة أو الفلك أو الرياضيات أو الطبيعة أو الكيمياء والطب. وكذلك نجد طلاب العلم من الشرق والغرب بل من أوربا يقصدون المدارس العليا بقرطبة التي ذاع صيتها في العالم قاطبة وفيها المكتبة التي تضم نحو خمسمائة ألف كتاب لأحسن علماء العصر، وقد جمعها الخليفة الحكم الثاني قبل وفاته بنحو أربع وعشرين سنة، وذلك عن طريق التجار والرسل الذين أوفدهم إلى مختلف الحواضر العربية لاقتنائها، ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة قد علق على هوامش الكثير من هذه الكتب. وفي القاهرة نجد مئات من أمناء داري الكتب التابعتين للخليفة، وبهما نحو ألف ألف ومئتا مجلد، أعني بهما عشرون مثلاً مما كان في مكتبة الإسكندرية. «والحقيقة التي يمكن الجهر بها أنه لم يوجد في روما شخص له مثل هذه الثقافة التي تمكنه من أن يقف حارساً، فكيف يستطيع أن يعلم ذلك الشخص الذي لم يتعلم هو نفسه»، هكذا شكّا هذا الرجل الخبير ألا وهو «جربرت فون أوريلاك»، وهو الذي جلس عام 999 م على كرسي روما، على كرسي القديس بطرس. في ذلك العام ألف أبو القاسم كتابه الخالد في الجراحة، هذا الكتاب الذي ظل قروناً عديدة أهم مرجع بل المرجع الوحيد في هذا الفن، كما عالج البيروني -أرسطو العرب- دوران الأرض حول الشمس، واكتشف ابن الهيثم قوانين الإبصار كما أجرى تجاربه على آلة تصوير مظلمة مستخدماً مرآيا وعدسات مخروطية وأسطوانية وكروية. في ذلك العام وهو عام التحول في العالم العربي إذ أذنت شمسُه بأقول كانت أوربا ترتجف خائفة هلعة تخشى وقوع نهاية العالم فكانت تصرخ مولولة: «الآن سيأتي المسيح وينظم الكون بقوة النار» وحج القيصر الشاب «أوتو» الثالث وهو ابن عشرين عاماً تكفيراً عن خطاياہ التي اقترفها واستجابة لأوامر القديس «رومولادوس»، وكان القيصر في

حجه عاري القدمين، وقد قطع المسافة بين روما وجبل «جرجانوس». وفي نفس العام كان الشاب ابن سينا قد بلغ العشرين من عمره، وقد أخذت شهرته تغزو العالم. إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التي نهض بها أبناء الصحراء ومن العدم من أعجب النهضة العلمية الحقيقية في تاريخ العقل البشري. فسيادة أبناء الصحراء التي فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة في نوعها، وإن الإنسان ليقف حائرًا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة، هذه المعجزة العقلية التي لا نظير لها والتي يحار الإنسان في تعليلها وتكييفها. إذ كيف كان من المستطاع أن شعبًا لم يسبق له أن يلعب دورًا سياسيًا أو ثقافيًا من قبل يظهر بغتة إلى الوجود ويسمع العالم صوته ويملي عليه إرادته ويفرض عليه تعاليمه، وفي زمن قصير أصبح نداءً لليونان. إن هذه المنزلة التي بلغها العرب أبناء الصحراء لم تبلغها شعوب أخرى كانت أحسن حالا وأرفع مكانة. إن بيزنطة الوريثة الغنية لا للشرق القديم فحسب بل للثقافة اليونانية أيضًا لم تنتج شيئًا وظلت حتى اليوم عاقرة. والسريان وهم تلاميذ اليونان الحقيقيون وصلتهم الثقافة اليونانية كما وصلت العرب، فترجم السريان كثيرًا من المؤلفات اليونانية إلى لغتهم السريانية إلا أن السريان لم ينهضوا بما ترجموا، ولم تتفتق هذه الترجمات وتلك العلوم عندهم عن حركة علمية أو نهضة ثقافية عالمية. كما أن هذه النهضة العلمية لم تنبعث أيضًا في إيران التي كانت ملتقى الثقافات الصينية والهندية واليونانية، فقد استقبلت إيران كل هذه الثقافات ولم تطورها بالرغم من أن بيئتها الطبيعية وحالتها الاقتصادية ومستواها الثقافي تساعد على هذا التطور. لكن الملاحظ أن العقلية الإيرانية لم تنتج ولم تتطور ولم تنهض إلا عندما وجدت بيئة أخرى وخضعت لمؤثرات ثقافية خاصة. ليست بيزنطة وليست بلاد السريان وليست إيران التي كانت القنطرة التي

تصل بين الثقافتين الشرقية والغربية ليست جميع هذه البلاد هي التي ظهرت على المسرح الثقافي العالمي كحاملة لمشعل الثقافة القديمة ومكملة لها. أما الشعب الذي خلف الثقافة القديمة وحمل لواء النهضة العلمية الفكرية في العالم فهو شعب صحراوي خرج من الصحراء وبسرعة البرق قبض على صولجان السيادة الثقافية في العالم، وظل أبناء الصحراء حاملين لهذا الصولجان دون منازع مدة لا تقل عن ثمانية قرون، كما أن هذه الثقافة العربية قد تفتقت وازدهرت وأينعت أكثر من الثقافة اليونانية، كما كان العرب أخصب وأقوى من اليونانيين. فما هي خصائص العرب التي أهلتهم إلى هذا؟ ما هي صفاتهم وما هي مميزاتهم التاريخية والاجتماعية والعقلية والنفسية التي تجمعت معًا فجاءت العالم بالمعجزة العربية؟ وشن العرب حربًا خاطفة ساقطت العالم في زمن قصير إليهم أسيرًا كسيرًا. والعرب هم آخر موجة من موجات هجرات الشعوب التي حدثت في فترات متفاوتة منذ أبعد الأجيال والعصور متخطية حدود الصحراء إلى الأراضي الخصيبة، فكسر سد مأرب عام 542 وضياح وسائل الري في بلاد العرب الجنوبية دفع القبائل إلى الرحيل وساعدهم على ذلك موقعهم بين شقي الرحي وتعرضهم للحروب الطاحنة التي كثيرًا ما شنت في بلادهم بين فارس وبيزنطة فاضطرت هذه الحروب القبائل العربية إلى الهجرة وترك القارة. وقد صور بعض المؤرخين المغرضين هذه القبائل على أنها عصابات من اللصوص وقطاع الطرق، لكن الحقيقة غير هذا وما دفع هؤلاء المؤرخين إلى هذا الافتراء إلا الاختلاف العقائدي. ولم يمض على هذه القبائل المتخاصمة المتحاربة زمن طويل حتى أصبحت وحدة قوية نجحت في تكوين أمة يخشى بأسها، وذلك بفضل الدين الإسلامي الحنيف الذي أشعل في نفوسهم الحماس والشعور بالأخوة بعد أن سادت بينهم الفرقة والحزازات

القبلية زمنًا طويلاً؛ أما الإسلام فقد آخى بين معتنقيه وخلق منهم الأخوة الإسلامية التي رجعت بتاريخهم إلى عصور بعيدة، هذا إلى جانب الدعوة الإسلامية الخلقية والفرائض الدينية القوية التي آخت بين المسلمين وجمعت شملهم ووحدت صفوفهم؛ مما دفع المسلمين إلى التفاني والاستشهاد في سبيل نصره هذه العقيدة والذود عنها، فقد وعدت هذه العقيدة الجديدة المتقين بالجنة، فهذه القوة الخلقية الفتية إلى جانب القيادة الحكيمة القوية وهؤلاء الصحابة الذين اصطفاهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - كونوا النواة الصالحة لحكومة مركزية حكيمة رشيدة مسئولة عن الكيان الجديد للأمة العربية الإسلامية، وكان الجيش الإسلامي بالرغم من نقص عتاده مظفرًا في حروبه وفتوحاته فأحرز النصر تلو النصر. ولما انتقل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام 632 م إلى الرفيق الأعلى كانت بلاد العرب وحدة سياسية. ففي عام 635 م تشنت شمل جيش بيزنطة، وبعد ذلك بعامين أعني سنة 637 سقطت مصر. ولما اختار الله عمر بن الخطاب إلى جواره حلت فترة ركود، لكن في أواخر القرن السابع الميلادي كانت السيادة العربية قد بلغت شمال إفريقيا وامتدت حتى المحيط الأطلسي، وفي عام 711 م بينما كان العلم الإسلامي ينتشر شرقًا مرفقًا حتى الهند، انقض المحاربون المسلمون على دولة الغوط الغربية في إسبانيا واستولوا عليها بالرغم من قلة عدد المسلمين وعددهم بالنسبة لأعدائهم. وعاون على ذلك عدم الإخلاص لروندريق وبغض رجال الدين له لاستبداده، وهكذا فتحت الأبواب للمسلمين وبدون معركة هامة استولى المسلمون عام 720 على «ناربون» وعام 725 على «كركاسون» و «نيمس»، واستمر المسلمون في زحفهم وتغلغلهم في اتجاه نهر الرون حتى بوردو. وفي عام 732 فقط استطاع «كارل مارتيل» أن يقف أمام هذه الجحافل

المتدفقة ودارت عند «تور» و «بواتيه» معركة، وأثناء الليل عاد المسلمون أدراجهم ومعهم جثة قائدهم عبد الرحمن الذي سقط قتيلًا وتحصنوا عند «ناربون» حتى اضطر «كارل مارتيل» بعد اثني عشر عامًا أن يشتبك مع المسلمين عند «أفينيوس» و «نيميس» دون أن ينجح في إجلائهم عن دولته، وذلك لأنه كان في إقليم «بروفينس» وغرب الألب وإقليم أكويتانيا، أي في البلاد التي نجد فيها فيما بعد حقلاً خصيباً للثقافة العربية ولمدة قرن من الزمان. وحتى في منتصف القرن العاشر نجد المسلمين يستجيبون لنداء الملك هوجر ملك اللومبارد، ويتقدمون في البلاد فيبلغون «أنجادين» حيث نجد «بونتر يزينا» و «بونس ساراسينا»، أي قنطرة المسلمين التي ما زالت إلى اليوم قائمة تحمل ذكرى أولئك الأجانب العظام. ثم نجد العرب يتغلغلون في إيطاليا ولمدة قرنين وبقوة ونجاح، وقد بدا وكأن روما الأم لا بد أن تشاطر أسبانيا الهزيمة والضياع، فمن صقلية اندفع العرب حتى استولوا على إقليم «أبوليا» و «كالبريا» واستطاعوا تهديد روما والبندقية المنيعه، وكان هذا الزحف العربي استجابة لرغبة نابولي و «الجراف فون بنيفينت». وقد ظل العرب حتى عام 915 يتناوبون السيادة على جنوب إيطاليا وجميع الجزر الواقعة في غرب البحر الأبيض المتوسط، هذا البحر الذي أصبح بحرًا عربيًا اللهم إلا الجزء الشرقي الذي كان خاضعًا لبيزنطة. نعم لقد ظل جذع الدولة الرومانية الشرقية قائمًا إلا أن أهم أغصانها أعني مصر وسوريا قد قلمت. إن بيزنطة أصبحت رجلاً مريضًا لا يقوى على الحركة. لكن هذه الفتوحات العربية كانت غريبة في نوعها حقًا، وإذا ما استثنينا الملك الفارسي «كيروش»، فالفتوحات الإسلامية كانت فتوحات لم يقصد المنتصرون من ورائها القيام بأعمال النهب والسلب أو العنف والتخريب وكل ما يذكر عن تعصبهم الأعمى

أو قسوة قلوبهم وخشونة طباعهم وبربرية أعمالهم كذب وافتراء وهو يدخل في باب الأساطير التي تؤلف لإلقاء الرعب في نفوس الناس، وأنها دعاية من صنع أعداء العرب وخصومهم. ولا أدل على بطلان هذه الشائعات وتلك الأضاليل من هذه الصفات التي اتصف بها العرب الفاتحون من إنسانية رفيعة وتسامح تضرب به الأمثال، فهذه الإنسانية وذلك التسامح أثبتا للمهزومين كذب هذه الدعاية المغرضة وسوء نوايا مروجيها ضد العرب. كم هذه الشعوب التي عرفها التاريخ وقفت من المغلوبين المهزومين الذين يدينون بدين أو أكثر يخالف دين المنتصرين موقف العرب المتسم بالإنسانية والتسامح؟ وإذا أضفنا إلى هذا الموقف الكريم الذي وقفه العرب والإسلام من الشعوب التي انضوت تحت رايته هذه المثابرة على نشر الثقافة العربية الإسلامية وهي ثقافة تختلف في جوهرها عن هذا الطلاء الهليني أو القشور الرومانية ازددنا تقديرًا وإعجابًا بالعرب. نعم إن الدولة العربية الفسيحة المترامية الأطراف قد تفككت إلى دويلات لكن حتى هذا التفكك كان إعجازًا عربيًا أيضًا. فكل دويلة من هذه الدولة قد نمت حيث قامت رغمًا من اختلاف التربة والبيئة والشعب أو الشعوب من حيث التاريخ والثقافة والعقيدة، كما هو الحال مثلاً في إسبانيا ومصر والعراق، فقد نجح العرب في خلق ثقافة متحدة قوية الأواصر وثيقة الوشائج. إن الشعوب صاحبة الثقافات القديمة قد هرمت وتجمدت مياه الحياة في شرايينها حتى أصبح من الضروري فنائها. ففي القرنين الثالث والرابع الميلاديين أخذت تلفظ أنفاسها الأخيرة وتتلأشى من على مسرح الحياة تدريجيًا، وإذا أضفنا إلى جميع هذه العوامل موقف الكهنوت المسيحي من الحكمة اليونانية وإصرار هذه المسيحية على القضاء عليها وإعدامها، أدركنا الوضع الذي كانت عليه تلك البلاد أولاً ومدى الخطر المحدق بالتراث اليوناني القديم ثانيًا

والموت المحقق لهذه العلوم ثالثاً، ولكني كأني بالعناية الإلهية قد أرادت لهذا التراث الإنساني الحياة فبعثت أبناء الصحراء وقد عمرت قلوبهم بإيمان الإسلام ودعوته الجديدة فسار عوا إلى تلك الحضارات العقلية فأنقذوها مما يتهددها وبعثوها بعثاً جديداً فتياً، ولولا هذا الفتح الجديد لظلت الثقافة القديمة دفينة ميتة يخيم عليها سكون القبر وشحته إلى حين.

أوروبا تائهة في دياجير الظلام

لقد قضى على الثقافة اليونانية واختفت منذ عهد «حنيبعل = هنبال» إلا أن قيام الإمبراطورية ساعد على المحافظة على بقائها شكلاً وإن كانت الثقافة الهلينية بدت في هذه الدولة التي آذنت بزوال وكأنها ثوب فضفاض لا يلائمها، فوجد التنافر والتشاحن بين هذه الثقافة وبين مختلف الأجهزة القائمة، ثم جاء الغزو الألماني فلم يقض إلا على ما يتصل بالأخلاق وكان آيلاً للسقوط حقاً. ثم إن الطبقات الراقية العالية أصبحت لا تشعر بحاجة إلى العلم والثروة العلمية. كما أن الهدف الجديد الذي طمعت المسيحية في تلقينه للفكر البشري وتحقيقه قضى على القيم العلمية والثقافية ومختلف أنواع البحوث، ولو أنها جميعها لم تجد في روما مؤئلاً حقيقياً لها، لذلك انهارت الطبقات المثقفة وتلاشت العلوم والمعارف. كذلك أصبحت ثقافات البحر الأبيض المتوسط مهددة بضربة قاصمة ومصير لا يختلف عن مصير حضارات ألانكا والمايا، ما لم تجد الشعوب الموهوبة القدرة الكافية على الخلق والإنشاء فتبعث هذه الثقافات بعثاً جديداً. وقبل العرب بقرنين سنحت لأوروبا الفرصة للبناء على أنقاض هذه الثقافات البائدة، وبالرغم من ذلك ذهبت عشرة قرون حتى

استطاعت أوروبا التخلص من قائمة الشعوب المتخلفة وبلوغ مرحلة التحرر في الخلق والإنشاء بالرغم من أنها بدأت بخطوات تبعث على الأمل. فللمرة الأولى إبان الثلاثة والثلاثين عامًا التي حكم فيها ثيودريش الأكبر الذي اتصف بالعدل والحكمة تطورت المسائل التي كانت مهددة بالزوال إلى النجاح والتقدم، فبغته ارتفعت أسهم القيم الإنسانية والقيم الثقافية وعادت الكرامة إلى العلماء وشجعتهم الدولة وحننت عليهم، فمدارس القصر الإمبراطوري التي قد عفى عليها الزمن عادت إليها الحياة ثانية وكبرت واتسعت. ففي المحاضرات العامة كانت تدرس أبقراط وجالينوس، كما ظهر أطباء من الغوط المتعلمين ومارسوا دراسة الطبيعة والفلك. واستمرت هذه النهضة العلمية حتى بعد وفاة الملك. «إن إنفاق المال على العلماء أجدى من إنفاقه على الممثلين». هذه هي العبارة التي قررها حفيد الملك المسمى «أثا لاريش» عندما أظهر استعداداه لتشجيع العلم والعلماء، فقد كان هناك عصر نقاهة ونمو يبشر بمستقبل مزدهر، لكن الذي حدث أن هذه الزهرة قطفت وما زالت برعومة، ومن عجائب القدر أن الذين قطفوها كانوا رجالا يونانيين أرسلتهم بيزنطة للقيام بهذه المهمة المشينة. قطفت الزهرة ولم تخلف إلا نبتًا هزيلًا استطاع أن يقاوم عوامل الفناء زمنًا، فقد تناوله رئيس الوزراء «كسيودور»، وقد كان مستشارًا للملك، ومن ثم سلم «كسيودو» النبت إلى جماعة البنديكت للعناية به في الأديرة، فلم يجد النبت في هذه الأرض الرطبة ما يساعده على النمو والازدهار. إن العصر الذهبي للملك «ثيوديريش» كان بصيص النور والأمل الذي خلف قرونًا عديدة من البؤس والشقاء، ولم يكن هو الوحيد. فالفندال إلى جانب الرومان اهتموا أيضًا بالدراسة في مدارس الخطابة والنحو، فالجراف الفندالي «سيجستويس» كان نصيرًا للشعر والشعراء وذلك لأنه هو نفسه كان

يقرض الشعر، وكذلك ملك الإفرنج «شيليريش» الذي ألف شعراً في اللغة اللاتينية كما قرأ فرجيل وشيشرون للملوك الكتاب ملوك الغوط الغربيين وهم «ومبا» و «سيسيبوت» و «شينديسوينث» و «شينتهيل». وفي كل مكان نجد الجرمان قد بدأوا يقبلون على الثقافة الأدبية. وكان بين الغوط الغربيين، كما هو الحال عند الإفرنج، نفر من المثقفين في مختلف الدوائر الحكومية والإدارية بل حتى في الأوساط التجارية، وهؤلاء المثقفون كانوا يلمون بالكتابة والقراءة والحساب وبعض المواضيع القانونية. كذلك جاءنا أنه ظهرت حركات تقدمية علمية أيام حكم اللومبارديين الذين كانوا فيما بعد أول من تخلص من ضغط رجال الدين وساهموا في الأدوار الأولى لظهور الحركة الأدبية بنصيب وافر. ففي كل جزء من أجزاء الإمبراطورية الرومانية كان يحاول الأمراء الجرمان وفي مقدمتهم «ثيودريش» بعث الروح الوثنية القديمة وإعادتها إلى الحياة، وقد حذا حذوهم فيما بعد الخلفاء العرب حفظاً على نقاوة الجنس العربي. لكن الإمبراطورية الرومانية حولت إلى إمبراطورية مسيحية، فقد أعلن أوجسطين تعيين الرئيس المطلق للقوة الروحية، كما أرسلت روما الكهنوتية توجيهات إلى مختلف الجهات التي سبق لها أن أوفدت مبشريها. ففي بلاد الغال وبريطانيا أخذت الثقافة الهلينية تختفي بمجرد وصول رسل روما، وتوارت مع الثقافة الهلينية اللغة اليونانية، وذهبت روما الكهنوتية بعيداً فعملت جاهدة على القضاء على العناصر الثقافية الهلينية القديمة وحتى تلك التي تأصلت فيها من قبل. فالقديس «هيرونيموس» اعتبر مجرد التفكير اليوناني لعنة حلت بالإنسانية، كما ترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية ليقتضي على الفولجاتا وأمثال هوميروس وفرجيل ويطهر العقول من آثارهما، وهكذا نجد الثقافة المسيحية تتجه اتجاهاً خطيراً معادياً للثقافة الهلينية ومقوضاً لها.

فالعقل البشري ليس هو الذي يضيء السبيل أمام النفس البشرية بل الوحي الإلهي. وكانت العقيدة السائدة في العالم المسيحي أن استخدام القوى العقلية ودراسة الظواهر الطبيعية ومعجزاتها عوضًا عن الانصراف إلى دراسة تعاليم الديانات السماوية مفسدة لهذه القوى العقلية، وذلك لأنه إذا كانت الفرصة مواتية لمعرفة الحقيقة عن طريق هذه الدراسات فلا بد أن توجد، «هكذا نادى المعلم الديني لكتتيوس» لكن لما كان هذا الاستعداد غير موجود فلن يجدي ضياع الزمان والمجهود في سبيل الهداية وبلوغ الحكمة». وكما أن الإنسان استغل أنفاض المباني القديمة لتشديد الكنائس، كذلك الحال مع بقايا الفلسفة والعلوم القديمة، فقد استغلت لخدمة المسيحية وأهدافها، فإلى جانب الصراط المستقيم الذي يبلغ الروح الله وجد طريق ضلال، إذ من الممكن الوصول إلى الحقيقة من غير طريق الوحي، وذلك عن طريق أشياء موجودة في الطبيعة، هكذا أعلن «ترتليان»: «وليست رسالتنا هي البحث عن يسوع المسيح فهذا معناه حب الاستطلاع، وذلك لأن الأنجيل بشرت به». ولن نجد هذه الظاهرة أكثر وضوحًا وجلاء من أعمدة الدخان ولهب النيران التي غطت الإسكندرية، هذه المدينة التي ظلت قرونًا عديدة ملجأ الثقافة اليونانية وقلعتها الحصينة فقد تحولت الآن إلى روما، المركز الرئيسي للكنيسة المسيحية. إن سماء الإسكندرية لم تعد هذه السماء الزرقاء الصافية بل عكست عليها لهب النيران المندلعة في مراكزها العلمية الرئيسية التي كانت مركز الإشعاع في دليتا النيل لونًا أحمر قانيًا، وذلك لأن دواوين الشعر اليوناني التي لا تعوض والتراث الأدبي والفلسفي وتاريخ العلوم الهلينية تحولت بين عشية وضحاها إلى أكوام من الرماد بفعل المسيحيين المتعصبين الذين شقوا غليلهم وأرضوا شهواتهم فحرقوا وأبادوا ودمروا كل ما وصلت إليه أيديهم من تراث علمي يوناني اعتقادًا

منهم أنه قد يتعارض والتعاليم المسيحية. ففي عام 48 ق. م. عندما حاصر يوليوس قيصر الإسكندرية التهمت السنة النيران جزءًا كبيرًا من المكتبة الشهيرة الكائنة في «موسيون»، فما كان كليوباترة إلا أنها عوضت هذه الخسارة ببعض الكتب التي كانت موجودة في «برجامون». لكن في القرن الثالث الميلادي نجد عمليات التخريب والإتلاف تواصل عملها دون انقطاع، فنجد بطريركًا مسيحيًا يغلق الموسيون ويطرده علماءه، وفي عهد القيصر «فالين» تحولت عام 316 م جامعة «كيزاريوم» إلى كنيسة، كما خربت مكتبتها وأحرقت محتوياتها واضطهد فلاسفتها بتهمة السحر والشعوذة. وفي عام 391 م حصل البطريرك «ثيوفيلوس» من القيصر «ثيودوسيوس» على إذن بتخريب أكبر مزار في العالم القديم وهو آخر وأكبر أكاديمية علمية، أعني «سرابيون»، كما حرق مكتبته القديمة، ولعمري إنها أكبر كارثة أصابت الإنسانية إذ كانت أكبر ضربة وجهت إلى العلوم العقلية الإنسانية، وإن مصيبة العالم فيها لا تعوض فهي ولا شك مأساة المآسي. ولم تقف أعمال التخريب والحرق والتدمير التي قام بها متعصبو المسيحية عند هذا، بل نجد حتى أشباه الأقوياء يهيمون باقتراف أعمال الاضطهاد والتعذيب ويتخذون من ذلك لا هواية فحسب بل وسيلة للتفاني في المسيحية، فنحن نعلم أن صديق البطريرك الأنطاكي وهو «سيفيروس» يعترف دون خجل كيف أنه وصديقه كثيرًا ما اقترفا، أيام شبابهما في القرن الخامس الميلادي وفي الإسكندرية حيث كانا منضمين إلى هيئة مسيحية، كثيرًا من الآثام والجرائم الخلقية ضد العلماء الوثنيين وضد دور عبادتهم، فقد كسرا أنصاب آلهتهم وخربا معابدهم، وهكذا مجد مراكز الثقافة الهلينية يختفي الواحد بعد الآخر. ففي عام 529 م أقفلت آخر مدرسة للفلسفة في أثينا، وفي عام 600 م احترقت في روما

المكتبة التي أسسها «أغسطس»، كما حرم تدريس أدبيات الأقدمين وعلومهم وبخاصة الرياضيات، وهدمت حتى بقايا المباني القديمة. ولما تقدم العرب نحو الإسكندرية ودخلوها عام 642 م لم تكن بها منذ زمن بعيد دور للمكتب سواء كانت هذه الدور كبيرة أو صغيرة. والتهمة التي ألحقت بعد خمسة قرون بالقائد العربي عمرو بن العاص بأنه هو الذي أحرق مكتبة الإسكندرية الكبرى محض كذب وافتراء، وقد اخترعت هذه الفرية لتساق كمثل من أمثلة الأعمال البربرية والوحشية العربية، وقد ثبت اليوم بالأدلة التي لا تقبل شكًا أنها أكذوبة الأكاذيب. فهذا الفاتح العربي، الذي فتحت له الإسكندرية أبوابها، قد جاء في طريقه بكثير من الأعمال التي تدل على التسامح العربي الأصيل، فقد منع تخريب البلاد وتدميرها، كما سلك مسلكًا غريبًا حثًا على الشرقيين الأقدمين والمسيحيين. «لقد منح سكان البلاد الحرية الدينية في هذا العهد الذي هو مثال عربي حي للعهود والمواثيق العربية التي تعني بالسلام، فقد شملت تلك العهود جميع الرعايا المسيحيين والقسيسين والرهبان والراهبات. لقد منح الإسلام الشعوب المغلوبة الأمان والحماية حيثما دعت الحالة إلى ذلك، كما انصرف عهد الأمان هذا إلى كنائسهم ومسكنهم ومزاراتهم والذين يقصدونها مثل: الجيورجيين والأحباش واليعقوبيين والنساطرة وجميع الذين يؤمنون بالنبي عيسى فجميع هؤلاء يستحقون العناية، وذلك لأنه سبق للنبي محمد أن آمنهم بعهد عليه خاتمه، كما حذرنا من ألا نكون رحماء معهم ونؤمنهم على حياتهم وممتلكاتهم. إن هذه ليست وعدًا جوفاء».

شعار المنتصر

{ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ } [البقرة: 256] هكذا يقول القرآن الكريم. فلن
يجول في خاطر العرب أن يكرهوا الشعوب الخاضعة لهم على اعتناق
الإسلام، فالمسيحيون والصابئون والبارس واليهود الذين عاشوا قبل
الإسلام بمائة عام تحت حكم ملكهم يوسف ضربوا أقصى الأمثلة
وأبشعها فيما يتعلق بموقفهم من أصحاب العقائد الأخرى وجميع هؤلاء
قد منحهم الإسلام حق ممارسة عباداتهم. لقد احتفوا بدور عباداتهم
وأديرتهم وأساقفتهم وربانييهم. هذا عجيب حقاً، إن مثل هذا لم يقع من
قبل، من هو الإنسان الذي لا يستنشق نسيم الحرية بعد الحكم البيزنطي
الجائر القاسي، وبعد هذه الاضطهادات الشنيعة التي جرت في إسبانيا
والاضطهادات المتواصلة التي قاسى اليهود الكثير من أهوالها؟ إن
المسلمين السادة الجدد حماة البلاد وحكامها لم يتدخلوا في مسائل
رعاياهم الداخلية؛ إنهم عادلون هكذا كتب بطريك القدس في القرن
التاسع إلى بطريك استنبول: والمسلمون لا يظلموننا أو يضطهدوننا.
إنهم يمنحون مختلف أفراد رعاياهم من أصحاب العقائد الأخرى كل
حرية في تأدية فرائضهم الدينية أو حقوقهم المدنية متى دفعوا الجزية
وأطاعوا أولي الأمر. فالمسلمون جاءوا ليحكموا لا ليبشروا لكي
يخرجوهم من عقائد الأصلية. إن المنتصرين قد شكوا من كثرة دخول
غير المسلمين في الإسلام وذلك بسبب الجزية ونقصانها، هذه الجزية
التي كان يدفعها غير المسلمين فقط. لكن هؤلاء أرادوا أن يتساووا
بالمسلمين اقتصادياً واجتماعياً، لذلك سارعوا إلى الدخول في دين الله
أفواجاً. وهكذا بدون استخدام قوة أو ضغط أخذ يختفي المسيحيون اختفاءً
الجليد في الشمس، وفي العصور الإسلامية المتأخرة حيث كان

المسلمون مزيجًا غريبًا في مختلف الشعوب أخذت تظهر بعض النعرات الدينية التعصبية. أما العرب الخوض فقد كانوا بعيدين عن الخوض في مثل هذه الخصومات. وهنا نجد التسامح الإسلامي العربي الذي هو مضرب الأمثال يتجلى لنا في صورة تخالف كل المخالفة هذه الصورة التي يتجلى لنا فيها تعدد الآلهة عند الرومان المتأخرين الذين وجدوا مكانًا في مجمع آلهتهم لكل إله مهما كان أصله ونوعه. إن صبر العربي واحتماله وموقفه النبيل من خصومه دينًا وعقيدة له أصوله وجذوره البعيدة التي تتجلى لنا في الفتى العربي القديم. الفتى العربي الجاهلي. تضحية حتى الموت، تضحية لا تعرف حدًا أو ترددًا، وكانت هذه المعاملة الكريمة يتمتع بها الضيف كما يتمتع بها أقرب المقربين إليهم. فنحن نعلم أنه إذا ما أقبل الضيف الأجنبي والذي قد يكون عدوًا للقبيلة فإنه سرعان ما تحتضنه القبيلة وكأنه عضو منها تسري عليها عهودها ووعودها التي تكون القبيلة قد قطعتها على نفسها تعمل بمقتضاها وتحترم نصوصها، وقد يكون هذا الضيف ألد أعدائها. ولما جاء الإسلام أعفى القبيلة من التزامها لأفرادها وحل هو محلها، أعني محل القبيلة، كذلك هذه المعاملة التي كان يلقاها الضيف من أفراد القبيلة لأسباب بدهية تولاهها الآن الإسلام والجماعة الإسلامية، ومن ثم نجد الإسلام ينتهي إلى إنسانية لا حدود لها. لقد أصبحت الفتوة التي يعامل بها حتى الأعداء. إن هذه الفتوة العربية قد تجاوبت مع الفروسية الجرمانية وأثرت فيها أثرًا بعيدًا فهؤلاء الوثنيون (!!) النبلاء «كان النبيل منهم يتجاوز عن النصر الذي يحرزه بحد السيف»، هذا النصر الذي جاهد في سبيله، ويلقي السيف جانبًا ويقدم يده مصافحًا خصمه متجاوزًا عن العوائق القومية والدينية التي قد تكون قائمة، لذلك ليس بالعجيب أن نجد الفارس الجرمانى «فولفرام فون أشينباخ» يشيد بفتوتنا العربية، ويقيم

لها نصبًا عاليًا مخلدًا به جواهرها وعرضها فقال، أولا «الوثني فيرفيز» هو الذي علم بطله «برسيغال» آخر مرحلة من مراحل الفتوة الحقيقية. فهذه الإنسانية الصريحة وسماحة الفتوة والفروسية العربية في مظهرها البسيط الرقيق قد نظرت إليها الشعوب المختلفة والديانات المتعددة نظرة إعجاب وتقدير، لذلك سرعان ما أخذت تنتشر انتشار النار في الهشيم. فالفرق المسيحية النسطورية والمونوفيزيتية مثلا والتي كانت الكنيسة الرسمية، أعني كنيسة الدولة، تحرص على أخذ أفرادها بالصرامة. أخذ أولئك الأفراد يتحررون تدريجيًا من استعبادين: استعباد الدولة واستعباد الكنيسة، كما بدأوا يتطورون ويتصرفون أحرارًا غير مقيدين، وكما أن الزهرة تتجه نحو الضوء الذي ينميها ويغذيها ويبعث فيها الحياة، كذلك أصبح المغلوبون على أمرهم يعملون للانسجام مع حكام البلاد الجدد محتفظين مخلصين لعاداتهم وعقائدهم. فقد أخذوا اللغة وسموا أبناءهم أسماء عربية، ومع مرور الزمن أخذوا يقتبسون مسلم وملابس وعادات العرب وطباعهم، حتى إن الطبيب في بعلبك والتاجر في الموصل والمشرع في غرناطة كانوا يلتقون جميعهم في أسواق القاهرة وحوانيتها كما لو أنهم جميعهم أبناء شعب واحد. ولم يحدث ما حدث نتيجة لضغط أو تنفيذًا لأوامر بل هي الرغبة الملحة في الاندماج في عالم المنتصرين. إن حمل الاسم العربي إلى جانب الاسم الأول المتصل بالعقيدة كان فخر المسيحي أو اليهودي أو المجوسي، وليكن الاسم عبد الله أو محمدًا. وقد كانت هذه العادة متبعة منذ القرن العاشر، ولو أن المسلم لم يفرح في الواقع لاستخدام غير المسلمين لهذه الأسماء العربية الإسلامية المقدسة، ففي استخدامهم لها تجريد لها من قدسيتها. ولو أن الشعوب المغلوبة على أمرها - عدا البربر والأسبان - كان أبناؤها أصحاب ثقافة ومدنية أرفع وأبعد من ثقافة العرب ومدنيتهم، فإن العربي المنتصر كان في

أعين الأغلبية الساحقة -مع استثناء الفرس المثقفين والمدرّكين لمنزلتهم- ليس الشخص الذي لا أصالة له ولا مكانه له. فنبل العربي وتهذيبه الطبيعي ووجاهته التي تثير الإعجاب وجميع هذه الصفات التي يتحلى بها أثارت إعجاب هذه الشعوب كما أثرت فيها تأثيراً بليغاً. ثم إن شعوره بكرامته هذه الكرامة التي ارتبطت بسيادته التي ولد بها كانت كافية لأن تخبر هذه الشعوب على اتخاذها مثالا يحتذى حتى إن كل فرد كان يبذل قصارى جهده للتشبه به أو اللحاق به وبلوغ مكانته الاجتماعية لكي يقال عن هذا الشخص إنه عربي أو مسلم. وهذا الطموح كان دعاية كبرى للعقيدة الإسلامية وهي دعاية لم تقم بها أو تدعو إليها حركة تبشيرية، فأقبل على الإسلام خلق كثير. والذي يؤمن بالإسلام يجب أن يقرأ كلام الله ويرتله في اللغة التي نزل بها الوحي، يجب أن يكتب ويتكلم ويقرأ لغة القرآن الكريم، لغة الشعراء الأقدمين، لغة المنتصر. وبالإضافة إلى جميع ذلك يجب أن نذكر الحقيقة الآتية التي قد يغفلها الإنسان، إن المنتصر صاحب هذه اللغة، أصبح ومنذ زمن بعيد ليس هو الذي ينتمي إلى هذه الطبقة الصغيرة الفاتحة فقط، ففي كل هذه القرون الطويلة نجد العرب يرحلون من الصحراء سائرين في طرق الفتوحات ولا يقفون عند مرحلة من المراحل بل أصبحوا كالموج تدفع الموجة الأخرى، وهكذا أصبح العالم وهو يواجه موجات البدو تندفق غير منقطعة وتتبع كل موجة ووجهة الجميع شمال إفريقية وصقلية وإسبانيا. وهنا نجد العرب يستخدمون سكان تلك البلاد الأصليين في مختلف الحرف والهن، فعملوا كفلاحين وصناع وتجار وموظفين ومعلمين وعلماء بعد أن تعربوا وتطبعوا بالطابع العربي. ثم ظاهرة أخرى ألا وهي أن لغة الدواوين أصبحت عربية، وكذلك لغة التقاضي والسياسة والتخاطب والتجارة والمواصلات والمجتمعات. فمن ذا الذي يستطيع أن يخرج عن

هذه الحالة؟ من ذا الذي لا يبهره جمال اللغة وجرسها ونغمتها الحلوة؟ حتى الجيران قد سحرتهم العربية كما هو الحال مع الأساقفة الأسبان الذين كثيرًا ما شكوا من هذا الوضع مر الشكوى وحتى غير المسلمين كانوا أطوع إلى تعلم العربية ودراستها والعناية بها من غيرهم كراعية لهذه الدولة العربية. وماتت اللغة القبطية، والآرامية لغة يسوع المسيح أخذت تفسح الطريق أمام لغة محمد، كما اضطر الباباوات إلى إصدار القرارات والمراسيم الدينية إلى الأقليات المسيحية في الأندلس في القرن التاسع مترجمة إلى اللغة العربية؛ وذلك لجهلهم اللاتينية. وحتى بعد استرداد إسبانيا وجدت الكنيسة نفسها مضطرة إلى ترجمة العهد الجديد إلى العربية اللغة التي يفهمها المسيحيون بعد تحررهم. فلغة القبيلة أصبحت في غضون قرن من الزمان لغة عالمية. لكن اللغة شيء آخر غير أن تكون مجرد وسيلة من وسائل التفاهم، لقد اكتسبت صيغتها وكيانها عن طريق الجماعة وهي بدورها تؤثر وتعمل في تكييفها وتكوينها، فقد عرفت كيف تكوّن أفكارها وتعبيراتها وصيغها. وبالاختصار عرفت اللغة كيف تكوّن العقول وتكيفها. إن اللغة العربية تعبر عن الحياتين المادية والروحية وتطبع كلا منهما بطابعها الخاص كما أنها جانست بين سكان القارات الثلاث وخلقت منهم خلقًا متجانسًا ذا طابع واحد خاص، وحتى الأجانب مثل الترك والسلاجقة والمماليك والتتار عندما آل إليهم السلطان خضعوا جميعهم لحما ودما للثقافة الإسلامية واللغة العربية وللحياة الإسلامية جسديًا وروحيًا. إن القوة الخالقة لهذه الحياة الروحية قوة جبارة حقًا فلا يوجد شاعر عربي استطاع أن يلبس العربي والشعور بالحب العربي الثوب اللائق استطاعة ابن حزم الفيلسوف العربي وصاحب النظريات العنيفة في الغزل العربي، وابن حزم كما نعلم ينحدر من أصل غوطي عربي وتجري في

عروقه دماء غوطية غربية، نغم إن ابن حزم كان عربياً أصيلاً في شعره قرض شعراً عربياً كأحسن ما يقرضه شاعر عربي وكتب نثرًا عربياً كأفصح ما يكتبه كاتب عربي. إن العبقرية الشاعرية والملكة النثرية والسيطرة على اللغة العربية لم تكن مقصورة على العربي، فهي موجودة في هذه الآثار الأدبية التي خلفها لنا الأدباء الذين انحدروا من أصل فارسي مثلاً، فقد أغنوا اللغة العربية بالكثير من المصنفات الأدبية الرفيعة. وقد كانت هذه الثقافة قوية خصبة منتجة فإبان الحكم المسيحي كانت الأديرة السريانية مقفلة مجدبة وكان رهبانها يحيون حياة من يعيش ليأكل، لكن لما أظلم الإسلام بثقافته وحضارته أينعت وازدهرت، وإبان الدولة الإسلامية لم تكن الثقافة الفارسية هي التي جاءت إلى العالم بأمثال الرازي وابن سينا، لكنها الثقافة العربية هي التي أرضعت هؤلاء من لبانها وهي التي نشأتهم النشأة العلمية بالرغم من أنهم انحدروا من أصل فارسي. والآن نجد العلماء من مختلف العقائد يعملون معاً ويبنون متساندين متعاونين الحضارة العربية والثقافة العربية والعلوم العربية. فكما نجد كتباً وضعها مسلمون ومسيحيون ويهود وصابئون معاً وغزوا بها دور الكتب العربية، نجد تسامحاً عربياً. كذلك لم يحقر من شأن المسيحيين كمعلمين ودخل هذا التسامح إلى مدارس الوثنيين للاعتراف من ينابيع المعارف اليونانية والهندية. وهذا يتفق تماماً والحديث النبوي الشريف: «طَلَبُ الْعِلْمِ عِبَادَةٌ». «الْعِلْمُ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ» هكذا جعل النبي - صلى الله عليه وسلم - طلب العلم فريضة دينية «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد». هكذا نجد النبي - صلى الله عليه وسلم - يحرص دائماً على توجيه المسلمين إلى العلم فطلب العلم أجره أجر الصوم وتعليم العلم يقابل الصلاة، والنظر إلى الوجود وعظمته يقوي إيمان العربي وخشوعه فالعلم يهدي إلى الإيمان «ولو في

الصين»، وقد حرص النبي - صلى الله عليه وسلم - على إخراج المسلمين والإسلام من الحدود الجغرافية الشعبية الضيقة إلى الكون: فالعلم وطلبه عبادة فجميع المعارف مصدرها الله وإليه تعود لذلك قيل: «اطلبوا العلم من أي منبع». في سبيل الله اطلب العلم ولو من شفاه غير المؤمنين. ألم يقل الله إن علم الدنيا غباء؟ ويتساءل بولس الرسول على النقيض قائلاً: يوجد مكتوب أريد أن أهدم حكمة الحكماء وأحطم عقل العقلاء: «إن البغاء الموجود في الوجود اختاره الله وهذا يسيء إلى الحكماء». رأيان. عالمان يفترقان افتراق الماء والنار وهما يعينان الطريقين المتضادين للحياة العقلية في الشرق والغرب؛ لذلك يتسع أخيراً الفرق بين الثقافة العربية الرفيعة والمستوى المدني المعاصر في أوربا المسيحية. فماذا تفيد جميع حكمة الوجود أمام حكمة الله. إن المثل الأعلى الذي يتطلبه بولس هو مثل آخر ليس أقل إلا أنه يهدف إلى غاية أخرى إلى حقيقة أخرى. «إني أحترم معرفة الله والروح» هكذا حدد «أوجسطين» قطب المعرفة، وإن النظر إلى الحقيقة نظر إلى الله، وهي ليست في حاجة إلى مساعدة خارجية، وإن المصدر الإلهي الوحيد عند المسيحيين هو الوحي، فقصة الخلق ذكرت كل المعلومات الضرورية حول السماء والأرض والجنس البشري. ووجود أشياء معارضة لهذا أو لا تتفق وهذه المعلومات لا يمكن أن توجد كما قرر «أوجسطين»، وذلك لأن الكتاب المقدس لم يذكر بين أبناء آدم جنساً من هذا الصنف. لذلك يجب أن تحل اللعنة على الفكرة القائلة بكروية الأرض: «هل هذا ممكن؟» هكذا سأل معلم الكنيسة «لاكتنتيوس» وقال: «كيف تبلغ البلاهة بالناس حدًا كهذا ويعتقدون في مثل هذه الخرافة؟ كيف يعتقدون أن دولا وأشجارًا تتدلى من الجانب الآخر للأرض»، وإن سيقان الناس أعلى من رؤوسهم؟ فقد اعتقد بعضهم أن الأرض عبارة عن ثل تدور

حوله الشمس بين الصباح والمساء. ويعتقد «هربانوس موريوس» أن الأرض عبارة عن فلكة مستديرة كالعجلة يلطمها المحيط. وهكذا نجد التقدم الذي بلغته الإنسانية منذ قرون عديدة يختفي ويتلاشى وتعود عصور السذاجة إلى الظهور من حيث النظر إلى الوجود نظرة تحيطها الخرافات وعوامل السحر والشعوذة. كذلك حلت اللعنة أيضاً واللعنة القوية على كل من يفكر في قانون النسبية لتعليل الظواهر الطبيعية، وليست اللعنة فقط بل الكفر بالله، كذلك كافر كل من يربط بين ظهور النجم أو الفيضان أو ولادة غير طبيعية أو شفاء كسر في الساق وبين الأسباب الطبيعية، وتعليل حدوث هذه بتلك حتى ولو كان هذا من صنع الله كعقوبة أو قصاص أو من عمل الشياطين أو أن هذا الحدث معجزة من المعجزات. هل القوى العقلية وقد استولت عليها الرغبة القوية في سبيل معرفة الله تنتيه في هذا البحر الإلهي؟ أو هل تستطيع أن تشد أبنية شامخة من الفلسفة والتعاليم الفلسفية تحت سماء اللاهوت وقد شملت هذه السماء كل شيء وأصبحت تعلو شامخة وكأنها قبة زرقاء؟ لذلك كانت الكنيسة في ظلال هذه الأبنية التي تناطح السحاب سبباً في انحطاط المستوى العقلي فيما يتصل بالعلوم المتعلقة بالأرض وكل ما هو أرضي. فبعد أن كان العقل البشري يعيش في الكلمة «اللوجوس» اليونانية الواضحة الوضاعة انحط العقل إلى جو ملبد بالغيوم والضباب وعدد لا يحصى من الخرافات والشعوذة وقد أعمت هذه الخرافات أبصارنا فغطت عيوننا غشاوة حجبت عنا إدراك كنه الوجود. وقد استولى هذا الوضع الجديد لا على تفكيرنا الداخلي الباطني فقط بل أهمل إهمالاً كلياً العناية العقلية بالسواد الأعظم للبشرية، فقد اكتفى ذلك العصر وتلك الحالة بالسياحة في مجالات الخيال المستمدة من اللاتينية البربرية المأخوذة عن القصص اليوناني والأساطير الشرقية القديمة المتصلة

بأخبار القديسين وسيرهم، وبهذا قويت العقيدة والإيمان بالخوارق على حساب التفكير العقلي السليم. إن الكنيسة والرهبنة تؤثران في المجال الروحي، ولكن فيما يتصل بالمجال الدنيوي لم تنفذ الثقافة بل غالبًا ما عطلتاها وعوقتاها. لقد كانت لدى الكنيسة والرهبنة نفس الوسائل، بل أفضل من تلك التي كانت لدى العرب فقد كان تحت تصرفهما هذا التراث العظيم فلو استغلّتا وطورتاه لعاد عليهما وعلى الإنسانية بالنفع العظيم. فالنصوص والكتب القديمة متوفرة بكثرة هائلة بخلاف الحال عند العرب، فحتى القرن السادس الميلادي كان في أوروبا عدد كاف من الرجال الذين كانوا يجيدون اليونانية، فالعلوم العقلية التي وجدت طريقها إلى أوروبا في القرون الأولى عن المثقفين الرومانيين كانت جديرة بالترجمة والتحقيق، وكان في أوروبا من يقدر على النهوض بهذه الرسالة، ولم يكن هؤلاء المترجمون أقل من أولئك الذين نهضوا بهذا العبء إبان خلافة بغداد أو دونهم. لكن العقلية اليونانية كانت غريبة على عقليتهم، ليس بسبب جهلهم الأشياء التي هي ذات فائدة لهم؛ فقد أخذ أسقف قيصرية حوالي عام 300 م مدرس الدين «أوزيربيوس» والعلماء الطبائعيين من الإسكندرية وبرجامون الذين أضاعوا وقتهم سدى، وهو لا يرى قيمة لمجهودهم، لذلك يدعو إلى التوجيه لما هو أهم وأنفع؛ وهذه الفكرة هي بعينها التي نجدها في القرن الثالث شعر ونادى بها «توماس فون أكوين» فقال: «إن أقل حظ من المعرفة المتصلة بالأشياء العليا يحصل عليه الإنسان أهم وأنفع من المعرفة والعلوم المتصلة بالأشياء الوضيعة الدنيئة»، فالتفكير اليوناني قد بدأ لدى المسيحيين وكأنه جدير بكل لعنة لذلك لم يكتف المسيحيون بالابتعاد عنه بل أخذوا على عاتقهم تخليص الإنسانية منه بالقضاء عليه وإبادته. لذلك اضطرت أوروبا أن تبدأ من الأول بالثقافتين القديمة والهلينية وقد بلغنا درجة الكمال. والذي

وصل إلى الأديرة منسوخًا أو مجموعًا كان في حالة سيئة بحيث أصبح كافيًا فقط لأولئك الذين يرضون بهذه القلة الضئيلة. أما الآداب الشعبية فلم تستفد من هذا التراث شيئًا ولا سيما أنه امتداد أو مستمد من تلك العقلية التي انتهت إلى أولئك المعجبين. وبالرغم من هذا بدا للرؤساء حرمان رجال الدين والرهبان من قراءة هذه النصوص المتصلة بالأمور الوضعية. وفي عام 1209 ذكر المجمع المقدس في باريس أن الرهبان يرتكبون أمهات الخطايا إذا ما قرأوا كتبًا تتصل بالعلوم الطبيعية. فهذه الأغلال التي ضربت حول العقول قضت على كل تفكير عقلي في مهده كما أنكرت على العقول القيام بأي نشاط مستقل، لذلك عوقته كما كذبت أي نشاط عقلي يتعارض وتعاليم الكنيسة. والآن نستطيع أن نفهم وندرك كيف غطت أوروبا قرابة ألف عام في نوم عميق، ثم مضت فترة أخرى حتى أفاقت من غفلتها وبدأت تنفض غبار النوم عنها، هذا مع ملاحظة أن العرب المسلمين سبقوا أوروبا إلى هذه النهضة بنحو قرنين أو ثلاثة فتموها وهذبوها وطوروها، وأن عبارة «هيجل» الخاصة بيوم مينرفا التي تطير فقط عندما يحل الظلام تنطبق حقًا وتصدق على العلوم اليونانية إبان عصر التدهور اليوناني، وذلك في العصر الهليني، كما ينطبق هذا القول أيضًا على ألف عام التي قضتها أوروبا في غياهب الجهالة. لكن فيما يتصل بالنهضة العربية فمثل عبارة «هيجل» لا تصدق حيث نجد، وبصفة استثنائية، العلوم ليست فاكهة متخلفة حملتها الشجرة بعد أوان الطرح. لقد ظهرت هذه النهضة العلمية بغتة. وذلك بمجرد انقضاء القرن الأول الإسلامي، قرن الفتوحات وانتشار الدين الإسلامي وكتاب الله، القرآن الكريم، ففي تلك اللحظة انبثقت العلوم والمعارف وتفتحت البراعم بعد جفاف فصل الشتاء وظهرت العلوم العربية. وبعد فترة وجيزة من الزمن عمت العالم وأصبحت ثقافة

عالمية. ثم سرعان ما نجد الإسلام الفتى يندفع في كل اتجاه منحرف أو ضعيف أو يصطدم مع العقائد الأخرى. ففي مكان ما نجد ممثلي العقائد المحافظة ينبرون للدفاع عن عقائدهم. وفي مكان آخر تنقسم الجماعات شيعًا وأحزابًا حتى المحافظين، وتأهبت كل جماعة للقضاء على الأخرى، ونجد الإسلام الفتى لا يقف من هذه الخصومات وتلك الخلافات الدينية مكتوف اليدين بل يقتحم المعركة وينازعها فلسفتها وعقائدها الدينية ويخوض هذه المعارك الكلامية والعقائدية والفلسفية. وقد أفاد هذا النشاط الإسلام فائدة كبرى وذلك لأنه، لفائدته أو لضرره، كان في وضع يغير وضع المسيحية المعاصرة له، فالإسلام لا يعرف لدى الله وسيطًا؛ ولذلك لا كهنوت أو كهنوتية منظمة قائمة ثابتة لها سلطانها القوي، وبخاصة في الظروف الحرجة، وعامة المسائل قد تكون موضوع خلاف كبير جدًا، لكن مجال الزندقة أضيق وأقل حتى في الحالات التي نجد فيها الخليفة محافظًا جدًا متمسكًا أو متسامحًا كخلفاء العباسيين من المنصور حتى المأمون. وحيث الاتجاه المحافظ يهيمن ويسيطر على التسامح الديني تتجمد العلوم سريعًا. ولما قضى المغول على الزعماء الدينيين؛ كما قضى عليهم الأسباب كانت التهمة الموجهة إلى رجال الدين الذين بلغوا مرحلة الاحتضار القضاء على الثقافة ومختلف الآداب والعلوم. وقد أدت هذه الخصومات والمجادلات الدينية إلى إحداث نقطة عقلية دينية حية حالت دون تجميد الإسلام، كما اضطرته إلى الاستعانة بمختلف العلوم والمعارف التي أدت بدورها إلى خلق قوى عقلية ما كانت بمنظرة، فوجد الفرائض الدينية وما يتطلبه تنفيذها والعمل بها وبخاصة ما يتصل بالحياة اليومية: ضرورة علاج وشفاء ومنع انتشار الأوبئة في المدة الغاصة بملايين السكان، كذلك العمل على إيجاد أدوية جديدة وتجربتها، لذلك اقتحم العلماء العرب مملكتي الحيوان والنبات

يروون الأرض ويمسحونها ويحصون مواقع النجوم ومنازلها ووسائل معرفة الطرق والأسفار وتحديد الأزمنة والأمكنة. وباختصار الاهتمام بمختلف المواضيع درسًا وبحثًا وتعمقًا حيثما كان وكيفما اتفق. ونجد العرب يقبلون غير هيايين على ما ورثوه، فما يفيدهم منه علمًا وتحصيلًا تمسكوا به وحافظوا عليه، فنجدهم يلتقون بثقافات مختلفة إلى جانب الهندية والفارسية والصينية، وكذلك اليونانية والإسكندرانية. لكن ما وجده العرب لم يكن كافيًا لسد حاجياتهم وإشباع رغباتهم وإرضاء مطامعهم وطموحهم. فالعرب يحرصون على الحصول على كل ما يمكن الحصول عليه وتحصيله، وهكذا اندفعوا يبحثون وينقبون ويستعينون بالبعوث المختلفة من علمية وسياسية.

عملية إنقاذات قيمة تاريخية

الكتاب وسيلة لخدمة السياسة. العلم سفير للسلام. أين ومتى وجدت هذه المعاني وتلك الوسائل من قبل أو من بعد؟ وبهذه الكثرة؟ وكما كان شغف العرب بالكتب عظيمًا، وبخاصة هذه الكتب المتصلة ببعض المواضيع المتصلة ببعض المواضيع الجامدة الجافة مثل: الهندسة أو علم القوى المحركة والطب والفلك والفلسفة. وبينما نجد الدولة المنتصرة تطالب من الدولة المهزومة تسليمها الأسلحة والذخيرة والسفن الحربية كشرط أساسي لعقد معاهدة الصلح، إذ بنا نجد هارون الرشيد بعد انتصاراته في عموريا وأنقرة يطالب بتسليمه المخطوطات اليونانية. وبينما نجد اليوم الدولة المنتصرة تطالب المهزومة بالمناجم والصناعة الحربية الهامة وكل ما يتصل بوسائل الهدم والتدمير والإبادة ووضع اليد على مختلف المخترعات، إذ بنا نجد المأمون يطالب عقب انتصاره على

البيزنطي ميخائيل الثالث بتسليمه جميع المخطوطات اليونانية الخاصة بالفلسفة ولم تترجم إلى العربية بعد كتعويض لخسارة الحرب لأنها كما يقول الأسلحة العقلية التي يتسلح بها في سبيل السلام وتدعيمه. والواقع أن الأمراء العرب كانوا كأنهم مجانيين في سبيل الحصول على بردية أو مخطوطة مكتوبة على الرق. فما من شيء يكسب صداقتهم مثل الحصول على بعض المخطوطات القديمة، وعن طريق هذه المخطوطات يستطيع مرسلها أن يتخذهم حلفاء في حروبه ضد خصومه. ويكفي أن نتذكر ما حدث على اليوسفور حيث أرسل إلى عبد الرحمن الثالث في الأندلس صندوق مملوء بالمخطوطات القديمة من بينها رسالة ديسكوريدس في الطب. وقد أدى بيع التراث العقلي الوثني وإقبال العرب على شرائه إلى رفع ثمنه، فكانت البعوث الخاصة المزودة بكافة الصلاحيات والتفويض والحقائب المملأة بالنقود تترك بغداد إلى بيزنطة والهند، حيث نجد علماء تلك البلاد يقومون بدور السماسرة مثل البيزنطي «فوتيس» الذي اجتذبه الحياة العقلية الرفيعة في البلاط العباس، حتى إنه فضّل الإقامة في بغداد على العودة إلى بيزنطة. كذلك كان الأمراء مشغوفين بالحصول على المترجمين الذين يترجمون لهم هذه المخطوطات، كما سار في ركب الأمراء كذلك الوزراء والأثرياء. وكانوا يدفعون الأموال الطائلة لأولئك الذين يتجولون لهم من العلماء الوسطاء في بلاد اليونان والأناضول، وحيث نزل الهلينيون للحصول على بقايا التراث العقلي، هذه البقايا التي نجت من التدمير. وكان القوم ينقبون على هذه المخطوطات تنقيباً، فكانوا يعثرون عليها في أماكن غريبة مهجورة مظلمة تأوي إليها الفئران والعناكب، وتلك هي القاعات السفلى في منازل الإسكندرية حيث قد يعثر الباحث على مخطوطة خاصة بالآلات القتال محفوظة بين حجرين مطبقين عليها وأكوام من

الأحجار، كما قد يعثر المنقب على مخطوط آخر محفوظ في علبة مخبأة في جدار معبد سرياني. وفي الأنضول وعلى بعد مسيرة ثلاثة أيام من بيزنطة اكتشف محمد بن إسحاق مكتبة عظيمة في معبد كبير قديم له باب لم ير مثله حجمًا، وهو يتركب من صفيين (درفتين) من الحديد، وقد شيده اليونانيون في الأزمنة الغابرة عندما كانوا يعبدون الأفلاك والأوثان، كما كانوا يقدمون في هذا المعبد القرابين. ويذكر محمد الذي كان سفيرًا عربيًا في القصر البيزنطي أنه كافح كفاحًا شديدًا في سبيل الحصول على هذا الكنز العظيم، فقد رجا حاكم دولة الروم الشرقية أن يفتح له المعبد إلا أنه رفض إجابة هذا الرجاء، وذلك لأن أبوابه قد أغلقت منذ أن اعتنق البيزنطيون المسيحية، لكن محمدًا لم يتحول عن رغبته وبخاصة أنه قد قدم لحاكم الدولة كثيرًا من الخدمات فرجاه محمد تحريريًا وشفويًا عندما اشترك مرة في مجلس من مجالسه، وأخيرًا وأمام هذا الإلحاح أمر الحاكم بفتح الباب لمحمد فكان هذا المعبد مشيدًا من الرخام وعلى جدرانه كتابات وشخوص ملونة ولم ير محمد مثل هذه الأشياء من حيث وفرة الجمال والفن. أما فيما يتصل بالمخطوطات فقد وجد به ما تنوء بحمله الجمال، وقد ذكر القوم أن عدد هذه المخطوطات قد يبلغ الألف ولو أن جزءًا منها كان ممزقًا والبعض الآخر قد أتلفته القرصنة. إن إنقاذ هذه المكتبة كانت له فائدة عالمية جسيمة فإنقاذها إنقاذ لحضارة وثقافة مانتت وانقرضت بل كادت تنسى ويعفي عليها الزمن، وبخاصة بعد أن انصرفت عنها عيون خالقها السابقين واتجهت الآن إلى هدف آخر لا يمت إلى الدنيا بسبب. أما البقية الباقية التي وصلتنا من هذه الثقافة فالفضل في هذا يرجع ولا شك إلى العرب وجريهم وراء المعرفة. ولم يصلنا من هذه الثقافة عن غير طريق العرب إلا النادر القليل الحديث ومن بيزنطية. وحتى هذا الذي جاءنا من بيزنطة عبارة

عن نصب ناقص كتمثال بدون رأس «تورسو»، كما أننا لا نعلم تمامًا مدى أهمية هذا التراث القديم وكميته وكم ضاع منه. إننا نستطيع الاهتمام إليه عن طريق الموسوعات العلمية فقط.

الترجمة مجهود ثقافي

إن المخطوطات وغيرها التي أنقذها العرب لم تخزن في المتاحف والخزانات وحيل بينها وبين الهواء، بل بعثت بعثًا جديدًا، وانتقلت من حال النسيان والإهمال إلى الحياة ثانيًا فنية قوية، لقد عادت إلى الحياة لتكون في متناول يد كل فرد، وبالاختصار ترجمت. لم تترجم هذه الكتب في لغة بعيدة عن تلك المألوفة عند الشعب، لم تترجم إلى لغة لا يعرفها إلا الكتاب والشعراء وغيرهم من اللغويين والفقهاء، أو بتعبير آخر إلى لغة قريبة من اللاتينية في القرن الثامن في أوروبا، بل نقلت إلى لغة حية مستعملة ألا وهي لغة القرآن الكريم، وهذه هي الجذور الثابتة للثقافة العربية وهي التي عاونت على نموها وازدهارها. فكل مسلم يجلب عليه أن يقرأ القرآن الكريم في اللغة العربية، كل مسلم يتعلم العربية ويتعرف إليها كما أن لكل مواطن من مواطني الدولة الحق في الاعتراف من ينابيع الحكمة والمعرفة ولا يعيش في عزلة عن المجتمع أو الشعب. وحوالي عام 687 م أيام العصر الأموي بدأت هذه الحركة، أعني حركة الترجمة، وقد عاصرها في أوروبا «ببين فون هريستال» وهو والد «كارل مارتل» الذي قفز من وظيفة مدير لقصر الملك إلى حاكم حقيقي لفرنسا. وحدث في ذلك الوقت أن الأمير الأموي خالد بن يزيد اضطر إلى التنازل عن العرش في دمشق فأصيب بصدمة نفسية ألجأته إلى احتضان العلوم، لكنه خجل أن يتصل بأصدقائه الكتب في لسان أعجمي،

وخالد بن يزيد كفرد من أسرة امتازت بمناصرة العلم والأخذ بيد العلماء وجد لزاماً عليه أن يستدعي علماء من اليونانيين والعرب من الإسكندرية ويكلفهم ترجمة أمهات الكتب الموجودة في اليونان أو مصر إلى لغة الدولة، وبذلك يستطيع الحديث في لغته مع ضيوفه من العلماء. فهذه الخطوة التي بدأها هذا الأمير في دمشق تسلية وعزاء أتمها بعده الخلفاء العباسيون في بغداد خدمة للإسلام والمسلمين. فقد أمر المنصور كما جاء في كتاب عقد الألى فيما يتعلق بالكتاب الهندي «سيدهنتا» أن يترجم إلى العربية ويؤلف كتاب على نمطه في العربية ليتعلم العرب منه حركات النجوم، والواقع أن ما طلب حكام العرب تنفيذه اقتناعاً منهم بفائده قد نفذ كاملاً غير منقوص. فعملية الترجمة كانت تؤدي بعناية ودقة وحماس لا يقل عن هذا الاهتمام الذي وجه إلى جميع الكتب التي جمعت من مختلف مصادرها، فقد استدعى هارون الرشيد مختلف العلماء الذين يجيدون مختلف اللغات وكوّن منهم هيئة علمية تحت إشراف يحيى بن ماسويه مهمتها تقدير التعويضات التي يجب أن تدفعها الشعوب المهزومة، وهذه التعويضات يجب أن تكون كتباً. ثم جاء المأمون وكوّن مجمعاً علمياً حقيقياً للقيام بأعمال الترجمة. وقد نسج على منواله الذين جاءوا بعده وحاولوا منافسته، فأبناء موسى بن شاعر الفلكي الثلاثة أنفقوا كثيراً من الأموال في سبيل جمع الكتب وترجمتها، فكانوا بذلك مثالا حياً للآخرين مثل الطبيب البعلبكي «قسطا بن لوقا». ومن الأمثلة الأخرى الشهيرة للنشاط العظيم الذي بذل لإحياء التراث القديم هو ذلك الذي أداه ابن الصيدلي حنين بن إسحق، وهو أحد أبناء القبيلة العربية التي كانت قد اعتنقت المسيحية واشتهرت باسم «العبادي» وكانت تقيم حول الحيرة العاصمة التجارية القديمة على الفرات، وكانت في عصر ما المقر الملكي للخميين العرب، وكانت تمر بها القوافل

التجارية العربية مجتازة ما بين النهرين. وتاريخ حنين يبدو كأنه مثال يحتذى، إنه تاريخ وإن كان في الواقع تاريخ إذلال وانتقام، إذلال من جهة الاستعلاء الفارسي على الشعب العربي المنتصر، وهذا الاستعلاء وذلك الإذلال أصابا حنينًا سليل قبيلة العبادي، وهذه المعاملة بالذات هي التي دفعته إلى بلوغ صولجان القوة العربية العلمية للعروبة الفتية. والمسافة بين الحيرة وبغداد تبلغ أكثر من تسعين كيلو مترًا، ولبلوغ عاصمة العباسيين ما على الإنسان إلا أن يمتطي أمواج الفرات متجهًا شمالًا ليلبلغ مدينة أحلامه الرابضة على دجلة. هكذا أجاب الإنسان حنينًا عندما وجه مائة سؤال إلى رجال القوافل وتلقي حنين مائة إجابة. لقد ولد حنين عام 809 م وهو العام الذي توفي فيه هارون الرشيد، وقد أثارت الأواني والأجهزة التي كانت موجودة في معمل والده انتباهه واسترعت نظره، لكن هذا الطفل النجيب النحيف لم يعجب بهذه الأجهزة الإعجاب الذي جعله يتجه إلى مهنة والده بل أثر التجارة عليها محتذيًا حذو أُنذاده. وفي يوم من الأيام نجد صديقه القديم «حبيشًا» دليل القافلة يبدي رغبته لحنين ابن الصيدلي إسحق في أنه مستعد لنقله معه إلى عاصمة الدولة العباسية مقابل إعطائه مرهمًا من الكافور لعلاج دمل. وفي ذلك الوقت كان بيت الطبيب ورئيس التراجمة أيام هارون الرشيد والمأمون، وهو الفارسي جنسًا، ومن جنديسابور مولدًا، واسمه يحيى بن ماسويه -ملتقى كبار علماء بغداد-، وأراد حنين أن يصبح طبيبًا فأقبل وهو في سن الخامسة عشرة على العلم یرتشفه ارتشافًا مقبلاً على أساتذته إلا أنه لم يكن طالبًا غيبًا فالأسئلة التي كان يوجهها إلى أساتذته كانت كالخناجر التي تمزق محاضراتهم. وكان ماسويه مشهورًا بنكاته التي ذاع صيتها في المدينة، كما اشتهر كذلك بلسانه السَّليط، فأهاجته مرة من المرات أسئلة حنين فصاح فيه قائلاً: «عد من حيث أتيت، ومن جهتي احترف

حرف الصيارفة التي يحترفها أهالي الحيرة، واترك دراسة الطب هذه ليست مهنة العبادي». فتأثر حنين من مثل هذه الإجابة وبكى بكاءً مرًا، وترك الدار بعد أن ألمه هذا الاحتقار الذي بدا من ماسوييه، فقد كانت عباراته كالسياط التي ألهبته، فقرر أن يصل إلى هدفه ويحقق رغبته في دراسة الطب وأنه لن يرى وجه رجل مثل ماسوييه الذي أهانه واحتقره. فسافر إلى بلاد الروم، وفي الأناضول درس اللغة اليونانية حتى أتقنها ليستطيع قراءة كتب كبار الأطباء اليونان، وفي البصرة على الخليج الفارسي درس على أحسن معلم اللغة العربية وأتقنها، كما اهتم كذلك باللغة الفارسية وهو يتكلم منذ سن الطفولة. ومضى عامان على الفتى العربي الحيري منذ أن خرج من أبواب بغداد الذهبية، وفي إحدى الليالي زار خليل بن عبد الله أحد زملائه في الدراسة، وهو من تلاميذ ماسوية الذين كانوا أقدم منه، صديقًا له فإذا برجل أجنبي ذي لحية سوداء يحبون أن يراه أحد وقد جلس القرفصاء على فراخ حمل. ولم يسبق لخليل أن رأى هذا الرجل في شوارع بغداد، فانصرف عنه خليل ولم يعبا به، وأخذ يتحدث مع صديقه حنين. وبغته ارتفع صوت يغني أشعارًا يونانية لهوميروس وأوديسيوس، وهذا الصوت يكشف القناع عن صاحبه وخليل يعرف صاحبه جيدًا. أما ذو اللحية فقد جلس ورأسه إلى الحائط المبيض، والمغني يغني أوديسيوس العظيم وهو وصديقه وزميله القديم «حنين بن إسحق». فإذا بالشخص الذي أصابه الفزع يرجو ألا يبوح بسرّه؛ إن رسالتي لم تنته بعد. . . وبعد ذلك بزمان قليل التقى خليل بصديقه العجيب للمرة الثانية، وهذه المرة في منزل جبريل بن بختيشوع نقيب أطباء بغداد، وكان وجوده مدعاة إلى التعجب، فالشيخ الوقور الذي انحدر من أسرة اشتهرت بالطب وبالأطباء في جنديسابور يعامل هذا الشاب ابن السابعة عشرة ألا وهو حنين معاملة ممتازة؛ يعامل بها عادة الوقورين

المحترمين، فكان يخاطبه بعبارة: المعلم حنين؛ وأكرمه في بيته كما يكرم أكبر وأعز ضيف. إنه يدعوكم معلم! سأله خليل عندما تركا البيت، إن هذا عجيب وأود أن أعرف السبب، فأخبره حنين أن نقيب الأطباء كلفه بترجمة فأداها أحسن أداء. والآن شعر أن ساعة الحساب قد جاءت: خذ الأوراق وتوجه إلى يحيى بن ماسويه الذي طردني سابقاً من درسه، وأخبره ما رأيته وسمعت من معاملة جبريل بن بختيشوع لي في منزله. إن مثل هذه الترجمة ما كان إنسان بمستطيع القيام بها، ولعل روح القدس وقد حل بك وأوحى بها إليك؛ وأجابه ماسويه عند تصفح الأوراق: قل لي: حنين بن إسحق، يسعدني جداً أن أكون صديقك. وشرع حنين في إلقاء محاضرات في الطب في بغداد، وحتى العالم بتختيشوع لم يخجل من حضورها والاستماع إلى صديقه الشاب، وأحياناً كان يشاهد الإنسان أستاذ حنين من بين مستمعيه. لكن هذا الشاب العربي اكتسب شهرة أوسع عن طريق مهارته في الترجمة، فقد امتاز فيها على ماسويه، كما أعجب به أبناء موسى، حيث امتازت ترجمة حنين بحسن الأسلوب ودقة الترجمة، فترجمته لم تكن حرفية أي كان لا يكتفي بإحلال كلمة أو جملة مكان أخرى إنما قصد في الترجمة المعنى، ومن ثم صبه في قالب عربي سليم. أما إعجاب محمد بن موسى بحنين فقد فاق الوصف، فقد أخذه إلى داره وعين له مرتباً عالياً لترجمة الكتب اليونانية التي جمعها هو وأخواه إلى العربية. وسرعان ما شعر حنين بالحاجة إلى مساعدين فعين عددًا كبيراً منهم لكن لم يخرج كتاب من معهده دون مراجعته وتنقيحه. فكل نص يقع في يديه ينظمه هو ولأول مرة ومن ثم يقسمه إلى أبواب وفصول وبخاصة كتب أمثال جالينوس، وبذلك كان حنين يؤدي خدمات جليلة إلى أولئك المؤلفين أنفسهم: وهنا نجد مدى الفضل الذي قد يتفضل به المترجم على المؤلف، وهذا الفضل يتوقف على ميل المترجم

وشغفه بالكتاب وفهمه وإدراك كنهه وحسن اختياره. فترجمته هي التي تفرض الكتاب على المجتمع وتمهد له الطريق إلى الأوساط العلمية والثقافية. فحب حنين لجالينوس هو الذي جعله يُتوجه ملجأً على عرش الطب العربي، وبذلك أصبح فيما بعد زعيم الطب الأوربي. لكن النشاط الجم لهذا الطبيب والمترجم العربي جعله لا يقصر همته على الطب فقط، فحنين لم يقتصر على الترجمة لجالينوس وأبقراط وأوريبيازيوس، وديوسقوريدس وبول فون أجينا بل عرج على أرسطو وأفلاطون والترجمة اليونانية للعهد القديم، الترجمة السبعينية التي نقلها إلى العربية. إن ابن إسحق قد كرس حياته للمؤلفات الفلسفية والرياضية وما بعد الطبيعة أي الميتافيزيقا. وحنين بن إسحق على نقيض المترجمين اللاتين المتأخرين، فعالمنا العربي كان ملجأً بمختلف أنواع العلوم بقدر. فقد كان يجيد المادة التي يترجم منها حتى إنه كان يسمح لنفسه أن يشرح ويبسط العبارات العويصة التي يذكرها المؤلف، كما كان يقدم لكل كتاب يترجمه بمقدمة العالم الخبير ويعلق عليه ببعض الشروح والتفسيرات. وقد اشتهر حنين بدقته حتى إنه كان كما يذكر هو بنفسه، لا يقدم على الترجمة إلا بعد الحصول على ثلاث مخطوطات على الأقل من الكتاب المراد ترجمته، فيقابل بينها ويقوم نصها ويصحح إذا ما دعت الحاجة إلى هذا. فأين هذه الدقة العلمية في العالمين القديم والوسيط عدا عند العرب حيث نجد الناشر يشعر بمسئوليته تجاه المؤلف ومدى احترامه وتقديره لثروة المؤلف العقلية؟ هكذا هو موقف العربي، وهو الموقف الذي يمتدحه الإنسان اليوم ويصفه كما لو أنه موقف حديث. وكان حنين إذا ما افتقد نسخة من مخطوطة خاصة بجالينوس، وأن هذه المخطوطة كانت في عصره من المخطوطات النادرة لا يكتفي بهذا بل يقوم هو بالبحث عنها. إنني في حاجة شديدة إليها، وسأسافر باحثاً عنها في بلاد ما

بين النهرين والشام وفلسطين ومصر حتى أصل إلى الإسكندرية، لكني لم أوفق في الحصول عليها إلا هذا الجزء الذي قد يكون نصف المخطوطة وقد عثرت عليه في دمشق. وإذا عاد حنين ومعه هذا الجزء من المخطوطة النادرة التي ضاع أصلها اليوم أحضر معه كذلك عددًا كبيرًا من المؤلفات القيمة إلى بغداد. وفي تلك الفترة عينه المتوكل الذي خلف المأمون طبيبه الخاص ومديرًا لمدرسة الترجمة الجديدة التي أنشأها الخليفة. وهكذا نجد العلماء العرب يحفظون للعالم عن طريق ترجماتهم الكثير من الكتب من الضياع والضياع النهائي، وهي مؤلفات كان العالم يجهلها جهلاً تاماً لولا أن جاءت عن طريق الترجمة العربية مثل كتب: التشريح لجالينوس وكتب القوى المحركة والرياضيات للمؤلفين «هيرون» و «فيلون» و «مينيلاوس»، ثم بصريات بطليموس، والموازنة للمؤلف أويقليد، وأخرى حول الساعة المائية، والأجسام الطافية لأرشميدس. ثم هناك ثلاثة كتب حول قطاع الجلة للمؤلف «أبولونيوس» والذي أنقذها هو ثابت بن قرة الرياضي البارع والنطاسي العظيم الذي كان يزامل ابن إسحق بن حنين وحفيده الذي عالج الترجمة ونبغ فيها بعد أن مارسها زهاء عشرات السنين، وامتاز على سائر تلاميذه الذين جاوز عددهم التسعين. ولم يكد حنين يفارق الحياة حتى كان قد ترجم معظم مؤلفات الأقدمين، ومن ثم بدأ النشر.

ولع بالكتب

في أعقاب الحرب العالمية الثانية انتشر انتشار الوباء الرغبة الملحة في الحصول على سيارة وثلاجة وتلفزيون، هذا بينما كان العالم العربي قديماً شديد الولع باقتناء الكتب، فأقبل على شرائها كل من استطاع إلى

هذا سبيلا كما انتشرت الرغبة في الشراء انتشار العدوى في جميع البلاد العربية، وكانت هذه الرغبة لا تفوقها رغبة أخرى اللهم إلا رغبة العالم الحديث. وكما أن المستوى الاقتصادي والعقلي والاجتماعي للإنسان في عصرنا الحالي يتطلب امتلاك السيارة والتليفزيون، فإن المستوى العربي فيما بين القرنين التاسع والثالث عشر كان يقاس بالمكتبة الخاصة. ولا شك في أن الخليفة عندما أشار عليه وزيره البرمكي، الدالاي لاما، الوحيد من آسيا، بتأسيس مكتبة في دار الحكمة ببغداد، استجاب لتوه إلى هذه المشورة وشعر بالحاجة الماسة إليها. فدور الكتب تنمو وتزدهر بسرعة. فقد حدثنا رحالة عام 891 م أن بغداد المظلة على دجلة مائة مكتبة عامة يستعين بها كل طالب علم سواء أكان مستعيرًا أم مطلقًا بداخلها، وبكل مكتبة المترجمون والنساخ في قاعاتهم الخاصة، كما توجد بكل مكتبة قاعة كبرى عامة للندوات والمناقشات وهي شبيهة بالأندية الإنجليزية اليوم. ومدينة صغيرة مثل النجف كانت في القرن العاشر الميلادي فخورة لامتلاكها أربعين ألف مجلد في الوقت الذي كانت فيه الأديرة الأوروبية تقيد هذا العدد القليل من الكتب الذي قد لا يتجاوز العشرة في السلاسل نظرًا لندرتها وخوفًا عليها من الضياع. أما مكتبة مدينة الري فقد سجلت أسماء كتبها في فهرس يقع في عشرة مجلدات كبيرة وكان في كل مسجد مكتبة، وكل مستشفى يستقبل زواره في قاعته الكبرى الغنية بالكتب، ويحرص على شراء جميع ما يظهر من الكتب الطبية إشباعًا لحاجة الطلاب والباحثين. وفي مرصد «مراغة» يدون ناصر الدين الطوسي أربعمائة ألف مخطوطة، فجند في جنوب بلاد العرب أميرًا عالمًا يملك مكتبة بها مائة ألف مجلد؛ ثم نجد ابن سينا ولما يبلغ الثامنة عشرة يزور سلطان بخارى المريض واسمه محمد المنصور استجابة لرغبة طبيبه الخاص بمساعدته طبيًا، فتقديرًا

لمجهوده أذن له السلطان في أن يختار من مكتبة القصر ما يحتاج إليه من كتب للدراسة، وهذه المكتبة منظمة تنظيمًا موضوعيًا، كما تشغل غرفًا كثيرة من غرق القصر؛ وقد شاهد ابن سينا فيها كتبًا لا يعرف الكثيرون أسماءها، كتبًا لم يرها ابن سينا من قبل ولا من بعد. وبعد أن ترك ابن سينا القصر السلطاني بزمان قصير شبت النيران في القصر فأتت على المكتبة، وكان هذا الحادث من الأسباب التي دفعت جماعة من حساده وأعدائه إلى اتهامه بأنه هو الذي أحرقها، وحتى يحتكر هو ما بها وينسبه إلى نفسه. لكن أحدًا -حتى خليفة قرطبة الذي كان يوفد المبعوثين والعملاء لاقتناء أهم الكتب وأشهرها لمكتبته الخاصة استكمالًا لها وتيسيرًا للعلم لطلابه- لا يقارن بالخليفة العزيز في القاهرة. فمكتبة الفاطميين كان بها زهاء مليون وستمائة ألف مجلد وفي حالة جيدة كاملة، ومن بينها ستة آلاف وخمسمائة كتاب في الرياضيات وثمانية عشر ألفًا في الفلسفة. وهذه المكتبة لم تنش ابنه عندما تولى الحكم عن تأسيس مكتبة أخرى إلى جوار الأولى وكانت تشغل ثماني عشرة قاعة. وقد شجع هذا الاستعداد لدى الخلفاء والسلاطين الوزراء وغيرهم من رجال القصر على النسج على منوالهم، فنجد الوزير المهلبى يترك عندما توفي عام 963 م نحو مائة وسبعة عشر ألف مجلد، وهذا العدد لم يكن نادرًا، كما نجد زميله ابن عباد يكتني مكتبة من مئتين وستة آلاف مجلد كما خلف أحد القضاة مليونًا وخمسين ألف مجلد، ولو أن هذه الأرقام مبالغ فيها، وأن لفظ مجلد قد يطلق على فصل مستقل، إلا أن المبالغة في ذكر هذه الأعداد تشير إلى مدى المفاخرة باقتناء الكتب والأهمية التي كان يعلقها القوم على اقتنائها؛ وهذا الغرام باقتناء الكتب حقيقة لا مرأى فيها بدليل هذا الخبر الذي يروي عن أحد الوزراء، أنه لم يقيم يومًا من الأيام برحلة ما دون أن ترافقه مكتبته وكانت حمولة ثلاثين

جملاً. وقد قلّد القيصر فريدريش الثاني العرب في هواية الكتب وتشجيع العلم والعلماء، ولا غرابة في هذا فالقصير فريدريش الثاني هو تلميذ العرب في كل شيء فحتى في تنقلاته كان يحمل معه مكتبته على ظهور الإبل. ولدينا الآن سؤال آخر؟ أين اليوم المكتبات الخاصة التي تشتمل كل واحدة منها على ما يتراوح بين عشرين وثلاثين ألف مجلد، كما جمعها من قبل أمثال طبيب صلاح الدين الخاص المسمى ابن المطران ثم الصيدلي الشهير ابن التلميذ وكذلك ابن القفطي المؤرخ؟ ولا يفوتنا أن نذكر أن الكتب لم تكن تطبع في ذلك الحين بل كانت تنسخ والنسخ قد يستغرق الأشهر أو السنوات، فهي لم تكن رخيصة بل غالية، فابن الهيثم مؤسس علم البصريات تناول خمسة وسبعين درهماً أجراً لنسخ جزء من أوبقليد، وقد عاش ابن الهيثم عامًا كاملاً ينفق من نصف هذا المبلغ. وابن الجزار الطبيب الرحالة المرح، أحد أبناء القيروان، خلف مائتين وخمسين قنطاراً من الرق الذي كتبه بيده، وهذا الرق هو جلد غزال. ويحكى عن طبيب آخر خبر لا يقبل شكاً من أحد من معاصريه، أن سلطان بخارى دعاه إلى قصره فرفض الدعوة لأن انتقاله إلى بخارى يضطّره إلى الحصول على أربعمئة جمل لنقل مكتبته التي تزن حوالي عشرة آلاف كيلو جرام. كذلك يحكى عن عالم آخر توفي عن ستمئة صندوق كتب في مختلف العلوم الفنون، ويقال إن حمل كل صندوق كان يتطلب عدداً كبيراً من الرجال. نعم إن الإنسان قد يجد عدداً قليلاً من العلماء الذين يحتاجون إلى مراجع علمية خاصة، فهؤلاء كانوا يوجدون في مختلف العصور، ولو أنهم كانوا أحياناً قلة. لكن الأمر عند العرب كان على عكس ذلك، فهواة الكتب كانوا كثرة وكانوا يوجدون بين سائر الطبقات وليس فقط بين العلماء. فكل متعلم من السياسي إلى تاجر الفحم، ومن قاضي المدينة إلى المؤذن خبير بالكتب وتجاريتها. فالمكتبة

المتوسطة الخاصة في القرن العاشر كانت تحتوي على كتب تفوق بكثير محتويات جميع مكتبات أوروبا وقتذاك. فالثراء لا يتم لشخص دون ملكيته لمكتبة غنية بالكتب النادرة القيمة، فقد ذكر مؤرخ عربي أنه لما كان في قرطبة وقعت له حادثة في سوق تجارة الكتب أغضبته، وذلك لأنه اعتاد أن يكثر من التردد على السوق لمشاهدة الكتب الحديثة وشراء ما قد يحتاج إليه فوجد مرة كتابًا أعجبه فعرض ثمنًا وعرض آخر ثمنًا أعلى، فقلت لمنافسي: أرجو الله أن يحافظ على سيدنا الطالب المجتهد، إذا كان لديك سبب قوي يحتم عليك شراء هذا الكتاب أتركه لك، وذلك لأن الثمن المعروض تخطى الحدود. فأجابه الرجل: لست طالبًا ولا أعرف محتويات الكتاب إلا أنني قد أسست حديثًا مكتبة رفعا لمرتبتني بين مواطني، ووجد أن مكانًا خاليًا في المكتبة، وهذا الكتاب يملؤه. وعلاوة على هذا فخط هذا الكتاب جميل جدًا وهو يسرني كثيرًا كما أنه مجلد تجليدًا فاخرًا، لذلك لا يهمني الثمن الذي أدفعه فيه. فأجبت: إن الناس الذين هم مثلك لديهم الوسيلة لتحقيق رغباتهم «الجوز للذي لا أسنان له»! نعم إن الذين لا أسنان لهم كثيرون، لذلك ستستمر هذه الحالة لا عشرات السنوات بل المئات، وهذا عنصر هام من عناصر الحياة الاقتصادية العربية، فقد كانت تجارة الكتب تكلف المجتمع العربي ملايين الملايين سنويًا، فالمكتبة النظامية لجامعة بغداد مثلاً كانت ميزانيتها السنوية مليونين ونصف مليون فرنك ذهبي لشراء الكتب والمخطوطات، لذلك كانت الكتب مصدرًا من أهم مصادر الرزق لمئات الآلاف من البشر. فالنساخ والخطاطون كانوا فنانين في مهنتهم فكل مكتبة وكل تاجر كتب يوظف لديه عددًا من هؤلاء الموظفين ومعظمهم من الطلبة الذين يريدون أن يكسبوا قوتهم اليومي أو من فقراء المتعلمين، ثم نحد صناعات الورق في سمرقند وبغداد ودمشق وطرابلس الشام

وطبرية بفلسطين و «ياتيفا» الشهيرة بالقرب من بلنسية في الأندلس، ثم نجد مجلدي الكتب يطبقون الورق على الطريقة الصينية مثنى ورباع وثمان وسداس عشر في الحجم المعروف باسم المنصوري أو كما يعرف الآن باسم «فوليو» والبغدادى وهو المعروف الآن باسم «كوارت». وكما نجد اليوم الكتب كذلك الحال مع عمال الجلد فهم الذين كانوا يزخرفون جلد الكتاب. وكم رزمة ورق وكم لتر مداد من الكحل والصمغ العربي تستهلك سنوياً؟ وكم من ورق غزال أو ماعز يستخدم والرق الجميل والسختيان وغيرها؟ فتجارة الكتب والصيدلة مهنتان من اختراع العرب. فتاجر الكتب رسول من رسل الثقافة، كما أن مكان بيعها مركز ثقافي هام في المدينة. فهذه التجارة وجدت أولاً لزم من طويل فقط عند العرب. ففي سوق الوراقين هكذا كان يسمى الحي الواقع عند باب البصرة حيث كان يوجد أكثر من مائة وراق في محالهم -كان يلتقي علماء بغداد، وعلماء العالم الإسلامي. هنا يلتقي الفيلسوف مع الشاعر والفلكي حول الكتب الجديدة، وهنا التقى الطبيب مع المؤرخ وجامع الكتب النادرة، وهنا كانت تعقد حلقات المحاورات العلمية والندوات الأدبية، فهنا مركز الثقافة العربية، هنا يتبادل العلماء الآراء. لذلك لا عجب إذا ظهر عام 1000 م «كتاب تبادل الآراء»، وهو يشتمل على مائة حديث وستة جرت بين العلماء في بيت فيلسوف حياً وفي سوق الوراقين أحياناً. وفي ذلك العصر ظهر فهرس ابن النديم، وهو من أشهر تجار الكتب كما كان من كبار العلماء، وفي هذا الفهرس ذكر سائر الكتب العربية الأصلية أو المنقولة إليها من اللغات الأجنبية. وقد عرف كل مؤلف أو كل كتاب بمقدمة شخصية يعرف فيها القارئ بصاحب الكتاب. وقد قدم ابن النديم لهذا الكتاب بمقدمة تحدث فيها عن حيل الوراقين والاعبيهم. وابن النديم كزملائه الوراقين على جانب عظيم من

العلم والمعرفة، فقد حضر محاضرات مشاهير فلاسفة عصره كما تزاور معهم، وكان على صلة قوية بهم وبمختلف الهيئات العلمية التي لعب دورًا هامًا في الحياة العقلية العربية في القرن العاشر الميلادي، لقد كان ابن النديم صديقًا حميمًا لعلي بن عيسى أكبر طبيب عيون في العصور الوسطى، كما كان صديقًا لكثيرين من العلماء الآخرين البارزين، وكان يمضي الليل معهم في محاورات ومساجلات وندوات علمية؛ وهذا العالم الفاضل الواسع الاطلاع لم يكن نادرًا في ذلك العصر وفي تلك البيئة بين زملائه المنتشرين في مختلف مراكز الثقافة العربية والذين كانوا يأتونه بإنتاج العصور المختلفة في مختلف فنون العلوم والمعارف. ومن بين هذه الكتب التي كانوا يحضرونها إليه القديمة النادرة وهي مصادر هامة لعلم فهرسة الكتب ومعرفتها ولا يبحث عنها الناشر بل الوراق الذي كان يتنقل بين مختلف المدن باحثًا عن كنوز علمية جديدة تملأ خزانته. ومما يذكر نقلًا عن ابن أبي أصيبعة في ترجمته لحياة الطبيب «أفرايم بن الزفان» ما نصه: «هو أبو كثير أفرايم بن الحسن بن إسحق. . . وهو من الأطباء المشهورين بديار مصر، وخدم الخلفاء الذين كان في زمانهم، وحصل من جهتهم من الأموال والنعم شيئًا كثيرًا جدًا. وكان قد قرأ صناعة الطب على أبي الحسن علي بن رضوان وهو من أجل تلامذته، وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب، وفي استنساخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها، وكان أبدًا عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم منه. ومن جملتهم محمد بن سعيد بن هشام الحجري وهو المعروف بابن ما ساقه، ووجدت بخط هذا عدة كتب قد كتبها الأفرايم وعليها خط أفرايم. وحدثني أبي أن رجلا من العراق كان قد أتى إلى الديار المصرية ليشتري كتبًا ويتوجه بها وأنه اجتمع مع أفرايم واتفق الحال فيما بينهما أن باعه أفرايم

من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلد وكان ذلك في أيام ولاية الأفضل بن الأمير الجيوش. فلما سمع بذلك أراد أن تبقى تلك الكتب في الديار المصرية ولا تنتقل إلى موضع آخر فبعث إلى أفرايم من عنده بجملة المال الذي قد اتفق تثمينه بين أفرايم والعراقي ونقلت الكتب إلى خزانة الأفضل وكتب عليها ألقابه، ولهذا فإني قد وجدت كتبًا كثيرة من الكتب الطبية وغيرها وعليها اسم أفرايم وألقاب الفاضل أيضًا. وخلف أفرايم من الكتب ما يزيد على عشرين ألف مجلد ومن الأموال والنعم شيئًا كثيرًا». واهتمام سياسي خطير مثل الأفضل بالعلوم والفنون والفلك والخصومة الشعرية التي نشبت بينه وبين أخيه -شيء طبيعى، فالولع بالعلوم والآداب من خصائص العرب في ذلك العصر كاهتمام جيل اليوم بكرة القدم، فالعناية بالعلوم كانت من مقومات الحضارة والمدنية والمفاخرة في ذلك العصر. فنحن نجد رجالا مثل أسامة بن منقذ الذي ذكر ما ذكر من أخبار تقشعر لها الأبدان خاصة بالطب والجراحة عند الإفرنج، وحدث أن غرقت يومًا ما سفينة له وسلب الصليبيون كل ما فيها وأذاقوا عشيرته من العذاب ألوانًا وفي ذلك يقول أسامة: إلى الله أشكو فرقة دميت لها جفوني وأذكت بالهموم ضميري تمادت إلى أن لاذت النفس بالمنى ... وطارت بها الأشواق كل مطير فلما قضى الله اللقاء تعرضت ... مساء دهري في طريق سروري إن هذه المعاني لم تصدر عن عالم شاعر بل عبارات محارب وسياسي كان كغيره من أبناء جلدته قد تلقن القراءة والكتابة منذ الطفولة.

شعب يدرس

ولا يفوتنا أن نذكر أن وسط أوروبا كان فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين مسرحًا للأمية التي بلغت نسبتها خمسة وتسعين المائة. وبينما حاول كارل الأكبر (شارلمان) وهو في سن متقدمة تعلم الهجاء، وحتى هذه التوطئة قد أعيته. وبعده بعدة قرون نجد الأشراف الأوروبيين يتحايلون على التهرب من تعلم القراءة والكتابة هذا الفن العسير، وفي الأديرة كان قليلاً جداً عدد الرهبان الذين يستطيعون القراءة والكتابة، بل في دير القديس جالين لم يوجد في عصر من العصور راهب واحد يقرأ ويكتب، وقد كان ذلك عام 1291 م -إذ بنا في نفس العصر نجد في قرى ومدن البلاد العربية آلاف الآلاف من المدارس التي تضيق بالصبيبة من الجنسين وهم في سن السادسة والحادية عشرة وكانوا يتعلمون القراءة والكتابة، قراءة القرآن الكريم وكتابته، إذ كانوا يستخدمون لهذه الغاية ألواحاً خشبية ومداداً أسود بنيًا، ومن ثم يتلون القرآن سورة سورة بعد أن يحفظوها، ومن ثم يتقدمون في الدراسة تدريجيًا ويتلقنون النحو والصرف. وكان السر في تأسيس هذه المدارس الرغبة الصادقة في إبداء حسن إسلام أولئك الذين يعتنقونه. فقد نشأت هذه المدارس حرة وهبة وليست قسوة وجبرًا، وإن إتقان القرآن قراءة وكتابة كان من مقومات الثقة في الدين وفهم كتاب الله عز وجل. وهنا نجد البون شاسعًا بين الشرق والغرب وموقف الشرقيين والغربيين من الكتب المقدسة. فكتاب المسيحيين المقدس كان حكرًا على رجال الدين فقط. أما المسيحي العادي فكان يجهله جهلاً تامًا، فرجل الدين فقط هو الذي يقرأ ويفهم لغة الوحي. ومنذ عام 800 م يعظ الواعظ المسيحي في لغة لاتينية لا يفهمها الشعب، لذلك قرر المجمع المقدس الذي انعقد

في «تور» أن تكون لغة الواعظ هي لغته القروية الدارجة الساذجة، ومن هنا نتبين أنه حتى بين رجال الدين لم تتطلب الكنيسة الثقافة الدينية العميقة، وكانت تكتفي من رجال الدين بهذه الثقافة اللاتينية الضحلة والتي بعثتها النهضة العلمية الكارولينية. أما الشعب المسيحي وقتذاك فلم يكن في حاجة إلى دراسة اللاتينية، وذلك لأن تثقيف الشعب لم يكن من الأمور المرغوب فيها في ذلك العصر أما في العالم الإسلامي فقد كان الحال غير الحال فكان من مصلحة الدولة العربية نشر الثقافة والمعرفة بين رعاياها، فالأطفال من جميع الطبقات كانوا يقصدون المدارس الأولية نظير نفقات ضئيلة جدًا، وعندما شرعت الدولة في تعيين المدرسين منحت المجانية الكاملة لغير القادرين، هذا وفي جهات أخرى كان التعليم مجانيًا لسائر الطبقات حتى في إسبانيا. ففي قرطبة كانت توجد ثمانون مدرسة عامة، وفي عام 965 م أسس الحكم الثاني سبعة وعشرين مدرسة أخرى لأولاد الفقراء، وفي القاهرة أسس المنصور قلاوون مدرسة بالمستشفى المنصوري خاصة بالأيتام كما قرر لكل طفل يوميًا رطل خبز وجلبابًا للشتاء وثانيًا للصيف. وكان كذلك للبدو مدرسون متنقلون. إن ثغرة واحدة لم توجد في العالم الإسلامي وكان يجب سدها. فضلًا عن أن التعليم عند العرب لم يبق في حدوده الأولية الضيقة وذلك لأسباب سياسية فالخصومة بين المعارضة وأحزاب الحكومة ومنافسة كلٍّ في كسب جموع الشعب إلى صفوفه أدت إلى العمل على رفع مستوى الشعب علميًا بغض النظر عن اختلاف الطبقات، وقد دفعت هذه الفكرة إلى التنفيذ في القرن العاشر الميلادي الأحزاب اليسارية لكي تتمكن من القيام بحركة دعائية واسعة ضد المحافظين الذي اهتمت برامجهم السياسية بالمطالبة بتعميم تعليم مختلف الطبقات، وأسسوا المدارس العالية وجعلوا التعليم فيها مجانيًا. فلم يسع

الحكومة إلا أن سارعت وافتتحت مدارس أخرى لتقاوم دعاية خصومها، وهكذا انتشرت المدارس العالية في مختلف المدن الإسلامية وكان الطلاب يقطنون في المدارس ويتنازلون شهرياً مرتبات لسد حاجاتهم ونفقاتهم الخاصة. وكانت الطوابق الأرضية في المدارس معدة للمطابخ وإعداد الطعام وتناوله، كما أنشئت بهذه الطوابق أيضاً الحمامات. أما حجر الدرس فكانت في الطابق الأول، وكانت تحيط بالغرف الدهاليز والمكتبة وكلها تقع حول النافورة الموجودة في الردهة الداخلية. وهنا كان يتعلم الشبان العرب الطموحون: القرآن الكريم، والحديث الشريف والنحو والصرف، وفقه اللغة والفصاحة والبلاغة والآداب، والتاريخ، وعلم الشعوب، والجغرافية والمنطق، والرياضيات، وعلم الفلك. فكان المنهج الدراسي منهجاً غذياً، كما كانت طريقة التدريس تعتمد على المناقشات التي كانت تثار بين الطلاب وأساتذتهم. وإلى جانب ذلك كان هناك مساعدون من الخريجين أو المتقدمين لمعاونة الطلاب على فهم المشاكل وتحصيل المواد، فكان طنين المذاكرة والتحصيل كطنين النحل إذ كان الطلاب يجنون شهد المعرفة من ألف زهرة من أزهار الحكمة. ومن هؤلاء الطلاب كانت تتكون طبقة القادة سواء في الدين أو السياسة. ويذكر أن أحد الأساتذة عاد يوماً من جولة من جولاته الاستطلاعية فذكر أنه لم يتوجه إلى مدينة أو مكان ما إلا وجد تلميذاً من تلاميذه قد تقلد منصباً هاماً. وكان بعض الفلاحين يسلمون أولادهم إلى مدرسين خصوصيين لتعليمهم مقابل مكافأة تدفع نقدًا أو حبوبًا، ويتولى المدرس تدريس الطلاب في بيته الخاص على أن يتقنهم الثقافة التي تؤهلهم لتقلد وظائف خاصة في الدولة، كأن يصير الطالب قاضيًا أو موظفًا من موظفي القصر. ولا تقتصر مهمة المدرس الخاص على تلقين الطالب العلوم نظريًا، بل كان يتولى أيضًا تدريبه عمليًا كأن يرافقه في الأسواق

ويشاركه في شراء الأشياء أو زيارة الحمامات أو دخول المسجد. كذلك قد نقرأ أحياناً كيف أن أستاذاً يشكر تلميذه الذي عنى به أثناء مرضه، فباع الطالب حماره الوحيد ليشتري بثلثه دواء لأستاذه، أو كيف أنه كان يحمل أستاذه المريض على كتفه إلى الحمام الساخن. وجرت عادة بعض الآباء أنهم كانوا يحضرون مربين خصوصيين لتربية أبنائهم في منازلهم. وإن طفلاً نابغاً مثل ابن سينا الذي حفظ القرآن وهو ابن عشر سنوات، كما حفظ كثيراً من الكتب اللغوية عن ظهر قلب قد تخطى حدود المدرسة وضافت هي به. فقد بدأ حياته الدراسية بالشرعية وكان ذلك على يد مدرس خاص، كما تعلم الحساب على يد تاجر فحم، ثم نجد والده يستدعي أبا عبد الله النثيبي إلى منزله وكان يدعي معرفة الفلسفة وأخذ يدرس الطفل النابه إيساجوجي فورفوريوس. لكن سرعان ما فاق الطالب المدرس وأجاب عن الأسئلة أحسن منه ثم شرع يدرس المنطق فأدرك ابن سينا أن أستاذه لا يفقه شيئاً من هذا، فشرع ابن سينا يدرس المنطق بمفرده مستعيناً بتفسير خاص كما استعان بالمدرس لفهم أويقليد، فقرأ عليه خمس أو ست صفحات وواصل هو بمفرده دراسة الباقي. ثم أقبل على الماجسطي، وما كاد ينتهي من المقدمة حتى أقبل على الهندسة، وقال النثيبي: في استطاعتك أن تقرأ هذا الكتاب مستقلاً ومن ثم تشرحه لي لأصح لك أخطاءك. ولم يدم هذا الحال طويلاً إذ غادر النثيبي بخارى فأقبل ابن سينا باشتياق على دراسة الطبيعة وما بعد الطبيعة، كما شرع في دراسة الطب على عيسى بن يحيى المصحي فقرأ أصعب الكتب ثم قال فيما بعد إن الطب ليس صعباً، وقد ألم به في زمن قصير، إذ كان عمره وقتذاك ست عشرة سنة. وصرف نحو عام ونصف عام في التوسع في دراسات علمية أخرى وبخاصة المنطق والفروع الأخرى للفلسفة ومراجعتها. وفي ذلك الوقت شفى ابن سينا السلطان

الذي اختاره عملاً بنصيحة أطبائه المسنين. وقد استكمل دراساته في مكتبة القصر وفي المستشفيات؛ ولما بلغ الثامنة عشرة كان قد أتم دراسته. وكأني بالفوز العظيم والتوفيق الكبير في تحصيل العلوم من خصائص هذا العبقرى. أما الطريق العادي لكل طالب فهو التوجه إلى المسجد، إذ إن المساجد ليست دور عبادة فقط بل دور علم وتعليم أيضاً، والعلم كما يقول الرسول فوق العبادة العمياء. ألم يقل النبي هذا الحديث: «مِذَاذُ أَقْلَامِ الْعُلَمَاءِ خَيْرٌ مِنْ دِمَاءِ الشَّهَدَاءِ!» ولا شك في أن روما تدخل صاحب مثل هذا القول في زمرة الزنادقة. ففي المساجد يجلس إلى جوار الأعمدة الدقيقة الجميلة الأساتذة وحلقة الدرس من الطلاب. وهم يلقون محاضراتهم والأبواب مفتوحة والحضور مباح للجميع. لكل رجل وكل امرأة، ولكل فرد الحق في توجيه الأسئلة إلى الأستاذ وهذا مما يضطره إلى الدقة في التحضير والاستعداد للمحاضرة— ولكل فرد الحق في أن يحاضر إذا ما شعر بأنه متمكن في مادته لكن أسئلة الطلاب تحول دون وصول الأدعياء إلى مكان الأستاذية. ففي صحن المساجد كان للطلاب الحق في أن يستمع إلى من يشاء من الأساتذة ولا سيما المشهورين منهم والذين يفدون من مختلف أرجاء العالم العربي، فالعلماء الذين هم في طريقهم إلى الحج ينتهزون فرصة مرورهم بمركز شهير من مراكز البحث والدرس فيلقون دروسهم، فنجد هؤلاء ومنهم المؤرخ والجغرافي والنباتي والمحدث والأديب وهم من بين أبناء البلاد العربية الممتدة من المحيط الأطلسي إلى بحر الخزر، فكان هؤلاء العلماء يقصدون أساتذة دمشق أو بغداد وقد يكونون هم أيضاً أساتذة الأزهر في القاهرة أو القيروان أو فاس أو الزيتونة في تونس، فهؤلاء الحجاج كانوا ينقلون في الوقت نفسه نقل الصحافة فهم ينقلون ما يجري في طليطلة أو الري وهكذا من البصرة حتى فاس وقرطبة. وما أسهل السرقات الأدبية

والعلمية في مثل هذه الرحلات وتلك الأسفار إذ تنتقل الآراء العلمية الجديدة والنظرية الخطيرة من فم إلى فم، ويذكر يحيى بن عيسى في شيء من البساطة أنه سمع عن أبي بكر البغدادي كيف أن الشيخ سعيد بن ياقوت أعلن هذا الرأي في مجلس عام. إن العربي لن يلوك لسانه أفكار الآخرين، فكل من يريد استخدام كتاب لمؤلف آخر في الدرس، عليه أن يحصل قبل كل شيء على موافقة كتابية من المؤلف، فليس من المسموح به أن أحدًا يستشهد في محاضراته ولو شفويًا بأقوال أستاذه دون أن يكون قد حصل على تصريح مكتوب، كما لا يجوز لأحد أن يستشهد أو ينشد أشعار شاعر دون رضاء الشاعر عن هذا، كما هو الحال في الجاهلية حيث كان للراوي الحق فقط في رواية ونشر شعر شاعره. هكذا كان احترام حقوق المؤلفين أو الشعراء أو آراء الآخرين. فكل مؤلف حق حماية مؤلفاته طيلة حياته، وبعد وفاته ينتقل هذا الحق إلى ورثته. كما أن له الحق في أن يوصي بأن يرثه أبناؤه أو أحد تلاميذه. فيروى عن أستاذ أنه كان سخيًا في منح الإجازات الدراسية لتلاميذه حتى قال فيه تلاميذه: إنه يغطي الأرض بالشهادات خاصًا بما يسمع وإجازات للتدريس كذلك. والتصريح بنشر ما يقرأ أو يسمع يعتبر دليلًا على كفاية الطالب، والذي يحصل على الإجازة يحصل في نفس الوقت على حق التدريس علانية أي إجازة التدريس «ليسنτία دوكندي»، وهكذا نجد حق التأليف أو الاختراع العربي الذي كان يلزم إنشاء المدارس العليا العربية ينتقل إلى الجامعات الأوروبية، وهذا هو أصل الدرجة العلمية الجامعية المعروفة باسم «ليسنتياتين» والتي ما زلنا نجدها حتى اليوم في الدرجة اللاهوتية ليسانس اللاهوت، وربما أيضًا «البكالوريا»، وهي تقابل في العربية «الحق في تفويض آخر بالتدريس»، أعني «بحق الرواية». ومما لا شك فيه أن الجامعات

العربية التي أئبعت وازدهرت منذ القرن التاسع الميلادي، ومنذ عصر «جربرت» تغري وتذبذب بعض المتعششين الأوربيين إلى العلوم والمعارف، فكانوا يتسللون سرًا عبر جبال البرنات، ولا غرابة في هذا فالجامعات العربية كانت قد بلغت مرتبة رفيعة جدًا، وما كانت هناك في مختلف أنحاء العالم جامعة تنافسها، لذلك نظر إليها الأوربيون على أنها الصورة المثالية للجامعات عامة وبخاصة الأوربية، فلا غرابة إذا رأينا الأوربيين يقلدونهم فيقتبسون عن الجامعات العربية الإجازات العلمية ونظام الكليات وطرق التدريس. جميع هذه الهبات وهبها العرب للأوربيين. لم يقدم العرب لأوربا البناء فقط بل محتوياته أيضًا أعني العلوم والمعارف. فقد أهدوا لأوربا مواد هذه الدراسة اليونانية، فالعرب قد اعترفوا بأهميتها وضرورة تدريسها لذلك أعطى العرب أوربا العلوم اليونانية والفلسفة اليونانية. فهذا المدح القيم الذي يتجاهل ويتعالم عن الإنتاج العربي العلمي، هذا الإنتاج العربي الذي هو الدعامة التي تقوم عليها المعرفة الأوربية، والذي يتفوه به الأوربيون جريمة وإثم لا تجاه العرب فقط بل تجاه الحقيقة ذاتها. وسيطًا كان أيضًا اليونانيون والهنود فالعالم اليوناني، «تاليس» وكذلك «فيثاغورس» يدينان بالفضل في معرفتهما الرياضية وما حصَّلاه لمصر، وفي الفلك لبابل. فهذان العالمان اليونانيان أخذوا عن مصر وبابل هذه الأصول وتلك القواعد، فاليونان ورثة، فقد ورثوا الشرق القديم، واليونان هم الوسطاء الذين نقلوا عن الشرق القديم علومه، ومن ثم قدموها إلى الشعوب الأخرى، كما هو الحال مع العرب فهم وسطاء اليونان والشرق القديم ومن شعوبه انحدروا، وأوربا هي وريثة العرب والعالم القديم. وكل عصر يكيف العلم القائم ويشكله كما يريد أبناء العصر، فإن كان هؤلاء من الرجال الأفاضل تناولوا هذا العلم وأبدعوا فيه فنحن نجد «تاليس» يدرك في

القواعد الهندسية المصرية الأصول العلمية العامة، وهكذا نجد العقلية اليونانية تتجلى في المادة التي كانت خاصة وتجعلها شيئاً عامّاً وتخرج من حقل التجارب الواقعية إلى العملية المجردة، وهذه خاصية امتازت بها العقلية اليونانية. والواقع أن كل ثقافة سواء المصرية القديمة أو البابلية تكوّن وحدة مستقلة مثلها مثل الثقافة العربية، أو الأوربية حيث نميز في شيء من الوضوح بين حالتي الثقافتين. ومن الخطأ أن يستخدم شخص ما، إذا ما أراد دراسة ثقافة بعينها، نفس المقاييس لكل الثقافات التي يعرض لها. كان العنصر الهام في العقلية اليونانية يهتم بإثبات جوهر الشيء، حتى إذا ما تعب من السير في طريق التجارب واحتقر العمل اليدوي في الحقل مثلاً واعتبر أن مثل هذا العمل هو من شأن العبيد لا الأحرار، فإن هذا اليوناني يطير إلى جبل أوليمب بادئاً عن القوانين العامة والأفكار التي مكنته من بلوغ منتهاه وإدراك الخلود، لكن تنقصه القدرة على المقابلة عن طريق الملاحظة فالتجربة واقعية. بدهي أن يونانيين لاحظوا وجربوا وقابلوا بين ما قاموا به هنا وهناك من تجارب، بدهي أن أرسطو أجهد نفسه في سبيل دراسة الفرد، لكن هيكل العلوم اليونانية لم يتغير بسبب مسلك أرسطو فالتجارب اليونانية والطبيعة اليونانية والكيمياء والحيوان والنبات ظلت بل بقيت فلسفة، وبذلك فهي يونانية. لكن العقلية الهلينية اشتهت طريقاً آخر بخلاف الأوربيين، كما سلكت كذلك طريقاً يخالف طريق العرب. من الخطأ أيضاً، كما حدث اليوم، أن نقابل بين العرب واليونان، وأن نتهم العرب بنقص في فهم العالم وتفسيره تفسيراً فلسفياً، كذلك ليس من العدل أن نصف العلوم العربية بأنها تقليد أعمى للعلوم الهلينية، وأن العربية عبارة عن أخذ ورد للعلوم اليونانية أو الهندية، كما أن إنتاج أمثال «تاليس» و «فيثاغورس» هو نقل عن المصريين والبابليين. إن العرب عندما أخذوا ما أخذوا عن

اليونانيين أخضعوه لأبحاثهم التجريبية وتوسعوا فيما أخذوا عن اليونانيين، نعم إن العرب هم مخترعوا العلوم التطبيقية والوسائل التجريبية بكل ما تدل عليه هذه العبارة. والعرب هم المخترعون الحقيقيون للأبحاث التجريبية. ومما هو جدير بالذكر أن العلماء الهلنيين وجلهم ليسوا من أصل يوناني بل من أصل شرقي امتازوا بالاستعداد للملاحظة ومختلف الوسائل التجريبية، ولو اضطر هذا العالم الهليني إلى إخضاع العملي للنظري أحياناً. فكل بحث عند العرب يجب أن يبدأ ويعتمد على حقائق مستقلة، والعرب هم أول من نادى بهذا، ومن ثم تطور البحث، فبعد أن كان يعني بالحقائق الجزئية أصبح يهتم بالكميات التي تقوم على الحقائق الثابتة. وعن طريق المثابرة في البحث والمقاييس استطاع العرب حصر الحقائق والإحاطة بها، وبعد تجارب مضنية كثيرة أجريت على النظريات قرر العربي قبولها والاعتراف بصحتها أو رفضها، هذا إلى جانب حرية البحث والتفكير. وقد سبق العرب الأوروبيين في هذا النوع من الأبحاث الحرة بنحو ثمانية قرون وشعارهم «الشك أول شروط المعرفة». واعتماداً على هذا الرأي ظهر العلماء الطبائعيون العرب، وكانوا أول من فتح الطريق في العالم فسار في طريقهم الأوروبيون وظهر أمثال: «روجير بيكون» و «ألبرتوس مجنوس» و «فيتيليو» و «ليوناردو دا فنشي» و «جليلي». وهناك حقيقة يجب أن نقررها مرة ومرة، وهي أن العرب لم ينقذوا الثروة العقلية اليونانية فقط، ولولا هم لضاعت وقبرت، بل العرب هم الذين نظموا فيوبوها ورتبوها، ومن ثم قدموها لأوربا في ثوب علمي قشيب. العرب هم مؤسسو الكيمياء التجريبية وكذلك الطبيعة العملية والجبر والحساب بمعناه الحديث، وحساب المثلثات الكروي، وعلم طبقات الأرض، والاجتماع وغير ذلك من الاختراعات الكثيرة الأخرى في

مختلف العلوم والمعرفة، وغالبًا ما سطا عليهم اللصوص ونسبوها إلى أنفسهم. فالعرب هم الذين قدموا للعالم أغنى وأثمن هدية، فهم أصحاب البحوث المنتظمة في الطبيعيات، هذه البحوث التي كانت العامل القوي في بعث العلوم الطبيعية في أوربا. ولعل أول وأعظم أوربي تأثر بالعقل العربي والعلوم العربية ولم يخش التعاون مع العرب هو القيصر العظيم، القيصر الأشتوفي الصقلي «فريدريش الثاني».

الكتاب السادس موحد الشرق والغرب

دولة النورمان .. دولة بين عالمين

أضاف القيصر الأشتوفي «هينريش» السادس بعض القطع الثمينة عند عودته من إيطاليا إلى المجموعة النادرة التي هي ملك للدولة المقدسة. وهذه القطع القيمة عبارة عن المعاطف التي توج فيها كثيرون من قياصرة أوربا وملوكها، ومن بينهم ابنه الأكبر «فريدريش» الثاني حيث توجوا جميعهم في روما. وأثنى وأجمل هذه التحف النادرة الموجودة في الدولة الرومانية المقدسة كان ولا شك معطف القيصر. فعلى القماش الأحمر الأزرق توجد نخلة تحمل ثمارًا تبرق كالذهب، وعلى كل طرف من طرفي ناحيتي المعطف رسم أسد قوي يبطش بجمل. أما ميدان القتال فهو من لونين: الأحمر والذهبي يحيط به زنار أسمر قائم وصفان من اللؤلؤ يبرزان الزخرفة، والحافة عبارة عن شريط عليه كتابة جاء فيها اسم الشخص الذي زخرفها بالذهب ووطنه وزمن إنجاز العمل «صنع في المصنع الملكي، وفيه السعادة والحظ والشرف والتمام. .» هكذا نص شعار المصنع «في مدينة صقلية عام 538 هـ». فهل يرجع هذا المعطف إلى أيام «تيوديريش»؟ كلا. فالكتابة التي على حافة معطف القيصر الألماني مكتوبة بحروف عربية، وقد اعتاد الطراز العربي استخدام الشهور القمرية والسنة الهجرية، كما كانت النقود التي تضرب في صقلية تحمل التقويم العربي الهجري. فلمن صنع هذا المعطف الأزرق الثمين جدًا وعليه الأسد والجمل حيوانا الصحراء؟ .

إن العام الهجري 528 يقابل الميلادي 1133، في عاصمة صقلية: بالرمو، هذه المدينة العظيمة التي أصبحت وكأنها مدينة القصص والخيال، عاصمة لملك اشتهر بإعجابه بعظمة الشرق وأبهته، وهذا هو «روجير» الثاني، وهو ابن فاتح الجزيرة وقاهرها الأمير النورماني «روجير» الأول الذي انتزع هذه الجزيرة من العرب بعد أن حكموها زهاء ثلاثة قرون، ثم نجد أرملته الأميرة «أديلاسيا» هذه السيدة الذكية التي جعلت من بالرمو العاصمة العربية عاصمة للدولة النورمانية، وبذلك وضعت مركز ثقل الدولة الفتية بعيدًا عن المركز الشمالي الواقع حول مسينا، وهو يوناني بيزنطي، بينما بالرمو تقع في المركز العربي والبيئة العربية، وبذلك مكنتها «أديلاسيا» من التوسع والازدهار. وبعد أن تمكن ابنها من ضم جنوب إيطاليا إلى مملكته استطاع مطالبة سيد روما بالتاج. ولهذا الملك روجير الثاني ملك الصقليتين صنع أحد أفراد رعيته وهو عبد الله الطراز العربي الرمز العظيم للقوة الملكية: الأسدان اللذان يبركان على الجمل في التراب «رنك» البيت المالك النورماني. وإذا سأله سائل: ما الدليل على هذا الطغيان؟ حار جوابًا. . . فقبل قرنين كان أجداده من جهة القيروان في تونس العاصمة القديمة منذ أيام سيدي عقبة فاتح شمال إفريقيا قد أفلحوا إلى صقلية فأدخلوا فيها النواير التي جعلت من أرضها الجرداء حدائق غناء، فقد جاءوا ومعهم من وطنهم الأول النخيل والسني، كما غرسوا البرتقال والفسطق وشجيرات المر إلى البنان (الموز) والزعفران. لقد أغنى العرب تلك الأراضي الفقيرة بحقول القطن وقصب السكر كما توجوا البلاد بتاج من القلاع الحصينة والقصور الشامخة والمساجد التي تعتبر آية في الفن والجمال. فابن حوقل الجغرافي يحصي بها حوالي عام 970 م نحو ثلثمائة مسجد في بالرمو فقط، هذا إلى جانب القصور التي كانت موضوع شعر الشعراء

والمغنين. كما كان بها الفلاسفة والأطباء والطبائعيون والرياضيون يتعاونون جميعهم في نشر العلم والثقافة ورفع مستوى الشعب. هنا ألف المؤلفون كتبهم ودونوها على ورق أبيض ناعم، وهذا هو أول ورق جاء إلى أوروبا قبل أن تعرفه من قبل عن طريق إسبانيا بزمان بعيد. هنا قال الشعراء شعرهم في عروض لم يعرفه اليونان أو الرومان أو الجرمان. وهذا العروض الشعري غزا شعر سائر الشعوب الراقية. وهكذا نجد جزيرة صقلية تصبح للعرب وطنًا، ولما انقض عليهم الأسد النورماني اعتقد كثيرون «أن نير العبودية المسيحية» لن ترضى به العرب وأن حنينهم إلى وطنهم الأول سيقتلهم، لقد حن العرب إلى ذلك الوطن البعيد حيث تشرق الشمس وترسل أشعتها دفنًا وحيوية وقوة وعطرًا للإنسان والحيوان والنبات، وكذلك أنواع البخور التي كانت تعطر أرجاء الجو فيتنفس الإنسان الهواء العليل الذي يطارد الهموم والأحزان. وقد ألم العهد الجديد الذي حل بالجزيرة كثيرين من الشعراء أمثال عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الصقلي السرقوسي، فقد هاله ما جلب العهد الجديد على الجزيرة فرحل إلى أشبيلية، ومن شعره في ذلك: ديار تمشيت إليها الخطوب كما تتمشى الذئاب الضراء وقد جاء في هذه القصيدة التي مطلعها: نفي هم شيبى سرور الشباب ... لقد أظلم الشيب لما أضاء ويستطرد ابن حمديس في قصيدته ويقول: وراءك بحر لي جنة ... لبست النعيم بها لا الشقاء إذا أنا حاولت منها صباحًا ... تعرضت من دونها لي مساء فلو أنني كنت أعطي المنى ... إذا منع البحر منها اللقاء ركبت الهلال به زورقًا ... إلى أن أعانق فيها ذكاء ولا تقف شكوى ابن حمديس ولا حنينه عند هذه الأبيات فديوانه يفيض بالحسرة والألم والحنين، لكن بالرغم من ذلك يرغب في العودة إلى الوطن الذي يحتله الأجانب. إن جروح ودموع أولئك الذين بقوا في

الجزيرة قد نصبت وبخاصة بعد أن أصبح المنتصرون عبيدًا للمغلوبين، وتتلذذوا عليهم، وأقبلوا على تحصيل الثقافة والعلوم على أيديهم. حقًا إن النورمانيين قد وجدوا أنفسهم في بيئة دينية جديدة ما كانت تجول بخاطرهم فكانوا أنى أداروا وجوههم لا يشاهدون إلا الجمال والأبهة وحياة أخرى أرفع وأرقى من تلك التي كانوا يحويناها، إنها حياة لا عهد لهم بها من قبل، هذا إلى جانب فن معماري أقرب إلى القصص منه إلى أي شيء آخر، هذا إلى لغة وشعر بلغا منزلة فنية عليا إلى جانب علم رفيع، لذلك لا عجب إذا وجدنا النورمانيين يؤخذون بهذه البيئة الجديدة ويقعون أسراها عن طيب خاطر. ولماذا لا تؤثر البيئة الإسلامية في غير المسلمين، مهما اختلفت عقائدهم وأجناسهم متى سنحت فرص الاتصال بهم؟ ألم يحدث أن الفرسان المسيحيين، لما كانوا في البلاد المقدسة وبخاصة ملكهم «بلدوين» الأول، رفضوا الانصياع للعقيدة الصليبية ولم تحل إنذارات البابا دون اقتباس عادات وتقاليدهم المسلمين أعدائهم في العقيدة، وبلغت درجة تأثر أولئك الفرسان المسيحيين وعلى رأسهم بلدوين بالمسلمين والإسلام أنهم حرّموا على أنفسهم أكل لحم الخنزير كما التزموا أكل الطعام العربي ومراعاة كل ما هو عربي حتى العملة العربية والمحلة بالآيات القرآنية الكريمة. لقد جاء الصليبيون «لمقاتلة أعداء الله» فحدث أنهم قلّدوا المسلمين في كل شيء حتى إن المراسلين الذين كانوا في القدس والذين كان يسرهم أن ينشروا عنهم أنهم يحاربون في سبيل الله، قال أولئك المراسلون: «نحن الذين كنا أوريبيين أصبحنا الآن شرقيين». أما حكام صقلية الجدد فقد كانوا أسبق من غيرهم إلى اقتباس العادات والتقاليد والثقافة الإسلامية رغمًا من الاتفاقية المبرمة بينهم وبين البابا. وقد أسرف هؤلاء الحكام وغيرهم من سكان صقلية المسيحيين في التحلل من التقاليد المسيحية حتى الطقوس

الكنيسة وشعروا بالسعادة عندما ساروا في طريق الأمراء العرب. لقد أقام أولئك الحكام المسيحيون في هذه القلاع العربية، فقصورهم تحيط بها الحدائق الغناء حيث تتدفق فيها الينابيع الصناعية، كما زخرفوا هذه القصور بالزخارف العربية والمياه المتحجرة في أعلى الكهوف والأقواس المدببة، ولم يترددوا في تسميتها بأسماء عربية وأن يدشنوها باسم الله الرحمن الرحيم: بسم الله الرحمن الرحيم قف ساكنًا وتأمل عملاً عظيمًا شامخًا إنه ملك خير ملوك الأرض «فلهم» الثاني. إن الزاهد هو الذي ينصرف عن الثوب الحريري المبهف إلى اللباس الصوفي الخشن الذي يؤلم الجسد بما يحدثه من حكة. وهذا الزاهد لن يقره أو يجاريه الأمراء والأميرات من بيت النورماني، فضلًا عن رغبة النورمانيين الملحة في الاندماج في هذه الحياة الناعمة الراقية التي تفيض على الحياة متعة ولذة وسعادة. وهكذا أصبحنا ندرك أنه ليس من البدهي أن يخوض أولئك الأوروبيون غمار حرب ضد أعداء عقيدتهم، ليس من البدهي أن يضحي الصليبيون بأرواحهم في القدس ودمياط، إن مثل هذه الحرب لا يمكن الاقتناع بوجوبها، وهكذا نجد وللمرة الأولى في تاريخ العالم المسيحي النورمانيين يقابلون التسامح العربي بتسامح آخر وفتوة سمحاء. وهذه الصفات رفعت من قدر النورمانيين وميزتهم على سائر الفاتحين المسيحيين، كما أن هذه الأخلاق وتلك المعاملة هي التي جعلت من دولتهم دولة ممتازة، كما أنه لم تزدهر في أوروبا دولة أخرى ازدهار الدولة النورمانية. فهل الأسباب التي دفعت النورمانيين إلى عدم تخريب وتدمير وتقتيل هؤلاء الوثنيين (! !) الذي خضعوا هي أسباب سياسية؟ أو هل اضطرت الظروف النورمانيين إلى معاملة العرب الذين كانوا يفوقونهم عددًا هذه المعاملة المعتدلة، والنورمان لم يعرفوا ولم يشاهدوا الفتوحات العربية والرعب الذي أدخلوه في قلوب الأوروبيين؟ أو أن

أسباب هذه المعاملة الحسنة للعرب سببها الفروسية التي اكتسبوها عن طريق الفتوة العربية التي اتخذها النورمانيون شعارًا لهم ومثالا يحتذى، هذه الفتوة التي قابلوها بكل احترام وتقدير؟ وكذلك الجرمان سرت فيهم الرغبة الملحة في معاملة الآخرين معاملة حسنة، ولتحقيق هذه الرغبة يجب أن يتحلوا بالشرف وكرم الأخلاق فأقبلوا على العرب وعاملوهم معاملة الند ونظروا إليهم على أنهم خصوم شرفاء، وقد ظلت هذه المعاملة الحسنة مجهولة لدى سائر الشعوب المسيحية الأوروبية أو الصليبيين أو متطرفي الأسبان الذين استردوا بلادهم ثانية واعتبروا فيما بعد مثل هذه المعاملة على أنها من الغرائب. وإن الإنسان ليذكر عبارات عمرو بن العاص قبل الاستيلاء على الإسكندرية ومسلكه عندما يقرأ ما قاله وصنعه الأمير «روبرت جويسكارد» عند أبواب بالرمو حيث أباح للمسلمين والمحاصرين حرية العبادة وتأمين حياتهم وممتلكاتهم، وقد وقى بوعده حتى بعد الاستسلام. ويعجب الإنسان أيضًا من الجرأة التي اتصف بها أخو «روبرت جويسكارد» ألا وهو الأمير «روجير» الذي بلغت ثقته بالعرب حدًا جعله يكل إليهم حكم البلاد وإدارتها، وقد أعاد التاريخ نفسه بعد قرن من الزمان فحيث كنا نجد العرب المنتصرين يؤمنون خصومهم المهزومين، والذين لا يدينون بدينهم على أموالهم وأرواحهم وممتلكاتهم وعقائدهم، كذلك صنع روجر الأول فقد أمن المسلمين من رعاياه على أراضيهم وأرواحهم وممتلكاتهم وعقائدهم، ولو أن فارقًا وقع بين العصرين، أعني عصر انتصارات العرب وعصر انتصارات النورمان، وهذا الفارق هو أن المهزومين الآن لا يحاولون تقليد المنتصرين في حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، بل العكس هو الصحيح، فالآن نجد المنتصرين المسيحيين الذين يقلدون المسلمون ويحاولون الاندماج فيهم وائتلافهم، إن المسيحيين هنا يقلدون المسلمين فالمسلمون

انتصروا أو انهزموا هم المثل الأعلى الذي يتحذى. وإنه لمن أثر التعاليم الإسلامية هذا الذي يتفق وعقلية الملك الجرمانى الملحد «ثيودوريش»، فقد كان يؤمن بالمذهب الإسلامى القائل: «لا إكراه فى الدين» فحرم الجراف الألمانى استخدام القوة لإجبار المسلمين من رعاياه على تغيير عقائدهم، لذلك نجد الأسقف الإنجليزى «أنسلم» يذكر أنه لما دخل الخيام العربية المقامة أمام أسوار «كبوا» غضب الأمير النورمانى غضباً شديداً، لما شعر أن هذا الأسقف الإنجليزى أخذ يبشر بالمسيحية بين جنوده المسلمين. وقد كتب مؤرخ الأسقف الإنجليزى يقول: «لماذا لم يرغب ورفض الجراف روجير أمير صقلية أن مسلماً واحداً من مسلمي صقلية يعتنق المسيحية، هذا ما لا أريد الاهتمام به وسيعاقبه الله». ولكن «عبد الله» مزخرف ملابس وأقمشة الملك روجير الثانى علم منذ زمن بعيد أن ضغط الأسد النورمانى ليس ثقيلًا على مواطنيه وأبناء ملته فقد كانوا يتلقون علومهم فى مدارسهم العربية، ومساجدهم وحماماتهم وأسواقهم كانت قائمة يقصدها المسلمون لإقامة شعائرهم وقضاء مصالحهم، كما منحهم الملك ثقته فاختر من بينهم أحسنهم دربة على الأعمال الإدارية لإدارة بلاده، كما شكل من بينهم فرقة عسكرية دائمة عاملة للضرب على أيدي المتمردين من أمراء «أبوليا»، كما أن الملك كان فى حاجة ماسة إلى المسلمين لتنظيم وتدعيم وتثبيت دولته الفتية، وما كان فى استطاعته النهوض بهذا العبء دون مساعدة العربى الذى كان الباب مفتوحاً أمامه بلوغ أعلى مراتب الدولة سواء فى الوظائف المدنية أو العسكرية أو فى الحاشية، كما ذكر مؤرخ عربى أن ملك النورمانيين قد تخلق بعبادات وخلق ملوك المسلمين، فأوجد فى حاشيته وظائف جديدة، وبذلك أخذ يتخلص تدريجياً من عادات الإفرنج وتقاليدهم وبخاصة أنه لم تكن لديهم مثل هذه الوظائف التى خلقها كوظيفة أمير

البحر مثلاً. وتعيين أمير للبحر كان أمراً ضرورياً إذ بعد الاستيلاء على الجزيرة أصبحت الحاجة ماسة إلى إنشاء أسطول دائم للدفاع عنها، كما كان حالها عندما كانت تحت سيطرة العرب، ولما كانت بالرمو هي عاصمة هذه الجزيرة، فقد أخذت تحتل مكاناً رفيعاً هاماً، كما أصبحت هي مركز القوة البحرية الرئيسية، وأصبح أمير بالرمو هو أمير الأسطول «أمير الرحل»، أعني أمير البحر (أدميرال). وفي أيام حكيم روجير الثاني كانت وظيفة أمير البحر هي أعلى وظيفة في الدولة كما أن شاغلها كان موضع ثقة الملك، وأول من تقلد وظيفة الأميرالية، هذه الوظيفة التي هي أصلاً وظيفة عربية، لم يكن أحد رجال البحر الأقدمين الذين خدموا في الأسطول النورماني بل إن أول أمير بحر للأسطول المسيحي كان عربياً، وهو عبد الرحمن النصراني، واسمه اليوناني «الكاثوليكي» هو «كريسودولوس». وكان حتى أيام روجير قائد القوات البحرية والبرية. لكن روجير الثاني رفع من شأن هذا الرجل الثقة وعينه أيضاً قاضي القضاة، ومن ثم وصل إلى درجة «كبير الأشراف»، وخلف هذا الأميرال أمير بحر آخر للدولة الملكية النورمانية، والأميرال الثاني هو العربي العبقري إدارياً واقتصادياً واسمه «جرورج» الأنطاكي. وبالرغم من عقيدته المسيحية تقلد رئاسة وزارة الزيريين وكان في سن مبكرة جداً، وذلك في مدينة المهديّة بالقرب من تونس. ثم نجد هذا المغامر يتقدم بعد وفاة سيده إلى القصر الملكي النورماني عارضاً خدماته هرباً من النية السيئة لسيده الجديد، وقد وجد روجير فيه الرجل الصالح المطلوب. وبينما كان القصر وسكان المهديّة مشغولين بتأدية صلاة الجمعة في المسجد الكبير سعد وزير المالية متكرراً في ثياب بحار ومعه رفقاؤه سرّاً إلى سفينة البريد النورمانية، هذه السفينة التي تظاهرت كما لو أنها جاءت ومعها رسالة خاصة من بالرمو إلى

أمير المهدية. فهذا التوفيق الذي أحرزه «جورج» الأنطاكي المغامر لازمه وما زال شابًا، والذي حدث أن أمير البحر «كريستودولوس» وهو أقوى شخصية في الدولة عين هذا الاقتصادي العبقري الشاب موظفًا في مصلحة الضرائب، إلا أن استعداده السياسي التجاري مكنه من القيام بمهمة إلى سلطان مصر كان قد كلفه بها «روجير» فعينه قبطانًا في البحرية وتخطى كعاداته الكثيرين الذين كانوا يشغلون مناصب أعلى منه فأصبح رئيسًا حتى على أميري البحر «أويجين» و «يوحنا» أي الوالد والابن وهما أيضًا من العرب ومن بين الأمراء العرب الذين كانوا يعملون سواء في الأسطول أو الجيش. وقد استطاع جورج الأنطاكي بعد أن صار أميرًا للبحر أن يرقى إلى أمير أمراء البحر، وبفضل عبقريته الإدارية التخطيطية رفع من شأن أسطول صقلية ونشأ تنشئة جديدة على النظام المتبع في الأسطول العربي، فأصبح هذا السلاح البحري سلاحًا قويًا استطاع بعد زمن قصير السيطرة على شمال إفريقيا. فهذا العربي العظيم الذي قدم لدولة النورمانيين أهم وأعظم خدمة كان مقربًا جدًا إلى الملك لا لخدمته فقط بل لأخلاقه ونبله فقد قضى جورج الأنطاكي هذا العربي العظيم نحو أربعين عامًا في خدمة الملك «روجير»، وكانت حياته الوظيفية تتسم بالوفاء والإخلاص والتفاني في العمل، هذا إلى جانب حسن المعاملة ونبل الأخلاق مما جعل الملك روجير يحترمه ويقدره تقديرًا عظيمًا لم يحظ به موظف آخر من قبل. فهناك وثيقة ترجع إلى عام 1132 م يتحدث فيها الملك عن أمير أمراء البحر جورج الأنطاكي، وقد جاء فيها ما معناه: «أنه الرجل الأول في دولته»، فهذا الرجل الذي أدى للملك أجل الخدمات، كانت الشخصية التي لا يستغني الملك عنها والرجل الذي يدين له الملك بالشيء الكثير، حتى إن أحد أعدائه اعترف له بالعظمة والفضل، عندما توفي جورج

الأنطاكي بعد هذه الوثيقة بنحو عشرين عامًا، فذكر «لن يستطيع ملك صقلية تعويضه». ثم إن صداقة مثل هؤلاء الأفاضل تدفع الحاكم ولا شك لا إلى تقدير صديقه فقط بل إجلال أبناء جنسه أيضًا، ولذلك نجد الملك يتصل بالعرب ويتبادل معهم الرأي ويشاورهم في مختلف أموره وأمور دولته، ويذهب الملك بعيدًا فيرجو العرب أن يعلموه ما يجهل، فاحتفظ بعدد كبير من شعرائهم وعلمائهم في قصره وكلف عددًا منهم بترجمة المراجع العربية واليونانية إلى لغته، وقد شارك في هذه الترجمة أمير البحر «أويجنوس»، كما ساهم مع النورمان في المجادلات التي كانت كثيرًا ما تقع بين المسيحيين والمسلمين، وتعصب الملك للإسلام والمسلمين. والذي حمل الملك على هذا الموقف اعتقاده، كما يروي ابن الأثير، أن المسلمين جديرون بالاحترام والتقدير، لذلك صادقهم وحماهم من الإفرنج، فأحبوه. وقد أشاد به العرب في أشعارهم كما شاركوه أحزانه عند وفاة ابنه البكر الذي امتاز بالحسن والنشاط والذكاء، فرثاه الشعراء العرب، كما نجد سيدات عربيات من كرائم الأسر يندبنه ويبكينه، كما ارتدين ثياب الحزن وتركن شعورهن ووقفن أما القصر يولولون ويندبون ويلطمن الخدود. ولم يقف الأمر عند الحرائر بل حتى الخادמות كن يجرين في الشوارع نائحات مولولات نادبات قارعات الرق. وعرب أيضًا هم الذين خلدوه بمؤلفاتهم، وقد ذكروه على أنه الحاكم المثالي الذي عرفته العصور الوسطى، وهو مؤسس الدولة والمشرع والسياسي، كما اهتم بالرياضيات والفلك والجغرافية وعلم الطبيعة والفنون. ويدين روجير الثاني للعرب الذين مكنوا له في الأرض وهو أصغر ملوك أوربا وصيروه أغنى الجميع. فالعرب هم المهرة في زراعة الأرض وفي النشاط الصناعي، ونظامهم مثالي في الاقتصاد والضرائب، وقد أخذ عنهم كما أخذ عنهم الإدارة والتشريع. وهناك

مصدر آخر من مصادر ثرائه الخيالي هو الضرائب التي كان يدفعها العرب المقيمون على شواطئ شمال إفريقيا، وهم خالقو أسطوله. وأمير أمراء البحر جورج الأنطاكي هو الذي استطاع بمهارته إخضاع شمال إفريقيا لسيادة صقلية، ثم تركه روجير تسامحاً منه للحكام العرب. والواقع أن روجير يدين كثيراً لهذا العربي الإفريقي الذي جعله ملك «صقلية وإيطاليا وإفريقيا». أليس من الواجب عليه أن يلم بالبلاد التي يحكمها؟ هذه فكرة تقوم في الشرق فقط، إذ لا يوجد عالم غير عربي هو الذي يستطيع وضع خريطة تبين هذه البلاد ومواقعها، وهذه الخريطة يجب أن تكون من النوع الذي قام سبعة جغرافياً بإعداده بأمر من الخليفة المأمون في بغداد. لذلك نجد ملك صقلية وإيطاليا وإفريقيا يقوم بدعوة أشهر جغرافي العرب في عصره ألا وهو الإدريسي، من «كويتا»، الذي يكتب: «فمن بعض معارفه السننية ونزعاته الشريفة العلوية أنه لما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت هم أهل دولته وأطاعته البلاد الرومية ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقيناً وخبرة ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً، ففي أي إقليم هي وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ومعرفة غيرها من البلاد والأقطار في الأقاليم السبعة التي اتفق عليها المتكلمون وأثبتها في الدفاتر الناقلون والمؤلفون، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد يحتوي عليه ويرجع إليه. . . فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علماً أكثر مما في الكتب المذكورة، فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها فسألهم عنها بواسطته جمعاً وأفراداً فما اتفق فيه قولهم ووضح في جمعه نقلهم أثبتته وأبقاه، وما اختلفوا فيه ألغاه وأرجاه. . . وأن يؤلفوا كتاباً. . . بوصف أحوال البلاد والأرضين في خلقها وبقاعها

وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها وأنهارها ومواتاتها ومزروعاتها وغلاتها وأجناس أبنائها وخواصها والاستعمالات التي تستعمل بها والصناعات التي تروج بها، والتجارات التي تجلب إليها وتحمل منها والعجائب التي تذكر عنها وتنسب إليها. . . من ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزيهم وملابسهم ولغاتهم». لقد درس الإدريسي في قرطبة وقام برحلات طويلة بين آسيا والشواطئ الغربية لإنجلترا ثم تحول جنوباً حتى بلغ جنوب إفريقيا وقضى خمسة عشر عاماً في بالرمو يعد أرقامه وخرائطه وملاحظاته العديدة، وقد شارك الملك المتعطش إلى العلوم والمعرفة والجغرافيا الإدريسي في ولعه بالعلوم والمعارف وبخاصة أن الملك لم يترك أجنبياً سواء أكان ضيقاً أم دبلوماسياً أم تاجراً يفد إلى مملكته إلا استجوابه عن وطنه وخصائصه وعقائده ورحلاته وتجاربه. كما أصدر الملك أمراً إلى موظفيه العرب ذوي الخبرة الواسعة في قياس مختلف المدن والأنهار والمرتفعات بإنجاز كل ما يتصل بأعمال المساحة. وفي أوائل عام 1145 م كمل هذا المؤلف العلمي العظيم، وقد خلف لنا بطليموس العرب سبعين خريطة، وقد سلمها قبيل وفاته إلى الذي كلفه بوضعها وإنجازها. وهذه الخرائط تمتاز على الخريطة الشهيرة التي وضعها الجغرافي المصري العظيم دقة وحجماً، هذا فضلاً عن بعض المآخذ الواردة فيها. لكن أحسن وأشهر خريطة وصلتنا هي تلك التي تركها لنا الإدريسي، أعني الخريطة الكبرى للعالم وهي محفورة على كرة من الفضة قطرها متران وتزن ثقل رجلين مكتملين، أما شرحها فعبارة عن هذا الكتاب القيم الموسوم باسم «كتاب الرجني» نسبة إلى الملك «رجار» = «روجير». والإدريسي بالرغم من نبوغه وعبقريته كان واحداً من كثيرين. ولا شك في أن الجغرافيا العربية -منذ أسفار التاجر سليمان إلى الصين، وأسفار

رحالة آخرين في جنوب وجنوب شرق آسيا، والتي تمت قبل أن يقوم ماركو بولو برحلاته بنحو أربعة قرون- كانت قد بلغت أوجها في تلك الفترة، كما أثبتت أن العرب شعب مغرم بالرحلات والأسفار، فانتساع الدولة وترامي أطرافها، إلى كثرة اللغات وتنوع الثقافات، بالإضافة إلى الكرم العربي المشهور اضطر العلماء ألا يثوبوا من سفر إلا وقد أزعجهم سفر إلى مكان آخر حيث يجمعون مختلف العلوم والسير والأخبار، هذا إلى جانب زيارتهم مشاهير العلماء، فالعرب رحالة في مختلف الأقاليم وبذلك أصبحوا ذوي شهرة عالمية. كذلك قد ترك لنا الرحالة العرب وصفاً دقيقاً لمختلف أنحاء وأطراف العالم الإسلامي، وشاركهم هذا الفضل الحجاج سواء وفدوا عن طريق البر أو البحر. فضلا عن الأسفار التي قصد من ورائها إشباع رغبة خاصة أو إرضاء هواية التنقل والرحيل، إذكاء للخيال أو المعرفة من الجولان في مختلف بلاد العالم. أما الجغرافية التي كانت تدرس بين جدران الأديرة في أوربا والتي كانت تعتمد على المراجع القديمة، وعلى الأحكام النظرية فلا تستحق الوقوف عندها والأخذ منها. أما عند العرب، وفي العالم الإسلامي، فإننا نجد بحثة مثل المقدسي يقرر أنه خاض معترك الحياة وعاش مع الأحداث اليومية، فقد كتب في القرن العاشر الميلادي ما نصه: «وما تم لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان ودخولي أقاليم الإسلام ولقائي العلماء وخدمتي الملوك ومجالستي القضاة ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين، وحضوري مجالس القصاص والمذكورين مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتھا، ومساحة الأقاليم فالفراسخ حتى أتقنتھا، ودوراني على التخوم حتى حررتها، وتنقلي إلى الأجناد حتى عرفتھا، وتفتيشي

عن المذاهب حتى علمتها، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبتها،
وتدبري في الكور حتى فصلتها، وبحثي عن الأخرجة حتى أحصيتها. .
فقد تفقّهت وتأدّبت وتزهدت وتعبدت وفقّهت وأدبت وخطبت على المنابر
وأذنت على المنائر وأممت المساجد وذكررت في الجوامع واختلفت إلى
المدارس ودعوت في المحافل وتكلمت في المجالس وأكلت مع الصوفية
الهرايس ومع الخانقائيين الثرائد ومع النواتي العصائد وطردت في
الليالي من المساجد وسحت في البراري وتهت في الصحاري وصدقت
في الورع زمنًا وأكلت الحرام عيائًا وصحبت عباد جبل لبنان وخالطت
حيثما السلطان وملكت العبيد وحملت على رأسي بالزنبيل وأشرفت مرارًا
على الغرق وقطع على قوافلنا الطرق وخدمت القضاء والكبراء
وخاطبت السلاطين والوزراء وصاحبت في الطرق الفساق وبعث
البضائع في الأسواق وسجنت في الحبوس وأخذت على أي جاسوس
وعاينت حرب الروم في الشواني وضرب النواقيس في الليالي. . .»
ومن مشاهير الرحالة العرب الذين اكتسبوا شهرة عالمية ابن بطوطة
الذي ترك بلده طنجة وأخذ يتجول في العالم مدة لا تقل عن أربعة
وعشرين عامًا قام بها بمختلف المغامرات، كذلك العالم البحّاث
المسعودي أحد أبناء بغداد، فقد كان كثيرًا ما يهتم بالمواضيع الجغرافية
العويصة كاتصال بحر الخزر بالبحر أو ما يتعلق بالكرة الأرضية من
بحر آرال حتى زنزيبار، ومن الصين إلى إسبانيا واهتمام أيضًا بدراسة
كل هذه الممالك يشير إلى أهمية المعلومات التي حصلنا عليها حول
الكرة الأرضية والتي صحت الأخطاء القديمة التي كانت سائدة من
قبل. وإلى جانب الجغرافية الوصفية نجد الأخرى الفلكية حيث ظهر
الفلكي الشهير البتاني وكذلك ابن يونس والبيروني وابن سعيد
والإدريسي وياقوت، وقد خطوا جميعهم بنا خطوات واسعة جدًا في علم

الجغرافية تفوق تلك التي عرفها العالم القديم، كما نجحوا في قياس أطوال وأعراض كثير من المدن قياسًا غاية في الدقة، وقد أقبل العرب المغرمون بالحساب على هذه المقاييس وأتموا هذه الجداول الجغرافية. وإن أخطأت مقاييس بطليموس في تقدير الدرجات فإن العرب لم يختلفوا إلا في دقيقة أو اثنتين. أما الإدريسي فقد جمع بين القياسين الوصفي والفلكي الرياضي. وهناك نوع آخر من الجغرافية أعني الجغرافية الطبيعية أو جغرافية علم طبقات الأرض، وقد نبغ في هذا النوع ابن سينا والبيروني وتوصلا إلى نتائج علمية هامة، وخاصة ما يتصل بنشأة الجبال وطبقات الصخور. فابن سينا يعرف حوالي عام 1000 م الجبال فيقول: «وأما الارتفاع فقد يقع لذلك بسبب بالذات وقد يقع بسبب بالعرض. أما السبب بالذات فكما يتفق عند كثير من الزلازل القوية أن ترفع الريح الفاعلة للزلزلة طائفة من الأرض وتحدث رابية من الروابي دفعة. وأما الذي بالعرض كأن يعرض لبعض الأجزاء من الأرض انحفار دون بعض بأن تكون رياح نسافة أو مياه حفارة تتفق لها حركة على جزء من الأرض دون جزء فيتحفر ما يسيل عليه ويبقى ما لا يسيل عليه رابية ثم لا تزال السيول تغوص في الحفر الأول إلى أن يغور غورًا شديدًا ويبقى ما انحرف عنه شاهقًا وهذا كالمحقق من أمور الجبال وما بينها من الحفور والمسالك وربما كان الماء والريح منطقة متفقة الفيضان، إلا أن أجزاء الأرض تكون مختلفة فيكون بعضها لينًا وبعضها حجريًا فينحفر بالتوالي اللين ويبقى الحجري مرتفعًا ثم لا يزال ذلك المسيل ينحفر ويبقى على الأيام ويتسع النتوء وكلما انحفر عنه الأرض كان سموه أكثر، فهذه هي الأسباب الأكثرية لهذه الأحوال الثلاثة، فالجبال تكونها من أحد أسباب تكوّن الحجارة، والغالب أن تكونها من طين لزج جف على طول الزمان وتحجر في مدد لا تضبط فليشبه أن

تكون هذه المعمورة قد كانت في سالف الأيام غير معمورة بل مغمورة في البحار فتحجرت. إما بعد الانكشاف قليلاً قليلاً في مدد لا يفي التاريخ بحفظ أطواقها. وإما تحت المياه لشدة الحر. . . ولهذا ما يوجد في كثير من الأحجار إذا كسرت أجزاء الحيوانات المائية كالأصداف وغيرها. . . «. وعلم طبقات الأرض عند ابن سينا مثل لخاصيتين من خصائص المعرفة العربية سواء في القرن العاشر أو الرابع عشر، وسواء في شرق العالم العربي أو غربه وسواء في أصفهان أو في الأندلس، أعني خاصيتي عدم الاتساق والديناميكية، فالمعرفة العربية تنظر إلى العالم وأحداث الحياة على أنها في خلق دائم وأنها نهر خالد يتجلى فيه خلق الله، لذلك تدعو المعرفة العربية إلى الطموح في إجراء التجارب الشخصية والبحث وشرح الحقيقة والرجوع بالأشياء إلى أصولها، كما أنها تعتمد على أدلة لا تقبل شكاً فهي ثابتة تهتم علاوة على ذلك بالشهود العيان. وحدث مرة أن هوى نيزك وكان شاهده محامياً، وقد كان هذا في عصر كان فيه الغرب بعيداً كل البعد عن هذا التقدم وذلك الرقي، وكان عاجزاً عن إدراك كنه الظواهر الطبيعية كما كان عاجزاً عن تعليلها، ثم يذكر ابن سينا: «وإنما تتكون الحجارة في الأكثر على وجهين من التكوّن أحدهما على سبيل التفخير والثاني على سبيل الجمود فإن كثيراً من الأحجار يتكون من الجوهر الغالب فيه الأرضية وكثيراً منها يتكون من الجوهر الغالب فيه المائية، فكثير من الطين يخف ويستحيل أولاً شيئاً بين الحجر والطين وهو حجر رخو يستحيل حجراً، وأولى الطينات بذلك ما كان لزجاً فإن لم يكن لزجاً فإنه يفتت في أكثر الأمر قبل أن يتحجر، وقد شاهدنا في طفولتنا مواضع كان فيها الطين الذي يغسل به الرأس وذلك في شط جيحون ثم شاهدناه قد تحجر تحجراً رخواً والمدة قريبة من ثلاث وعشرين سنة. . . «. لكن مترجمي العصور الوسطى لا

يهتمون كثيرًا بهذه الملاحظات التي أبداها ابن سينا، كما لا يهتمون بسعة اطلاعه وهذه ملاحظات مع أخرى كثيرة جدًا نتبين منها مدى دقة الباحث وتعبه. وبينما نجد هذه العبارات وتلك الأمثال في النسخة العربية لابن سينا، إذا بنا نجد اللاتيني يعالج الفصل بشيء من عدم الاكتراث، ويذكر أنه يتحدث، وهو يعني ابن سينا، عن ذكريات الطفولة وغسل الرأس. ففي أوروبا ظل القوم زمنًا طويلاً لا علم لهم بالجغرافيا وبخاصة كعلم يقوم على مثل هذه الأسس وتلك القواعد وخرائط الإدريسي التي رسم عليها الأرض على هيئة كرة بالرغم من أنه لم يكن من المستطاع حسب التجارب الشخصية أو غير الشخصية أو الحسابات الرياضية تدعيم هذا الرأي القائل بكروية الأرض، فالذي كان معروفًا في كثير من الأديرة حسب رواية الكتاب المقدس أن خريطة العالم عبارة عن قطعة من الأرض تحيط بها المياه وفي وسطها تقع الجنة. وليس بطليموس بل جغرافيو العرب في القصر الملكي في صقلية، هم أولئك العرب الذين علموا أوروبا. وخريطة الإدريسي تختم ثلاثة قرون كانت خالية مظلمة، وخريطته هي أول مجهود علمي شخصي، كما أن كتاب ابن سينا عن المعادن هو المرجع الأول لأوروبا ودراستها لعلم طبقات الأرض، وقد زلت معتمدة على ابن سينا حتى القرن الثامن عشر. ويذكر الإدريسي عن البلد الذي وضع فيه مؤلفه: «إن جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلا ومحاسن ووحيدة البلدان طيبًا ومساكن وقديمًا دخلها المتجولون من سائر الأقطار والمترددون بين المدن والأمصار وكلهم أجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها أعجبوا بزاهر حسنها ونطقوا بفضائل ما بها وما جمعته من مفترق المحاسن وضمته من خيرات سائر المواطن. فأما صقلية المقدم ذكرها فأقدارها خطيرة وأعمالها كبيرة وبلادها كثيرة ومحاسنها جمة ومناقبها ضخمة، فإن نحن حاولنا إحصاء

فضائلها عددًا وذكرنا أحوالها بلدًا بلدًا عز في ذلك المطلب وضاق فيه المسلك لكننا نورد منها جملاً يستدل بها ويحصل على الغرض المقصود منها إن شاء الله تعالى. . . «مدينة بلرم وهي المدينة السننية العظمى والمحلة البهية الكبرى والمنبر الأعظم الأعلى على بلاد الدنيا، وإليها في المفخرة النهاية القصوى ذات المحاسن الشرائف ودار الملك في الزمان والمؤتلف والسالف ومنها كانت الأساطيل والجيوش تغدو للغزو وتروح كما هي الآن عليه من ذلك، وهي على ساحل البحر في الجانب الغربي والجبال الشواهد العظام محدقة بها وساحلها بهج شرقي فرج ولها حسن المباني التي سارت الركبان بنشر محاسنها في بناءاتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها. وهي على قسمين قصر وربض. فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد وإقليم وهو في ذاته على ثلاثة أسمطة، فالسماط الأوسط يشتمل على قصور منيفة ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار، والسماطان الباقيان فيهما أيضًا قصور سامية ومبان فاخرة عالية وبهما من الفنادق والحمامات كثير وبه الجامع الأعظم الذي كان بيعة في الزمن القديم وأعيد في هذه المدة على حالته في سالف الزمان، ووصفته الآن تغرب عن الأذهان لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المفتعلة والمنتخبة والمخترعة من أصناف التصاوير وأجناس التزاويق والكتابات. فأما الربض فمدينة أخرى تحق بالمدينة من جميع جهاتها وبه المدينة القديمة المسماة بالخالصة التي بها كان سكنى السلطان والخاصة في أيام المسلمين وباب البحر ودار الصناعة التي هي للإنشاء والمياه بجميع جهات مدينة صقلية مخترقة وعيونها جارية متدفقة وفواكهها كثيرة ومبانيها ومنترهاتها جنة تعجز الواصفين وتبهر عقول العارفين وهي بالجملة فتنة للناظرين .. «. ومن بين الرحالة الذين سحرتهم بالرمو

الرحالة العربي الغرناطي ابن جبير الذي زارها عام 1185 م فبهرتة، وقد ترك لنا في رحلته وصفاً دقيقاً في صقلية وبالرمو والقصر الملكي، وقد أطنب في وصف عاصمة النورمانيين والملك النورماني. وقد سبقه إلى هذا الوصف في ذلك المديح الإدريسي بنحو ثلاثين عاماً. وحدث أن توفي في تلك الفترة الملك رجار الثاني وفي نفس العام الذي أتم فيه الإدريسي كتابه وأغدق عليه الملك الكثير من الهدايا وبعد أن خلفه ابنه فلهم الأول الذي لم يحكم طويلاً إذ توفي وخلفه ابنه وحفيد روجير الثاني وهو فلهم الثاني. وقد ظل الأسد النورماني يحكم صقلية زهاء قرن من الزمان، والشيء الجدير بالانتباه هذه الصلة القوية بين الحاكم ورعاياه العرب، وهذه الصلة هي التي لفتت نظر رحالة غرناطة وكان يعتقد أنه سيزور بلداً يحكمه الإفرنج إلا أنه سرعان ما تبين مقدار الثقة العظيمة التي أولاها الملك للمسلمين «وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المناجيب وكلهم أو أكثرهم كاتم لهمساته متمسك بشريعة الإسلام، وهو كثير الثقة بالمسلمين وسكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله حتى إن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان، وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته والمرتسمون عاصمته وعليهم يلوح رونق ملكه لأنهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة، وما منهم إلا من له الحاشية والخول والأتباع، ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الأنيقة ولا سيما بحاضرة ملكه المدينة المذكورة. . .». ويستطرد ابن جبير في وصف رحلته فيصف العاصمة قاعدة ملك الجزيرة: «والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها ببلارمة. . . الجامعة بن الحسنين غضارة ونضارة فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ومراد عيش يانع أخضر أنيقة مشرفة مؤنقة

تتطلع بمرأى فتان وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان فسيحة
السكك والشوارع تروق الأبصار بحسن منظرها البارع عجبية الشأن
قرطبة البنيان مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكدان يشقها نهر
معين ويتردد في جنباتها أربع عيون قد زخرفت فيها لملكها دنياه
واتخذها حضرة ملكه الإفرنجي أباده الله تنتظم بلبنها قصور انتظام
العقود في نحو الكواعب ويتقلب من بساطينها وميادينها بين نزهة
وملاعب فكم له فيها، لا عمرت به، من مقاصير ومصانع، ومناظر
ومطالع. . . وكنائس قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها. . .
وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان يعمرهم أكثر مساجدهم
ويقومون الصلاة بأذان مسموع، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكانهم
عن النصارى والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ولا جمعة لهم
بسبب الخطبة المحظورة عليهم ويصلون الأعياد بخطبة، ودعائهم فيها
للعباسي، ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم وجامع يجتمعون
للصلاة فيه. . . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمي
القرآن. وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ولا
أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا أبنائهم. . . ويذكر ابن جبير
في وصف الملك: « . . . وليس في ملوك النصارى أشرف في الملك ولا
أنعم ولا أرق منه وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب
قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخم أبهة الملك وإظهار
زينته بملوك المسلمين، وملكه عظيم جدًا وله الأطباء والمنجمون، وهو
كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى إنه متى ذكر له طبيبًا أو
منجمًا اجتاز ببلده أمر بإمساكه وأدر له أرزاق معيشتة حتى يسليه عن
وطنه .. ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته
على أما أعلمنا به أحد خدمته المتخصصين به الحمد لله حق حمده

وكانت علامة أبيه الحمد لله شكرًا لأنعمه. وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو «يحيى بن فنيان» الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة تعيدها الجواري المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله، ولهن في فعل الخير أمور عجيبة، وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة دعر لها هذا المشرك فمان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذكرًا لله ولرسوله من نسائه وفتيانه، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم: «ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به تسكينًا لهم»، وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عماله في ملكه فهم مسلمون ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعًا وتأجرًا ويتصدق تقريبًا إلى الله وتزلفًا ويفك الأسرى ويربي الأصاغر منهم ويزوجهم ويحسن إليهم ويفعل الخير ما استطاع، وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمي هذه الجزيرة». ويعرض ابن جبير للمسيحيين وكنائسهم وتشه نسائهم بالمسلمات فيذكر. . «كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكي أبصرناها يوم الميلاد وهو يوم عيد لهم عظيم، وقد احتفلوا له رجالا ونساء فأعجبنا من بنيانها. وزى النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين فصيحات الألسن ملتحات متنقيات خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين. .». وفي صقلية هذه بقصورها العامرة وحدائقها الغناء وفي شوارع بالرمو الواسعة الغنية بحوانيتها وحواريها المنسابة في الأحياء العربية نشأ وترعرع حفيد الملك روجير الثاني يتيما مهملا. وهذا الحفيد هو في نفس الوقت حفيد القيصر فريدرش برباروسا، وهو «فريدرش

روحير». وقد جلس على عرش مملكة صقلية بعد ابن عمه النورماني الملك «فلهم» الثاني والقيصر «هينريش» السادس، والده الألماني، ومن ثم اشتهر باسم فريدرش الثاني قيصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكانت المسئولية الملقاة على عاتقه شاقة جدًا، إذ كان العالم الذي يعيش فيه مضطربًا متخاصمًا متحاربًا، إلا أن فريدرش أخذ يشق طريقه إلى المجد زعيمًا لعصر جديد.

كانوا أعداء فالف بينهم

إن الهمس في المعسكر بالقرب من يافا لا ينتهي، كما انتشرت الشائعات حتى بلغت إيطاليا، فالهمس يدور حول اتصالات بين القيصر والمسلمين، وذلك منذ شهر سبتمبر عندما وطئت قدم القيصر المطرود من الكنيسة الأراضي المقدسة وظل طيلة هذا الوقت مسالمًا لا يسئل شيئًا. ولم يقع حادث يعكر صفو السلام في الأراضي المقدسة، وحتى لا يشعر جنوده من الألمان وبعض الإنجليز ونفر من أهالي بيزا وجنوة، وجميعهم قد أخلصوا له، بالسأم والضجر كلفهم بالقيام ببعض الأعمال اليدوية مثل تقليب الأرض وعزقها حتى لا يملوا العمل في تشييد الحصون. وفي الوقت نفسه كانت الرسل تروح وتغدو بين يافا ومعسكر السلطان الكامل الذي لم يكن يبعد كثيرًا عن حدود مصر. وفي تلك الفترة يجلس زعيم المسيحية في خيمته ومعه عربي في غاية الأناقة يتحدثان في اللغة العربية حديثًا طويلًا لا يعرف نهاية، وهو حديث سري، لذلك ظلت هذه المفاوضات سرًا غامضًا على الآخرين. وقد أصبح من العسير على الإنسان أن يتكهن بماذا تأتي الأيام وراء هذه الجبهة العريضة للقيصر الأكبر صاحب السلطان القوي في معسكره وعلى جيشه، ولو

أن خصمه في روما أخذ يبذل كل ما في جهده من دعاية وتشنيع، وأعلن البابا زورًا وبهتانًا خبر وفاة القيصر وبذلك أباح لشعبه التحلل من يمين الولاء والطاعة له كما انقض جنود البابا على مملكته. وهنا في الشرق نجد رجال الدين السوريين والبارونات يعلنون معارضة القيصر، كما وجد في معسكره بعض الخونة الذين أخذوا يتربصون به، كما وقع في حيرة من جراء إطعام هذا الجيش الجائع وبخاصة بعد أن افتقد سائر مصادر التموين «إلا أننا أخفينا آلامنا المبرحة وراء ابتساماتنا المرحية»، وقد ذكر فيما بعد «حتى لا ينتصر أعداؤنا». وإذا ذكرنا المخلصين للقيصر وحفظه سره جاء رئيس طائفة الألمان وهو «هرمان فون سلزا» والجراف اللنجوباردي «توماس فون أكوين» والرجل العربي الشريف «فخر الدين» الذي سبق له بصفته السفير المصري لسلطان مصر لدى القيصر أن عرض عليه في قصره المعروف باسم «فوجيا» بإقليم أبوليا إبرام معاهدة صلح تسلم بمقتضاها القدس إلى القيصر، واستطاع هذا السفير العربي المصري برقته ولباقته وحسن سياسته إقناع القيصر بوجهة نظره واكتساب ثقته و صداقته، مما اضطر القيصر فريدريش إلى الاطمئنان إليه وإطلاعه على جميع أسرارته. لكن حدث في تلك الفترة أن تغير الوضع الذي دفع السلطان إلى التقدم بهذا العرض، إذ أصبح السلطان الكامل ليس في حاجة ماسة إلى مساعدة القيصر فريدريش الثاني، فلماذا إذن هذا التساهل من جانبه إلى فريدريش؟ وعلاوة على ذلك فقد حصل هو على القدس دون حرب أو مساعدة. ثم نجد القيصر، قيصر أوربا، يجيب سلطان العرب عن طريق كبير أمنائه: «لم نعبر البحر لفتح بلادكم فإننا نملك من البلاد أكثر من أي ملك على ظهر البسيطة، بل لتحقيق اتفاقنا الخاص بالأماكن المقدسة إجلالا للسلام والوئام، ولا داعي للنزاع مع المسيحيين ولا ضرورة

لإقامة دماء رعاياكم». فاستقبل السلطان كبير الأماناء استقبالا عظيما وأكرم وفادته إلا أن السلطان أهمله بطريقة مهذبة، وكان تبادل زيارات الرسل بين العاهلين مقصورا على تبادل الهدايا وإبداء علامات الود والصدقة، فقد أهدى السلطان الكامل للقيصر هدايا عظيمة جدا من بينها جمال للسباق فجياد عربية وفيلة وقردة وصقور للصيد وأحجار كريمة نادرة، وأقمشة حريرية مقصبة، وفريديش الثاني يدرك تمام الإدراك المستوى العقلي الرفيع للسلطان الكامل وحاشيته والمتصلين به، فأرسل إليه عددا من الأسئلة العلمية العويصة الخاصة بالرياضيات والفلسفة والعلوم الطبيعية، وعن طريق هذه الأسئلة أظهر القيصر له كل احترام وتقدير ولم يدر حديث ما عن المعاهدة والاتفاقية. والواقع أن تنفيذ الاتفاقية والاستيلاء على القدس يحل العقدة المستحكمة، وهذا كان رأي فريديش والمخلصين له من حوله، وتخليصه من الحرمان من الكنيسة، فقد ذهبت العداوة المستحكمة بين البابا والقيصر فريديش الثاني حدا بعيدا، واستولت على البابا فكرة تافهة وهي وجوب العمل لإحباط محاولة القيصر في سبيل الحصول على القدس، هذه المهمة التي انتقل من أجلها من روما. وكان كل أمل البابا أن يعود فريديش بخفي حنين ذليلا لا يتردد في تقديم فروض الولاء والطاعة البابا. والشيء الجدير بالذكر أنه ضبظت خطابات موجهة من البابا إلى السلطان العربي حاكم الوثنيين (!) يرجوه فيها عدم التنازل عن الأراضي المقدسة لفريديش الثاني. أما لعبة السؤال والجواب فقد جاءت علاوة على اللذة العقلية للحاكمين بأحسن النتائج، فقد كان الأمير فخر الدين هو الذي يجيء إلى السلطان بقائمة تحتوي على إجابات علمية هامة جدا، وهو الذي كان يتوجه إلى القيصر في معسكره، فقد كان فريديش الثاني يقاسمه الخيمة والأفكار، إن فخر الدين كان صديقه العربي الحميم. لماذا تنشب حرب

وهي بغیضة لدى الطرفين: القيصر فريدريش الثاني والسلطان الكامل؟ لماذا يتحارب الاثنان وهما على مستوى رفیع جدًا من الثقافة؟ إن الفرصة سانحة وبخاصة بعد أن أریقت دماء كثيرة من الجانبين لإحلال السلام والصفاء بین الشرق والغرب؟ وأمام حسن النية التي أبدأها القيصر لم یسع فخر الدين إلا أن یقر القيصر على رأیه وحبه للسلام، وهكذا استطاع فخر الدين أن یحل العقدة الأولى. وعوضًا عن كبير الأمناء القيصري الأرعن والذي أثار غضب السلطان یجب أن یسند القيصر المفاوضات إلى الجراف «فون أکوين» عوضًا عن ذلك الأرعن، وهذا الجراف قد تعلم العربية في صقلية، كما أتقن الطريقة الإسلامية في المخاطبة وحسن معاملة الناس. حقًا إن المشورة كانت موفقة كما أحسن اختیار الزمن. فقد عرف فريدريش السلطان عن طریق رسوله الفتوة ومراعاتها وتقدير مركزه ومكانته في أوربا. كما أدرك السلطان جميع التفصیلات والأمور التي تمت بین القيصر فريدريش و«خليفة روما» وكان على علم تام بكل ما یجري وجرى هناك في أوربا. لذلك ما كاد فخر الدين یخبر سيده السلطان الكامل بأفكار الإمبراطور، وأنه یذكره بوعده الذي قطعه على نفسه وأعلن استعداده لعقد اتفاقية جديدة وبخاصة أن مركزه في سوريا لم یكن على ما یرام، حتى وافق السلطان الكامل على عقد الصلح مع القيصر فريدريش الثاني. وفي 18 فبراير 1229 م تصافح الشرق والغرب وحل السلام محل الخصام. وقد حضر مراسیم توقيع المعاهدة السادة: «هرمان فون سلزا» رئیس الطائفة الألمانية و«توماس فون أکوين» و«الجراف فون أکیرا»، وأقسم أمير المؤمنین السلطان الكامل یمین العهد والمواثیق واحترام الیمین، كما أعلن في نفس الساعة احترامه لهذه الاتفاقية الرئيس المدني للمسیحيين، وكان ذلك في المعسكر الكائن بالقرب من یافا، ألا وهو

القيصر فريدريش الثاني، فقد أقسم يمين الوفاء أمام الأمير فخر الدين. عقد السلام «بدون حرب وبدون استخدام أسلحة»، وعن طريق المفاوضات، وهذه المعاملة وهذه الأخلاق هي التي قربت وأخت بين ابن عم فريدريش الصقلي وهو الملك فلهم الثاني الذي عرف المسلمين في مملكته واحترامهم وأحبهم من قبله، وإن لم يكن في درجة حب واحترام فريدريش الثاني. وقد نجح فريدريش الثاني في كسب ما هو أهم وأعظم، كسب شيئاً لم ينجح فيه أحد قبله، ومن ثم طلب إلى هرمان فون سلزا أن يعلن عاليًا شكر الله في الأعلى وذلك بين مختلف وحدات الجيش. فقد أعلن القيصر هذا الخبر بين عدد قليل من رجاله، وقد علمت الشعوب بهذا الخبر واستغربت كيف استطاع القيصر فريدريش أن يوفق وينجح في جمع شمل أبناء الشعوب المختلفة والمؤاخاة بينهم. إن فريدريش قد نجح بفضل إرادته لا بقوته، لقد حقق فريدريش الثاني ما عجز عن تحقيقه سابقه وبمختلف الوسائل. . «لقد تحقق هدف الحرب الصليبية وبدون إراقة دماء». لقد تحررت الأماكن المقدسة: القدس، بيت لحم، الناصرة، وكذلك الطريق المستخدم في الحج من الشاطئ مخترقاً الجبل وصيدا وقيصرية ويافا وعكا. أما القدس التي تضم عددًا كثيرًا من الأماكن الإسلامية المقدسة، فقد أعلنت مدينة مقدسة للطرفين فهي مقدسة للمسلمين أيضًا. وهكذا شرح صلاح الدين لقلب الأسد ريتشارد: أن القدس أكثر قداسة بالنسبة لنا منكم، فمن هناك بدأت قصة الإسراء وتجمعت الملائكة، لذلك نجد مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى في الحرم الشريف والمعبد الذي يحتفظ به المسلمون، كما أبيح للمسيحيين إقامة صلواتهم به، كما هو الحال مع المسلمين في بيت لحم. إن الحجاج من المسلمين والمسيحيين يجب أن يسود بينهم الحب والاحترام، كما يجب أن يحترم كل فريق حقوق الفريق الآخر وكل يعبد الله حسب

طريقته. إن مثل هذه الفكرة بديهية وطبيعية عند العرب، لكن من وجهة النظر الأوروبية عبارة عن نقطة تحول في التفكير العالمي. فقد أخذت تتلوه آراء جديدة أخرى كما ظهر منادون يدعون إلى السلام وحل المشكلات المتنازع حولها عن طريق المفاوضات لا القوة وبخاصة فيما يتصل بمسألة العقائد واستنكار الوسائل المتبعة ضد الوثنيين في نظر الكنيسة المسيحية، والعمل على إيقاف عملية اضطهادهم واستئصالهم. وكان من زعماء المنادين بهذه المبادئ «فولفرام فون اشينباخ» والسير «روجير بيكون» والملك ألفونس العاشر صديق العرب، وكذلك «فرنسيسكوس فون أسيسي» وهو الذي كان ينادي في قصر السلطان الكامل مبشراً بكلمة الله ولو أنه لم يحرز نجاحاً كبيراً. واستجابة لسياسة القيصر وتأبيدًا لها نجد هذا النداء الذي نادى به التروبادور الفرسان ووصفوه بأنه طبيب أوربا الماهر. فالسلام الذي حل بين أصحاب الديانات المختلفة ونشر السعادة في حياة المسلمين والمسيحيين جعلهم يسخرون من الحروب الصليبية وعقلية الصليبيين، هذه العقلية البغيضة التي فرضتها الكنيسة على أتباعها. وقد تجلت هذه الروح الجديدة في القضية التي أقامها البابا على سفير القيصر في مدينة ليون حيث أجاب السفير: إنه في القدس وعلى مشهد من العالم أثبتت سياسة فريدريش البعيدة «أن صداقته من الأمراء العرب وفرت كثيرًا من إراقة الدماء المسيحية». إن المفاوضات مع الوثنيين! -ونسي أن «جوتفريد فون بويليون» والمندوب البابوي «بيلاجيوس» قد تفاوضا مع الوثنيين - فقط هي التي انتهت إلى السماح للوثنيين بإقامة الصلاة في القدس، وهذا هو السبب الذي من أجله اعتبرت الكنيسة القيصر فريدريش الثاني خائنًا ومسيئًا للدين وأنه ابن شيطان ويعمل ضد المسيح وفي مقدمة الأشرار الذين سيصلون النار. كما أن نجاح وتوفيق القيصر الذي حرّمته

الكنيسة، هذا النجاح الذي لم تحزره سائر جيوش الصليبيين آلم خصومه إبلاً شديداً كما حط من قدرهم وكرامتهم حتى إنه يقال إن جريجور التاسع حرض رؤساء جماعة الداودية والهوسبيتالر على إرسال مندوب سري إلى الكامل يبلغه أنهم علموا أن القيصر سيحج في صحبة نفر قليل في ساعة معلومة فينتقل من القدس إلى موضع المعمورية على الشاطئ الغربي لنهر الأردن. والفرصة سانحة للسلطان ليقبض على القيصر ويقتله، فتآلم السلطان من هذه الخيانة ألماً شديداً ولا سيما أنها صادرة من فارس الخليفة الروماني، فما كان من السلطان إلا أن أرسل هذه الرسالة الممهورة بتوقيع رئيس طائفة الداودية، وقد كتب السلطان الكامل إلى القيصر قائلاً: «إن هذا الوثني مثله مثل عمه صلاح الدين يخلج أشد الخجل مما تقتضيه هذه العصابة التي يدعي أفرادها أنهم المسيحيون الحقيقيون والذين يؤمنون بالحب المسيحي أن مثل هذه الجريمة تجرح فتوته». وهكذا ظلت الكنيسة لآخر لحظة تحارب فريدرش الثاني وتحاول إحباط كل خطواته أو إقامة العراقيل في طريقه وإفساد كل أعماله، ولما تسلم عند باب يافا في القدس مفتاح المدينة من يد مندوب السلطان وسار في الطريق مع الألمان الذين كانوا معه، وقد أخلى المسلمون الشوارع من المارة، حرم أسقف قيصرية دخول المدينة على المسيحيين، كما حرم عليهم إقامة الشعائر الدينية في الكنائس، كما رفض رجال الدين قبول القرابين، وأخذ رجال الدين المسيحيون يحرضون رجال الجيش على الثورة ويطالبونهم إلى جانب ذلك بوجوب القيام بأعمال السلب والنهب، وبلغت الخصومة منتهاها عندما ألقى رجال الدين الغائط على القيصر وفرسانه لما صعدوا على ظهر السفينة. لقد نجح فريدرش في إحلال السلام بين الشرق العربي والغرب المسيحي ولو لفترة قصيرة، هذا السلام القائم على الاحترام والتعايش السلمي، هذا

السلام الذي أخذت تحاربه الكنيسة بمختلف الوسائل والطرق. أما السلطان الكامل فلم يبق من مختلف أنحاء العالم الإسلامي إلا قذفه بتهمة الخيانة الكبرى فالعالم الإسلامي ما زال يذكر حمامات الدماء التي أراقها الصليبيون في القدس والعالم الإسلامي لذلك يأبى أن يصفى الأيدي المسيحية الملوثة بالدماء. وهكذا أصبحت رسالة القيصر التي كان من الصعب تحقيقها سياسياً وواقعياً وسيلة للتوحيد بين الدولة والدين؛ وبذلك شق لأوروبا طريقاً جديداً في مضمار مستقبل أحسن.

سلطان لوكيرا

«أول رجل حديث على العرش» هكذا وصف «يعقوب بورخردت» القيصر فريدريش الثاني على أنه مثال الرجل الحر الموجود في المجال التاريخي العالمي، عقلية متحررة» من القيود والتقاليد وهو الرجل الذي يأتي في طليعة قادة النهضة الإصلاحية وحركة إحياء العلوم. وهذا الحكم جدير بالاعتبار والاهتمام، فالقيصر فريدريش كان أكثر أمراء الإصلاح شبهاً بالحكام العرب، مثله مثل المأمون أو الكامل، وإن الصلة بينه عقلاً وخلقاً وبين سلطان مصر تكاد تشبه الصلة بين أوراق الشجرة الواحدة فالميول واحدة والعادات متشابهة وطرق الحياة والنظرة إليها والسلوك والاتصالات بالناس تكاد تكون عند القيصر فريدريش صورة لتلك التي يتصف بها سلطان مصر، كما أن كلاً منهما يتصف بنظرته التحررية التي يتطلع بها إلى هذا العالم كعالم وحاكم ومصلح وبخاصة فيما يتصل بالمسائل الاقتصادية، وفريدريش كذلك مؤسس مدرسة عليا وليس أقل من الكامل بغضاً لإراقة الدماء. وفي أعقاب حركة النهضة، نجد القوى التي شحنها فريدريش الثاني تتدخل في التاريخ وتؤثر فيه

وتغير وجه أوروبا من أساسه. وبالرغم من كل هذا لم يكن يعتقد أنه «إنسان عصري»، ولم يكن الشخص الذي يشعر أنه متحرر وأنه قد يقال عنه إنه مفكر حر أو زنديق، بل كان بالرغم من كل ذلك مسيحياً مؤمناً بالمسيحية، وكان في مسيحيته أفضل من أولئك الذين يجلسون على كرسي بطرس أعني الباباوات: هؤلاء الذئاب في ثياب الحملان، أولئك الذين يخلقون الفرقة بين الناس ويحرصون على ألا يسود السلام العالم، أولئك الذين يطردون المؤمنين من الكنيسة إشباعاً لميولهم كما يصبون جام غضبهم على خصومهم دون وازع من ضميرهم ويذهبون بعيداً فيستبيحون لأنفسهم تجريد المؤمنين من أموالهم ظلماً وعدواناً. أما هم فيتمرغون في الثراء حتى تقضى ثروتهم عليهم. لقد كان فريدرش الثاني أسيراً للعصور الوسطى بالرغم من أنه نشأ وتربى في بيئة متعلمة متحررة عن تلك التربية الأوروبية التي كانت سائدة في ذلك العصر، وهذه الحالة التي كان عليها فريدرش بالرغم من صلته القوية بالعصور الوسطى تجعلنا لا نتردد في الحكم عليه بأنه إنسان عصري، ومعنى ذلك أنه اقتبس المثل العربية وأثرت فيه وتأثر بها كما أضاف إليها أفكاراً عربية أخرى مكنتها من عروبتها وجعلتها أكثر أصالة من غيرها. وليس معنى هذا أن هذه الشخصية الجبارة يجب أن ننظر إليها ونحكم عليها من هذه الزاوية فقط، فالشيء الذي يجب الاعتراف به أنه ما كان يبلغ ما بلغه دون القواعد والأسس العربية التي قامت عليها دولة النورمانيين، فضلاً عن الثقافة العربية التي كانت سائدة في صقلية وطنه. وقد أيد هذا الرأي كثيرون من علماء العرب ومن بينهم المؤرخ أبو الفدا الذي تحدث عن كرم الإمبراطور وغرامه بالدراسات الفلسفية والمنطق والطب، كما اشتهر بعطفه على المسلمين، وذلك لأنه نشأ وتربى في جزيرة صقلية حيث كان أغلبية سكانها من المسلمين. ولولا

أن عمه فيليب سارع وترك إيطاليا الثائرة وعمل بوصية والد فريدرش الثاني ونقل الطفل ابن الثلاث سنوات من إيطاليا إلى وطنه الأصلي ألمانيا لحصل فريدرش الطفل على تربية علمية أفضل وأعمق، فالطفل كحاكم للبلاد في المستقبل كان سيحصل ولا شك على كاهن متعلم يقوم على تربيته بصفته ابناً للملك، وهذا الكاهن سيعلمه القراءة والكتابة والحساب وكذلك اللغة اللاتينية. ومن المرجح أن فريدرش وتفكيره الحر، كان سينسجم وهذه التربية، إلا أن هناك عوامل أخرى قد انتهجها وتأثر بها. إن فريدرش لو قدر له أن يربي في قلعة ألمانية لحظي بتربية ملكية رقيقة ووقتذاك ما كان لأحد من أعدائه أن يهتمه وهو ابن الثالثة عشرة بأنه سيئ الخلق والسيره لأنه يكون قد تربي التربية التي تتفق وبيئتهم. وهل من المستطاع أن يرجو الإنسان شيئاً آخر من شاب هو أقرب إلى الطفولة وانطباعاتها منه إلى الرجولة وجدتها، وبخاصة لم يهتم أحد به منذ طفولته، فكان يتجول طليقاً حراً بدون رقيب في مختلف الحواري والأزقة وأحياء الميناء إشباعاً لرغبته في المعرفة، فذهب إلى المساجد والأسواق وأرصفة الميناء، كما اختلط بشعب بالرمو الخليط، وكان في وحدته القاتلة يصادق الحيوان والطير والإنسان غير مكترث بنوعه أو جنسه أو ثقافته. فالوالد الذي أراد أن يصحبه معه إلى ألمانيا قد توفي، لذلك شب الطفل وترعرع، شب هذا الملك الطفل بين الآثار العربية الإسلامية الجميلة وأحجار الفسيفساء البراقة والقلاع العربية الشامخة المتناهية في العظمة، وهي إن كانت ملكاً للملك روجير فإن العمال والمهندسين المعماريين الذين شيدها كانوا عرباً جنساً وفناً ومعماراً، كما أن الذين كانوا يقومون على العناية بها عرب. لقد نشأ الملك الشاب في وسط لا تقع عينه فيه إلا على صور عربية وخلق عربي وحياة عربية، إنها بيئة العروبة ولوحتها الخالدة التي لن ينساها

من يشاهدها. وقد ظلت هذه الصور ملازمة له بالرغم من السنوات العديدة التي مرت عليها. لقد سمع الملك الطفل أغاني المغنين العرب مختلطة بصوت مياه النافورة بين مقاصيرها الملكية، وحولها الأعمدة وكل هذه الأشياء تتراءى له وكأنها حلم. أما أذان المؤذنين من أعلى المآذن فكان يعين ويحدد له نظام يومه. وحدث أن أمه «كونستتزا» النورمانية، ابنة الملك روجير الثاني قد فارقت الحياة عقب وفاة زوجها بزمان قصير، وحينذاك بدأ النزاع حول الطفل وقامت المشاكل وتعمقت الأمور. فلسوء إدارة الأوصياء أصاب المزرعة الملكية ما أصاب الدولة، ودب الفقر وساءت الحالة مما اضطر هذا الملك الشاب وهو ما زال في السادسة من عمره، إلى الالتجاء سائلاً مستعظفاً مواطنيه العرب فمدوا له يد المساعدة فكانوا يعولونه ويطعمونه مناوبة، هذا لمدة أسبوع، وذلك لمدة شهر وهلم جرأً حتى بلغ الطفل السابعة. وهكذا نجد الحياة ذاتها تولى تربية الملك الطفل وتتعهده منذ سن مبكرة جداً. ففي ميادين بالرمو في المساجد والكنائس والمعابد اليهودية، في الحوانيت والسوق وفي الشوارع كان يتلقى الملك الشاب دروسه اليومية في اللغات التي كانت متداولة حية بين أفراد الشعب المختلط الأجناس، كما تعلم أيضاً عاداتهم ودياناتهم. إن فريدریش كان يتكلم طفلاً تسع لغات. أما العربية فقد كانت كأنها لسانه القومي، كان يعرف كذلك الحساب العربي وشارك في مجالات التجار العرب والأئمة من رجال الدين فأجاد فريدریش المحاولات والمجادلات حول الله والعالم، ومن الجدير بالذكر أن القاضي الشرعي للمسلمين المقيمين في بالرمو كان يتولى تعليم هذا الشاب المتعطش إلى العلم والمعرفة والفلسفة العربية، ويمده بالكتب إرضاء لرغبته الجامحة إلى العلم وتحصيله، ويتنفس عبيرها الباسم، كما ذكر فريدریش ذلك في أسلوب عربي رائع. فهذه المعرفة التي اكتسبها هذا

الملك الشاب النابه بشتى الطرق جعلته يختلف عن والده في كثير من خصائصه وصفاته، فوالده كان يقدر له أنه يكفيه أن يتعلم المبادئ الأولية على يد المعلم «فلهم فرنسيسكوس». أما الآن فالذي يكتب تاريخ هذا الشاب ابن الثلاث عشرة سنة يستولي عليه الإعجاب. نعم إنه يرفض الوصاية عليه مهما كان لونها ونوعها، هذه الوصاية التي تحدد إقامته وتحصي عليه تحركاته. إنه يأبى إلا أن يتنقل حراً طليقاً في الحياة العامة. لكن هذا المشرب من الحياة هو الذي يرجع إليه الفضل في إبراز خصائصه الخلقية وقدرته العقلية مما جعله يبدو وكأنه أكبر سناً مما هو عليه، فهو بالرغم من طفولته كان كثير المعرفة والاطلاع وذا عقل يضعه فوق سنه لذلك لا يحكم على فريدريش حسب سنه، وإن كان إدراك المرء مرتبطاً بسن معينة فقد تبين أنه من حيث نضج التفكير وصحة الحكم على الأمور رجل مكتمل القوى العقلية، وأنه من حيث العظمة ملك. ولو حدث مرة وبدأت عليه علامات الطفولة فإنما مرجع ذلك حداثة سنه، إلا أن حياته الملكية التي كان يحياها وجهته التوجيه الصحيح، وهذا الاتجاه هو أيضاً من أثار الدماء النورمانية التي تجري في عروقه. هنا دولة اتسع صدرها لمختلف الثقافات الموجودة بها، ومكنتها من التطور. كما أن احترام هذه الدولة لمختلف العقائد والعادات والتقاليد. إلا الزنادقة الذين كانوا في نظره مخربين للنظام القائم - يجعلنا نفهم ميله وحبه للروح الشرقية والثقافة الشرقية، وهذه الثقافة هي الأساس الذي اعتمدت عليه ثقافته وتكوينه العلمي، والثقافة العربية هي التي أفاضت عليه الألوان الثقافية المختلفة التي رفعت من منزلة فريدريش الثاني بين معاصريه، وهذه الثقافة أيضاً هي التي مكنته من تفهم العقلية العربية والحياة فيها والتفكير بها وحبه الشديد لكل ما هو عربي شعباً وثقافة وحضارة. بدهي أن هذا الحب لم يكن صافياً كله عند

غزو النورمانيين، ثم اضطهادهم للعرب بعد الغزو مما اضطر الأخيرين إلى المقاومة والاعتصام بالجهات الجبلية في قلب الجزيرة الصقلية، وذلك إباء من العرب وشمم من الخضوع للسيطرة الأجنبية. وهكذا نجد العرب من وقت لآخر يثيرون الاضطرابات ويهددون أمن الجزيرة. فهذا الموقف العدائي ودوافع التحرر والرغبة الصادقة في التخلص من أعدائهم .. كل هذه العوامل مجتمعة سببت للملك الشاب كثيراً من المتاعب، لذلك كان لا بد له للقضاء على الثائرين من خوض غمار حروب طويلة الأمد استمرت عدة سنوات، والجوع فقط هو الذي هزم العرب واضطروهم إلى التسليم، وقد وطنوا أنفسهم الأسوأ الاحتمالات، فقد قدروا عددهم خمسة وعشرون ألف عربي أنهم سيساقون إلى الإعدام، لكن حدث ما لم يكن في الحساب، ففريدريش لم ينتقم حتى من المحرضين بل سلك مسلكاً يدل على أنه السياسي الحكيم حقاً. إن فريدريش الثاني يعرف العرب جيداً، وقد أدرك أيضاً أن إصدار حكم الموت على أميرهم إبان المعركة كان تصرفاً غير حكيم وأيقن أنه عند إحراز أي نصر فالشخص المتعطش إلى الانتقام لن يستطيع الاستفادة من هذا النصر، لأن الانتقام يزيد من اضطهاد المهزوم وإيلامه ودفعه إلى الرغبة في الثأر والانتقام متى سُنحت له الفرصة. فالمنتصر الحقيقي هو ذلك المتسامح لا المنتقم، إن فريدريش أدرك أن الاضطهاد قد يضطر العرب إلى الخنوع والذل. أما العفو، أما حسن المعاملة، أما كرم الأخلاق فسيضطروهم إلى الإخلاص له والوفاء والتفاني في سبيل نصرته والعمل لمصلحته، وقد وقع هذا فعلاً. فبالقرب من مكانه المحبب إليه هذا المستقر الملكي المعروف باسم «فوجيا» في إقليم «أبوليا» أنزل فريدريش الأشتوقي خصومه القدامى ومنحهم حرية العبادة والإخلاص للعقيدة، وهكذا أقام في هذه المنطقة الاستراتيجية الحساسة

في شمال مملكته المستعمرات الإسلامية الحربية. لقد أنزل فريدرش العرب في «جبروفلكو» و «لوكير» وهما من أكثر المدن الإيطالية ازدحاماً بالسكان، وهناك كان يعيش نحو ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف أسرة عربية. وكان العرب بعيديين عن غيرهم ولهم أميرهم الخاص وحكومتهم الخاصة وكانوا يتمتعون بحريتهم كاملة، فلهم مساجدهم التي يدعو فيها المؤذن إلى إقامة الصلوات الخمس يومياً وللعرب مستشفياتهم ومدارسهم ومكاتبهم وحماماتهم، كما وهبهم القيصر حديقة للحيوان. فمسلك فريدرش من العرب يدل حقا على خبرة القيصر بالناس وحسن معاملتهم، فضلاً عن بعد نظره السياسي، وهو إذا أقبل على هذا العمل فقد رجا أن يؤتي أكله مئات المرات. والاعتراف بالجميل، الذي اتصف به العرب، يتجلى لنا في مقابلتهم هذا الصنيع الكريم للقيصر وعفوه عنهم بالشكر والولاء، وأدرك فريدرش حسن طوية العرب وإخلاصهم له فاتخذ من شباب عرب «لوكير» حرسه الخاص فهم أبناء حرب وقاتل وشباب امتلأت نفوسهم حباً للقيصر فلا تهمهم تهديدات البابا أو وعيده، كما أنهم لا يحترمون إلا القيصر ولا يأتزمون إلا بأمره فطاعتهم له عمياء وإخلاصهم لعرشه لا يعرف نهاية، وإن فرقة عربية تتألف من ثلاثين ألف مقاتل لن يتردد جنودها من خوض غمار الحروب دفاعاً عن قيصرهم ونودا عن عرشه. وهؤلاء الجنود العرب يقفون رهن إشارة القيصر لاستخلاص النصر من بين أنياب الموت. ولم يتجل إخلاص القيصر عند تجنيدهم فقط، بل وكل إلى عرب «لوكير» حراسة خزانة الدولة وممتلكاتها التي لم تكن تدر حتى ذلك الوقت إلا الدخل القليل. كذلك وكل القيصر إلى العرب الإشراف على القاعات الملكية وإدارة جميع أملاكه وضياعه الخاصة وأملاك الدولة والمصانع التي كانت تنجز جميع الأعمال التي يحتاج إليها القصر الملكي، وكذلك المصانع

العربية التي كانت تنتج السهام والأقواس والدروع والجنات مختلف أنواع المجانيق، وكذلك اللحم وسرج الخيل ورحل الجمال والخيام والسجاجيد والستائر وغطاء الحيطان والوسائد المطرزة بالذهب والمطارح الحريرية. ففي القاعات الملكية في «لوكيرا» و «مسينا» والأماكن الأخرى كان يطرز المطرزون الملابس الملكية بالحرير والذهب، كذلك المفارش الفاخرة والسرج والأغطية المختلفة للخيول والإبل الموجودة في الإسطبلات القيصرية. إن أعمال التطريز هذه كانت تقوم بها هذه الأنامل الرقيقة الجميلة الماهرة للأنسات اللواتي اشتهرن أيضاً بغزل الحرير والصوف والقطن ونسجه وحيافته تحت إشراف الأغوات. إن أولئك الأنسات كن سبباً في إساءة سمعة القيصر. وكان فريدريش الثاني عندما يخرج بالشارات القيصرية التي كانت غاية في الأبهة والعظمة ممطياً صهوة جواده الذي أهده إليه العرب. كانت تسير خلفه النوق والإبل سيرها الوئيد دون إحداث صوت أو جلبة، وقد حمل بعضها بجزء من مكتبته، ثم الفيلة المهمة والبغال والقردة والنمر، والعرب في ثيابهم الملونة والحبش السمر يحرسونه، ثم نرى المسلمين رماة الحدق والخدم والخادومات المحجبات والأجنبيات فكان جميع هذا مادة طيبة للخيال. لذلك كان العجب يستولي على النظارة ويعتقد القوم أن للقيصر حريماً، وهذا المنظر يؤيد الشائعة التي انتشرت مروجة أن للقيصر حريماً مما دفع البابا أن يشكوه باكياً إلى المجلس المقدس: «من عدا القيصر يستطيع أن يثبت هذه التهمة؟». وكان كل طفل مسلم نابه في بلاط صقلية يحمل مفتاحاً يخول له الدخول مباشرة على القيصر، وكان جميع الناس مع اختلاف ألوانهم وأجناسهم وعقائدهم وألسنتهم والذين يحملون الألقاب الرفيعة، سواء عند القيصر. وإذا أظهر خادم من خدمه نبوغاً واستعداداً لتحصيل العلم تعهده القيصر ويسر له السبيل،

وقد حدث أن المعلم «يواقيم» علم خادم القصر «عبد الله» اللغة العربية قراءة وكتابة فأمر القيصر بصرف مبلغ من المال له. كما نجد الطفلين الزنجبين «مرسوخ» و «موسكا» يتلقيان علم النفخ في الأبواق الفضية التي صنعت خصيصاً لهما تنفيذاً لرغبة عالية. كذلك نجد الطفل العربي العريض الجبين المتألق العينين والذي تبدو على محياه دلائل الفطنة والذكاء ينال رضاء القيصر عندما شاهده واقفاً بين الخدم، وهو ابن جارية مسلمة ووالد مسلم من البربر القاطنين في جبال مراكش فيسر له السبيل وفتح الطريق أمامه حتى بلغ أرقى مناصب الدولة. وكان هذا الطفل يسمى «جيوفيني» ويلقب «أل مورو» أي المسلم. وورد في المذكرات تحت اسم «يوحنيس موروس» وهو الذي اشتهر بإتقانه عدة لغات مما حدا بالقيصر إلى ترقيته بسرعة فبعد أن كان أمين القصر رقيه إلى وظيفة كاتم أسرار المجلس الاستشاري القيصري. ومثل هذا «المسلم» مثل «جورج الأنطاكي» العربي الذي حاز ثقة الملك روجير الثاني فرقاه إلى أعلى منصب الدولة، ثم أقطعه عدداً من الضياع. ولم يكن حظ «المسلم» أيام القصر فريدريش الثاني أقل من حظه أيام الملك كونراد، ففي عهده تولى علاوة على أمانة القصر محافظة مدينة «لوكيرا» مسقط رأسه، ومن ثم رقيه إلى وظيفة كبير أمناء المملكة الصقلية. فهذا التدرج في الرقي الذي يشبه إطلاق الصواريخ والذي بلغه هذا العربي الفقير الأصل تلاشي في أقل من وميض البصر، وذلك لأنه سقط مرة وأفشى سر الأسرة الأشتوفية ممثلة في الملك منفرد صديق العرب وحببهم للبابا، فما كان من العرب أنفسهم إلا أن اقتصوا من هذا الخائن الوضيع وقتلوه انتقاماً لكرامتهم التي أهدرت إخلاصهم الذي لطحه هذا الوضيع بالعار. أما وظيفته فقد تولاهما عربي آخر صقلي يحمل اسماً جرمانياً ألا وهو «ريتشارد» وكان على نصيب عظيم من

العلم. وهو في الأصل من رجال القانون فكان يعمل قاضياً، ثم أصبح في الدولة المسيحية كبير الأمناء، ثم تدرج في الرقي حتى عينه الملك مستشاره الخاص وظل في منصبه هذا زهاء عشرين عاماً. ففي عام 1221 م نجد هذا العربي الذكي الخلس الأمين يقف إلى جانب الملك البالغ من العمر الثامنة عشرة والذي كان يحاول الحصول على تراث والده، فرافق «ريتشارد» الملك الشاب إلى ألمانيا ومنذ ذلك الحين أصبح رفيقه في الحل والترحال، في الحرب والسلام. وقد تجلّى إخلاص هذا العربي أيضاً عند موقفه من فريدرش وأصبح هذا الإخلاص مضرب الأمثال، وذلك لأنه حدث عام 1216 أن البابا «هونوريوس» الثالث لما أراد اختيار وصى لابنه الحبيب فريدرش كتب إلى العربي «ريتشارد» الرجل الذي اشتهر في روما بأنه موضع الثقة الوحيد لدى الأسرة الأشتوفية، أعني فريدرش. ثم خلت وظيفة المستشار منذ أن فضل «فالتير فون فليجيارا» - هذا الرجل الأناني والوصي المتقلب منذ عهد شباب فريدرش. الإقامة في الخارج. فبعد عودة القيصر من ألمانيا عام 1220 م تولى العربي ريتشارد كبير أمناء مملكة صقلية إلى جانب عمله وزارة المالية والخزانة، وكذلك الإدارة العامة للرأي. ومنحه سيده كثيراً من الأملاك في صقلية وقد ظل هذا العربي قائماً بهذه الوظائف الخطيرة في الدولة حتى وفاته عام 1236 م وظهر هذا التغير الجوهري الخطير في التشريعات القانونية في مدارس الحقوق في شمال إيطاليا، وذلك بسبب وجود القاضيين «بترس فون فينيا» و «ثاديوس فون سويس» في البلاط الملكي، فقد انتقلت إليهما إدارة مصلحة الرأي بينما انتقل «يوجنيس موريوس» إلى مصلحة الأمانة. لقد بلغ وفاء ريتشارد للقيصر فريدرش حداً دفعه إلى مرافقته حتى في حملته الصليبية، ولم يكن هو المسلم الوحيد في حاشية القيصر، لذلك كان

ريتشارد المسلم قذي في عيون وعاظ الحملة الصليبية فاتهموه أنه نجس قدس الأقداس. أما القول بأن ابن الجوزي أستاذ القيصر فريدرش في المنطق قد قام بدور الترجمة في هذه الحملة بين القيصر والطرف الآخر فبعيد عن الصواب، وذلك لأن القيصر كان يجيد العربية إجابة تامة. وما يقال عن ابن الجوزي يقال أيضاً عن اشتراك حملة عربية إسلامية من أبناء «لوكيرا» في هذه الحملة الصليبية، إذ إنه من المستبعد جداً أن يقاتل مسلمو صقلية مسلمي سلطان مصر وبخاصة أن القيصر فريدرش بما عرف عنه من صداقته للإسلام والمسلمين أحصف من أن يحاول هذه المحاولة، وأن يزج بالمسلمين من رعيته في حرب ضد المسلمين في الشرق وفي عكا. والآن نتساءل: لماذا تظاهر فريدرش وكأنه المسلم المؤمن الحقيقي؟ إنها حيلة دبلوماسية عظيمة أن يتقدم للمفاوضات في الشرق وهو في زي شرقي وتحيط به حاشية شرقية. إنها خدمة عظيمة لأن يفاوض السلطان كسلطان وبتقاليد سلطانية. والرحلة التي سبق أن وعد القيصر في «إكس لاشبل» بالقيام بها نفذها، لكن ليس لسبب ديني، إنها رحلة كما وصفها لأصدقائه العرب في غير حياء أو خجل ذات فائدة سياسية هامة له، وكان يتمنى أن يزور الشرق العربي، هذا الشرق الذي كان يؤمن بعظمته ورقيه وتفوقه، كما كان يحترم العرب ويعجب بهم كثيراً ويشعر بفضلهم العظيم عليه وكم هو مدين لهم، دين العالم لهم أيضاً، فرحلته إلى العالم العربي ستمكنه من الاجتماع بأنداده. لذلك لم تكن الدبلوماسية فقط هي التي دفعته إلى تبادل الهدايا والدخول في محاورات ومساجلات في الفروسية من العرب، إنما كان يريد أن يثبت أنه ليس أقل من العرب شأنًا؛ والواقع أن هذه النوايا قد ظهرت واضحة وتجلت عندما حرص سلطان مصر على المحافظة على الشعور الديني للقيصر، فأمر المؤذن في القدس أن يتوقف عن الأذان طيلة إقامة

القيصر؛ كما نجد السلطان يعين القاضي شمس الدين مرافقاً للإمبراطور وملازماً له طيلة مدة ضيافته وإقامته في القدس؛ فدار حديث بين القيصر والقاضي: «أيها القاضي لماذا لا يؤذن المؤذنون للصلاة؟» فأجابه القاضي: «يا ملك الملوك إننا نعرف كيف نقدر زيارتكم» فتألم القيصر وقال له: «إنكم تأتون ظلماً في بلدكم ووطنكم من أجل ذلك بتغييركم عاداتكم وتقاليديكم، إنكم لستم في حاجة إلى هذه المخالفات لو كنتم في بلادتي؛ وعلاوة على ذلك فقد سرتني جداً سماع المؤذن ليلاً». إن الرحلة إلى بلاد العجائب كانت للتسلية بالنسبة للآخرين، لكن القيصر كان ينظر إليها وكأنها عودة إلى مصدر ووطن عقلية وثقافته التي تثقف بها، فرحلته هذه تفتح الآن له عيذه وبصيرته، وعند عودته إلى مملكته سيراعى تجاربه التي جمعها ويحاول تطبيقها. لقد أقام في القدس يومين إلا أنه بالرغم من ذلك شاهد قبة الصخرة المقدسة وهي الثانية بعد الكعبة، والإمبراطور يشبه جده روجير الثاني الذي اهتم اهتماماً كبيراً بمشاهدة كنيسة أو قلعة أو مستودع أسلحة فكان يتفقد هذه الأماكن تفقد الخبير «لقد شاهد كل شيء بعناية ودقة عظيمتين»، هكذا ذكر الذي كان يرافق الإمبراطور كعضو بعثة شرف «أولاً شاهد المسجد من بعيد وأبدى إعجابه بجماله ومعماره والأثر الذي يتركه في النفس ثم فحص الحائط القائم على الصخرة وأبدى إعجابه ببنائه وبناء المنبر. ولكي يشاهد كل شيء تسلق حتى بلغ القبة وتأبطني عندما خرجنا». وفي القاعدة المثمنة الأضلاع والتي تعتبر من أكبر الآثار التي شيدها في حكمه «كاستيل ديل مونتيه»، أعني قلعة الجبل - نجد تخليداً لذكريات القيصر لزيارته لقبة الصخرة ومسجدها. إن الذكريات التي جمعها فريدرش من رحلته إلى الشرق ظلت ملازمة له طيلة حياته كما أثرت

فيه ووجهته التوجيه الذي امتاز به: ثقافة روحية نورمانية، وشباب
فريدريش الثاني الذي مضاه في صقلية.

على الأسس العربية

إلى جانب الثقافة المختلفة التي لعبت دوراً هاماً في حياة فريدريش
الثاني وأعماله، هذه الحياة الغنية بكل شيء، وهذه الثقافات المتعددة
الأصل والجوهر كاليونانية البيزنطية والرومانية القديمة والمسيحية
الأوربية. كانت الثقافة العربية أبعد جميع الثقافات الأخرى مجتمعة أثراً
في حياة القيصر الأشتوفي، فالثالوث الذي تجمع في فريدريش وهو
الوراثة النورمانية وانطباعات الشباب وتجارب الشرق، هذا الثالوث
كان العامل القوي الذي تتجلى لنا آثاره في حياة فريدريش وأعماله.
والأدلة على ذلك المباني التي شيدها فريدريش الثاني وما أكثرها، ففي
مملكته خلف أكثر من مائتي قلعة عدا الحصون والمباني الأخرى
الجديدة أو المجددة. إن هذه المباني هي خير ما يعبر عن تلك القوى
وهذه الدعائم التي تقوم عليها دولة فريدريش الثاني، فهي مزيج وكأنها
في مزيجها هذا إرادة قوية موحدة. في هذه المباني نجد الأبواب التي
ترجع إلى العصور القديمة والجمالونات والزخارف والفسيفساء
البيزنطية والقباب ذات الأضلاع القوطية، ويتسلل إليها النور عن طريق
كوات على شكل ورود قوطية ونوافذ. لكن الأسس التي قامت عليها هذه
الحصون والقاعدة المعمارية التي روعيت عند بنائها كمواقع للدفاع
خالدة شامخة لا شك في أنها عربية. ففي العالم الهندي الجرمانى نجد
الحصون المستديرة وفي وسطها السكن، كما أنها تختلف نوعاً ما في
الأبراج الإقليمية أو تلك المشيدة على الحصون حيث نجدها متأثرة

بالشيء المقدس القائم في وسطها. كذلك نجد نفس هذه الفكرة في المعسكرات في العصور الوسطى حيث سلاح الفرسان. أما الآن فقد تحولت إلى أبراج للسكن والإقامة للفارس وأسرتة، وفي أعلى التلال وقم الجبال نجد أبراج الحراسة وحول البرج المقام نجد البرج الرئيسي الذي هو مركز الارتكاز وحوله دوائر مملوءة خشبية وخنادق وأسوار. أما البرج العربي فشيء آخر، ففي أوائل العصر الميلادي نجد بلاد العرب الجنوبية تنهض به نهضة عظيمة متمشية مع سلاح فرسانها العظيم. فحصونها القوية المشيدة من الصخور قد جمعت إلى بعضها عن طريق معدن مصهور، وقد ظلت هذه الحصون قائمة قروناً عديدة وهي ليست مستديرة الشكل بل مربعة وذات زوايا قائمة، فقد انتزع سادة اليمن وحضرموت صخوراً من الحيطان مربعة الشكل يبلغ سمك الصخرة نحو خمسة أمتار، كما أن ارتفاع البرج لا يقل عن ارتفاع عشرين طابقاً وقد أقاموها في رمال الصحراء. أما الأركان الأربعة فكانت تحميها وتدافع عنها أبراج أربعة مصقولة ملساء. وفي جوانب الحيطان الشامخة نجد الأبواب التي تحميها أبراج صغيرة. وفي أثناء الحروب تأوي إليها القبائل بإيلها وغنمها. وفي القرن الرابع الميلادي نجد هذه الأبراج المتناسقة المشيدة على أسس وقواعد رياضية تنتقل إلى سائر أنحاء الجزيرة العربية، ومن ثم أخذت تنتشر حتى بلغت بيزنطة. وإلى القرن الخامس الميلادي يرجع تاريخ البرج الصغير المعروف باسم «قصر الخير» الموجود في سوريا وطوله نحو سبعين متراً وزواياه قائمة وعليها الأبراج وأربعة أبواب للأبراج والحيطان. وبجواره مباشرة بني حوالي عام 728 الخليفة الأموي هشام قصراً فاخراً مثله تماماً إلا أنه أعلى وأضخم. وبين أبراج الزوايا الأربع تقوم حيطان يبلغ ارتفاع الحائط منها ثمانية وعشرين متراً وطوله مائة وسبعين متراً.

وفي كل باب برج يحميه. وإبان حكم هشام باني القصر انقضت الجيوش العربية في أقصى الغرب من جبال البرنات على فرنسا، ومع الجيوش العربية زحفت الأبراج العربية إلى إسبانيا والبرتغال وغيرهما ففقت الأبراج الحجرية على الطريقة الخشبية القديمة التي كانت سائدة في الأبراج <http://www.shamela.ws> تم إعداد هذا الملف آلياً بواسطة المكتبة الشاملة الكتاب: شمس الله تشرق على الغرب = فضل العرب على أوروبا المؤلف: د. سيجريد هونكه ترجمه وحققه وعلق عليه: أ. د. فؤاد حسنين علي الناشر: دار العلم العربي الطبعة: الثانية، : 1432 هـ — عدد الصفحات: 481 أعده للشاملة: رابطة النساخ، تنفيذ (مركز النخب العلمية)، وبرعاية (أوقاف عبد الله بن تركي الضحيان الخيرية) [ترقيم الكتاب موافق للمطبوع] فهناك ندرك مدى التقدم الطبي الذي فاق نظيره عند الإفرنج؛ لذلك لا يدهشنا أن نرى القيصر يتخذ من الطب العربي مثلاً يحتذى. ولم يكن فريدريش هو أول من تنبه إلى هذا في صقلية بل نجد جده روجير الثاني يسبقه إلى هذا، فقد أصدر قانوناً خاصاً بالطب والأطباء. ثم جاء فريدريش ونسج على منواله فوجه جل عنايته إلى الطب العربي واقتباسه، كما أصدر قانوناً خاصاً بالطب في أوروبا. وكما كان الحال إبان حكم العرب وسيطرتهم، وكما عرف فريدريش من الشرق أدخل هو أيضاً نظام الحسبة العربي لمراقبة سائر المهن والتجارة والاقتصاد والصحة كما حرص على وجوب السهر على مراقبة هذا النظام واحترامه، وقد ظل نظام الحسبة قائماً في مملكته قرناً طويلاً، وفي عام 1231 أصدر القيصر مرسوماً بتعميمه في أوروبا أيضاً، أي خارج الجزيرة. كذلك رفع من المستوى الصحي العام وشعر بضرورة وجود الحمامات، فأهميتها لا تقل عن أهمية المدارس والمكاتب، لذلك أكثر منها وجعلها عامة فأصبحت مدينة «لوكير»

أنظف وأصح مدينة في القارة الأوروبية. وبلغ من حماقة خصوم القيصر أن أطلقوا عليه لقب «سلطان الوكيرا»، ولا أدل على اهتمام القيصر باقتباس كل ما هو عربي صالح وإدخاله إلى بلاده من أنه عمم الحمامات في كل إقليم من أقاليم بلاده، وكذلك المياه الجارية التي هاجمتها الكنيسة لأنها اعتبرت تذكيراً، فكيف يستحم الفرد يومياً، إنها جريمة، وبخاصة الاستحمام أيام الأعياد الكنسية، إذ كيف يتجرد الإنسان من ملابسه، إنها جريمة كبرى! إن القيصر الذي تعلم طفلاً وشاباً من الشعب يجب أن يهتم بما يفيد الشعب ويخدمه، وهل هذا عجيب؟! وهكذا نجد القيصر ينشط في تأدية خدمات عظيمة للشعب ترفع من شأنه وشأن دولته وبهذه الطريقة فقط استطاع بمساعدة موظفيه تنفيذ جميع هذه الإصلاحات لجعل من دولته أول وأعظم دولة مدنية مستقلة عن الكنيسة وسلطانها. أما موظفو الدولة فكان فريدريش يتطلب منهم ثقافة خاصة، لذلك أوجد القيصر جامعة نابولي لتخريج عدد كبير من العلماء الأذكياء النابهين، كما حرص على إشاعة العدل بين أفراد الرعية لأنه أدرك أن العدل أساس الملك، وإلى جانب دراسة القانون، كانت تدرس في أول جامعة مدنية في أوروبا جميع فروع العلوم الأخرى عدا الطب الذي كان يدرس في «سالرنو». أما الشعلة المضئية في مملكة صقلية ونجم أوروبا اللامع، فهو القيصر فريدريش الثاني.

محادثات على الحدود

من بين المؤثرات العلمية التي أثرت في تكوين عقلية القيصر وشخصيته طفلة حياته البالغة ستة وخمسين عاماً: اللغة العربية. فهذه اللغة كانت أقوى العوامل أثراً في حياته وتوجيهه لا لأنه مما فيها

وترعرع منذ طفولته حيث كان عقليته متفتحة القبول المعارف والاستفادة منها بل لطبيعته واستعداده وخصائصه، فقد وجدت جميع هذه الخصال في الثقافة العربية الغذاء الصالح، كما وجد القيصر الطفل والقيصر الشاب في هذه البيئة العربية الجو الملائم لنموها وازدهارها. فمن إسبانيا الواقعة في غرب القارة الأوروبية زحفت العروبة والعربية على كل أوربا، ومن أجزاء القارة البيضاء من استنكر هذا الزحف ومنها من أعجب به، لكن على كل حال وقفت أوربا من زحف الثقافة العربية موقفاً سلبياً. فمن إسبانيا وفد قبل الحملة الصليبية العالم العظيم، على القصر الملكي في صقلية حيث فريدرش. وعن طريق القيصر، عرفت أوربا الآراء الخطرة للفيلسوف العربي ابن رشد. لقد درس «ميخائيل سكوتوس» في إسبانيا وألم باللغة العربية إلاماً جيداً؛ لذلك ساهم في طليطلة في التراجم والترجمات العربية اللاتينية. وكان هذا كافياً لأن يزكيه لدى القيصر فيحسن استقباله. لقد جاء هذا الضيف العالم ومعه معلومات كثيرة جداً في مختلف المواضيع إلا أنه وجد في صقلية أستاذه: «أيها القيصر السعيد إنني أعتقد حقاً إذا استطاع شخص أن يتجنب الموت عن طريق علمه فأنت هذا الشخص!» وترجم للقيصر كتاب الحيوان لابن سينا، وشرح ابن رشد على أرسطو، وهو الكتاب الذي ظل مدة ثلاثين عاماً يزعج المسلمين المتزمتين والمسيحيين كذلك. ابن رشد قاضي قرطبة، كان كذلك طبيباً وفيلسوفاً، وتوفي وقد بلغ اثنين وسبعين عاماً في قصر خليفة مراكش، وفي نفس العام وهو العام الذي تسلم فيه فريدرش، أربع سنوات في بالرمو، التاج الملكي. أما مؤلفاته فتكاد تتفق ومشرب القيصر الأشتوفى، وعند إلقاء النظرة الأولى عليها تبدو غير متطرفة بخلاف الوصف الذي توصف به «الحركة دائمة» ولك حركة سبب سابق وبدون حركة لا يوجد زمن، ولا نستطيع أن نتصور أن

للحركة أولاً أو آخراً». وهذا الفيلسوف القرطبي يؤمن كذلك إيماناً قوياً بأرسطو ففيه كل الفلسفة. هذا رأي ابن رشد، وتتوقف المسألة على شرحه. وفكرة تجسيد المعرفة بجميع فروعها منذ ألف عام قبل مجيء الرسول، وقبل أن تعلن كلمة الله، كما يعتقد المسيحيون، كل هذا لا يمنع ابن رشد الذي يقدر أرسطو من أن يهتم بشرح فلسفة أرسطو والدفاع عنها، وكأنه أرسطو نفسه. والواقع أن هذا الفيلسوف العربي الحديث عالج المسألة في شيء عظيم من البراعة، فابن رشد يقول ما مضمونه إن الخلق من العدم عبارة عن أسطورة فالعالم في الواقع هو خلق مستمر يخلقه الله، والله هو المدبر للكون ومنظمه وهو روح الوجود، فهذه الروح الإلهية تلهم الروح الإنسانية العلم والمعرفة ... هل هذا الفيلسوف منكر وجود الله وغير مؤمن به؟ حقاً إن ابن رشد يؤمن بحقيقتين، حقيقة المعرفة وحقيقة العقيدة. لكن ألم ينسب إليه أنه ينكر خلود الروح؟ إن هذا الرأي لا بد أن يكون قد صدر عن شخص لم يقرأه. فابن رشد يقرر أن تحويل جسد الإنسان المادي هو الطارئ لكن توجد وحدة روحية فقط. والناحية السلبية من الروح جزء من الجسد ويموت يموت الجسد؛ لأن كل شيء فردي هالك. أما الجزء الإيجابي من الروح فهو الجزء الإلهي وليست فيه فردية وهو خالد. إنه مثل الشمس التي تضيء جميع الأشياء وهي خالدة، وهذا الجزء الإيجابي هو الجزء الإلهي فينا وهذا الجزء خالد أبدي خلود العالم وأبديته. وخصم ابن رشد ذلك الذي يدعى «أن الفلسفة العربية ليست مستقلة وليس لها أصل»! «حقاً» هل قرأ هذا الزنديق هذه العبارة: «ليس للعالم وجود، إنه موجود في العقل الذي يفهمه». إن أفكار ابن رشد تركت أثراً بعيداً في القيصر فريدريش، إنها هي اللغة التي يتكلم بها القيصر نفسه؛ كلاهما جاء إلى الوجود وكل يملك حق الدخول المباشر إلى هذا الوجود. كذلك شخصية أخرى شبت

وترعرعت في عصر الملك فريدريش وقد تأثرت بآبن رشد تأثيراً قوياً بالرغم من معارضتها له. توماس فون أكوين، جراف فون أكيرا، سفير فريدريش الثاني في بلاط السلطان الكامل وحاكم القدس، كان له حفيد وابن أخ يسميان بنفس الاسم. أما حفيده توماس الصغير فهو ابن المستشار «أدينولف» في صقلية، وقد تربى مع أخيه يعقوب، وهو الشاعر الذي ظهر فيما بعد كغلام يتعلم الفروسية في القصر ثم تزوج «مرجريت» ابنة القيصر فأصبح بذلك زوج ابنة القيصر فريدريش الثاني. وأما ابن أخيه الأكبر والمسمى أيضاً توماس فهو ابن المستشار القضائي «لندولف» فون «أكوين»، وأخوه «رينالد» الذي أصبح مثل ابن عمه شاعراً ينظم الشعر على منوال الشعراء العرب فقد تربى تربية تؤهله أن يكون نبياً. غير أن ميوله كانت دينية فأثر أن يكون رجل دين إلا أن أسرته كانت تعارض فيه هذا الاتجاه؛ لذلك لجأت إلى القيصر ترحمه أن يستعمل نفوذه لإثباته عن عزمه. لكن «رينالد» لجأ إلى قاضي قضاة القصر وهو «بترس فون فينيا» راجياً مساعدته واستطاع الهرب. لكن القدر أراد شيئاً آخر. فقد التحق توماس بجامعة نابولي وأصبح من أكبر رجال الكنيسة الرومانية إذ حصل على لقب «دكتور أنجيليكوس». أما المجادلات التي قامت حول أرسطو وداعيته آبن رشد فقد أثارت انتباه الكثيرين ولم يستطع توماس أن يقف منها موقفاً سلبياً، ومما أثار الدهشة أن توماس خصمه أقره ووافقه على ما ذهب إليه في كثير من شروحه وتأويلاته، بل لم يقف توماس عند هذا فقط بل أخذ بوجهات نظر آبن رشد التي أفادت كثيراً فيما بعد في المجادلات التي قامت بين المسلمين والمسيحيين، وقد أقر علماء الطائفتين ما ذهب إليه آبن رشد، ومن هنا نشأت الهزلية التي جعلت قديساً من هذا الشخص الذي كان متأثراً تأثيراً قوياً بزندقة القيصر، وهو يعتبر كابن للقيصر

ومن أخلص المخلصين للأسرة القيصرية، هذا الشخص أعلنته الكنيسة قديساً، وهو أحد الآباء البررة للكنيسة والمسيحية وعن طريقه رُضيت الكنيسة عن أرسطو بل عن العربي المسلم ابن رشد مفسر أرسطو وأكبر مناصريه والداعين له. وأخيراً بعد أن تبينت جامعة باريس خطر هذا الفيلسوف العربي الذي أثر في الفكر الأوربي أثراً كبيراً، ظهرت العلوم العملية ومهدت الطريق لظهور الفكر الأوربي وازدهاره. وفي قصر فريدرش قام ميخائيل سكوتوس بأعمال الترجمة التي تولى القيصر نشرها بين الجامعات الأوربية المختلفة، فأصبحت هي التوطئة إلى الفلسفة العربية، ومن هنا أيضاً فتح الطريق إلى الرياضيات العربية والأعداد العربية حيث نجدها مذكورة في مؤلفات أمثال «ليوناردو فون بيزا» الذي كثيراً ما حل ضيفاً على القيصر وعلى صديقه ميخائيل، وقد أضاعت هذه الكتب الطريق لأوروبا كما سبقت الإشارة إلى ذلك. أما فريدرش البحاثة العبقرى الذي كان دائماً مشغولاً بالأبحاث والاطلاع كما وصفه ابنه «منفريد» فقد كان يرى في أفكار ابن رشد المصباح الوضاء الذي ينير له سبيل الحياة، كما كان يأنس إلى رفقة ميخائيل ويعتز بصداقته، فإليه كان يتوجه القيصر إذا ما عن له أمر هام أو عرضت له مسائل عويصة. ويذكر ميخائيل سكوتوس فلكي القيصر المخلص أن القيصر استدعاه مرة ووجه مجموعة من الأسئلة الخاصة بالأرض وعجائبها، فكان القيصر وكأنه جاء من عالم آخر. ذلك القيصر الذي طرده البابا من الكنيسة يود أن يعرف كل شيء عن هذا العالم الذي يعيش فيه، يريد أن يعرف الأبعاد والمساحات والأحجام فهو يسأل: كم عدد السموات الموجودة؟ وكم عدد الأعماق؟ وكان القيصر يوجه أسئلته في شيء من الحياء والحذر، فهو يسأل مثلاً عن حجم الكرة الأرضية: سمكها وطولها والمسافة بينها وبين السماء العليا، كذلك المسافة بين

الأرض وأبعد الأعماق، ثم هل هناك عمق واحد أو أكثر، وإذا وجدت أعماق متفاوتة، فما هي المسافة بين العمق والآخر؟ كذلك نجد رغبة القيصر القوية في معرفة الأعداد، وهذه خاصية عرف بها روجير الثاني أيضاً، فهو كان حريصاً على تبسيط المعلومات وتجسيدها ليسهل إدراكها وفهمها عن طريق الأعداد. وهذه الظاهرة هي التي دفعت جده أن يقوم بالليل وبقيس حيطان مدينة نابولي لأنه أراد أن يعرف مقدار المساحة التي تضمها هذه الحيطان. كذلك موضوع الخلود، فقد شغل فريدرش الثاني كثيراً إلا أنه كان يكتف هذه الرغبة، ثم نجد القيصر الذي حرم من الكنيسة للمرة الثانية يتجه إلى العلماء العرب، فقد أرسل أسئلته إلى مصر وسوريا والعراق والأناضول واليمن ومراكش وسلمها سلطان الموحدين إلى الفيلسوف الشاب ابن سبعين في كويناء، وكانت الفكرة السائدة عند هذا الشاب العربي ابن العشرين أن الإفرنج في درك علمي منحط جداً، وأعتقد أن أسئلة ترد من أمير الجهلاء المسيحيين لا تحتاج إلى كبير عناء للإجابة عنها، وتسلم القيصر هذه الإجابة التي تحمل كل معاني الاستهتار من هذا الفيلسوف الشاب المغرور. وتحمل القيصر هذه الإهانة ضاحكاً وأرسل إليه هدية أزعجته. وهذا الاستهتار من هذا الشاب كان هو الوحيد الذي حدث، وذلك لأن سائر الأمراء والعلماء العرب أدركوا أن توجيه هذه الأسئلة من القيصر تكريماً لهم وتقديراً لمعرفتهم واحتراماً لعقليتهم العربية، لذلك بذلوا كل ما في طاقتهم لإجابة هذا الملك المحترم ملك الإفرنج عن أسئلته الدقيقة. فتبادل الآراء كان قوياً وكثيراً بالرغم من مشاغل القيصر السياسية والإدارية، وذلك لأن القيصر فريدرش لم ينظر إليها كوسيلة من وسائل شغل الفراغ أو التسلية بل كان الدافع إليها كما يرجح عربي هو اختبار علم المسلمين. أما العلوم الأوروبية والمعرفة الأوروبية فقد عجزت عن إشباع رغبته

العلمية وإرواء ظمئه إلى المعرفة والتحصيل، فالقيصر كان يؤمن بأن كل ما يجري وكل ما هو كائن إنما هو شيء بدهي، وكان فريدرش يطمع في أن يجد شريكاً له صديقاً يرى في الوجود ما يراه القيصر كما يرى الوجود كما هو، أي كما هو كائن في الحقيقة والواقع. أما العالم العربي الذي غذاه بعلمه ونشأه فقد باعد بينه وبين أنداده .. ففي العالم العربي كانت المسائل واضحة جلية، ولا توجد أحكام تحد من تفكير رجال الدين. الإسلامي أو من البحث والدرس، لذلك ظل القيصر وحيداً، ولم يجد في عصره من الأوروبيين من يفهمه، بل كان بالنسبة لزمانه في أوروبا لغزاً من الألغاز. لقد كان فريدرش دائم البحث وراء أصدقاء يفهمونه، أصدقاء في مستواه العقلي والعلمي، لذلك أرسل أسئلته إلى يافا ليتعرف على العرب ويتبادل معهم الأفكار العلمية والأبحاث الهامة، ويجد فيهم الأصدقاء الذين يقدرونه وينقدونه من الوحدة والعزلة. كان القيصر يرجو من وراء هذه المراسلات أن يحظى بتقدير العرب وصادقتهم. كان حريصاً على أن يخرج من هذا العالم الذي ولد فيه وشاءت الأقدار أن تجعله أوربياً، وكانت هذه التبعية الأوربية تؤلمه وتؤذيه. إن القيصر كان يشعر في أواخر أيامه وكأنه الغريب الذي يحن إلى العودة إلى وطنه الأصلي. إن ضربات الغدر القاسية التي كانت توجه إليه ويواجهها في أوروبا لم تؤله إيلام البعد الروحي والعلمي بينه وبين معاونيه من رجال الدولة، حتى إنه قال: أريد أن أبقى في الشرق إلى الأبد! ومن الوثائق التاريخية المؤثرة حقاً هذه الرسالة التي وجهها الإمبراطور في العربية إلى صديقه فخر الدين بعد أن افترقا وقد استهلها بالبسملة. ولعل الشيء الذي باعد بين فريدرش وعصره هو هذا الوحي العقلي الذي كان يتلقاه بين الحين والآخر من الشرق ووطنه الروحي، وهذا التراث العربي هو الذي ميزه عن سائر معاصريه، لذلك كان

فريدريش يحاول دائماً الاتصال بهؤلاء الأنداد العظام. لقد استقبل البعثة العربية التي قدمت له كهدية مرصداً ذهبياً وقبة للأجرام السماوية متحركة استقبلاً حاراً جداً لا للهدية فقط، التي أدخلت إلى نفسه كثيراً من الفرح والسرور وهو البحاث الذي لا يمل التفكير والاطلاع، بل لملاقة علماء دمشق الذين طالما أسعده الاتصال بهم. وحرص فريدريش على إبقائهم في ضيافته فظلوا شهوراً وشهوراً، ثم سمح لهم بالعودة إلى بلادهم بعد أن احتفل بهم وكرمهم كثيراً وبالغ في الحفاوة بهم فأولم وليمة كبرى بمناسبة الهجرة النبوية الشريفة، وكانت هذه الوليمة شرقية أبهة وكرماً. ولم يسبق لأوروبا أن عرفت وليمة تدانيتها عظمة وأبهة، لكن ماذا يصنع القيصر وليس في مقدوره استضافة أعضاء هذه البعثة مدة أطول. وقد تحدث العرب أنفسهم عن هذه المعاملة، ومن المهم جداً أن نشاهد القيصر بعيون عربية ونقرأ تقديراً عربياً أوحى به أخلاق وصفات وعبقريّة هذا الملك الإفرنجي، كما ندرك من خلال هذا التقدير العربي الأهمية الكبرى التي علقها العرب على اختيار هذه البعثة التي زارته والعناية القصوى في اختيارها. وذلك لأن مثل هذه البعثة يجب ألا يكون مستوى أعضائها أقل من مستوى بعوث القيصر إلى الأمراء العرب. ومن العبارات العربية نتبين كيف أن هذه البعثة قد وفدت على عالم فاضل لا يقل علماً ومعرفة عن أكبر أستاذ علم في الموصل. وذكر ابن أبي أصيبعة في ترجمته لكمال الدين بن يونس ما نصه: هو كمال الدين أبو عمران موسى بن يونس بن محمد بن ... علامة زمانه وأوحد أوانه وقدوة العلماء وسيد الحكماء قد أتقن الحكمة وتميز في سائر العلوم وكان عظيماً في العلوم الشرعية والفقه، وكان مدرساً في المدرسة بالموصل ويقرأ العلوم بأسرها من الفلسفة والطب والتعاليم وغير ذلك. وله مصنفات في نهاية الجودة ولم يزل بمدينة الموصل إلى أن توفي

رحمه الله. حدثني القاضي نجم الدين عمر بن محمد بن الكريدي قال: وكان ورد إلى الموصل كتاب الإرشاد للعميدي، وهو يشتمل على قوة من خلاف علم الجدل هو الذي يسميه العجم «جست» أي الشطار، فلما أحضر إلى الشيخ كمال الدين بن يونس نظر فيه وقال: علم مليح ما قصر فيه مؤلفه، وبقي عنده يومين حتى حرر جميع معانيه ثم إنه أقرأه الفقهاء وشرح لهم فيه أشياء ما ذكرها أحد سواه. وقيل إن كمال الدين بن يونس كان يعرف علم الكيمياء من ذلك. حدثني أيضاً القاضي نجم الدين بن الكريدي قال: حدثني القاضي جلال الدين البغدادى تلميذ كمال الدين بن يونس وكان الجلال مقيماً عند ابن يونس في المدرسة قال: كان قد ورد إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل من عند الأنبرور (كذا بالأصل وهي الأمبرور = الإمبراطور) ملك الفرنج، وكان متفنناً في العلوم - رسول وبيده مسائل في علم النجوم وغير ذلك، وقصد أن كمال الدين بن يونس يرد أجوبتها فبعث صاحب الموصل إلى ابن يونس يعرفه بذلك ويقول له أن يتجمل في لبسه وزيه ويجعل له مجلساً بأبهة لأجل الرسول، وذلك لما يعرفه عن ابن يونس أنه كان يلبس ثياباً رثة بلا تكلف وما عنده خير من أحوال الدنيا فقال: نعم. حكى جلال الدين قال: فكننت عنده وقد قيل له هذا رسول الفرنج قد أتى وقرب من المدرسة فبعث من تلقاه، فلما حضر عند الشيخ نظرنا فوجدنا الموضوع فيه بسيط من أحسن ما يكون من البسط الرومية الفاخرة وجماعة ممالك وقوف بين يديه وخدام وشارة حسنة. ودخل الرسول وتلقاه الشيخ وكتب الأجوبة عن تلك المسائل بأسرها. ولما راح الرسول غاب عنا جميع ما كنا نراه فقلت للشيخ: يا مولانا ما أعجب ما رأينا من تلك الأبهة والحشمة! فتبسم وقال: يا بغدادى هو العلم». وفي عصر متأخر ظهر طالب آخر من أولئك المتحمسين لأستاذ آخر في الموصل،

كان يحسد كمال الدين للشهرة التي بلغها وكان قد علم عن هذا الحدث الذي وقع الكمال الدين عن طريق السماع فقط، إلا أنه ما زال ذاكرةً صعوبة المسائل العويصة التي تقدم بها الإمبراطور إلى العلماء العرب، وقد أثارت هذه المسائل كثيراً من الاهتمام. ومن أهم الأشياء التي سمعها من كمال الدين أنه أيام حكم الكامل أرسل الإفرنج إلى سوريا بعض المسائل أرادوا منه (كمال الدين) حلها، وهي تتناول مختلف المواضيع من طبية وفلسفية ورياضية. وقد استطاع علماء سورية حل المسائل المتعلقة بالطب والفلسفة. أما المسائل الرياضية فقد عجزوا عن حلها إلا أن الملاك الكامل أصر على وجوب حلها، لذلك أرسلها إلى الموصل إلى المفضل بن عمر أستاذنا، وقد كان في العلوم الهندسية بارعاً جداً وبالرغم من ذلك لم يكن من اليسير عليه حلها فعرض المسائل على الشيخ ابن يونس. وبعد تفكير استطاع حلها وأرسلها إلى الملك الكامل في سوريا. ووجود شخص يستطيع أن يوجه مثل هذه المسائل العويصة دليل قوي على أن السائل قد بلغ مستوى العرب علماً وثقافة، وهذه حقيقة سلم بها العرب. لقد أمطر هذا الرجل العجيب الذي كان يتربع على عرش أوربا أمراء العرب بكثير من الأسئلة وبعضها قد حفظه لنا الإمام العلامة شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، وقد كان نابغة عصره في الفقه والعلوم الطبيعية والبصريات وغيرها، وقد اهتم بكثير من المسائل التي كانت تشغل أهل عصره كهذه المسائل الوقحة التي اهتم بها المسيحيون واليهود، تلك الخاصة بالتماثيل المقدسة التي تبكي دموعاً ويسيل اللبن من أذنائها. فقد أجاب القرافي على مثل هذه المسائل وعالجها بالرغم من احتقار أصحابها ولو أنه كان يقدر مليكهم تقديراً عظيماً نظراً لحرصه الشديد على العلم والتحصيل. وهذه الحقيقة هي التي دفعت القرافي إلى القول في مقدمة كتابه «الاستبصار فيما تدركه

الأبصار: «وقد كتب الأنبرور (الإمبراطور) ملك الفرنج بصقلية سبع مسائل من الصعبة الشوارد والكلة الأوابد في زمن الملك الكامل يمتحن بها المسلمون، فكان ذا دهاء وعلم وذكاء وفهم فسمعت أنه أجيب عن بعضها ولم أعلم أنه أجيب عن كلها والجالب لحصول الجواب عنها وتحقيق الصواب فيها أن الناس حينئذ كثير فيهم المحصلون وعلماء الملة متظافرون، وقد جمعت في الكتاب هذا خمسين مسألة غريبة المدرك صعبة المسالك من المشكلات الحقيقية والغوامض العقلية من جنس تلك المسائل ..». ومن بين هذه الأسئلة الخمسين والخاصة بالبصريات بذكر شهاب الدين ثلاثاً منها منسوبة إلى القيصر فريدرش الثاني وهذه المسائل هي: المسألة الحادية عشرة: «لم كانت المقاذيف والرماح وجميع الأشياء المستقيمة إذا دلي في الماء الصافي بعضها ترى معوجة إلى سطح الماء مع أنها ليست معوجة؟». وبعد أن يجيب القرافي على هذه المسألة ويشرحها يقول: «وهذه المسألة من أعظم المسائل التي سأل عنها الأنبرور». المسألة الخامسة والعشرون: «قال الأنبرور لم كان سهيل يرى عند طلوعه أكبر منه عند توسطه مع أنه لا رطوبة في الجنوب كما قيل في الشمس؛ لأن البلاد الجنوبية صحاري يابسة فلم تكن عظيمة عند الطلوع بسبب اجتفاف الرطوبة؟». المسألة الثلاثون: «قال الأنبرور لم كان صاحب البخار ومبادئ الماء يرى الخيوط السود شبه البق والناموس خارج عينه مع أنه لا شيء خارج عينيه من سلامة العقل الموجب لعدم الغلط؟ ، وكيف يرى شيء داخل الحدقة مع أن الأشياء القريبة من الحدقة جداً لا ترى فلا يرى أحد ما التصق من جفنه على حدقته؟». والواقع أن مثل هذه الأسئلة التي يوجهها الأمير المسيحي تدل على كفاحه في سبيل تمزيق حجب الجهالة المنتشرة في أوربا، ومثل هذا الجهد قد قابله العالم العربي بكل تقدير

وإعجاب، وهذا يؤكد ما قاله سياسي عربي في القيصر فريدريش الثاني: «والواقع أن العالم المسيحي لم يعرف منذ عهد الإسكندر حاكماً كهذا». فهذه الشهرة التي يتمتع بها القيصر جذبت إليه مسيحياً يعقوبياً من أنطاكية وكان قد درس على كمال الدين بن يونس في الموصل الفلسفة والرياضيات والفلك، كما درس الطب في بغداد ثم تعرف على رسول الإمبراطور في قصر حاكم أرمينية، ومن ثم توجه إلى مقر القيصر في «فوجيا» حيث نجده وهو المعروف باسم السيد تيودور في مناسبة استقبال القيصر لليوناردو فون بيزا. ثم توفي فيلسوف القصر وهو ممثل العلوم العربية الغربية الأندلسية واسمه «ميخائيل سكوتوس» وكانت وفاته إبان رحلة قام بها مع القيصر في ألمانيا، لذلك عين القيصر فريدريش الثاني السيد «تيودور» ممثل العلوم العربية الشرقية خلفاً له، وقد أبدى «تيودور» في هذه الوظيفة الجديدة، أعنى كبير فلاسفة القصر، نشاطاً عظيماً، وظل هذا العربي متقلداً هذا المنصب حتى قبيل وفاة القيصر بشهور قليلة. وتقول الشائعات إن هذا العالم واسع الاطلاع هو الذي كان يعد الدواء والمواد المسكرة للقيصر، لذلك اتهم بالمسؤولية في وفاته، ويقال إنها تسببت عن كمثرى مسكرة أعدتها يد خائبة فكانت سبباً في نكسة القيصر فوفاته. وكان هذا العربي الواسع الاطلاع كثير التدخل في أعمال القيصر إذ كان يتناقش مع القيصر حول مسائل رياضية وفلكية، كما وضع له تقوا وشارك في أعمال المجلس وكان يقوم بجمع المراسلات مع الحكام العرب، وكثيراً ما سافر في بعثات سياسية إلى قصور أمراء العرب، ويعقد باسم القيصر المعاهدات التجارية. وكان كذلك بحكم وظيفته أيضاً ككبير أطباء القيصر يعد بنفسه الأشربة للقيصر ولسائر موظفيه، كما ألف للقيصر وفي أسلوب جيد جداً رسالة في وجبات الطعام، وقد وضعها بعد تفكير عميق وفيها يرشد

القيصر إلى وجبات طعامه كماً وكيفاً من حيث النوع والكمية والتوابل اللازمة وجميع هذا موزع حسب الوجبات اليومية. كذلك المشروبات والأنبذة وتقلب الطقس وتغيير درجات الحرارة بالانتقال من جهة إلى أخرى والهضم والنوم والجماع. فهذه رسالة تعتبر معجزة حقاً، وكانت في أوربا وقتذاك كالمناسة بين الأحجار. كذلك صدر أمر قيصري إلى السيد تيودور بترجمة عدد من المؤلفات العربية في العلوم الطبيعية، كما أبدى القيصر رغبته في تصحيحها بيده، فكان يمضي وقته في مشاته أمام أبواب «فاينزا» المحاصرة مطلقاً على تقرير لتيودور حول الصيد. والمؤلف العربي لهذه الرسالة كان يعيش قريباً جداً من فريدريش وكان يعني بصقور القيصر. وكان هذا الرجل يحب قيصره أكثر من الصقور ونشأت عن هذه العلاقة الرغبة في الصيد بواسطة الصقور.

ميلاد نظرة جديدة للعالم

تجمع بين الجرمانى والعربى النظرة القوية الفاحصة للطبيعة كما هى، وقد فقد المثقفون الأوربيون هذه الصفة. فكل من القيصر ومدرّب صقوره وابنى القيصر «أنزيو» و «منفريد» والمشرّف على خيول القيصر وهو مؤلف رسالة فى علاج الخيل - هؤلاء جميعهم من بين أولئك الذين يرون بعيون شبه مغلقة. أما هم فهم المبصرون فقط وهم الذين يعرفون المسائل الطبيعية، كما يقرر ذلك فريدريش نفسه. إنهم أساتذة فى إدراك وملاحظة وفحص الحقائق المدسوسة. لكن لم يحصل أن الأوربيين نظروا إلى الطبيعة لذاتها، وقد رأينا العصور الوسطى تهتم بكتاب خاص وتغرم به، وهو كتاب «فيزيولوجوس» الذى يتحدث عن النملة والأسد، وقد ولد لهما حيوان أطلق عليه اسم الأسد النملى،

وقد مات هذا الحيوان بمجرد ولادته، وذلك لأنه عاجز عن إطعام نفسه أو غير قادر على ذلك فموتاً يموت. والدليل على صحة ذلك ما ورد في الكتاب المقدس حيث ذكر: أن الأسد النملة يموت جوعاً؛ وذلك لأنه من طبيعتين فإذا دفعته طبيعة من الطبيعتين إلى أكل اللحم رفضت الطبيعة الأخرى أي طبيعة النمل التي تشتهى أكل الحبوب، ولكن النمل يريد أن يعيش على الحبوب وهذا يتعارض وطبيعة الأسد؛ لذلك فهو محروم من اللحم والحبوب ومن أجل ذلك يموت. وهكذا أولئك الذين يريدون أن يخدموا سيدين في وقت واحد الله والشيطان؛ إذ بينما يدعوهم الله إلى الطهارة يحضهم الشيطان على ارتكاب الجريمة. فبدت كلمات فريدرش وكأنها رعد وبرق في ذلك المجتمع الساذج: إن هدفنا هو إظهار الأشياء كما هي في حالتها الطبيعية الحقيقية. فهذه الكلمات وهذا الصنيع الذي سبقها وهداها كان نقطة التحول في موقف أوربا ونظرتها إلى العالم والتعرف إلى كنهه وحقيقته. إن هذا القيصر المثقف العالم العظيم الذي كان مشغولاً بالاطلاع مقبلاً عليه فضلاً عن هذه القدرة العلمية التي اكتسبها منذ طفولته، كان. بالرغم من ذلك. لا يثق في المكتوب بقدر ما يثق في عينيه، كما أن الإنسان لا يحصل على شيء حقيقي يقيني عن طريق السمع. إن حديقة الحيوان هي خير ما يقدم للإنسان البصير الحقائق، كما يطلق عليه ذلك العرب، عن طريق النظر إلى الكائنات وطرق حياتها وعاداتها فقط، إنه يتأمل عصافيره في جنته التي شيدها لها، وفي دقة وعناية وصبر لا يعرف الملل والكلل يشبه ذلك الذي يستخدمه الفلكي العربي عندما يتتبع حركات النجوم وجريانها. إنه يصف تشريح الطير وعاداته وطيرانه وصفاً دقيقاً واضحاً وطيباً، يشبه ذلك الذي يجريه الأطباء العرب على مرضاهم وهم على سرر الموت. وكتابه عن: «حول فن الصيد بواسطة الصقور» الذي وضعه استجابة

لرغبة ابنه منفريد» - بالرغم من كثرة الوقت والجهد اللذين يتطلبهما تأليف مثل هذا الكتاب من السنين العديدة والدقة والعناية. هذا الكتاب يحوي أكثر مما يدل عليه عنوانه. إنه كتاب خاص بعلم الطيور ودراساتها دراسة علمية دقيقة؛ والشئ الجدير بالذكر أن هذا الكتاب ظهر في ثوب لم يكن يحلم به المؤلف، وهو طليعة العلم التطبيقي الحديث. فكل ما يذكره هذا الكتاب يعتمد على تجارب المؤلف الخاصة أو تجارب آخرين حيث لا يستطيع فريدريش الملاحظة أو إجراء التجارب. وفي تلك الحالات كان يكلف باحثين خصوصيين يعتمد عليهم ولم يكن يخل عليهم بالمال اللازم حيث يتصل الأمر بالعلم والمعرفة، وأحياناً كان يحصل على المعلومات التي يريدونها عن طريق اتصاله بالأمرء العرب الذين كانوا يقدرون أهمية البحوث العلمية ويغرمون بها وبخاصة في مصر أو في جهات أخرى. لكن فريدريش لم يذكر موضوعاً من هذه الموضوعات إلا وقد فحصه ودقق فيه وتأكد من قيمة البيانات الواردة بخصوصه أو عن طريق من يوثق بهم، وكان هذا يجري مجرى مذهب ابن البيطار النباتي العربي حيث ذكر في مقدمة كتابه الجامع المفردات الأدوية والأغذية. «صحة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرره عن المتأخرين، فما صح عندي بالمشاهدة والنظر وثبت لدى بالخبر لا الخبر ... وما كان مخالفاً في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية للصواب والتحقيق أو أن ناقله أو قائله عدل فيه عن سواء الطريق نبذته ظهراً وهجرته ملياً». وقد ترجم فيلسوف القصر «ميخائيل سكوتوس» علم الحيوان لأرسطو وشرح ابن سينا إلى القيصر العالم، من اللغة العربية، كما قرأ القيصر في اللغة العربية كتباً حول الصقور والصيد بها، كما قرأ الرسالة التي وضعها مدرب صقوره وهو العربي مؤمن. وقد تأثر القيصر كثيراً في هذا الاتجاه بالمراجع العربية المختلفة

التي اطلع عليها وبالرغم من ذلك كان مستقلاً في رأيه وتفكيره فلم يكن من السهل عليه قبول أي رأي أو الأخذ به ما لم يقتنع هو به وبصحته «لقد اتبعنا أرسطو حيث تقضي الضرورة بذلك، لكن في كثير من الحالات التزمنا ما علمتنا إياه التجارب وبخاصة في الطبيعة. إن طيوراً خاصة أخطأ أرسطو في حكمه عليها، وفيما قاله عنها لذلك خالفنا أمير الفلاسفة وعارضناه في كل ما ذكره، وذلك لأن أرسطو لم يسبق له صيد العصافير أو نادراً ما مارسه. أما نحن فقد أحببنا هذا الصيد ومارسناه كثيراً». إن جميع هذه المعلومات وتلك التجارب قد حصلها في أحسن مدرسة عربية حيث لا غموض ولا إبهام، إننا لا نجد هنا ذلك الظلام الدامس فكل شيء نراه واضحاً وحرراً، فجميع فروع العلوم والفكر في متناول التجارب والملاحظات. هنا كل شيء منظم ويتبع طريقة واحدة ويبحث في شيء من الدقة والعناية ولا يصدر الحكم ارتجالاً ودون ترو. وهذا الموقف من البحث العلمي والدقة في إصدار الأحكام كان إشباعاً للذة التي كان يشعر بها الباحث عند إدراكه كنه هذه الظواهر الطبيعية ونشأتها ووحدتها المستقلة وقوتها التي تؤثر فيها، وهذه الحقائق وتلك النتائج تستحق حقاً أن يتغاضى الإنسان عن المؤثرات الخارجية التي تؤثر في هذه المظاهر الطبيعية. وعوضاً عنها يهتم الإنسان بالأسباب والمسببات. ففي المدرسة العربية نشأ فريدريش الثاني ووضع العلم منذ الطفولة حتى أصبح أستاذاً. وإبان عصر إحياء العلوم نجد هذه الفترة الزمنية تتشعب بعوامل أخرى، إلا أن فريدريش ألقى عكازه الذي كان يعتمد عليه لأنه أصبح في غير حاجة إليه ويستطيع السير بدونه، فهو لا يتعلم ويقتبس فقط بل أخذ يخلق، وبذلك أصبح مؤسس العلوم الحديثة، وهو يأتي بصفته هذه في طليعة جماعات كثيرة هو جدها الذي خلقها، إنه صاحب الفضل في خلق هذه الجماعات العلمية وبخاصة تلك التي

قامت إلى جانب المتكلمين والإنسانيين والمصلحين، فقد حقق فريدريش فوق أولئك وطار إلى أمثال «ألبرتوس مجنوس» و «روجير بيكون» و «ليوناردو ده فينشي» و «فرنسيس بيكون» و «جاليلي»، ومن ثم إلى العصر الحديث. فهل القيصر هو البادئ؟ أو أنه حلقة في السلسلة التي تمتد من الحركة العربية العقلية، وذلك لأن «ألبرت الأكبر» و «روجير بيكون» و «ليوناردو» هم أيضاً من أولئك الذين يقومون في الواقع على أكتاف العرب. والشيء الجدير بالذكر أن خطأً مستقيماً يبتدئ بالعلوم العربية ويسير متجهاً إلى القصر الملكي الصقلي، ومن ثم إلى فريدريش الثاني. وتحدثنا القصة أن القيصر الأشتوفي زار الجراف السويبي والدومينيكاني «ألبرت فون بولشتيدت» الذي كان قريباً في تفكيره وعقليته من القيصر، في حديقته بمدينة كولونيا. ومن المؤكد أنه كانت هناك صلة بين فريدريش وبين معلم ألبرت ألا وهو «هينريش فون كولن»، وقد أعاره مخطوطة لابن سينا ونسخته الخاصة لابن رشد لكي ينسخها. ومن المؤكد أيضاً أنه أطلع ألبرت لا على هاتين النسختين فقط بل على نسخة للقيصر نفسه وهي «فن الصيد بالصقور»، فهذه الكتب كانت موضوعاً على مكتب ألبرت، ويبدو لنا كما لو أن صوت فريدريش أو صوت ابن البيطار العربي هو الذي يدوي عندما يقدم كتابه في مفرداته حيث يقول: «صحة النقل فيما أذكره عن المتقدمين وأحرره عن المتأخرين، فما صح عندي بالمشاهدة والنظر وثبت لدى بالخبر لا الخبر ادخرته كنزاً سرياً.. وما كان مخالفاً في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية للصواب والتحقيق أو أن ناقله أو قائله عدل فيه عن سواء الطريق نبذته ظهراً وهجرته ملياً.. ولم أحاب في ذلك قديماً لسبقه ولا محدثاً اعتمد غيري على صدقه..» فمؤلفاته لم يدونها على مكتبه، هذه المؤلفات الخاصة بالنبات والحيوان. فللمرة الأولى نجد

باحثاً أوربياً يتجول في أوربا بعينين مفتوحتين في الطبيعة، كما يفعل العرب وكما يفعل القيصر، فنجد العالم الألماني يتخذ من هذه الألفاظ ألفاظه ومن هذه العقلية مبدأ له فيقول: «إن رسالة العلوم الطبيعية ليست نقل أو تدوين ما ذكره ويذكره الآخرون بل تعليل وشرح العوامل والعناصر المؤثرة في هذه الظواهر الطبيعية». وهكذا نجد ألبرت الأكبر ينسج على منوال قيصره ويصبح مجرباً فاحصاً ولو أنه هنا هاو وبخاصة إذا ما قورن بمثل «روجير بيكون» الذي كان ينادي بالتجارب. فالى جانب الطرق العربية الشرقية التي تصل مباشرة إلى العالم الإنجليزي، وكذلك الإنجليزيين اللذين زار أحدهما الشرق فترجم المؤلفات الرياضية العربية واسمه «أثيلهارت فون باث» وأستاذه في البصريات المسمى «جروستستا» أو عن طريق أستاذه الفرنسي المسمى «بترس فون ماريكورت» الصليبي الذي أحضر معه من العرب البوصلة والمغناطيس، وغير هؤلاء نجد طرقاً أخرى تصل إلى العالم الإنجليزي، وهي عبارة عن قنطرة تربط بينه وبين القصر الملكي في صقلية ومواطنه «ميخائيل سكوتوس». ففي صقلية هذه التي ظلت قروناً عديدة نورمانية أشتوفية، ولدت أوربا الحديثة، وكانت العبقرية العربية هي المولدة، ففي هذه الدولة التي كانت تقع بين عالمين التقى فريدريش الثاني بعقليته الجرمانية مع العبقرية العربية، وبذلك تحققت النبوءة التي تنبأ بها «جوتفريد فون فيتربو» لقيصره هينريش السادس قبل أن يرزق بهذا الطفل: «إن فريدريش هذا سيكون حماسة السلام بين الشرق والغرب، ولو لفترة قصيرة في السياسة وإلى الأبد في الحياة العقلية». إن القنطرة التي أقامها فريدريش الثاني بين الشرق والغرب كانت السبب في ظهور جيل جديد وعقلية جديدة تنظر إلى العلوم الطبيعية نظرة فاحصة ناقدة مجربة، فكان الأثر العقلي المتبادل هو الخالق لهذا التطور

العلمي الجديد في أوربا، وكانت صقلية هي حاملة هذه النهضة العلمية الجديدة، وعنها أخذت أوربا في البناء الأوربي والموسيقى والشعر، لا الفصاحة والبلاغة وسائر عبارات المجاز والاستعارة، بل الأفكار البناء القوية الثابتة، وقد جاءت الأخيرة أوربا عن طريق العرب من إسبانيا. وتحت الجبة الفضفاضة البيضاء الصوفية التي يرتديها رهبان القديس برنارد تناول زعيم الملحدين الذي كان في حقيقته مسيحياً. شهادة الموت، وفي قلعة تقع في الطريق بين قصره العزيز إليه في «فوجيا» ومدينة «لوكيرا» المسلمة حيث توفي القيصر فريدريش الثاني في 13 ديسمبر 1250، وميتاً أفلتت الدائرة وميتاً عاد فريدريش الثاني إلى بالرمو، إلى المدينة التي قضى فيها شبابه العجيب المليء بالمغامرات وفيها دفن مع والديه وأجداده النورمانيين. في بالرمو يضطجع فريدريش الثاني ليس في جبة رهبان القديس برنارد بل في معطفه الذي يزينه النسر، هذا المعطف الأحمر لسيد العالم وإلى جواره سيفه في غمده العربي. وأما كفنه فمطرز تطريزاً جميلاً وعلى أطرافه كتابة على الشريط مذهب طرزتها له أياد عربية، طرزتها لصديق الإسلام والمسلمين وتلميذ المسلمين الوفي الأمين، وعلى كفه كتب إهداء إلى السلطان.

الكتاب السابع الفنون العربية الأندلسية

الصور الأولى للعبارة الألمانية • السيدة المحترمة

أرجوك أيتها السيدة الفاضلة أن تقبلي عذري واسمحي لي أن أظل دائماً عبدك الذي يقدر كل التقدير. ريز ماريا ريلكة «وليس هذا خطاب حب وغرام ويجب أن أختتم كما بدأت: أيتها الأنسة الفاضلة أتسمحين لي أن أقدم خالص احترامي». المطيع لك كثيراً .. فريترز فرايهز فون ليليا نكرون فسواء أكان هذا ماساً حقيقياً أم بلوراً فهذه الخلية التي تتحلى بها ملكة القلب أو زوج الرئيس، والتي توضع عند قدميها هذه الحلية وتلك الباقة من الألفاظ الرقيقة، مستوردة من الشرق العربي، وهذه العبارات منذ أن انتقلت إلى ألمانيا وأوروبا أخذت تنتقل من يد إلى أخرى ومن أخرى إلى أخرى وتتغير الصيغة مع مضي العصور واختلاف البلاد فحذف منها أو هذب، وما زالت بالرغم من جميع ذلك محتفظة بأثرها السحري ومفعولها العجيب عندما يستخدمها المحب الولهان عند مخاطبته حبيبته في القرن العشرين. وإذا كنت غداً في خطابك المرسل إلى السيدة المحترمة وتوقعه بإمضائك على أنك خادمها، ولو أنك لست خادمها المطيع، فإنك على كل حال «الخاضع كثيراً فلان .. » إنك بهذه الصيغة تمجد العروبة وتقدم لها شكرك واحترامك. وفي كل حفلة أو مناسبة كريمة في القرن العشرين وحيث تتاح لك الفرصة لتحقيق رغبة في تقبيل يد سيدة، فإنك تبرهن لها على مكانتك، وحيث تسيطر عليك مشاعرك الحقيقية وذلك بركوعك أمام

حبيبتك فإنك مقلد لمحب عربي. وإذا كررت هذا الصنيع وهذه اللغة وتلك الإشارات، وأنت في موقف الاستسلام والخنوع والخضوع أمام السيدة التي تقدسها، فإنما تأتي بعادة ثانية اكتسبتها أوربا من العرب، وكانت قبل الاتصال بهم تجهلها جهلاً تاماً، وقد تعلمتها أوربا عن العرب، كما تعلمت أشياء أخرى كثيرة، وهي تمارسها بالرغم من المتاعب والمشاق التي تتطلبها لأسباب تربوية كثيرة، وقد يقدمها الزوج إلى زوجه لوقوعه في خطيئة حواء وضعفه واستسلامه. هنا نجد استسلام الرجل لإرادة المرأة، وهناك استسلام المرأة لإرادة الرجل. وهكذا نجد نوع العلاقات الجنسية وقيامها بين الاثنين والذي ظل في أوربا قروناً طويلة موضوع نزاع حول محاولة كل طرف إحراز النصر على الآخر. والواقع أن العوامل التي نشأت بين الرجل والمرأة من حيث الرغبة في السيطرة، وأن كلا يشعر أنه هو صاحب الحق. أن هذه العوامل في الواقع دخيلة على أوربا غريبة عن الأوروبيين. وذلك لأن استسلام الرجل للمرأة وضعفه أمام السيدة المحترمة التي رفع من مكانتها وجعلها في مستوى الآلهة في هذا المجتمع الذي نعيش فيه عبارة عن شيء رمزي فقط، وقد أقبل عليه الرجل بمحض إرادته، أو أنه شيء بغض مكروه حقير، إذ كيف يقبل شخص الفناء نهائياً أمام كائن رفعه ووضعه في مصاف الآلهة وأصبح عبارة عن مجاز شعري يقف منه موقف الخادم الذليل المطيع. إن هذه الطبيعة تغاير تماماً طبيعة الطريقة التي سلكها الحب الجرمانى الذي يقوم على المساواة بين الشخصين واحترام الحقوق والحرية. فالحب الجرمانى لا يعرف توزيع الأدوار الموجودة في غراميات البحر الأبيض المتوسط، إن الحب الجرمانى بعيد جداً عن المؤثرات الأجنبية، فهو لا يعرف استسلاماً وفناء وضياح شخصية طرف من الطرفين، بل يقوم على حب متبادل واحترام متبادل

يتطلب الرضاء والإعجاب المتزايد. الحب الجرمانى يتعارض مع قول الكتاب المقدس «ليكن سيدك»، وهكذا نجد الكنيسة تمزق الصلات بين الرجل والمرأة، الكنيسة هي التي تقضى على صلات المساواة كما جعلت من المرأة كائنًا خاضعاً لقوة الرجل، وهذه استجابة لإرادة الله الذي شاءت مشيئته أن يفرق بين الجنسين فسلح الرجل الأوربى بكل وسائل القوة التي تحت تصرفه. لكن بالرغم من موقف الكنيسة هذا نجد العادات العربية والتقاليد العربية تنتصر وبدون قوة، بل بالاعتراف بالحياة والأخذ بأسبابها. وهذا الموقف هو الذي كسر أغلال الكنيسة كما قاوم موقف الكنيسة العدائى من النساء والعودة بالمرأة إلى ثقافتنا، وهذه العودة طبيعية وضرورية. وجميع أحداث ذلك العصر من مسائل عقلية وجمال ونبل وشرف وثراء وغيرها من آيات المثل العليا التي غمرت الحياة الأوربية أصبحت جزءاً مكملًا للحياة الأوربية لا يمكنها أن تعيش بدونها. وإن شعراء أوربا وأدباءها وأجمل وأحسن تراث أوربى ظهر في ذلك العصر وكل ما يميز ذلك العصر الأدبى، يدين في نشأته وحيويته إلى العروبة، ولولاها لانزوى واندثر. فالعروبة هي مصدر الوحي للفنانين والشعراء والمغنين. لكن كيف؟ ألا تحيا المرأة العربية منذ زمن بعيد مكبله بأغلال الرق والاستعباد محرومة من الحرية مجردة من مباشرة حقوقها الإنسانية مضطهدة؟ ألا يعرف الإنسان كيف يتحدث عن الحريم وحياتهن خلف القضبان وحيث يستطيع الزوج أن يقترب بأربع زوجات ويراقبهن بغيرة؟ نساء لا يرين أزواجهن قبل الزواج ولا يؤخذ رأيهن في الأزواج، وللرجل الحق، حسب مزاجه، أن يطلق من يطلق ويردها إلى أسرتها ثانية، ويتمنع علاوة على ذلك برضاء الدين وآله؟ ألا يتعارض مركز الفلاحة وقد أحنى الدهر ظهرها من ثقل الأحمال التي تحملها وتسير إلى السوق بينما الزوج الشامخ يسير إلى جوارها

راكباً حماره. أليست هذه الحالة تتعارض والفكرة السائدة عن تكريم المرأة وعن الفروسية العربية؟ أو لم تبدأ العربية الآن فقط في التحرر من الحريم وتركه؟ أو لم تبدأ الآن فقط بترك الحجاب والتخلص من هذا الاستعباد الذي خيم عليها قروناً وأصبحت الآن فقط تمتع بحقوقها الإنسانية؟ أكاذيب وحقائق. كيف كانت الحقيقة؟ «قال الحارث بن عوف بن أبي حارثة: أتراني أخطب إلى أحد فيردني؟ قال: نعم. قال: ومن ذاك؟ قال: أوس بن حارثة بن لام الطائي. فقال الحارث لغلामه: ارحل بنا، ففعل فركباً حتى أتيا أوس بن حارثة في بلاده فوجداه في منزله، فلما رأي الحارث بن عوف قال: مرحباً بك يا حار. قال: وبى. قال: ما جاء بك يا حار؟ قال: جئتكم خاطباً. قال: لست هناك. فانصرف ولم يكلمه. ودخل أوس على امرأته مغضباً، وكانت من عبس فقالت: من رجل وقف عليك فلم يطل ولم تكلمه؟ قال: ذاك سيد العرب الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري. قالت: فما لك لم تستنزله؟ قال: إنه استحمق. قالت: وكيف؟ قال: جاءني خاطباً. قالت: أفتريد أن تزوج بناتك؟ قال: نعم. قالت: فإذا لم تزوج سيد العرب فمن؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدارك ما كان منك. قال: ماذا؟ قالت: تلحقه فترده. قال: وكيف وقد فرط مني ما فرط إليه؟ قالت: تقول له: إنك لقيتني مغضباً بأمر لم تقدم فيه قولاً، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت، فانصرف ولك عندي كل ما أحببت، فإنه سيفعل. فركب في أثرهما. قال خارجة بن سنان: فو الله إني الأسير إذ حانت منى التفاتة فرأيتة فأقبلت على الحارث، وما يكلمني غماً. فقلت له: هذا أوس بن حارثة في أثرنا. قال: وما نصنع به؟ امض، فلما رأنا لا نقف عليه صاح: يا حار. أربع على ساعة. فوقفنا فله فكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً. فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته: ادعي لي فلانة (أكبر بناته) فأتته فقال: يا بنية، هذا الحارث بن

عوف سيد من سادات العرب. قد جاءني طالباً خاطباً، وقد أردت أن أزوجه منه فما تقولين؟ قالت: لا تفعل. قال: ولم؟ قالت: لأنني امرأة في وجهي ردة (القبج مع شيء من الجمال)، وفي خلقي بعض العهدة (الضعف)، ولست بابنة عمه فيرعى رحمي، وليس بجارك في البلد فيستحي منك، ولا آمن أن ير مني ما يكره فيطلقني، فيكون على في ذلك ما فيه. قال: قومي بارك الله عليك، ادعي لي فلانة (ابنته الوسطى)، فدعتها، ثم قال لها مثل قوله لأختها، فأجابته مثل جوابها، وقالت: إني خرقاء وليست بيدي صناعة، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون على في ذلك ما تعلم، وليس بابن عمي فيرعى حقي، ولا جارك في بلدك فيستحيك قال: قومي بارك الله عليك، ادعي لي بهيسة (يعني الصغرى)، فأتي بها فقال لها كما قال لهما. فقالت: أنت وذاك. فقال لها: إني قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه. فقالت: ولم يذكر لها مقالتيهما. لكنني والله الجميلة وجهها، الصانع يداً، الرفيعة خلقاً الحسبية أبا، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير. فقال: بارك الله عليك. ثم خرج إلينا فقال: قد زوجتك يا حارث بهيسة بنت أوس. قال: قد قبلت. فأمر أمها أن تهينها وتصلح من شأنها، ثم أمر ببيت فضرب له، وأنزله إياه، فلما هيئت بعث بها إليه فلما دخلت إليه لبثت هنيهة ثم خرج إلى فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله. قلت: وكيف ذاك؟ قال: لما مددت يدي إليها قالت: مه. أعند أبي وإخوتي هذا والله ما لا يكون. قال: فأمر بالرحلة، فارتحلنا ورحلنا بها معنا، فسرنا ما شاء الله. ثم قال لي: تقدم فتقدمت، وعدل بها عن الطريق، فما لبثت أن لحق بي، فقلت: أفرغت؟ قال لا والله. قلت: ولم؟ قال: قالت لي: أكما يفعل بالأمة الجليية أو السبية الأخيذة. لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يعمل لمثلي. قلت: والله إني لأرى همة وعقلاً، وأرجو أن تكون المرأة

منجبة إن شاء الله. فرحلنا حتى جئنا بلادنا، فأحضر الإبل والغنم، ثم دخل عليها وخرج إلى فقلت: أفرغت؟ قال: لا. قلت: ولم؟ قال: دخلت عليها أريدها، وقلت لها قد أحضرنا من المال ما قد ترين، فقالت: والله لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك. قلت: وكيف؟ قالت: أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها (وذلك في أيام حرب عيس وذبيان). قلت: فيكون ماذا؟ قالت: أخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك، فقالت: والله إنني لأرى همة وعقلاً، ولقد قالت قولاً. قال: فأخرج بنا. فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصالح، فاصطلحوا على أن يحتسبوا القتلى فيؤخذ الفضل ممن هو عليه، فحملنا عنهم الديات، فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنوات فانصرفنا بأجل الذكر. قال محمد بن عبد العزيز: فمدحوا بذلك، وقال فيه زهير بن أبي سلمى قصيدته: أمن أم أوفي دمنة لم تكلم ... فذكرهما فيها فقال: تداركتما عيساً وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم فأصبح يجرى فيهم من تلادكم ... مغنم شتى من أقال المزنم بنجمها قوم لقوم غرامة ... ولم يهريقوا بينهم ملء محجم وذكر قيامهم في ذلك فقال: صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو ... وهي قصيدة يقول فيها: تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها ... وذبيان قد زلت بأقدامها النعل وهذه لهم شرف إلى الآن. ورجع فدخل بها، فولدت له بنين وبنات». (الأغاني. ج 10 ص 294 ... مطبعة دار الكتب المصرية). ثم سكت القاص ويصيح المستمعون: «ما شاء الله». لقد أدرك ما يهتمهم. و «بهيسة» ما زالت المرأة التي تهواها قلوبهم. أربعة أو خمسة أجيال قد مضت منذ أن جعل الإسلام آلهة الجاهلية دون الملائكة وأعلن عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد. لكن بالرغم من ذلك ما زال الإنسان في دمشق الفحاء يتذاكر أخبار الجاهلية العربية في قصر الأمويين حيث

كانت العربية الأصلية النبيلة تستولي على قلوب الرجال، وحيث كانت المرأة العربية الأصلية العظيمة تدفع الرجل إلى الحرب والكفاح والبطولة، وكان منحها البطولة لشخص ما مفخرة الأجيال. ها هي ذي امرأة مستقلة تاجرة تقف في الحياة العامة ومعتزكها، وهي الأرملة الغنية «خديجة» أولى زوجات رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم -، عاش معها أربعة وعشرين عاماً وولدت له ستة أطفال، وهي مع ذلك تمثل السيدة النبيلة الواعية الحاضرة البديهة الذكية، إنها المثل الأعلى للأرستقراطية العربية، فقد رغب إليها النبي صلى الله عليه وسلم أن تتثقف وتتعلم مثلها مثل الرجل. وهناك علماء مشهورون يرشحون المرأة لوظيفة القضاء، كما زارت المسجد وألقت المحاضرات العامة وشرعت. ومن النساء من أصبحت مدعية عامة واشتهرت بلقب نقيبة رجال الشرع فهي «شيخة» وأستاذة وإنها لفخر النساء. هكذا كانت تكرم العالمات «شهادة» فخر النساء بنت أبي نصر أحمد، وقد تلقت العلم على مشاهير العلماء، ثم حصلت على إجازة التدريس، وأصبحت منارة العلم. كما نجد شاعرات ينافسن الشعراء كما كان الحال قديماً، ولا تشعر شاعرة منهن بأنها تعامل معاملة شاذة. والواقع أن العربية لم تكن رهيبة البيت طالما كانت الأرستقراطية العربية هي المهيمنة على المجتمع العربي. لكن هذا الوضع قد تغير. ففي بغداد في قصر العباسيين هبت ريح أخرى جاءت من الشمال إذ وفدت جماعات من الجواري الفارسيات والروميات ومن بينهن من أصبحن أمهات خلفاء فأدخلن بدورهن عادات وتقاليد غريبة على المجتمع العربي والأسرة العربية، لقد أدخلن الحجاب ونظام الحريم، وهذه تقاليد إيرانية قديمة ترجع إلى العهد الذي كان يسود فيه إيران والعقائد الإيرانية المذهب الثنائي أو الإثنينية: 1. الحرمان من الحرية. 2. وضع المرأة الفارسية في منزلة دون منزلة الرجل. وهذه

الحالات لم تعرفها العروبة ولم تقل بها الشريعة الإسلامية. فالحجاب والبعد عن الحياة الاجتماعية لم يقل بهما الإسلام. فقد خاطب المؤمنين كما خاطب المؤمنات: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى خُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ} [النور: 30، 31] وكذلك دعا القرآن الكريم النساء إلى عدم التبرج: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [الأحزاب: 33] وأين يبدأ الجزء الفاتن في المرأة، الذي يجب ستره؟ هذا هو موضوع النزاع بين الفقهاء، فمنهم من قصره على الثديين، ومنهم من قال الوجه أيضاً وأجمعوا على أن اليدين فقط هما ما تظهرهما المرأة .. أما الاستقرار في البيوت جرياً وراء التقاليد الفارسية وتكليف الخصيان خدمتهن حسب العادات البيزنطية التي كانت أصلاً مظهراً من مظاهر الأرستوقراطية، فقد عممت استغلالاً لقول القرآن الكريم: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} الذي كان يقصد به «أزواج النبي» ومن ثم بولغ فيه فحد المجتمع من نشاط المرأة. وهذه الضربة القاصمة التي أصابت المرأة جاءت من حاكم لا حول له ولا سلطان، خليفة مصاب بعقدة نفسية غبي بليد ألا وهو الخليفة القادر. ومن الأسباب التي ساعدت على قيام تعدد الزوجات، الذي كان معروفاً منذ الجاهلية، الرغبة في كثرة النسل لتعزيز القبيلة وتقوية أواصر القرابة بين الأسرات وتعويض ضحايا الثأر والانتقام والرحيل. ولما جاء الإسلام قرر فرض زعامة العرب على الشعوب المغلوبة التي فتح الإسلام بلادها والحرص على عدم الامتزاج والفناء في الشعوب الأخرى. والحقيقة تقال: إن الأمويين في معركة ضد البربر خسروا ما لا يقل عن عشرة آلاف من أفراد أسرهم

وأتباعهم. وفي عصر المأمون نجد البيت العباسي يضم نحو ثلاثة وثلاثين ألف نسمة. لكن الشيء الذي كان ضرورياً في العصور الأولى اتجه، بعد أن استقر السلطان العربي، اتجهاً آخر يتعارض والسيادة التي كانت تتمتع بها البيوتات العربية القديمة. فالاختلاط مع الأجانب والزواج من أجنبيات والتسامح في المثل العليا التي كان يتطلبها العربي من زوجته، كانت من أسباب الانحلال والاضحلال فيما بعد. فني الحريم كان تعدد الزوجات من أسباب القضاء على روح الحرية والاستقلال والشعور بالشخصية وكل مقومات المرأة العربية الأصيلة. وعوضاً عن هذه الصفات الحميدة أصبح الرجال أكثر ميلاً إلى اللواتي يجدن فن الإغراء وإيقاع الرجال في حبائلهن، أعني اللواتي كن يغشين دور اللهو والغناء في الكوفة والتي كانت تغص بتجار الرقيق الذين كانوا يبتزون أموال السادة والشباب في المدينة الذهبية بغداد. هذه هي الناحية السطحية التي يتجه إليها دائماً التفكير الأوربي، لكن كلما تعمق الإنسان في المجتمع تبين الصورة الحقيقية واضحة المعالم، وبخاصة كلما ابتعدت هذه الصورة عن التأثير الفارسي أو بتعبير آخر عندما تصبح الصورة عربية خالصة. إن البدوية لم تستخدم أبداً الحجاب كما أنها لم تعش يوماً ما عيشة الحريم ولم تغلق دونها الأبواب، لأن مثل هذه الحياة الأرستوقراطية لم تكن تسمح بها الحياة الاقتصادية، وحياة العمل لسكان الصحاري والمروج سواء كانوا بدواً أو فلاحين، كما لم تسمح بحياة البذخ التي أباحها الإسلام، أعني الزواج من أربع نساء. وذلك لأن الإسلام طالب الزواج بالعدل بينهن سواء في الأكل أو الالتزامات الزوجية: {فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً} [النساء: 3]. ألم يقر الإسلام رغبة في احترام العدالة أن يتزوج الرجل واحدة فقط؟ ومن غير الأغنياء يستطيع أن يعدل بين

أزواجه؟ إن المسألة ليست اقتصادية فقط، فالعربي الأصل كما يقول مؤرخ عربي: «إذا ما أحب فواحدة فقط ويخلص لها وتخلص له حتى الموت». وهكذا نجد صورة العربية عندما تبتعد عن المدينة وآثارها تقترب من الصورة الحقيقية للمرأة العربية الشامخة الشاعرة بوجودها وكيانها وشخصيتها، لذلك كانت البدوية في صدر الإسلام أكثر تمتعاً بالحرية وأكثر استقلالاً وأكثر أثراً في المجتمع العربي من تلك السيدة النبيلة العظيمة المقيمة في دمشق، وهكذا نستطيع أن نفسر الرغبة الجامحة في حياة البداوة، كما نتبين هذه الرغبة الملحة التي أبدتها «ميسون» وبلغت معاوية في قصيدتها التي مطلعها: لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إليّ من قصر منيف فما كان من معاوية السيد الحاكم المذهب إلا أن منحها حريتها، وهكذا عادت بنت الصحراء إلى حياتها الأولى غير آسفة على الخز والقصور، والأخريات اللواتي كن يتمتعن بنعيم الحياة والأبهة والعظمة التي لم تر المرأة الشرقية مثيلاً لها فيما بعد. أما إسبانيا العربية ففاقت الشرق العربي وقدمت حياة أفضل وأجمل.

إن العالم شيد لي مسجداً

إسبانيا هي الحلم، هي الأمنية، إنها تاج العروبة. والتقدم الذي عرفته العروبة تم في إسبانيا، كما يقول العربي الأندلسي. وما حدث لم يكن مقصوراً على عالم المرأة بل عم كل ناحية من النواحي الثقافية العربية. وهذه ظاهرة عجيبة حقاً تستحق التفكير أكثر من سائر الافتراضات والعجائب التي جاءت بها الثقافة العربية، وهذا يبدو فيه شيء من التناقض، فأخصب البقاع حضارة وثقافة ومدنية هي تلك التي كانت فيها

قليلة جداً، وذلك لندرة وجود العنصر العربي وحيث لم تقم من قبل حضارة هامة، إن الحضارة الطارئة التي جاء بها الغزاة لم تتأصل فيها لتزدهر وظلت ضعيفة هزيلة، بخلاف الحال في الأقطار الأخرى التي تشبه إسبانيا تماماً وذلك مثل صقلية ومصر وسوريا والعراق وإيران حيث نجد شعوباً مثقفة ثقافة رفيعة تلعب دوراً هاماً في الثقافة البشرية مثل الهلينية والبيزنطية واليونانية والفارسية والهندية حيث تفاعلت مع الثقافة العربية. أما في بلاد المغرب البربرية وفي إسبانيا حيث كانت الدولة الغوطية الغربية وريثة الاستقلال الروماني والاستعباد والمرض المزمّن الذي أصاب البلاد من جراء الاستعمار الروماني والذي خلف طبقة من رجال الدين المتعصبين، فهنا لا يوجد شيء وتنعدم كل مقومات الحضارة، وعندما جاء الفاتحون أخذت الموجات العربية تغد من بلاد العرب ومن سوريا وليس حولهم شعوب قد يقتبسون منهم شيئاً ما. فهذه الثقافة الرفيعة العالية التي بلغها العرب في إسبانيا هي خير ما يدحض هذه الادعاءات القائلة بأن العرب قد أخذوا الحضارات البائدة وأعادوها ثانية، وأنهم مقلدون فقط ولم يأتوا بجديد. ففي إسبانيا لم توجد حضارات يقال إن العرب قد اقتبسوها وتعلموها وقلدوها، والحقيقة التي يجب الاعتراف بها أن جمال الثقافة الأندلسية لم يكن فارسياً أو يونانياً بل كان عربياً وعربياً فقط، وعندما اختفى العرب من إسبانيا انحطت البلاد وتدهورت حضارتها وخيم عليها الموت ولم تنتج شيئاً. ففي إسبانيا ظل حكم العرب ثمانية قرون كانت أزهى وأغنى العصور، ومن خير ما عرف على يد البيوت الحاكمة وهي عربية قديمة، وهي بيوت أموية حكمت في قرطبة كما حكم العباديون في إشبيلية والناصريون في غرناطة بينما لم يقيم البربر والمسيحيون إلا بأعمال التخريب والتدمير، وبخاصة إذا كانوا لم يتأثروا بالثقافة العربية والعقلية العربية. وفي شرق

العالم العربي بعد القضاء على الأمويين على يد العباسيين الذين في عهدهم، توغلت العناصر الأجنبية في الحكم والسيادة ولو أنهم كانوا من العوامل المؤثرة في الثقافة العربية. وما هي فترة ثمانية قرون؟ ! إنها قصيرة إلا أنها غنية جداً بالأحداث التاريخية! إنها فترة تساوي تلك التي تمتد من موت البطل «ليونيداس» حتى آخر اضطهاد حل بالمسيحيين أيام القيصر «ديو قليطيين»، أو إذا ما قيسست بالعصر الحديث عبارة عن فترة من الزمن هي التي تبدأ بهنري الثاني حتى مجيء الملكة الياصابات الثانية ملكة إنجلترا، وعلى الدقة منذ مجيء الملك فيليب الثاني ملك فرنسا حتى الجمهورية الخامسة للجنرال ديغول، أو منذ سقوط هنري قلب الأسد أمام القيصر فريدريش الأول بارباروسا حتى مجيء عصر الدكتور كونراد أديناور، فهذه الفترة ازدهرت وأينعت فيها الحضارة العربية في شبه الجزيرة الأوربية. لكن الغرب لم يعرف شيئاً عنها. والجار الغاضب المكشّر عن أنيابه الذي كان يقيم على الجانب الآخر من جبال البرناس ظل قرنين، ثلاثة، أربعة أصم أعمى، فقد غشت عينيه غشاوة بفعل الأنوار الساطعة والجنة الغناء، وفيها المعماريون والمغنون والشعراء والعلماء، وهي كذلك جنة النساء. وقد صور هذا الجار الغاضب تلك الجنة بأنها وطن السحرة وعبدّة الشياطين وأنها وطن تقديم البشر قرباناً لمحمد، لماذا؟ خوفاً من هذا السحر الذي قد يأتي بالحقيقة. لكن هذا الجار فشل في سد أذنيه وإغماض عينيه تماماً وتأثر أثراً قوياً بحضارة جاره. وبالقرب من قرطبة في حديقة قصر عبد الرحمن، هذا القصر الذي شيده حسب تصميم أجداده الذين شيّدوا قصورهم في الصحراء السورية، كان هذا الأمير العربي يزرع أول نخلة في أرض الأندلس وعنها انتقل النخيل إلى أوروبا. إن هذا الأمير هو الشاب عبد الرحمن الذي طالما حن إلى وطنه الأصلي وسجل هذا الحنين في

أشعاره وهو آخر فرد من الأسرة الأموية وهو أحد حكامهم الأقوياء الأشراف. فقد نجا وهو ابن العشرين من المذبحة التي حلت بأهله في دمشق، وقد ظل خمسة أعوام ضالاً هائماً متعرضاً لمختلف الأخطار، في شمال إفريقيا، حتى استطاع أخيراً هذا الفقير المعدم بفضل شجاعته وعزيمته القوية وإرادته الحديدية أن يصير حاكماً على الأندلس التي كانت تقاسي من انقسامات العرب هناك وشحنائهم. ومع هذه الشجرة العربية التي جاء بها من وطنه أخذ الفن العربي يدخل الأندلس ومن ثم أخذ هذا الفن يزدهر وينتشر خارج الأندلس ومختلف البلاد الأوروبية، حيث أصبحنا نجد فناً معمارياً عربياً وموسيقى عربية وشعراً عربياً وغزلاً عربياً. ففي فترة حكمه التي بلغت ثلاثة وثلاثين عاماً والتي كانت مليئة بالكفاح وضع عبد الرحمن الأول الأساس للدولة العظمى التي شاهدها العصور الوسطى، وكل من جاءوا بعده من العباقرة الجبابرة أضافوا لبنة إلى هذا البناء الشاهق، كما ساهموا في بناء المسجد العظيم الذي وضع أساسه عبد الرحمن الأول في قرطبة عاصمته. أما كاتدرائية القديس «فينسينس» فقد قدر ثمنها مائة ألف دينار وهذا مبلغ عظيم جداً في ذلك العصر مما يشير إلى أن الحالة كانت ميسرة مستقرة فلا هدم للمعابد ولا تكسير لصور مقدسة أو غيرها. نعم إنه عندما فتح طارق وبربره البلاد هدموا كثيراً من الكنائس، لكن الكاتدرائية احتفظت بها مسيحيو قرطبة وأعدوها لتأدية طقوسهم الدينية وقد أخذوا بهذه عهداً مكتوباً. أما الفاتحون فقد اكتفوا بتشبيد مساجدهم المتواضعة خارج المدينة. ثم نجد العرب الذين قدموا من المدينة محاربين ومدافعين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ومعهم ذراريهم وأتباعهم يستقبلون موجة أخرى من العرب السوريين فامتألت بهم قرطبة مما جعل الحاجة ماسة إلى تشييد مسجد عظيم في العاصمة في قرطبة، وقد بلغت نفقات بناء

هذا المسجد مائة ألف دينار، وقد اشترى عبد الرحمن الكاتدرائية المسيحية من المسيحيين بهذا المبلغ، أعني مائة ألف دينار، كما منح المسيحيين الحق في أن يجددوا بهذا المبلغ كنائسهم التي خربت. والآن يستطيع المسلمون الانتقال إلى هذه الكنيسة التي آلت إليهم بحكم الشراء أو تحويلها التحرير الذي يتفق والشعائر الدينية الإسلامية، فكان مثلهم مثل المحاربين القدماء الذين لم يعتادوا البناء، فكانوا يستولون في البلاد المفتوحة على بعض دور العبادة المسيحية كما وقع في دمشق والقدس. وهكذا صنع جد عبد الرحمن ألا وهو الخليفة عبد الملك عندما حول كنيسة العذراء مريم، التي تنسب إلى «يوسنتيان» والواقعة أمام المعبد في القدس، إلى المسجد الأقصى، كما حول ابنه الوليد كنيسة القديس يوحنا في دمشق إلى المسجد الكبير مع الإشارة إلى أن الكنيسة أصلاً قد شيدت من أحجار وأعمدة معبد «جيوبيتر» القديم. لكن ليس معنى هذا أن المعابد التي شيدت للآلهة الأجانب قد استغلها المسلمون واستخدموها دوراً لعبادتهم، فالمساجد العظيمة كانت تشيدها الدولة في معسكرات جيوشها، فقد شيدت مثلاً لجنودها المحاربين جامع ابن طولون في القاهرة وسيدي عقبة في القيروان، فهذه المساجد كانت تشيد عادة في الفضاء الواسع كما كانت في هندستها المعمارية، إذا ما استثنينا قبة الصخرة، ومساجد القبور، تتبع تخطيطاً بعينه أعني نظام المسجد ذي الصحن المربع غير المسقوف وبه مiazza للوضوء ويحاط بسور يشبه سور الحصن وحوله صفوف من الأعمدة التي تظل أولئك الذين يريدون الانصراف إلى الله في الصلاة، وذلك عن طريق الصلاة في القاعة المسقوفة. وهذا الفن المعماري يرجع في الواقع إلى فن قديم قد يكون هو الذي كان مستخدماً في العصر الجاهلي عند تشييد المعابد مثل معبد صرواح في بلاد العرب الجنوبية وفي نظام المصلي الذي كان موجوداً

إبان حياة الرسول. وكان تخطيط المصلى معروفاً في المدينة قبل تشييد أول مسجد بزمان بعيد، وقد استخدمه الرسول في مناسبات خاصة. أما الحفيد الأموي في الأندلس فقد كان يدرك أنه لا يمكن الجمع بين المسجد والكنيسة فلم يحول الأخيرة إلى مسجد، وما كان في حاجة إلى ذلك، فقد مضى العهد الأول، العهد الذي لازم صدر الإسلام، لذلك نجد عبد الرحمن يدفع ثمن الكنيسة غالباً جداً ويهدمها ويشيد مكانها بناءً جديداً، حيث استخدم الأعمدة القديمة أيضاً. لكن الاعتماد على فن المعمار الأجنبي أصبح في غير موضعه، واستخدام بعض المواد القديمة في البناء ليس معناه استخدام نفس الفن الذي استخدمت فيه هذه المواد بل استخدمت في تشييد فن جديد وهذا الفن المعماري الذي يعبر عن روح ذلك العصر وثقافته وحضارته وعقيدته، وبخاصة أنها تستخدم في تشييد مسجد الإسلام. وبالرغم من أن المنفذين لهذا الفن المعماري، من بنائين وعمال وغيرهم قد انحدروا من عناصر مختلفة إلا أن المعمار العربي كان مستقلاً عربياً خالصاً، وهذا الفن يستمد كيانه من خصائص وعناصر إسلامية دينية مثل: المحراب والمنبر والأريكة والمئذنة. فالفن المعماري، وفن المسجد إن كان سقفه يقوم على أعمدة كانت في الأصل في كنائس مسيحية فلا رابطة تربط بينها وبين الكنيسة بالرغم من أن الأعمدة قد أخذت من الكنيسة. والواقع أن المسجد والكنيسة معبدان يختلف كل منهما عن الآخر. إن المسجد ليس هو بيت الله المقدس الذي يستطيع فيه المؤمن بواسطة رجل الدين التقرب إلى الله، بخلاف الحال مع الكنيسة فهي متى قدست أصبحت حقاً لا رمزاً مدينة سماوية يحكم فيها المسيح وأن القدس السماوية قد نزلت من السماء إلى الأرض، هذا هو معنى الكنيسة عند المسيحي في مختلف العصور، فمنذ القرن الرابع الميلادي نجد الكاتدرائية المسيحية القديمة والقدس السماوية كمدينة

قديمة وفيها أقواس النصر وقاعات ذوات عقود وقصر القصر وقاعة العرش. وفي عصور متأخرة نجد الكنيسة الرومانية هي البرج السماوي لملك الجيش والكنيسة بأبراجها وحيطانها القوية ونوافذ لإطلاق النيران وحتى أبواب المدينة ممثلة فيها. والكاتدرائية القوطية تمتاز ببساطة البناء يضيئها نور سماوي وزخرف السماء وجمالها مما لا يجده الإنسان على الأرض. وهذه المدينة السماوية المضئية تقرب بين المعاني القوية كما قال ذلك العالم «سيدلماير». إن جميع هذه المعاني لا يشير إليها المسجد كما أن هذا المعنى الشعري يعبر عنه المسجد تعبيراً واقعياً وهذه هي ميزته: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} (56) [العنكبوت: 56] وقال تعالى أيضاً: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [البقرة: 150]. هذه هي عقلية القدامى من البدو الذين عاشوا في الصحراء غير المتناهية فكانوا يشاهدون الكائنات غير المرئية، لذلك نجد المسلم مثل أسلافه يصلي في كل بقعة من الأرض ففيها يواجه الله. فلا توجد قواعد خاصة تقيد المسلم كما لم يفرض عليه الإسلام مكاناً خاصاً بالذات لتأدية فرائضه الدينية لا معبد ولا كنيسة كما أن تعبد لا يرتبط كما هو الحال في المسيحية بقسيس أو وسيلة تجمع بينه وبين الله. فلدى المسلم كل شخص يمثل الله وكل مسلم له الحق في أن يصلي بالمصلين ويكون إماماً في المسجد. وغير الصلاة الخاصة الفردية التي يؤديها المسلم، على المسلمين أن يجتمعوا معاً ليصلوا جماعة، والبيت الذي يؤذن فيه لصلاة الجماعة هو «الجامع» الذي لا تقتصر مهمته على إقامة الصلاة به فقط بل هو مدرسة لتعليم التلاميذ والتفقه في المسائل الشرعية؛ لذلك يسمى الجامع الكبير حيث تؤدي صلاة الجمعة ويؤديها المسلمون يوم الجمعة، ويسمى هذا المسجد «المسجد الجامع» أو باختصار «جامع». والمسجد الجامع ليس مكاناً

يمتاز بقُدسية خاصة، وإنما يمتاز على غيره بميزات أخرى كما تمتاز الكنيسة على الأماكن الأخرى العادية ومساكن الناس، لذلك لم يلاحظ عند تشييد الجامع أن يؤثر بمظهره الخارجي في المصلين، كما أن تصميمه لا يختلف عن أي شكل هندسي لبناء قائم الزوايا أو مكعب، كما أن شكله الخارجي غير جذاب ومهمل وحيطانه ملساء عارية من الزخرفة تشبه حيطان حصن من الحصون أو مصنع أو قصر حاكم. وفي الداخل فقط نجد بعض الزخارف. أما الأعمدة الداخلية فقد يبلغ عددها خمسة عشر عموداً، كما أنه يشتمل على كثير من العقود حيث يركع المسلم غير مقيد بعقد خاص أو مذهب، وهذا يتفق وتعاليم الإسلام الذي لا يميز بين طبقة وطبقة. فالمحراب في المسجد غير المذهب، فالمحراب يبين فقط اتجاه المصلين حيث نجد العالم يقف إلى جوار السقاء والقائد إلى جوار الجندي، كما نجد الإمام في ملابسه العادية يؤم المصلين مثله مثل ماسح الأحذية وسائر الأفراد، يركع ويسجد ويقوم بسائر الفروض الدينية. فهذه الخصال الشعبية حقاً تتمثل في المسجد كما تتمثل في أي بناء آخر فالمسجد إذا ما أريد تكبيره اتسع أفقياً لا علوياً. وبقدر عدم اكتراث العربي بالبناء الخارجي ومظهره إذ به يهتم اهتماماً كبيراً بالزخرفة الداخلية. إن المسجد لا يعني البتة برقصات المعبد أو الأغاني أو الصور أو البخور أو بعض المظاهر المغرية للتأثير في المسلمين لتنتقلهم من ملاذ الدنيا، وعن طريقها، إلى ملاذ الآخرة، بينما نجد الكاتدرائية الغوطية تحول الشيء غير المحسوس محسوساً وتتفنن في هذا بخلاف الإسلام الذي يحول الماديات إلى روحانيات. إن الصحراء الجرداء التي لا شيء فيها تخلق من العربي شخصاً لا يؤمن بالماديات إيمانه بالمعنويات، فالعربي يحول المادية إلى معنوية إلى رياضة. إن طبيعة الصحراء ذات النمط الواحد تكرر وتكرر لهذا النمط

الذي يتراءى في الهواء لا عمق له، لا أبعاد له، لأن هذا النور الذي يغمر الصحراء قد يقضي على الأبعاد والانعكاسات ويقرب البعيد في الأفق وغير ذلك. كذلك لا نجد في المسجد شيئاً مادياً أو محسوساً، ولا شيء فيه يؤثر في الإنسان بل يؤثر في غير المرئي الكائن في كل عصر ومكان، ولا يتصف بصفات الإنسان أو الكائنات الطبيعية، إنه واحد في نفسه وليس كائناً آخر يشبهه وهو موجود في نفسه. وليس الفن العربي (أرابيسك) شيئاً آخر، واسمه يدلنا على أصلته العربية، وهو خير من يعرض الخصائص الرياضية المعنوية حيث نجد دوراتنا في الوسط وهذا الدوران يرجع إلى حيث بدأ، وبذلك يكمل نفسه تلقائياً ويكون شكلاً هندسياً كاملاً. إن الزخرفة العربية لا تمر سريعاً وليست حركة تتجه اتجاهين كما هو الحال في اللولب الكريتي أو «ميندر» اليوناني. وهكذا نجد الفن العربي فتاً حاضراً لا نهاية له فهو نظام خاص وهو أساس كل الكائنات وهو يتجلى في جميع المظاهر الطبيعية، وهكذا نجد الفن العربي يتزايد وينمو نمواً متجانساً ذا نغم ثابت. إن الفن العربي حاضر ولا نهاية له، إن الفن العربي لا أول له ولا آخر لا تحده حدود، فالمساحة في الفن العربي لا تعرف حدوداً بل تمتد وتمتد في مختلف الجهات لكن بالرغم من هذا لا تنمو نمواً غير مهذب ولا تتضخم تضخماً مريضاً فكل شيء في الفن العربي قد أحكمه نظم وقواعد جبارة واضحة وضوح البلور وكأنها نغم متسق. لقد تعمق «جوته» في الحياة العقلية الشرقية وعاش فيها، لذلك ندرك تماماً عباراته الشعرية التي صاغها في الشعر العربي ووصفه بها، وما يقال عن الشعر يقال أيضاً عن الفن العربي. ولماذا؟ لأن الشخص الذي تملكته شعوره وإحساساته الطباع والمشاعر الشرق به يتصف ولا شك بهذه العقلية العربية: إن عدم نهايتك دليل عظمتك. وعدم بدايتك مقدر لك. إن قصيدتك تدور كالفن الزرقاء. الأول

هو الآخر دائماً. دائماً لا يتغيران. وما أبي به الوسط معروف. الذي يبقى إلى النهاية كان هو الأول. والتأثير العربي أو التعريب يقع عندما يحاول الفن العربي الاستعانة بالنباتات الفارسية أو المصرية للزخرفة، فنجد الفن العربي سرعان ما يجرّد هذه الزخرفة من قيمها المحسوسة كما يجردها من جسدها. وتتفق مع الفن العربي في هذه الخاصية زخرفة الحيوان في الفن الجرمانى النورمانى، فإن هذا الفن يجرّد جسم الحيوان من إحساسياته حتى يحوله إلى مجرد حركات أو خطوط ويربط بينها حسب قواعد النغم، فهذا الشبه الظاهري بدين به الفن العربي، وهو يتفق في هذه الظاهرة مع الفن الجرمانى أو الأوربى عديم الصورة، الذي يعرض إلى تجسيد وتصوير الكائنات غير الأرضية، وقد أقبلت عليها أوربا واستخدمتها في الزخرفة. وفي المجال الواسع للفنون الأوربية وبخاصة في الزخرفة التي ظهرت في عصر النهضة تشرع أوربا تلعب دورها الهام. وقد أخذت أوربا أيضاً الزخرفة العربية للكتابة، وذلك لأن الفن العربي قد امتد إلى الكتابة فاتخذها مادة للزخرفة سواء كانت خطوطاً أو آيات قرآنية حيث تعبر عن الأشياء المجردة أو المواضيع غير المجسدة، كما استخدم الأفقية منها في الزخرفة وذلك باستخدامها كخيوط ذهبية ممتدة على الحيطان والأعمدة في القصور والمساجد. وهذا مظهر من مظاهر الرغبة في التجرد من الحساسة وهذه خاصية من خواص العقلية الإسلامية وهي ليست جديدة في العقلية الشرقية. لذلك لم يجد القرآن ضرورة لإصدار حكم بخصوصها. أما ما يقال عن تحريم الصور، فالقرآن لم ينص على هذا التحريم إلا في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90)﴾ [المائدة: 90]، وأما فيما يتعلق بتصوير الكائنات الحية فلم يعرض له القرآن، وفي العصور المتأخرة فقط استكثر الفقهاء

التصوير لأنه تقليد لله أو تشبه بالخالق. لكن تحريماً لتصوير الأشكال لم يرد ذكره في القرآن الكريم. ففي العصور المختلفة سواء في صدر الإسلام أو بعده، نشاهد كثيراً من الصور التي تزين الأسقف والحوائط في القصور كما تزين بها الموائد في الولائم كما نجد تماثيل السباع تحت صحن النافورات أو تقذف المياه في الأطباق الرخامية. وفي قلعة الصخرة بالقرب من قرطبة نجد في قاعة نوم الخليفة. حيث يقع نظره عندما يستيقظ. نافورة خضراء وحولها اثنا عشر حيواناً من الذهب الخالص ترقص. فنحن نرى أسداً وغزالاً وتمساحاً وثعباناً ونسراً وفيلأً وحمامة وصقراً ودجاجة وديكاً وحدأة وبازاً. وقد قال الشاعر الصقلي ابن حمديس يصف داراً بناها المنصور بن أعلى الناس ببجاية ومطلعها: واعمر بقصر الملك ناديك الذي ... أضحى بمجدك بيته معموراً وفي القلاع العربية نجد زخرفة ورسوماً تزينها، وليست هذه الرسوم عبارة عن نباتات وحيوانات فقط بل تعبر عن آدميين أيضاً: ملوك ونسائهم وصيادين وشعراء ونساء جميلات وفرسان وسيدات وكأنهم يطلون من الحيطان والأبواب والقاعات، وحتى في مسجد قرطبة نجد رسوماً تصور القصص الديني الإسلامي مثل أهل الكهف وأغربة نوح، كما نجد الأسد والنسر مستخدمين كعنصرين من عناصر الزخرفة والزينة. وقد ظلت هذه الفنون التعبيرية مستخدمة مثلها مثل الفنون الزخرفية. وغير الفن العربي نجد زخرفة الأسقف والقباب والردهات والأعمدة، وذلك بتجريدها من ماديتها حتى إن الحائط يكاد يختفى ولا تتبينه العين، وذلك باستخدام الزخارف الجصية ومختلف وسائل الزخرفة، ولعل هذا النوع أثر من آثار الفن الفارسي مثله مثل العقود المدببة التي أكثر الفن الإسلامي من استخدامها، كزخرفة غالباً، أو للتغطية أو بين الأعمدة، على أن تزخرف زخرفة عربية بأوراق الأعشاب أو أعمدة على شكل

مراوح. وفي الفن الإسلامي الهندي نجد أحجاراً صماء ونادراً ما تستخدم كأجزاء أساسية في البناء. ثم انتقل الفن العربي الإسلامي إلى أوروبا المسيحية، وكان خط سيره من سمراء المقر العظيم للخليفة على نهر دجلة، وجامع ابن طولون في القاهرة ثم إلى الفاطميين فصقلية النورمانية حيث أحرز هذا الفن نصراً مبيناً؛ وربما انتقل مباشرة إلى النورمانيين في «إيل دفرانس»، لكن من المؤكد أنه انتقل من صقلية العربية كغنائم حرب «بيزية»، ومن ثم انتقل إلى الفن البيزي الرومانتيكي من ناحية أو من ناحية أخرى عن طريق كنيسة «ديزيريوس» التي شيدها البابا فيكتور الثالث وهي تقع فوق جبل «كاسينو» وهي من الفن البورجندي الرومانتيكي الذي هو عبارة عن غطاء للفن الغوطي الذي نهض به رهبان «كلوني» ورئيس الدير «هوجو»: وذلك لأن رئيس دير «كلوني» لاحظ ومعه مرافقوه العقود المدببة في بناء جبل كاسينو الذي كان قد شيده رئيس الدير المسمى «ديزيريوس» خبير صقلية والعالم بها وبغزاتها النورمانيين. وقد تم له ذلك بمساعدة معماريين عرب وعمال مصريين وهم الذين علموا رهبانه فنهم المعماري. كذلك يلاحظ أن الصلات بين صقلية وبورجندي كانت كثيرة وقوية، فالبلاد المقدسة بالنسبة لـ «كلوني» تقع جنوب البرنات وممتدة على طول الطريق المؤدي إلى قبر حواري «سنتياجو» وهو الإسباني الذي كان يعارض الدعوة الإسلامية. وإن الطريق الطويل للحج الذي يبدأ من باريس يمر فيه سنويا الآلاف من الحجاج إلى أقدس المقدسات المسيحية في أوروبا يملأون جوانب الأديرة الكبرى وكنائس «كلوني» ومعظمها مهداة من ملوك إسبانيا. كما نجد كثيرين من سكان «كلوني» الفرنسيين كانوا في القرن الحادي عشر أول الأساقفة والقسس ورؤساء الكاتدرائيات في الأقاليم الأندلسية التي استولت عليها المسيحية.

أما الأمراء الإِسبانيون المسيحيون وعلى رأسهم الملك المستعرب ألفونس السادس والذي كان أصلاً أحد السكان ثم صار فاتحاً لطليلة العربية، فقد كانوا يقدمون طاعتهم وولاءهم لرئيس دير «كلوني»، وذلك عن طريق تقديم هدايا، وأموال طائلة ليست فقط ذهباً بل غنائم حربية عربية وغيرها من الهدايا القيمة. وهذه الهدايا التي قدمها ألفونس السادس هي التي استغلها رئيس الدير المسمى هوجوه في سبيل تشييد الكنيسة العظيمة في «كلوني»، كما تعهد بإقامة صلاة على روح المهدي، أعني ألفونس السادس وعلى مذبح خاص. فلو كان العقد المدبب عبارة عن زخرفة فقط عند العرب ما وجدناه شاحباً في جبل «كاسينو» و «ببزا» و «كلوني» والفن البورجندي الرومانتيكي. إن الدور الهام لهذا العقد في أوربا هو الدور المعماري البنائي الأصل في الفن الغوطي؛ وبذلك احتل دوراً هاماً في الكاتدرائيات الغوطية. وهذا الدور الذي بلغه العقد المدبب لم يبلغه العقد المستدير في الفن الرومانتيكي. لكن هذا الفن لم ينتقل بمفرده إلى الفن الغوطي بل نقل معه ورقة العشب والعقد من إسبانيا وكانت تستخدم في زخرفة النوافذ والمحاريب. ثم نجد التناقض يبدو واضحاً في العقود ذات أوراق العشب أو المدببة التي أحبها العرب لميلهم الفطري إلى الرياضة إلا أنها في الفن الغوطي تلعب دوراً هاماً، وهذا الفن يستخدمها في زخرفة الحوائط. ومع العقد المدبب جاءت أيضاً النافذة، وبفضل الأثر الفني الساساني ظهرت النافذة المستديرة في الفن الغوطي. وفي القرن التاسع الميلادي حدث تجديد في الفن العربي فنجد حزمة من الرماح تظهر في زوايا الأعمدة وهي هامة جداً في فن المعمار الغوطي وبخاصة في القباب. ومن القاهرة عن طريق إيطاليا جاءت إلى السقف الغوطي زخرفة القباب. والمآذن الإسلامية التي امتازت بقيامها على قواعد مربعة، ثم أصبحت مئذنة ثم تطورت إلى

دائرة هي التي كونت في الفن الغوطي برج الناقوس. والآن نتساءل: هل الفن الغوطي يتكون غالباً من كثير من عناصر الفن العربي؟ إن الذي يريد أن يصدر مثل هذا الحكم تفوته الحقيقة القائلة: إن المواد الأولية ليست هي التي يتكون منها الفن بل الترتيب والتنظيم هما في الواقع العنصر الخالق في الفن وهو الذي يصنعه وينوب عنه. إنها الاستعارة العقلية سواء كانت عن طريق الأفكار الدينية أو الدنيوية أو سواء كانت من ناحية معمارية أو شعرية أو علمية، ولا أدل على هذا من العقد المديب وما تستفيده منه. إن الفن والاستعارة الفنية ليست فيما يستعيره الشعب بل هي الطريقة التي يستفيد بها من العنصر الذي يستعيره وكيف يشكل هذا العنصر وطريقة استغلاله. فهذه الوسيلة هي في الواقع العامل الرئيسي الخالق. أما طريقة الخلق والتكوين فهي التي تحدد القطعة الفنية وتعينها؛ لأن العبقرية الخالقة لا تقتبس كل شيء بل تختار من بين ما يروقها ما يساعدها على خلق نموذج فني ممتاز. والتبادل الثقافي ظاهرة موجودة عند كل الشعوب ولا يمكن الشك في أن أي شعب لن يستطيع أن يتجنب هذا التبادل. والاقتباس لا يضير الشعب أو يحط من مكانته ومكانة فنه طالما لا يفنى هذا الشعب ويذوب أو يتلاشى فنه في فن شعب آخر. وهذه الحقيقة ندركها في الفن الغوطي وفي أوربا، لذلك ليس من العدالة أن ننكر هذه الظاهرة على العروبة والإسلام. والملاحظ أنه سواء في الفن أو العلوم يكال دائماً بكيلين فأوروبا عند الاستفادة تهتم بالشكل بينما العرب بالجواهر، وعند دراسة الجواهر في الفن الأوروبي نجد الدارس يحاول إرجاعه إلى الثقافة القديمة فإن لم يوفق أهمله وانصرف عنه. وهذه الظاهرة ندركها في الفن الغوطي حيث نجد فيه العناصر العربية الجوهرية، كذلك الفن الروماني فقد صب في الواقع في قوالب شرفية قديمة من آسيا الصغرى، وهكذا أيضاً الفن الجرمانى الخاص

باستخدام الحيوان في الزخرفة، فهو غالباً فن شعبي آسيوي. أما المعمار العربي الإسلامي فكثيراً ما استعار من البابلي أو الفارسي أو البيزنطي. وفي «كلوني» يجرى تبار عربي إسلامي ويستمر هذا التيار جاريّاً حتى يبلغ إنجلترا حيث نجد العقد المدبب العربي الذي انتقل إلى «كلوني» ودخله بعض التطور وأصبح في القرن الرابع عشر على هيئة قطعة فنية تشبه اللهب، وهو يستخدم في النوافذ والمسطحات. وقد انتقل هذا الفن مباشرة من العرب إلى «كلوني» ومنها إلى إنجلترا حيث التقى بالفن المعروف باسم فن «تودور» حيث يوجد عقد تودور وكذلك عقد «كيل» (نسبة إلى مدينة كيل) ونحن نجد الفنين في الجامع الأزهر بالقاهرة حيث يوجد ما يعرف باسم «ظهر الحمار» هو عقد المروحة مع القباب المعروفة والشبابيك كعنصر من عناصر الزخرفة. ثم أخذ الفن التودوري ينتشر من الجزر البريطانية حتى بلغ الولايات المتحدة وأصبح فيها هو الفن المستعمل في الجامعات الأمريكية. ومع مرور الزمن أخذ فن المعمار العربي يتغلغل في داخل القارة الأوروبية، وأصبحت هذه البلاد وطناً للفن العربي قروناً طويلة، فجد الغزاة المسيحيين للأندلس يشيدون قصورهم وكنائسهم حسب الفن المعماري العربي الذي استولى على قلوبهم واضطروهم إلى الاستعانة بالفنيين العرب. وما زلنا إلى اليوم نشاهد هذا الفن العربي المعماري. وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر نجد الفن المعماري العربي الإسباني يتطور وينتقل إلى الأمريكتين الجنوبية والوسطى حيث نجد الفنين المعروفين باسم «بلاترسكين» و «خورير جرسكين» كما نجد الفن المعماري الذي أخذ عن إسبانيا والمعروف باسم «أزوليوس» والذي استخدمه العرب في المباني الدينية والدنيوية وهو القيشاني الذي ما زال حتى يومنا هذا يزين كنائس المكسيك ومساكن أمريكا اللاتينية والدور

الإسبانية الحديثة والمكسيكية الجديدة وكذلك في أمريكا الشمالية. وفي صقلية نجد المعمار العربي أيام حكم النورمان والأشتوفيين يتطور تطوراً عظيماً وينتشر في مختلف جهات إيطاليا، هذا مع الإشارة إلى أن كل ميناء عظيم كان يحتفظ بعلاقاته الخاصة مع العرب والفنون العربية والثقافة العربية سواء عن طريق التجارة أو عن طريق خضوعها للعرب. وليست فقط البندقية بل أيضاً «بيزا» التي أخذت تنمو وتكبر تدريجياً حتى أصبحت سيدة البحار وملكة توسكانا، وذلك بفضل علاقاتها مع العرب. ولما تحالف أسطول «بيزا» مع أسطول جنوة وطرده العرب من سريردينيا، اتحدت بيزا مع النورمانيين للاستيلاء على صقلية وانتزاعها من العرب. ففي عام 1063 م أخذت بيزا تشييد كاتدرائيتها الشهيرة وذلك من الغنائم العربية التي غنمتها عند الاستيلاء على بالرمو كما استخدم المسيحيون بقايا مخلفات المساجد التي هدموها في بناء كنيسة «بابتيستريوم» و «كامبانيلا»؛ وهكذا نجد الكاتدرائية متأثرة بالفن العربي تأثراً كبيراً وبخاصة باستخدام الرخام الأسود والأبيض في العقود عند دورانها، وهذا الفن العربي قد استعاره البور جنديون في الفن الروماني، ثم الخطوط الرمادية السوداء التي تزخرف الحوائط الخارجية الرخامية الأفقية والزخرفية التي على السطوح، ثم طريقة استخدام العقود السبعة المختلفة. وعند العرب العقود العادية والعقد المدبب والتطعيم العربي المختلف الألوان، والقاعات ذوات الأعمدة وأخرى كثيرة قد اكتسبتها أوروبا من العرب المقيمين في صقلية. فالاتصال مع المدن التجارية الشرقية قوى الرغبة في اقتباس كل ما هو عربي، وهكذا نشأ الفن الرومانتيكي الإيطالي الجميل، وكذلك الفن البيزي الذي شمل بيزا وجميع إقليم توسكانا وعبر حدوده. أما البندقية فقد اقتبست إلى جانب الفن البيزنطي كثيراً من مختلف الفنون العربية، فالمآذن العربية

أصبحت في عصر النهضة أبراج النواقيس في إيطاليا، والكومبانيلي القائمة قد تأثرت أيضاً بالمنذنة، كما نجد المهندس المعماري الإنجليزي الشهير «ورين» الذي تأثر بالفن الإسلامي يستغل هذا الأثر الإسلامي في تشييد أبراج كنائسه، وأخذ الإيطاليون يجمعون بين القباب والأبراج وجعلوا منها قطعة فنية جميلة. كذلك الحال مع المحاريب التي تشبه الأصداف والتي ظهرت في عصر النهضة والتي هي في الواقع تقليد للمساجد الإسلامية بمآذنها. وعند تشييد الأبراج العربية من الأحجار أدخلت فيها معدات حربية كثيرة عاد بها الصليبيون من الشرق، وهذه المعدات العربية قد استخدمت في تشييد أسوار المدن الألمانية والأبراج البورجنديّة والقلاع الإنجليزية والحصون الفرنسية. ومن بين هذه الوسائل الحربية العربية المداخل المستديرة التي تعرقل وتعطل القوة الهجومية للعدو، وكذلك الخوارج للدفاع فمثلها مثل الأبراج القائمة على الحوائط إذ هي تمكن من القيام بهجوم أو دفاع جانبي. أما الخوارج الدافقة والتي يسميها الأوربيون «ماخيكوليس»، فقد أقبل عليها الأوربيون إقبالاً عظيماً، فهذا النوع من الخوارج عربي أصلي جاهلي، وهو عبارة عن حوامل تبرز من الحائط وفوقها مبنى يشبه الشرفة وفي أرضه فتحة يتدفق منها على العدو الزيت الحار الساخن أو القار. ولم تمض عشرة أعوام على معرفة أوربا لها واشتهارها في ألمانيا باسم «أنف القار» حتى استخدمتها فرنسا وإنجلترا في أربعة أبراج، وعوضاً عن الحواجز الخشبية استخدمت أوربا منذ القرن الرابع عشر، لرفع الأبواب وأبراجها وبخاصة في القلاع الإسبانية والفرنسية والإنجليزية والسويسرية والألمانية، صفا من الخوارج المصبوبة تقوم عليها الممرات الواقية المثبتة بالحيطان. وهي تقوم مقام الخوذة من السلاح. وهكذا أصبحنا نجدها من خصائص الأبراج المشيدة للدفاع، وقد انتشرت

ما بين اسكتلندة والقسطنطينية، وأصبحت ضرورية لكل برج ولو كحلية زخرفية. وقد أحضر الصليبيون معهم من الشرق علاوة على ما ذكر، عادة تغطية الأبراج بخوذات من الحجر كما هو مشاهد في «لارن» ببلجيكا «وروديلزبرج» في ألمانيا. فخوذات الأبراج العربية استعارها الصليبيون الألمان من «ورمس» واستخدموها في كنيستهم المعروفة باسم كنيسة القديس بولس، وللإشارة إلى حربهم الصليبية رسموا سفنهم الصليبية. وكما هو الحال في قبابهم الرمادية التي تعلوها سماء بلادهم المغطاة بالسحب والغيوم تقوم على سطوح مبانيهم المائلة المنحدرة والممتدة على ضفاف الرين توحى إلى الناظرين إليها بأجنيبتها، فهي تعبر عن هذه الخوذة العربية الحجرية، وهي التي تتدرج من مربعات إلى مثلثات ثم إلى دوائر، وهي التي قلدها الألمان على طول نهر الرين في «ديتلزهم» و «الزهيم» و «جونتر زبلوم» بل حتى في «شبير» و «فيتزلار» و «أمورياخ». أما في إسبانيا ذاتها فقد اختفت آثار العصور العربية الذهبية ولم يبق بها إلا القليل جداً، وآخر آثار الماضي الذهبي التي تحمل بعض الآثار الفنية لمشيديها السالفين: «الحمراء» وقصر السلطان العظيم في غرناطة وبقايا القلعة الصيفية وقصر طليطلة وغير ذلك وبخاصة برج إشبيلية الذي كان يستخدم قديماً مرصداً للفلكيين، وهذا البناء لا يقوم على مصاطب مدرجة يستطيع الفارس بلوغها بل على سهل منحدر. أما واجهة البناء ذات الألوان المختلفة اللامعة فكأنها زجاج وتغطيها نوافذ مزدوجة جميلة على أشكال مدببة أو على هيئة أوراق العشب أو حدوة فرس. ومن بقايا الآثار العربية العظيمة في الأندلس وهذه الثقافة الرفيعة: هذا المسجد العظيم الذي شرع عبد الرحمن الأول في تشييده في قرطبة، لكن مما يؤسف له حقاً أن الكنيسة التي بنيت في داخله تبين لنا عظمة هذا المكان الذي كان قديماً يشتمل

على أكثر من ألف وأربعمائة عمود، وبين العقود التي تشبه حدوة الفرس يتدلى أربعة آلاف وسبعمائة مصباح من الفضة من سقف مصنوع من خشب الأرز المزخرف. ولما جاء هشام الأول وهو الابن المتواضع المحافظ لعبد الرحمن الأول أتم البناء الذي بدأه والده وأضاف إليه المئذنة. والحكم الأول الذي كان واسع الأفق وميالاً إلى المرح والسرور ترك المسجد قائماً كما هو، لكن عبد الرحمن الثاني الذي كان هاوياً للفنون الزخرفية رغب في إيجاد عمل للعمال العاطلين فشيد كثيراً من المباني فقرر توسيع المسجد وشيد فيه محراباً ثانياً. أما ابنه محمد الأول الذي كان متزتماً جداً ومتديناً، فقد زخرف الحوائط والأبواب وأقام حاجزاً يفصل بين المقصورة التي يصلى فيها الحاكم وبقية المساجد. ثم خلفه عبد الله وكان حاكماً مستتبداً جاهلاً فشىد طريقاً مسقوفاً من القصر الواقع غرب المسجد إلى المقصورة. وجاء بعده الحاكم الأمويان العظيمان في الأندلس وهما اللذان جعلاً من الإمارة خلافة، وخلافة ناجحة، وهما عبد الرحمن الثالث العظيم والحكم الثاني، وكانا معاصرين للملك هينريش الأول والقيصر أوتو الأعظم. وقد جدد الأمويان المنارة التي هدمها زلزال ووسعا المسجد ناحية الجنوب وشيدا المقصورة الجديدة التي كان يجب تشييدها، كما أقاما أيضاً محراباً جديداً. ثم جاء المنصور وكان وصياً على هشام الثاني فزاد في المسجد من الجهة الشرقية وقد تطلب هذا هدم بعض المنازل فاضطر إلى تعويض أصحابها. وهكذا نجد هذا البناء يصاحبه التقدم والرقي إبان حكم الأسرة الأموية، ويعتبر عصرها أزهى العصور الإسبانية، فقد اشتهر بكثرة المباني كما ارتقت في عهده الموسيقى.

الموسيقى تسير الحياة

إن الرجل الذي ترك السفينة في الجزيرة في ديسمبر 822 م، وهذه السفينة التي نقلته من «كويتا» وعبرت المضيق، مضيق جبل طارق، قد استرعي انتباه سائر ركاب السفينة، فقد كان يرتدي قبعة مدببة القمة من الفراء الغالي تغطي شعر رأسه المستدير الذي كان يكسو جبهته ويتدلى حتى حاجبيه بعيداً عن الأذنين والرقبة، وقد كانت له لحية مهذبة مصبوغة باللون الأحمر وله عينان لامعتان مكتحلتان تشعان ذكاء ويقظة وتفوح منه رائحة عطرية ومعه زوجة الشابة وحولهما أطفال يتصايحون، وبعد شهرين تبين أنه المغني البغدادي الشهير وقد امتطى صهوة بغل مطهم يحيط به بعض موظفي القصر في قرطبة. ولم يكن صاحبنا في حاجة لأن يهاجر من العاصمة الشرقية، فقد غمره هارون الرشيد بعطفه وشمله بإحسانه، لكن الحقد والحسد والغيرة هدمت سعادة «زرياب» وقوضت عشه، فأستأذه إسحق بن إبراهيم الموصلي، الذي استطاع بمدرسته الموسيقية مضايقة المنندي الموسيقى في الكوفة، كان لا يعلم الغناء للجواري الحسان فقط، بل يهتم بتخريج الموسيقيين من الجنسين راجياً من وراء هذا أن ينال حظوة عند الخليفة. فالشاب الكردي الموصلي كان يمتاز بعادات حسنة جداً، فقد كان يجيد النكتة والحديث إلا أن زرياب إلى جانب لسانه الزلق كان له تفكيره الخاص وكان مثله مثل أستاذة عظمة واعتداداً بالنفس. ولو أنه كان ينوء تحت أعباء مسؤوليات جمة. سأل الخليفة مرة عن غنائه، فأجاب أنه يستطيع أن يغني كما يغني الآخرون، لكن علاوة على هذا يقدر على أداء أشياء لا يقدر عليها غيره، إن فنه يدركه ويقدره الفنانون أو الذين لهم دراية كبرى كدراية أمير المؤمنين؛ ثم استأذن الخليفة أن يسمعه بعض أغانيه

التي لم يسمعها من قبل. فأعطى إسحق بن إبراهيم الموصلي تلميذه عوده، ففقدته زرياب كما يتفقد حذاء قذراء، وقال: إذا شئتُم يا مولاي غنيت لكم شيئاً كالذي سيغنيه أستاذي، وسأغني بمصاحبة عودي. وفي هذا الوقت كان إسحق الموصلي يزداد ألماً وحقداً فطلب زرياب أن يستصحب عوده الذي صنعه هو، وبعد استئذان الخليفة أخذ زرياب يغني قصيدة من تلحينه يمدح فيها أمير المؤمنين. وقد أعجب الخليفة بها إعجاباً عظيماً وقرر أن مثل هذه العبقرية يجب أن تصبح حلية يتحلى بها قصره. أما إسحق بن إبراهيم الموصلي فقد تأثر كثيراً من هذه القصيدة لأنه لم يكن يخطر بباله أن مثل هذا النجم سيتلأل سريعا، لذلك قال له إسحق لقد خدعتني خداعاً عظيماً بكتمانك وخبئك، لقد حاولت أن تطعنني أمام الخليفة. ثم طلب إليه ألا يغني، وسيدفع له إسحق مالاً كثيراً، وإن لم يفعل هذا فسينتقم منه شر نعمة. ومن ثم نرى الإشاعة تنتشر في أن أرواحاً تتقمص زرياب وتخبره عن الألحان وتبلغ هذه الشائعة الخليفة الذي أبدى الرغبة في مشاهدة زرياب، كما قيل للخليفة كذباً وميناً إن زرياب مغرور وإنه قد غضب لأن الخليفة لم يمنحه المال الكافي. ولماذا لا ينجح الشخص الذي نجح لدى هارون الرشيد، عند الحكم الأول في الأندلس فاستولى عليه السرور وذلك لأن بلبل بغداد قد تركها، وأنه سيغرد في حدائق قصره. لكن لم يكد المغني يضع قدميه في الأندلس، حتى علم أن مرسل الخطاب قد توفي منذ زمن قصير، فكان هذا الخبر صدمة قوية لزرياب حتى فكر في العودة إلى إفريقيا عندما حضر إليه رسول الخليفة الأموي الجديد الذي جلس على عرش البلاد واسمه عبد الرحمن الثاني، فقد دعاه عبد الرحمن هذا إلى قصره لكي يسطع نجمه في ردهاته، وأرسل إليه بغلا مطهماً جعل زرياب يشعر أن القوم في الأندلس يقدرُون فنه. وبعد أن مضى زرياب ثلاثة أيام في

قصر ضيافة الأمير استراح فيها من وعثاء السفر دعاء عبد الرحمن للمثول بين يديه وعامله الخليفة معاملة كريمة جداً، فقد دفع له مرتبه قبل أن يتبين صوته وفنه كما أخبره الخليفة أنه سيدفع له مرتباً شهرياً خيالياً هذا عدا الهدايا التي سيمنحها له بين الحين والحين، وبعد أن تعينت المكافأة رجا عبد الرحمن المغني أن يغنيه أغنية، وبعد سماعها اتضح له أنه كان مصيباً في تقديره. ومع تقدم الزمن نجد زرياب يكشف عن مزاياه وخلاله النبيلة التي تحببه إلى الخليفة وتقربه إليه، فقد كان يتمتع زرياب بذاكرة جبارة، كما كان يحفظ آلاف الأغاني ويحيط بالحنانها وأنغامها إحاطة قوية، كذلك كان زرياب عالماً بالفلك والجغرافيا وكان يجيد الحديث عن البلاد الأجنبية وعادات شعوبها وتقاليدها أهلها، وعلاوة على ذلك قد امتاز بروحه الجذابة الفياضة ولباقة ومسلكه. فهذا الرجل الجميل الأنيق حسن البزة كان المثل الأعلى للرجل المهذب في الذوق الرفيع. وكل شيء يخترعه زرياب يقلده فيه الآخرون، فكان زرياب مثال الأناقة في قرطبة يحتفظ بشعره طويلاً ويفرقه ثم يقصه حول رأسه، فكان زرياب فناً أنيقاً يعرف كيف يعني ملبسه ويجاري أحدث الأزياء التي تسير مختلف فصول السنة، فكان يرتدي الأقمشة الخفيفة ذات الألوان الزاهية الحية الجميلة في فصل الربيع والأثواب البيضاء الفضفاضة صيفا ومعاطف الفراء والقلائس شتاء. فقد كان يرتدى آخر ما يتوصل إليه الذوق السليم في بغداد إبان الشتاء. كذلك نجد المغني يثور على نظام مائدة الطعام، فقد أوجد أطعمة جديدة وأدخل إلى المطعم الإسباني طعام الهليون، وهكذا نجد هذا الفنان المحبب إلى الجميع، هذا السيد الأنيق، قد استولي بلطفه وفنه على قلب الأمير وشعبه، حتى إن القوم كانوا يقصدونه لقضاء حاجاتهم. وهكذا نجد عبد الرحمن الثاني، يؤسس معهداً للموسيقى القصر في قرطبة، وفي هذا المعهد كان يتعلم

الهواة الغناء والموسيقى نظرياً وعملياً. وذلك لأن العرب كانوا منذ أقدم العصور شعباً محباً للغناء، يعشق الغناء عشقاً لا يدانيه فيه شعب آخر، فالموسيقى كانت تلازم العرب من المهد إلى اللحد، فكل عواطفهم كانوا يحولونها إلى غناء فنجد غناء العمل وفرح اللاعب وفرح الحب وألمه والرغبة الشديدة في الحرب أو الثأر والحزن على الموتى. ففي العصر الجاهلي تقوم طائفة المغنين والمغنيات، وفي عصر الاستقرار في المدن نجد المغنيات اللواتي كن يغنين بمرافقة الآلات الوترية، فكانت المغنية من مستلزمات الحياة في البيت مثلها مثل البيانو في كل غرفة جميلة في القرن التاسع عشر، أو مثل المذياع في كل غرفة جلوس في القرن العشرين. ولم تكن تلك الموسيقى من هذا النوع الغريب على آذاننا اليوم والمشهور بنغمته الواحدة، فالغناء في النغمة الواحدة نشأ أولاً بعد خراب بغداد على يد المغول، وظهر ربع النغمة، وهي نغمة ليست عربية أصيلة، فعلى النقيض من ذلك نجد الأنغام العربية كانت غنية متنوعة مثلها مثل الفن العربي، كما نجد العرب يستخدمون حتى القرن الثالث عشر سلم النغم الفيثافوري؛ ويرجح أن هذا السلم النغمي الفيثافوري سلم سامي الأصل، وقد أثر هذا السلم في فارس وبيزنطة، ومن ثم انتقل إلى العرب. ولو أن هذه البضاعة المستوردة من فارس أو بيزنطة لم تعوض العرب موسيقاهم القومية بل طعمت بأصل عربي. والصفة المميزة لهذه الموسيقى «النغم» الذي لا يشترط وجوده في كل فن من فنون الموسيقى كما قد يتبادر إلى أذهاننا. أما موسيقى الغناء القديمة فمثلها مثل الشعر القديم لا تعرف نغماً، كما أن الشعر يعتمد على العروض فقط، أعني أنه يقوم على تقاطيع طويلة وقصيرة. وأقدم موسيقى كنسبة ترجع إلى العصور الوسطى مثلاً لا تعرف زمناً للنغم أو عروضاً، وهي تعتمد عادة على وحدات من الأنغام متصلة إلا أنها

وحدات نغمية غير موزعة، مثل تقسيم الجمل عن طريق الشولات وما إليها، توزيعاً منتظماً. أما البناء الزمني للنغم فهو شرقي أصيل مع ملاحظة أن الزمن النغمي يساعد على خلق القياس الزمني الموسيقى وهو يؤدي مباشرة إلى توقيع، وقد يكون هذا هو أهم شيء موسيقى قدمه العرب لأوروبا، أعني القياس الزمني وذلك عن طريق وحدة الزمن النغمي إلى توقيع نجده في الموسيقى، وقد عرض لهذه الظاهرة وتلك الخاصة الفيلسوف العربي وصاحب النظريات الموسيقية في منتصف القرن التاسع الميلادي ألا وهو الكندي، وقد انتقلت هذه الموسيقى العربية إلى أوروبا في القرن الحادي عشر عن طريق المغنين المتجولين وسبايا الحرب من النساء الأندلسيات. أما نظرية القياس الموسيقى في المؤلفات الإسبانية العربية فقد غزت القطع الموسيقية اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وقد ورثت أوروبا فن الموسيقى عن العرب، كما ورثت أيضاً الزخرفة الموسيقية العربية التي نجدها في النغم، كما يلاحظ في الموسيقى تمسك العرب بالمبدأ الأفقي الموسيقى، وهكذا نفهم سر غرام العربي بالموسيقى الغنائية، كفن مصاحب للغناء أكثر منها كفن مستقل. وتدين أوروبا للعرب كذلك في آلاتها الموسيقية، بعد أن سبق أن أهدت بيزنطة إلى أوروبا الأرغول والقانون وربما الجناك أيضاً. واليوم عندما يستخدم قائد الفرقة الموسيقية عصاه عند عزف قطعة موسيقية فإن الآلات الموسيقية التي أمامه ما هي إلا آلات عربية أو بتعبير أدق انحدرت عن آلات عربية كثيراً ما استعملت لعزف مجموعة فنية جميلة رقيقة من الأنغام، وقد جاءت كثرة هذه الآلات العربية بعد اختبارها اختباراً دقيقاً عن طريق إسبانيا إلى أوروبا، وما زالت محتفظة بأسمائها العربية فمن الآلات الوترية العود والقيثارة والطنبور والسنطير، كذلك الرباب والبوق والنار والمزمار والصاجات والنفارة وغيرها. ثم نجد

الفيلسوف الفارابي الذي كان عالماً كبيراً في النظريات الموسيقية، اخترع في النصف الأول من القرن العاشر الرباب والقانون، وقد مهدت الألتان لاختراع البيان الأوربي. وعدا المخترعات الأخرى التي سجلها لنا التاريخ العربي للموسيقى نجد أيضاً «زرياب» الذي تركناه في قرطبة يجدد فيها تجديداً عظيماً، وهذا هو السبب الذي جعله يرفض العزف على عود إسحق بن إبراهيم الموصلي، ورجا الخليفة أن يسمح له بأن يعزف على عوده الخاص الذي زوده بوتر خامس ولحن على عوده ذي الأوتار الخمسة مقدمة له، وقد لقي ذلك إعجاب أمير المؤمنين وحسد معلمه. وبينما نجد الموسيقيين الأوربيين يعتمدون عند ضبط القانون وما إليه، على الأذن إذ بنا نجد طالب الموسيقى في مدرسة زرياب يتعلم العزف على رقبة العود، وفي هذه الرقبة نجد ارتفاع النغم وقد قيس قياساً خاصاً عن طريق جمعها معاً، وهذا من المزايا الكبرى التي تحبب الآلات الموسيقية العربية إلى الأوربيين. وربما كانت هذه الآلات هي التي دفعت الأوربيين إلى معرفة الإيقاع وإجادته، وهذا قد أدى بدوره إلى خلق أوربا للرباعي والخماسي والثمانى، ولا سيما أن الأوربي ميل بطبعه إلى العمودية، وقد دفعه هذا الاستعداد إلى خلق الموسيقى المتجانسة، وهذه محاولة لم يشعر بها العربي نظراً لطبيعته الخاصة. وقد أثرت الموسيقى العربية أيضاً عن طريق النغم الموسيقى العالي الموجود في صوت الخصيان، كما أثرت أيضاً بأنغامها وأوضاعها الموسيقية الخاصة التي كانت شائعة في الأندلس في الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والثاني عشر في الموسيقى الأوربية سواء الفنية منها أو الشعبية، وكان الأثر شديداً جداً في الموسيقى اللاتينية كما يتضح لنا هذا واضحاً من اقتباساتها تعبيرات وخصائص موسيقية عربية، وقد يكون العرب قد تأثروا في هذا ببعض النظريات اليونانية إلا

أنهم كرياضيين وعلماء طبيعة بالفطرة أجروا عليها كثيراً من الاختبارات والتجارب التي مكنتهم من تنقيحها، وبالرغم من أن هذه النظرية قد جاءت عن علماء لهم شهرتهم الخاصة فإن العرب قد نقحوها وخطوا بها خطوات واسعة وسبقوا اليونان فيما وصلوا إليه أو جاءوا به. فنحن نجد عدداً كبيراً من علماء الموسيقى العرب قد شاركوا في هذه الأبحاث، إلا أنه مما يؤسف له حقاً أن ما وصلنا عنهم قليل جداً، وقد ترجم بعضه. ويدين إلى العلماء العرب من الأوربيين أمثال «جونديسلفوس»، و «فنسنت دبوفيه»، و «يوحنا أجيدوس»، و «روبرت كيلوردباي»، و «رامون لل»، و «سيمون تونسيتيده»، و «روجير بيكون» و «آدم فون فولده» حيث تأثروا بالعرب وأخذوا عنهم كثيراً. ويعد الإنجليزي «ولتر أودينجتون» العالم العربي ابن سينا أنه عالم موسيقى من المرتبة الأولى. ومؤلفات الفارابي الموسيقية كانت موضوع عناية ودراسة حتى القرن السابع عشر الميلادي. وقد تعلمت أوربا عن ابن سينا والفارابي العلاقة بين $4.5 =$ النغم الثالث الكبير و $5.6 =$ النغم الثالث الصغير، فقد غيروا صوت النغم الثالث وهو عدم الموافقة في الألحان وجعلوا منه النغم المألوف إلى آذاننا اليوم أعني تجانس الألحان. وقد اهتم الجراف السويبي وهو «هرمانوس كونتراكتوس الذي كان يقطن في «ريشناو» كعالم يقدر العرب وعلومهم تقديراً عظيماً، بسائر مؤلفات الكندي وبخاصة ما يتعلق منها بالموسيقى وأخذ عنه كتابة الموسيقى العربية. أما المقاطع «دورم فاسول لاسي» التي يقال عنها إنها من وضع الإيطالي «جويدو فون أريتزو» الذي يقال إنه وضعها حوالي عام 1026 م وقد راعى فيها أوائل سطور ترنيمة يوحنا، فالواقع أن المقاطع الموسيقية (در ..) إنما اقتبست من المقاطع النغمية العربية (د) تنطق قديماً (د) مضمونة ثم (ر) (م) (ص) (ل)

(س)، وهذه كثيراً ما نجدتها في مقطوعات موسيقية لاتينية مشتملة على كثير من المفردات العربية، وهذه المقطوعة اللاتينية ترجع إلى القرن الحادي عشر، وقد وضعت في جبل «كاسينو» الذي كان يقيم فيه العرب. وقد عاش المغني العربي زرياب في قصر الحاكم الذي كان يقدره ويجله، لذلك كان موضع حسد الكثيرين وحقدهم، وفي مقدمة حاسديه والحاقدين عليه لجمال صوته وأثره البعيد يحيى بن الحكم الملقب لجماله بالغزال. وكان يحيى هذا شاعراً موهوباً؛ لذلك عينه الحكم الأول في بلاطه، وقد حرص يحيى على الاحتفاظ بمكانته في القصر مدافعاً عنها أمام هذا الأجنبي القادم من بغداد. وهكذا نجد هذين الفنانين يتنافسان، كل يحاول بفنه ومهارته الانتصار على منافسه، وحال عبد الرحمن أن يبعد كلاً منهما عن الآخر، فأرسل الغزال سفيراً له في القسطنطينية حيث استولى هذا الأندلسي اللبق بأحاديثه وجماله على قلوب الفاتنات وبخاصة القيصرة التي رغبت إليه أن يقيم دائماً في القصر، إلا أنه لم يكد يعود إلى قرطبة مغوراً بهذا التوفيق الذي أحرزه في القسطنطينية حتى هاجم زرياب المغني الذي كان قد خلاله الجو فازدادت مكانته، وفي ذلك الوقت كان عبد الرحمن المحب للسلام يفكر في إحلال السلام والوئام مع النورمانيين الذين كانوا قد هاجموا إشبيلية، ومنوا بهزيمة قاصمة، فأرسل شاعر قصره الغزال في صحبة السفارة النورمانية إلى «كوتلند»، وقد أنسته أغانيه الغرامية التي ظل يرددها في حب امرأة ملك النورمان الحقد والغضب علي زرياب. لكن لما عاد الغزال تبين أن النار التي لم تخدم بعد أصبحت ضعيفة لا تقوى على إعداد الطعام، لذلك قرر مهاجمة زرياب والسخرية منه، فأفقد هذا الموقف الغزال مكانته، فأقصاه عبد الرحمن من قصره ونفاه. وفي الوقت الذي كان مغني بغداد في قرطبة تكلل هامته بأوراق الغار، نجح

كذلك شاعر قرطبة في بغداد في الحصول على شعارات المجد والتكريم بالرغم من أن القوم في بغداد لم ينظروا إلى الأندلسيين نظرة إعجاب وتقدير.

زخرف العالم الوضاء

إذا فكر العربي في الأندلس، وإذا حلم بجنة الأرض، فإنما يقصد الأندلس إبان حكم عبد الرحمن الثالث، فإن هذا الأمير الذي أهداه الله إلى الأندلس، كان المثل الأعلى للحاكم فنحج وخلق من أمة متفككة الأوصال، عن طريق الدين والجنس، شعباً قوياً، أصبح في خمسين عاماً شعباً نابغاً متسامحاً سياسياً وفي طليعة شعوب العالم المتمدين. وبدهي أن الحياة السياسية حتى ذلك العصر كانت متقلبة، وكذلك كان الخلاف قائماً في الداخل بين المفكرين الأحرار وبين المحافظين المتزمتين، لكن كل هذا لم يحل دون ازدهار الحضارة وتطورها. كذلك الحالة الاقتصادية في البلاد، فقد أُنِعت وازدهرت؛ وذلك بفضل نشاط العرب وتجاربهم في الزراعة والري. فالعين العربية المجربة تبينت الكنوز المطمورة في الأرض التي يجب استخراجها والاستفادة منها لرفع مستوى البلاد والنهوض بها. فقد حفر العرب الآبار وزودوها بروافع المياه والسواقي التي يبلغ اتساعها نحو عشرين أو ثلاثين متراً وكانوا يحصلون على الماء من الجبال ويجمعونه في أحواض كبيرة يمتد الحوض منها نحو خمسة كيلو مترات، ومن ثم كانوا يجرون المياه في قنوات كبيرة إلى الأراضي، حيث تخزن في أحواض ثم تصرف منها في الحقول، وهكذا نجح العرب في إرواء الأراضي الجافة الجرداء حتى التلال وأعلى الجبال وجوانبها فسطحوها ورووها وزرعوها، كما تلقى الفلاحون

دروساً في زراعة الرمان والخوخ واللوز والمشمش والبرتقال والكستناء والبنان والنخيل والبطيخ والهليون وقصب السكر والقطن ومختلف النباتات وصناعة الكعك من الفاكهة التي كانت تكون عنصراً هاماً من صادرات البلاد الإسبانية. وحتى اليوم ما زلنا نجد في اللغة الإسبانية الخاصة بالزراعة والري كثيراً من الألفاظ والاصطلاحات العربية. ففي ذلك العصر استغل العرب كل بقعة من الأرض فكان الحقل إلى جوار الحقل كما يصف ذلك المسعودي في كتابه مروج الذهب. وبفضل العناية بالري والزراعة وحسن استغلال الأرض إلى صفاء السماء وجودة الجو، كانت الأرض أيام عبد الرحمن الثالث تنتج ثلاثة محاصيل أو أربعة من الحبوب في العام، واستتبع العناية بالزراعة الاهتمام بتربية الماشية وبخاصة الإبل والخيل، ويكفي العرب فخراً أنهم أصحاب فكرة التلقيح الصناعي وهم أول من استخدمها، وقد أخذ بها العالم الحديث في القرن العشرين فقط. ثم فتحت المناجم التي ظلت أكثر من ألف عام لا تستخدم ولا تستغل، فقد سبق أن أخرج الفينيقيون بعض محتوياتها فاستخرجوا منها سنوياً كثيراً من الحديد والنحاس والزنابق، فقامت صناعات عظيمة فنية لا تستطيع أوروبا أن تتصورها فعم الرخاء البلاد وارتفع مستوى معيشة السكان، حتى إن كل أندلسي كان يركب بغلاً ولا يمشي، كما أدى انخفاض أسعار الخضر والفاكهة وسائر المواد التموينية وارتفاع أجور العمل إلى نزوح كثيرين من الفلاحين العرب والعمال العرب إلى الأندلس فبلغ عدد السكان حوالي عام 950 م في إسبانيا العربية نحو ثلاثين مليوناً، فقامت آلاف القرى حول قرطبة فازدهرت الحياة وأينعت. ومنذ أن استقلت الأندلس أيام الأمويين عن خلافة بغداد انقطعت الضرائب التي كانت تتدفق من الأندلس إلى شرق العالم العربي وأصبحت تنفق على أهالي الأندلس أنفسهم فساهمت هذه الأموال في

رفع مستوى المعيشة، وبفضل حكمة وحسن تدبير عبد الرحمن، هذا الخليفة العظيم، كان ينفق ثلث إيراد الدولة على الشؤون الداخلية والجيش الذي كان يعتبر وقتذاك من أحسن جيوش العالم نظاماً وقوة، كما يذكر ذلك سفير «أوتو الأكبر» وهو رئيس الدير «يوحنا فون جورز»، والثلث الثاني كان يحتفظ به كرصيد، والثلث الأخير كان ينفقه الخليفة في تشييد المساجد والقناطر والطرق الحربية وشق الترع، وبذلك كان يخلق عملاً لسائر العمال المتعطلين فخلد وحقق أمانيه وأحلامه كما ذكر هو ذلك. وفي عصره الذهبي قامت مدينة الصخرة، مدينة الأحلام، بالقرب من قرطبة وهي في أبهى حلة لها فقد زخرت مبانيها وقصورها بالذهب الخالص والرخام والبلور والأبنوس والجواهر الكريمة. كما اشتهرت أيضاً بحدائقها الغناء. ويذكر أن جارية عبد الرحمن المحبوبة تركت عند وفاتها ثروة طائلة ليفتدي ببعضها كثيرون من أسرى المسلمين الذين وقعوا في قبضة الإفرنج. لكن جميع الأبحاث والمفاوضات التي قام بها المسلمون مع الإفرنج باءت بالفشل، لذلك ما كان من عبد الرحمن إلا أنه، تحقيقاً لوصية جاريته التي أوقفت ثروتها لاقتداء أسرى المسلمين ولم يوفق في هذا التعتن الإفرنج، شيد الصخرة وأطلق عليها اسم جاريته تخليداً لها ولا سيما أنه قد استغل الثروة التي تركتها فيها. لقد عمل في الصخرة نحو عشرة آلاف عامل وظلوا يعملون بها زهاء خمسة وعشرين عاماً بدون انقطاع فشيّدوا آيات العمارة، حتى قال شاهد عيان: لقد رأيت بها أشهر ما شيدته يد إنسان من مبان عظيمة. وقال عربي آخر إن قصر الخليفة كان على جانب عظيم من الأبهة والجلال حتى قيل إنه الوحيد من نوعه في العالم الإسلامي. واعترف أكثر من زائر من مختلف أنحاء المعمورة أنهم لم يروا له مثيلاً في العالم كما لم يعرفوا عظمة وأبهة وفخامة كتلك. وهذه المنشآت العظيمة لم

تلبث أن تركت أثراً عظيماً، لا في العاصمة فقط، بل على امتداد شاطئ الوادي الكبير، وحول المساحات الممتدة بين القرى حيث القصور الشامخة والبيوت الخلوية الجميلة لأصحاب الجاه والسلطان والأثرياء، وحيث دور اللهو والمتنزهات، كما قصد سكان المدن تلك الأماكن استظللاً في غابات الزيتون والكروم والنخيل والسرو. وفي المنطقة الممتدة بين «سييرا مورينا» و «سييرا نيفادا» التي يجري فيها الوادي الكبير كان يقوم اثنا عشر ألف قرية من بينها ست عواصم وثمانون مدينة كبرى وثلاثمائة متوسطة. لكن أعظم مدينة كانت لدى الأندلسي هي قرطبة وعلى جوانبها ذوات المروج الخضراء كان ثمان وعشرون ضاحية، وكانت قرطبة إبان حكم عبد الرحمن الأكبر في منتصف القرن العاشر، من حيث اتساع رقعتها، أكبر مدينة في الغرب بما في ذلك أوربا. فعدا مساكن الوزراء والموظفين كانت تحتوي قرطبة على نحوستمائة مسجد وثلاثمائة حمام وخمسين مستشفى وثمانين مدرسة عامة وسبعة عشر معهداً تربوياً (وكانت في القرن التاسع تضم أربعة آلاف طالب شريعة) وعشرين مكتبة عامة، تحتوى على مئات الآلاف من الكتب، في عصر لم يكن في أوربا مدينة، عدا القسطنطينية، كانت تتسع لأكثر من ثلاثين ألف سكن. ولم تمتلك هيئة، من الهيئات مستشفى واحداً أو مدرسة عليا. ولم توجد بها مكتبة تستحق الذكر أو حمام عمومي. هذا مع الإشارة إلى أن ذلك العصر قد عرف بقذارة الشوارع وعدم رصفها مما ساعد على انتشار الأوبئة والأمراض. والعجيب أن صحيفة كولونيا تكتب في 28 مارس عام 1819 منددة بإضاعة الشوارع بمصابيح الغاز واصفة هذا الحدث بأنه مرفوض وأنه بدعة تتعارض والتعاليم الدينية، وذلك لأن الله خلق الليل ظلاماً ويجب على البشر ألا يعارضوا ويخالفوا إرادة الله. في ذلك العصر كانت جميع شوارع قرطبة وحوانياتها البالغ

عدها ثمانين ألفاً حوالي عام 950 م ليست فقط مرصوفة رصفاً عظيماً وتنظف بواسطة عربات تجرها الثيران، بل كانت تضاء ليلاً بمصابيح مثبتة في جدران المنازل. وبعد ذلك بقرنين أعني عام 1185 قررت باريس كأول مدينة في أوروبا احتذاء حذو المدن العربية فرصفت الشوارع، وجارتها المدن الأوربية الأخرى في منتصف القرن الثالث عشر. إن هذا الحدث كغيره من الأحداث يشير إلى اقتباس أوروبا الشيء الكثير عن العرب، وقد نقل الأوربيون هذه الأشياء عن طريق الرحالة عبر جبال البرانس، ولو أنه من العجيب حقاً أن المسيحية أو المسيحيين أقاموا مدة في بلاد السحرة حتى لا يتهموا بأنهم يقتبسون عن العرب شيئاً! وليست الأوهام هي التي سيطرت على الراهبة العالمية الشاعرة المسماة «روزفيتا» والتي كانت مقيمة في صومعة دير «جنذر زهيم» السكسوني عندما علمت بقصة قرطبة ووضعت فيها قصيدة تمدحها: ف قالت عنها: «إنها زينة الدنيا وبهجتها، إنها المدينة الحديثة الجميلة الشامخة بأبنيتها، الشهيرة بأفراحها وهي تحوي جميع الأشياء». وليس اليهود فقط هم الذين قاموا بدور الوسيط ونقلوا الثقافة العربية إلى أوروبا بل نجد كثيرين من المسيحيين قد سمعوا بهذه البلاد المباركة، حيث قرطبة وطليلطة ومعالمهما الشهيرة الجديرة بالرؤية والزيارة. ففي أثناء قيام حكومة الأمويين بين القرنين الثامن والحادي عشر أقبل عدد كبير من الطلبة من مختلف أنحاء العالم على إسبانيا طلباً للعلم وتحصيلاً للمعرفة حيث كانت قرطبة النبع الذي لا ينضب. نعم إن العلوم الأندلسية اعتمدت أول الأمر على العلوم اليونانية، والعلوم التي كانت منتشرة في شرق العالم العربي، إلا أن هذه العلوم الأندلسية لم تلبث أن وقفت على ساقيها، وذلك بفضل الخليفة الحكم الثاني بن عبد الرحمن. وبعد أن اشتد ساعد المعرفة العربية الأندلسية واستقلت عن غيرها خرجت شخصيات

علمية عالمية مثل: ابن رشد وابن زهر وابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان، هذه القصة الفلسفية التي تعالج الإنسان الطبيعي، وهي التي أتاحت إلى «ديفو» أن يضع قصة «روبينسون كروزو»، كما نجد ابن باجه وأبا القاسم والطروغي وابن البيطار وابن فرناس وابن الخطيب والعالم العظيم جداً ابن خلدون الفيلسوف والمؤرخ الأول ومؤسس علم الاجتماع. ثم نجد الصوفيين ابن عربي وابن سبعين، ويمتاز جميع أولئك العلماء على علماء شرق العالم العربي. وامتاز الحكم على سابقه بحبه وشغفه بالعلم ونشره بين طبقات شعبه الذي رفعه والده سياسياً واقتصادياً حتى جعله شعباً مثالياً لذلك حاول الابن منذ اليوم الأول من توليه الحكم أن يجعله في طليعة الشعوب الأخرى علمياً وثقافياً، وامتاز بذلك على أسلافه. فقد أتبع كل مسجد مدرسة، وكانت بكل حي من أحباء المدينة مدرسة خاصة ومئات الآلاف من الكتب التي كانت محفوظة في المكتبات العامة وكانت تحت تصرف أفراد الشعب الذين كانوا يستطيعون قراءتها وفهمها، وأراد الحكم شيئاً آخر، فقد أسس في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة أخرى خاصة بالفقراء وكان يدفع هو نفقات وأجور أعضاء هيئة التدريس. وقد ساعدت هذا الحاكم العالم في جميع أوجه نشاط المعرفة في بلاده، وفي تحقيق رغباته العلمية. هذه الثروات الطائلة التي خلفها له والده وأحسن هو إدارتها والتصرف فيها، فأنفق جزءاً كبيراً منها في الكتب ونشرها ومساعدة العلماء وفتح المدارس، فكان يرسل بعوثة العلمية إلى مختلف المراكز الثقافية والعلمية لشراء أو نسخ أمهات الكتب في مختلف العلوم والفنون، وإذا ما أدرك مبعوث الخليفة القرطبي أن عالماً في صدد وضع كتاب بادره وقدم إليه المكافأة السخية مقابل حصوله على هذا الكتاب بمجرد الفراغ منه، فقد حدث فعلاً أن كثيراً من المؤلفات التي وضعت في البصرة أو الموصل قد

عرفت وانتشرت في الأندلس قبل أن تراها بغداد! وبلغ غرام الحكم بالكتب أن حرص حرصاً شديداً على شراء الكتب الجديدة وجمعها وقراءتها قبل أن تصل إلى يد غيره لأن حبه لها لم يكن أفلاطونياً بل واقعياً، فيقال إن مكتبة قصره كانت تضم (400.00) أربعمائة ألف مجلد قد قرأ جميع ما بها وعلق على بعضها وعلى مؤلفيها، وحقا كان هذا الخليفة مضرب الأمثال في العلوم والآداب وسعة الاطلاع، وكان يقصده الأساتذة والعلماء عبر الصحاري والبحار حيث وجدوا عنده الكرم الحاتمي والعلم الذي لا يجاريه فيه أحد، هذا إلى جانب كونه المسامر اللبق. وكانت شخصية هذا الأمير جذابة حتى أقبلت عليه فئات عديدة من كبار العلماء في العالم الإسلامي بل حتى رجال اللاهوت المسيحي قد تهافتوا عليه، فاكتمسب بذلك هذا الخليفة الواسع الاطلاع والأفق، الحليم والواسع الصدر، العالم الأديب، إعجاب كبار رجال الكنيسة الذين توافدوا عليه وانكبوا على دراسة اللغة العربية وآدابها. ولما كان وليا للعهد كلف الحكم الغوطي الغربي الأسقف «جودمار فون جيرونا» وضع كتاب باللغة العربية في تاريخ الإفرنج. كما أن أسقف قرطبة المسمى «ريكديمندوس» الذي كان قد سبق أن أرسله الخليفة عبد الرحمن الثالث عام 955 م سفيراً إلى القيصر أوتو الأكبر. هذا الأسقف الذي كان صديقا لعلماء الطبيعيات العرب، قد وضع كتاباً باسم «راب بن سعيد» الأسقف وأهداه إلى الأمير المسلم الذي كان يرعاه. وموضوع هذه الرسالة: تقسيم الأزمان وإعادة تكوين الأجسام، وقد ترجمها إلى اللاتينية من العربية «جير هارد فون كريمونا». والحقيقة أن الحكم لم ينفرد بين حكام الأندلس بتشجيع العلم والعلماء، فنحن نجد المظفر ملك «بادايوز» يضع موسوعة علمية شاملة لمختلف فنون المعارف في مائة مجلد، كذلك المقتدر ملك «سرجوسة» أظهر نبوغاً عظيماً في الفلك

والرياضيات والفلسفة، كما كان يقدر العلماء تقديراً عظيماً. وتقدير العلم سواء عند الأمويين أو غيرهم لم يكن شيئاً نادراً أو مستحدثاً، وعلى النقيض من ذلك فالعالم الذي كان يعينه الأمير في وظيفة حكومية يجب أن يكون على جانب عظيم من العلم والمعرفة ولم يوجد عالم في دولته دون وظيفة أو عمل، فكل عالم كان علمه كفيلاً لأن يجلسه في أعلى المناصب وأرفعها وحتى صغار الأمراء الذين جاءوا بعد سقوط الأمويين عام 1031 وبعد ضياع الخلافة في قرطبة وإشبيلية وغرناطة والمرايا وسرجوسه كانوا يتنافسون في تشجيع العلم والأخذ بيد العلماء وبذلك مهدوا الظهور النهضة العلمية الثانية التي ظهرت بعد ذلك في الأندلس. وليست العلوم فقط أو الفنون التطبيقية هي التي وجدت إقبال العلماء عليها وتشجيع الأمراء لأصحابها بل الشعر أيضاً، والشعر للعربي كالهواء للإنسان، فقد شجعه الأمراء تشجيعاً منقطع النظير، ومن بين الأمراء من أجاد الشعر إجادة تامة.

شعب من الشعراء

إن الذي يسير في أمسيات الصيف الحارة في مرج الفضة، وقد سلط عليه القمر أضواءه الفضية، يقع بصره على شابين مرحين، فهنا نجد السكان، سكان إشبيلية، يبحثون عن أماكن اللهو أو يسبغون في المتنزهات، وقد أهداها الندى نسيماً عليلاً على طول الوادي الكبير، إلا أن أحداً لا يفكر في أن أحد الشابين الذي يرتدي ثياباً حريرية مهففة هو أبو القاسم محمد، ملك المستقبل. فهذا الأمير المرح المحبب إلى النفوس كان يجد لذة في الاختلاط بمختلف طبقات الشعب متنكراً يرافقه صديقه الذي كان يكبره بتسعة أعوام، وهو ابن عمار. وكان ولي العهد يحب

هذا الصديق حباً شديداً، لأن ابن عمار كان يجيد الشعر إجادة تامة ولم يكن ليتميز عليه في الأندلس في صناعة الشعر إلا ابن زيدون العظيم. وبالرغم من أن ابن عمار كان فقيراً جداً، إلا أنه كان مغامراً، لذلك استولى بشعره على قلب الأمير الذي كان أيضاً شاعراً، وطالما تنافسا في قرضه والمطارحة، كان يقول أحدهما بيتاً ويقول الآخر بيتاً يتفق والأول عروضاً وقافية. ويوماً كانا يسيران يمرحان ويتمتعان باستنشاق هذا النسيم العليل، وقد هب على الشاطئ فحرك سطح الماء وهز الأمواج كرقائق الفضة. فقال المعتمد لصديقه الشاعر: أجز: «صنع الريح من الماء زرد» فأطال ابن عمار الفكرة، ولم يكن في نظمه للشعر من أوتوا البديهة الحاضرة، وكانت امرأة من الغسالات على مقربة منهما، وسمعت ما قاله المعتمد لابن عمار، ولما عجز الأخير عن الإجابة قالت المرأة على البديهة: «أي درع لقتال لو جمد». فتعجب المعتمد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمار، ونظر إليها فإذا هي حسناء فاتنة، فأعجب بها وأخذ بجمالها، فسألها «أذات زوج هي؟» فقالت: «لا»، فلما ذهبت في سبيلها قال لخدام كان يتبعه: «سل عن هذه الفتاة واعرف مكان أهلها»، وعلم أنها جارية رمية بن حجاج وأن اسمها اعتماد، فلما عاد إلى قصره استدعى صاحبها واشتراها منه وتزوجها، ومن فرط حبه لها أطلق على نفسه منذ تلك اللحظة اسم «المعتمد»، وبهذا الاسم اشتهر كأكبر شاعر بين جميع ملوك العرب وخلفائهم. وهكذا تجد الاثنين ينسجمان انسجام الروي في الشعر أو انسجام القافية، وقد ظل حبهما حياً مدى حياتهما حتى لقي كل منهما قضاءه الحزين المحتوم. كما أن قصيدة مطلعها:

أدر الزجاجه فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

هي التي ألفت بين المعتمد وصديقه ابن عمار. وقصائد ابن عمار هذا هي التي حررت المعتمد من السجن، حيث نجد ملك إشبيلية وهو المعتضد الذي كان سريع الغضب يأمر بإعدام ولي العهد الذي تسبب بإهماله في ضياع معركة وهزيمة جيشه. لكن أشعار ابن عمار شفعت له لدى المعتضد الذي اشتهر بالغلظة والقسوة، إلا أنه كان شاعراً يقدر الشعر الرصين وبسببه يعفو عن كل شيء. فالشعر الجيد قد يفك من الأغلال، وقد عرف هذه الصفة موظف من موظفي المالية في قرطبة كان قد اختلس أموالاً عامة. فقد وجه الخليفة المنصور تهمة إلى هذا الموظف مستنكراً جرأته وسرقته أموال الخليفة، فاعتذر الموظف بأن القدر أقوى من الإرادة الحسنة، والفقر يضلل الفضيلة، وهكذا استطاع هذا اللص النجاة بفضل مهارته الشعرية، وكان المنصور يستصحب معه في حروبه أربعين من خيرة شعرائه، وكتب الأدب العربي تفيض بكثير من القصص التي تبين مدى تقدير العربي للشعر وتقديسه. وقد أبهرت العقلية الشعرية للفيلسوف والطبيب ابن الخطيب، وهو ذلك الطبيب الذي هدي أوربا إلى أن وباء الطاعون معد، فقربه الأمير إليه وبخاصة أنه أعجب بأسلوبه الجميل في رسائله إلى سائر الحكام، فعلا شأنه وازدادت شهرته واختص ملك قرطبة بخدماته، كما استطاع مرتين بقصائده الرائعة الاستحواذ على قلب ملك المغرب وعطفه فبادر مرتين إلى إنقاذ تاج هذا الملك الشاب وعرشه. والقصيدة العصماء تحتل مكانة رفيعة في شعب يجد في الشعر ضرورة من ضرورات الحياة اليومية، وأن الحاجة إليه لا تقل عن الحاجة إلى اللغة. والشعر لدى العرب أسلوب من أساليب

اللغة التي تهيمن على كل عربي حتى الفلاح في حقله والعالم في مدرسته والأميرة في خدرها. والقصيدة تتدفق من بين الشفاه في سهولة ودون تكلف ويستخدمها صياد السمك في الوادي الكبير والصانع في مصنعه. والعربي يقول الشعر في كل مناسبة. ويذكر أنه في إقليم (سيلفيز) كان فلاح يسير خلف الفدان ويرتل الشعر، ويذكر أن أحد سكان هذا الإقليم من قبيلة بني الملاح ذهب لعمله مع ابنه الصغير يتمشى على ضفة النهر حيث تنفق الضفادع فأخذ الوالد يدرّب ابنه على قول الشعر؛ ففي الأندلس حيث يدرج الأطفال على صياغة الشعر ويسطرون المجالات بأسماء الشعراء يجعل من العسير الحكم على أشعر الشعراء، ومن هو الشاعر، بينما من السهل الإجابة على أي الملوك وأي الوزراء وأي رجال السيف والعلماء لم يكن شاعراً. وإذا أراد الإنسان أن يتحدث عن شعب من الشعراء يجب أن يتحدث أولاً عن العرب وبخاصة عن العرب الجاهليين، وكذلك الحال عندما نتحدث عن عرب الأندلس إذ كان الشعر لديهم عبارة عن تطور لغوي. إن اللغة العربية تطورت إلى شعر وشعر من نوع خاص أو إلى فن من فنون الشعر الخاصة، فقد تحولت اللغة إلى نغم وقافية. والخاصية المميزة التي تميز العربية وسائر أخواتها السامية عن الأسرة الهندسية الأوروبية مثلاً هو مبدأ التثليث فأصول الكلمة ثلاثة صامتة تعبر عن المعنى المشترك، والحروف الصامتة هي التي تتغير فقط، وهي التي تميز بين المعاني المتكافئة والصيغ المصرفية المتنوعة. لكن استخدام الحركات يخضع لقواعد خاصة، وهذه الحركات واستخدامها سبب من أسباب خلق ألفاظ عديدة جداً تتفق جرساً وتختلف معنى، كما نجد ألفاظاً تختلف في حروفها المتحركة أعني نشأة السجع. فهذه الصفة التي تمتاز بها العربية والتي تختصها بنغم واضح جلي تتطلب ولا شك قيام شعر مقفي أو نثر

مسجوع، فهذه الصفة خاصة بالعربية، والعروض العربي لا اليوناني ولا اللاتيني هو الذي أثر في الآداب الأوروبية والعالمية. وإذا كانت اللغات الجرمانية وعلى الأقل اللغة الألمانية لا تتفق والسجع، فإن اللغة العربية الشرقية نجحت في القضاء على منافساتها والإبقاء عليها سجيئة حتى أصبحت اليونانية وكأنها أجنبية بالنسبة للألمانية والألمان. لماذا يستخدم الشعراء الألمان اليوم الوزن (الهكساميتر) القديم؟ لماذا لا يقول الشاعر الألماني غزلاً في هذا الوزن القديم؟ لقد ظلت الترانيم الكنسية الدينية والأشعار الدنيوية زمناً طويلاً مرتدية ثوباً لاتينياً. ولماذا لم يستخدم الشعب الألماني عندما أخذ يقول الشعر العروض القديم لصياغة هذا الشعر؟ ولماذا فضل عليه العروض العربي؟ هل السبب هو الميل الشديد إلى النغم، وأن الشعر المقفى الذي يكسب الروح قوة وبقوة - وإن كان غير مفيد. يتفق واستعداد الشعب؟ أو هل كانت هي الحاجة الملحة إلى الموسيقى وليس التقطيع اللغوي للرومان أو الجمود الأجنبي اليوناني حيث يستعاض عنه بالنغم؟ من المؤكد أن أغاني «جوته» و«هينه» كانت شيئاً آخر غير تلك التي جاءتنا لو لم يقرر الذوق الشعبي فناً شعرياً آخر. والآن نتساءل: كيف بلغ السجع والنغم هذه المكانة العالمية؟ فأول عامل مؤثر جاء من صلوات اليهود في المعابد في القرن الأول الميلادي وذلك عن طريق بيزنطة والترانيم المسيحية القديمة والصلوات التي كانت تقام في الكنيسة الرومانية الشرقية في الشعر الديني اللاتيني في الكنيسة الرومانية الغربية التي كانت صدى للمؤثرات الشرقية. كما نجد رهباناً مصريين وسوريين وبعض البيزنطيين الذين هربوا إبان النزاع الذي قام حول الصور، قد أقاموا سداً منيعاً ضد هذا التيار في الأديرة الأوروبية. أما الباباوات المنحدرون من أصل شرقي ومعهم أنصارهم فقد حرصوا على ترك الطرق مفتوحة، فنجد الأوزان

العربية تستخدم إلى جانب الأوزان القديمة المتأخرة زمناً طويلاً، كذلك نجد نتيجة أخرى لذلك غير موزونة وغير منغمة. ومصدر هذه الظاهرة الشعر الديني. وظلت القافية نحو نصف قرن وأطول غير مطردة، لكن حوالي القرن الحادي عشر أخذت هذه الظاهرة تنتشر بفضل العوامل القوية التي دخلت عليها ودفعتها إلى الأمام. وفي إنجيل «أوتفريد» نجد السجع مستعملاً، وقد كان ذلك حوالي عام 860 م إذ يظهر للمرة الأولى في اللغة الشعبية وينافس غيره، لكن ظل زمناً طويلاً قبل أن يفرض نفسه. أما التيار الثاني الذي أثر في الشعر الأوربي فقد جاء عن طريق الشعر الغنائي العربي الصحراوي. وبغته وبدون تمهيد نجد أنفسنا حوالي القرن الخامس الميلادي أمام شعر كامل موزون مقفى، وهذه الظاهرة تدعو إلى الاستغراب حقاً فكيف نجدها في هذه الحالة عند شعب يحيا حياة البداوة والحرب، بعيداً عن مقومات الثقافة والمدنية، فإذا به يصل إلى خلق هذا الشعر الكامل ذي الجانب العظيم من الجمال، إنه شعر بلغ مرحلة من الجمال الفني لا تدانيها مرحلة، فهو شعر يعبر عن منتهى بلوغ أكبر مرحلة من مراحل الرقي الفكري. حقا إن لغة هذا الشعر تحمس العربي لفظاً ووزناً، لكن بينما نجد القافية في الشعر السرياني عبارة عن شيء فريد وحيد إذ بالعربي يستخدمها كعنصر أساسي في الشعر العربي، وكما هو الحال في الفن العربي من حيث الزخرفة كذلك القافية التي بها يتم البيت ويقفل، هذا إلى جانب الكيفية التي تستخدم بها فالشاعر العربي يكيفها بعدد لا يحصى من النغم وأبيات تسير على وتيرة واحدة وترتبط معاً برباط النغم. وهكذا نجد هذه اللغة العربية وما تخلقه من فن شعري تسترسل فيه الصور الشعرية والمشاعر الإنسانية كالأمواج تدفع الموجة الأخرى إلى اللانهائية، وقد تبلغ القصيدة مائة بيت وتكون وحدة في الروي ووحدة في العروض مثل

تلك التي قالها إمرؤ القيس في المطر، إمرؤ القيس الذي عاش قبل
مجيء الرسول بنحو خمسين سنة ومنها:

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض يجري وندر

ففي هذه القصيدة وهي الصورة الشعرية القديمة حيث تتكرر بها
الأنغام ويتكرر الروى أو القافية قدم العربي الصورة الصادقة حقاً للفن
العربي في زخرفة المساحات، وهذا الفن الشعري يعرف حتى اليوم
على أنه قديم. لكن المدارس الشعرية الحديثة كمدرسة أبي نواس في
بغداد، أو مدرسة الشاعر الأعمى الذي عاش في نهاية القرن التاسع
الميلادي في بلاط الأمويين في قرطبة، قد حطمت القيود القديمة للشعر
العربي والقصيدة العربية وجاءتنا بفنون أخرى جديدة. فالقصيدة مقسمة
إلى أدوار مستقلة في هيئة أغان مع تغيير وتنويع القافية مع الشيء
الكثير من البيان والبديع. فمثل هذه الفنون الجديدة أو هذا التطور في
القصيدة العربية ظهر في إيران على يد الفردوسي وعمر الخيام
وآخرين، وانتشر هذا الفن بسرعة ونقله وردده العرب في العالم
الإسلامي من قرطبة حتى قرى القوقاز ومن طوس ونيسابور في إيران
حتى نهر النيجر والجنج. لكن هذا الفن الشعري قد استقبلته أوربا
استقبالاً حسناً وحماسياً فشعراء التروبادور بزعمة الهرزوج «فلهم
التاسع فون أكويتانين» استخدموا هم والشعراء الغزاليون نغماً عربياً
وقافية عربية كما استخدموا الأدوار العربية والأوزان العربية
وخصائص أخرى من خصائص الشعراء الغنائيين الأندلسيين، وكذلك
مغني الدروب أعني المغني المتجول. ويتجلى هذا الأثر في صورة
واضحة جلية في الأغاني الدينية للملك ألفونس الحكيم الذي تأثر بلاطه
بالعرب الذين كانوا يحيون فيه أو بالعرب عامة، كما نجد هذا الأثر

العربي في مؤلفات «يوان رويز» كبير قساوسة «هيتا» الذي كان منغمساً في الحياة الإسلامية والتقاليد الإسلامية كما قال شعراً وأغاني راقصة لصدقاته بين المغنيات العربيات، كما نجد الأثر العربي في أغاني عيد الميلاد في اللغة اللاتينية وفي الأدوار الفرنسية والقصائد. أما في إيطاليا فالأثر العربي أشد وأقوى منه عند التروبادور، فهنا في إيطاليا نجد الأغنية العربية تجد معجبين كثيرين وبخاصة في الحياة والترانيم الدينية كما هو مشاهد عند القديس «فرنس فون أسيسي» والفرنسيسكاني «فراجا كابوني دا تودي» الذي كان معاصراً لدانتي كما في «دولش ستيل نوفو»، وعند دانتي نفسه. وأشد ما يكون الشعر العربي أثراً في الشعر الشعبي في «أومبريان» و «توسكانا» والبندقية. فمن الأوزان العربية نشأ الفن المعروف باسم «مدرجال» العلماني وحتى «لو رينسو ده مديشي» و «مكيافل» قالوا الشعر في أوزان عربية. وعلاوة على ذلك نجد العرب في صقلية يؤثرون في الأغاني الشعبية أثراً بليغاً ما زلنا حتى اليوم نجده في إيطاليا، كما أثر العرب في النوع المعروف باسم «سونيت» في شمال إيطاليا. وحيث يقال الشعر في مختلف أجزاء الدولة العربية نجد اللغة العربية والأسلوب العربي كما هما عند البدو، لذلك كان العرب يرسلون أولادهم إلى البادية ليتلقنوا عليهم اللغة العربية الخالصة لغة الشعر الفصيح ولو أن أولئك العرب البدو قد خرجوا من بلادهم وانسابوا في العالم واختلطوا مع شعوب وأجناس أخرى، فإن الشعر العربي ظل محتفظاً بخصائصه ولغته في مختلف تلك الأقطار التي انتشر فيها العرب.

والشعر العربي شعر غنائي يعبر عادة عن مشاعر شخصية وانطباعات الشاعر نفسه فالقصيدة والحالة هذه عبارة عن عقد من اللآلئ، كما أن الغناء هو الفن السائد في الشعر كما هو الحال اليوم في

أوربا، وكما أن الملحمة آخذة في الزوال تدريجياً. واللغة تؤثر تأثيراً منتجاً سواء كانت نثراً أو شعراً، ومن هنا نجد الثروة اللغوية العربية غنية جداً، فقد يعبر البدوي أو المحارب عن أدق المعاني الإنسانية والمشاعر عن طريقها، بخلاف اللغة الألمانية فهي فقيرة في مفرداتها الموجودة تحت تصرف الشاعر الألماني، وهي المفردات التي يستخدمها عند وصف شيء بعينه من زواياه المختلفة، بينما نجد ساكن الصحراء بنظره الثاقب وقوة مشاهدته والصبر على التأمل، فضلاً عن صفاته التي يمتاز بها، ولو أنها في عالم الماديات تجعل عالمه محدوداً يتسع هذا العالم أمام إدراكه التنبئي الذي يتميز به وجهه ونظراته التي تتجلى لنا من عينيه. كل هذه الخصائص تترك أثراً في الرمل وصرخة في الليل وعبيراً وجرساً، وهنا ندرك السرور عند بلوغ الهدف والتعبير عن غرضه التعبير الصادق. ولكي نصور قوة اللغة في التعبير عن الصور تعبيراً دقيقاً نذكر لامية الشنفرى، وهذا شاعر جاهلي، والشنفرى هنا ثائر على الناس وعلى الله؛ لذلك فهو يهرب إلى حيث الوحوش الضارية والذئاب والضياع فيتخذ منها أصدقاء له. ومن فرط إعجاب الشعب بهذه اللامية ضمها إلى المعلمات هذه القصائد التي تعتبر من مفاخر الشعر الجاهلي فأجازها وأجاز قائلها. كذلك لنقرأ القرآن الكريم حيث نلمس قوة اللغة وجمال الأسلوب وفصاحته: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5)} [العاديات: 1 - 5]. أو قوله تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُحْضِرَتْ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَّارِ الْكُنَّسِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ

وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ { [التكوير: 1 - 19]. وما جاءنا في الشعر العربي خاصاً بالحيوانات العزيزة لديهم كثير جداً، كهذا الوصف الجميل في الفرس ومنه:

غدونا بضاف كالعسيب مجلل طويناه حيناً فهو شرب ملوح

ولم يقف الشعر عند هذا بل نجد الأندلسي يصف قوسه وصفاً دقيقاً حياً، كما يعرض ابن شرف لطلوع الشمس فيصورها كما صورها الشاعر الألماني «موريكه». إن الخيال العربي لا يعرف حدوداً، فهو عوضاً عن أن يصف الأشياء من ظاهرها يبعث فيها الحياة والحركة فكل زهرة تتفتح في الظلام وتفتح فاها باحثة عن ضرع السحابة لتشرب. ثم نجد الشاعر ينتقل من صورة إلى أخرى، فهو يقول إن يدي الربيع قد شيدتا أبراج زهرة الزنزلخت على سيقان عالية، وإنها لأبراج ذوات مجار فضية. وهكذا نجد العربي يخلق فناً مختلف الألوان يأخذ بالأبصار ويبدو وكأنه أغنية من أغاني الشاعر «موريكه»، ثم نجد انعكاسات شاطئ الوادي الكبير تصور وكأنها معركة تدور رحاها بين الزهور والماء. إن الموضوعات التي يعالجها هذا الشعر تشبه النفس البشرية فجميع النغمات تعبر عن الأحزان والكآبة والشكوك التي تودي بصاحبها، كما نجد فيها البعض العنيف والحزن العميق والحب الصارخ، هذا جميعه نجده مثلاً في قصيدة شاعر مثل ابن خفاجة كما نجد شعراً أكثر مرحاً كما هو الحال مع ابن الأبار. ويقال إن الخليفة المعتضد لما دب إليه المرض وأحس بقرب منينه استدعى مغنياً يغنيه ليجعل أول ما يبدأ به فألاً، فأول ما غني قصيدة ابن الأبار هذه وفيها:

نطوى الليالي علماً أن ستطوينا فشعشعها بماء المزن واسقينا

فتطير من ذلك ولم يعش بعدها سوى خمسة أيام وقد خلفه ابنهالمعتمد زوج اعتماد أو رميكة كما كانت تسمى نفسها، وقد ظل جالساً على العرش رغماً من تلبد الجو بالغيوم السياسية زهاء اثنين وعشرين عاماً كانت كلها أيام سعادة وعزة، وقد أحبه العرب حبا لم يمنحوه إلا للقليلين من أمرائهم، وكان المعتمد معاصراً لكل من «هينريش الرابع» و «جريجور السابع» و «وليم الفاتح» والجراف «روجير» الأول في صقلية. وكان المعتمد كما يروى ابن خلكان أكرم وأحسن وأشجع أمير إسباني، كما كان قصره مزار المسافرين وملقى العبقریات والكعبة التي تتجه إليها آمال القوم وأمانهم. وكان يعيش معه في قصره طبيبه الخاص أبو العلاء بن زهر وهو الثالث من الأسرة الإشبيلية التي اشتهرت بالطب وهي تنتمي إلى قبيلة إباد، هذه القبيلة العربية القديمة، وقد اشتهر ابن زهر هذا بالطب والفلسفة واعتاد أن يكتب بطاقة وصف العلاج على جذاذات قطعها من أسطوانة سميكة أهداها إليه تاجر عراقي ولم تكن إلا قانون ابن سينا، وكانت هذه هي النسخة الأولى التي وصلت إلى الأندلس. وطبيب المعتمد كان والد الطبيب والفيلسوف الشهير ابن زهر وجد طبيب آخر اشتهر كذلك بالشعر فخرج هذا الحفيد ابن زهر من إشبيلية إلى قصر حاكم مراكش فحدث في أحد الأيام أن بعض أشعار هذا الطبيب الخاص بالسلطان قد وقعت في يده، وفي هذه الأبيات يشكو ابن زهر حنينه إلى ابنه فتأثر السلطان أثراً بليغاً واستدعى سراً أسرة ابن زهر من إسبانيا ورفع لابن زهر مرتبه. وفي بلاط الأسرة العبادية بإشبيلية عاش أيضاً شاعر عظيم بل من أعظم الشعراء العرب، ألا وهو ابن زيدون حيث اتخذ من قصرهم ملجأ له، وكان له ابن وزير للمعتمد،

خلفاً للصدیق والوزیر الأول ابن عمار أكثر الرجال نفوذاً في القصر، كما أن المعتمد استمد اسمه من اسم حبيبته اعتماد. وهكذا نجد الشاعر ابن زيدون يجعل من اسم ابنه الوليد نصباً للحب، هذا الحب الذي أضناه وأشقاه طوال حياته. وقد حمل هو أثر هذا الشقاء حيث تسمى: أبا الوليد بن زيدون. وابن زيدون من أشهر عائلات قرطبة والسيدة التي اقترن حظه بها هي الأميرة الأموية الجميلة الشاعرة الشهيرة «ولادة» التي كانت موضع تقدير سائر رجال قرطبة. وكان يحسده ويحقد عليه وزير ابن جهور، لذلك عكر على ابن زيدون حبه وحياته من زوجه حتى انتهت بمأساة، فقد وشى هذا الحاسد بهذا الشاعر الممتاز الذي كان قد وقع عليه الاختيار والذي كان يتبوأ مركزاً ممتازاً في الإدارة والسياسة، وشى به لدى حاكم قرطبة وشاية سياسية. فوجه ابن زيدون إلى خصمه خطاباً فيه الكثير من التورية السياسية والعبارات القوية حتى جعل خصمه سخرية الجميع، كما رفع مكانته هو الأدبية، لكنه فقد عطف رئيسه فزج به في السجن. ولما لم يجد مفرأً من رئيسه صاحب القوة والسلطان هرب ابن زيدون طالب الخلاص، وظل كذلك زمناً طويلاً، لكن حبه الشديد لولادة كان يضطره إلى المجازفة بحياته والاقتراب من قرطبة. ففي خرائب قلعة الصخرة الأموية العظيمة التي هدمها البربر وخربوها، وحيث الآن ينقع البوم، كان ابن زيدون يرسل من هناك أشواقه إلى حبيبته التي أحبها كثيراً وخلد هذا الحب في كثير من قصائده. وانتهى بابن زيدون المطاف إلى قصر ملك إشبيلية حيث تمكن قبل وفاته من خدمة المعتمد عند فتح قرطبة. وقد انضم إلى عقد أولئك الشعراء شعراء آخرون صقليون تركوا صقلية لما سقطت في يد النورمان ومنهم «أبو العرب» و «ابن حمديس» وكان النجم المتألق في هذا العقد الملك الشاعر المعتمد فقد جذبت شاعريته الكثيرين وتفوقت

عليهم، وقد اشتهر المعتمد كذلك بالشعر الغرامي الغزلي فتغزل في «رميكة» فوصف نفسه بأنه عبد الجميلات الفاتنات، وقد أفرد كثيراً من غزلياته في وصفهن ووصف جمالهن وكان شعره كأنه قد صيغ من أحجار كريمة تضيء كالبلور والماس. وشعره يبين الروح العربية وطبيعتها الرشيدة الرقيقة، وهذا ما جعل منه شاعراً فحلاً. ثم جاء المسيحيون طامعين في الاستيلاء على الأندلس، لذلك سارع الأمراء الأندلسيون واستدعوا يوسف الحاكم البربري لمراكش ليساهم تحت إمرة المعتمد في رد المسيحيين فنشبت معركة بين المسلمين والمسيحيين أبلى فيها المعتمد بلاءً حسناً، كما حارب حرب الأبطال المغاوير وهزم المسيحيين شر هزيمة. ورجع يوسف إلى مراكش «وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد» كما يقول المراكشي، وقال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه: «كنت أظن أنني قد ملكت شيئاً، فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي، فكيف الحال في تحصيلها». ورأى أصحابه أن يشيروا عليه برأي يجعل الاستيلاء عليها ميسوراً إلى حد كبير، وأغلب الظن أنهم كانوا مثله يطمعون في امتلاكها فسير حملة واستولى عليها.

ويعصف الفتح المعتمد يوم سقوط إشبيلية في يد المرابطين بقوله: «ولما انتشر الداخلون في البلد وأوهنوا القوى والجلد، ويتوقد عند انتضائه، فلقبهم في رحبة القصر، وقد ضاق بهم فضاؤها، وتضعضت من رحبتهم أعضاؤها، فحمل فيهم حملة صيرتها فرقا، وملاّتهم فرقا، وما زال يوالى عليهم الكر، حتى أوردتهم النهر، وما بهم جواد، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاب ماله، وذهاب ملكه وارتحاله، وعاد إلى قصره واستمسك به يومه وليلته مانعاً لحوزته، دافعاً للذل من عزته، وقد عزم على أفضع أمر، وقال بيدي لا بيد عمرو، ثم صرف تقاه، عما كان نواه، فنزل من القصر بالقصر، إلى قبة الأسر،

فقيد للحين، وحان له يوم شر ما ظن أنه يحين، ولما قيدت قدماه، وبعدت عنه رقبة الكبة ورحماه قال يخاطبه: تبدلت من عز ظل البنود ... بذل الحديد وثقل القيود وبعد أن كبّله يوسف نقله وأسرته في سفينة فبكاه شعبه على ضفاف الوادي الكبير ولطم النساء وجوههن، ونقل المعتمد وأسرته من طنجة إلى مكناس جنوباً حتى «أغامت»، ومن ثم عزل عن باقي أفراد أسرته ليمضي حياته في السجن. وهكذا نجد المعتمد يقضي آخر سنى حياته في البؤس والشقاء، وإن أصبح شاعراً مفلقاً بل أعظم شاعر أندلسي، وتوفي ووري اللحد كسير النفس شقى الفؤاد بعد أن رثى نفسه قبل وفاته بكثير من المراثي التي تعتبر من أشهر ما قيل في هذا الفن سواء في الجاهلية أو الإسلام. فقد ظل في السجن خمس سنوات قاسي فيها ويلات الذل والسجن والمرض وفي عام 1095 ترك الحياة وهو ابن خمس وخمسين سنة، ودفن إلى جانب «رميكة» في «أغامت». وفي أوائل القرن الثاني عشر خرج رجل من إشبيلية مخترقاً الصحراء العربية فلقى ترحيباً عظيماً من أفراد قبيلة لحم. وفي إحدى الليالي أصابه أرق فخرج من خيمته وأخذ يتطلع إلى السماء المليئة بالنجوم ورأى في القمر الوضاء ما ذكره بسيد السابك فأخذ يردد بعض الأشعار. وفي هذه اللحظة فتح باب الخيمة التي كان فيها وخرج منها رئيس القبيلة وسأله: لمن هذه الأشعار الواضحة كالنهر العذبة كالمرج الذي سقاه ماء المطر؟ إنها أشعار حلوة كصوت الغانية وقد حلت عنقها بقلادة من الذهب. إنها أشعار قوية لها رنين يشبه صوت البعير. وحكم البدرى على اللغة يعتد به كمرجع من مراجع جودة اللغة والشعر وهو حكم يغاير حكم سكان المدن. فأجاب الرجل الإشبيلي أنه لملك ملك على وطنه من العباديين ومن قبيلة اللخمين، فامتأ رئيس القبيلة فخاراً وعجباً إذ اكتشف ماثرة أخرى من مآثر قبيلته فنادى الشيخ أفراد قبيلته

وأخبرهم ما يشرفهم أن شاعراً عظيماً قد ظهر منهم. وهكذا نجد الأشبيلي يقص على كل القبيلة خبر ملكه الشاعر العظيم الكريم الذي كان فارساً عظيماً لا يخاف الموت ولا يخشاه، وأميراً كريماً لا يجاري في كرمه، ولما انتهى من الخبر امتطى البدو الخيل فرحين فخورين ليحتفلوا بهذا الخبر فاهتزت الأرض تحت أقدامهم تحية للملك الشاعر وهو من قبيلتهم؛ وبعد ذلك بمائتين وخمسين عاماً رحل حاج مخترقاً مراکش وكان وزير ملك غرناطة، وهذا الحاج هو ابن الخطيب الطبيب ومكتشف وباء الطاعون فأدى به طريقه إلى «أغمات، إلى قبر المعتمد واعتماد، وذلك في سفح تل تكسوه زهرة اللوتس وعندما وقف أمام القبور المهمة الموحشة وعيناه تذرفان الدموع ارتجل أبياتاً منها:

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات

وذيل الكتاب بقوله إنه سيعود إليها «إن شاء الله ربي» أو شاء ابنعمار. ولما علم ابن عمار بالأمر وجه إليه أبياتاً منها:

مولاي عندي لما تهوى مساعدة كما يتابع خطف البارق الساري

والمعتمد يعرف تماماً أن الصديق يدرك تماماً الإدراك مدى حبه لاعتماد، وأن هذا الحب جعل منه عبداً لاعتماد. وبالرغم من أنها لم تكن مثقفة ثقافة عالية أو تربت تربية خاصة إلا أنها سحرته وقد ملك كل ما فيها قلبه. إنها ذكية نبيلة وشاعرة موهوبة، هذا فضلاً عن مرحها وطفولتها وما يبدو منها أحياناً من دلع ودلال. ففي أحد أيام شهر فبراير شاهدتها تبكي في أحد نوافذ القصر وهي تشاهد الثلج يتساقط من السماء فسألها المعتمد عن سبب بكائها فأجابته: «إنك طاغية جبار غشوم، انظر

إلى جمال ندف الثلوج البارقة اللينة العالقة بغصون الأشجار، وأنت أيها الناكِر للجميل لا يخطر ببالك أن توفر لي مثل هذا المنظر الجميل كل شتاء ولا تصحبني إلى بلد يتساقط فيه الثلج في الشتاء» فسارع المعتمد وجفف دموعها قائلاً: «لا تحزني ولا تستسلمي لليأس يا سلوة النفس ومنية القلب فإني أعدك وعداً صادقاً أنك سترين هذا المنظر الذي أدخل على قلبك السرور كل شتاء، وأمر بزرع أشجار اللوز على جبل قرطبة حتى إذا نور زهره بدت الأشجار وكأنها محملة بقطع الثلج الناصعة البياض. ومن مشهور أخبارها مع المعتمد القصة المعروفة في قولها: «ولا يوم الطين»، وذلك أنها رأت الناس يمشون في الطين فاشتتت المشي فيه فأمر المعتمد فسحقت أشياء من الطيب وذرت في ساحة القصر حتى عمته ثم نصبت الغرابيل وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب وعجنت بالأيدي حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريتها، وغاضبها في بعض الأيام فأقسمت أنها لم تر منه خيراً قط فقال لها: «ولا يوم الطين» فاستحييت واعتذرت. وكان المعتمد متيماً باعتماد لا يتردد في الركوع أمامها واسترضائها، لم يكن يهمه أنها كانت فتاة من الشعب، وأنها ولدت في أفقر الأحياء بينما ولد هو في قصر، كذلك كان حال الحاكم الأموي «الحكم الأول» حوالي عام 800 م حيث كان أميراً على الأندلس. فبالرغم من قسوته وجبروته كان أمام جميلات قصره ضعيفاً كالأسير الذليل، كذلك كان في شرق العالم الإسلامي الخليفة هارون الرشيد وخليفة قرطبة سليمان حفيد عبد الرحمن الأكبر. إن الشعب العربي شعب شعراء وغزلياته لم تكن رياء ونفاقاً بل حقيقة تعبر عن شعور حقيقي، وإن الضعف أمام الحبيبة لم يكن أقل من الخضوع والتوسل إلى الله وإن صلة الإنسان بحبيبته لم تكن تخالف صلته بخالقه. إن العربي في صحرائه التي لا تعرف إلا اللانهاية كان يدرك تفاهته

بالنسبة للبيئة التي يعيش فيها وضعف قواه وإرادته، كما يؤمن بأن وجوده يتوقف على إرادة القوى العظيم، لذلك وصف الله بأنه الرحمن الرحيم، وهاتان هما أهم صفاته، ولن يستطيع إنسان بلوغ رحمة الله إلا عن طريق التواضع والاستسلام له، لذلك كان المسلمون الحقيقيون هم «المسلمين» وعن طريق التواضع يفرق بين المؤمن وغير المؤمن. الإسلام هو الاستسلام لله وإرادته وأن يصير الإنسان عبداً لله. فهذه الصفات التي يتصف بها الحب الإلهي، انعكست على الشعر العربي الغزلي، وهذه الظاهرة ندركها حتى في الغزل الجاهلي. ولعل من أقدم وأنبأ أنواع الحب والغزل ذلك النوع المعروف باسم الحب العذري نسبة إلى قبيلة بني عذرة الذين يموتون عندما يحبون. وهذا النوع قد يشبه الحب الأفلاطوني عند اليونان، وكان لهذا الحب الأفلاطوني في أوربا الأوقات الخاصة وذلك عندما يجد العرب نوعاً من الحب الذي يتحكم فيه العقل، وقد انتشر على طول حدود العالم الإسلامي حيث انتشر هذا الحب العذري، فنجد أمثال جميل بثينة يغني في الحب أي حب بثينة، حيث يعتقد أنها له وأنه لها منذ أول الخليقة، وهي فكرة تذكرنا بحب «جوته» للسيدة «فون شتين». إلا أن المحبين لا يتغلب كل منهما على قبيلته والموقف العدائي لكل قبيلة من الأخرى. لكن حبه يقضى على الزمان والمكان، إنه حب قوي عنيف إلا أنه بالرغم من ذلك فنوع متواضع حيث يتوسل إلى حبيبته التي لا ينالها معتقداً أنها له ولا لشيء أرى حتى الموت يربطه ويتصل به أو يقضي على هذا الحب. وهناك نوع آخر من الحب هو ذلك الذي نجده بين الحارث بن عوف شيخ قبيلة مرة وبين بهيسة، وبالرغم من قوة الحارث كان يضعف ويخضع لحبيبته التي كانت في حين لآخر تريد أن تفرض عليه إرادتها وقوتها. نجد هذا النوع من الحب العذري حب جميل نجده عند عباس ابن الأحنف في

قصر هارون الرشيد لإحدى جوارى هارون الرشيد مثلها مثل عباس بن الأحنف ذاته، إلا أنها تتفوق عليه لجمالها وعفتها؛ لذلك قال إذا عبد إنسان كائناً لجمالها فملكتي يجب أن تكون إلهاً. وبالرغم من أنها جارية عادية فإنه كان يقدسها كما لو أنها كائن سماوي رحمته أو قست عليه، وكما أن المسلم عبدالله فهو عبدها المخلص الأمين. وكانت الحبيبة تسيطر على فؤاده، واستسلامه لها هو الذي يرفعه ويسمو به. أما «أوفيد» العرب في الغزل فهو على بن حزم (994 - 1064) ولو أنه أصلاً من أسرة غوطية عربية اعتنق الجيل الرابع منها الإسلام، وكان يعيش عيشة عربية وتزوج عربية وتقلد أسمى المناصب في بلاط قرطبة، ويدعى العرب أنه زور في نسبه، وأنه يقول إنه انحدر من مولى أعتقه الخلفاء الأمويون في دمشق. ومثل هذه الأخبار ليست نادرة، لكن النادر حقاً أن دخيلاً على العرب تتقمصه الروح العربية والعقلية العربية مثل ابن حزم، هذا الشاعر الغزلي العذري وإلى جانب ذلك كان فيلسوفاً وصوفياً، ففي كتابه الشهير حول الحب نظرياً وعملياً، والمعروف باسم «طوق الحمامة» يعترف بأن الاستسلام للحبيب موقف يعجز الوصف عن تصويره، وتخرس الألسنة عن التعبير عنه كما سبق أن تبينا هذا من عباراته وشعره. فهذا الحب العذري نجده أيضاً في الأندلس وقد عبر عنه ابن حزم بقوله: «ثم هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب، وهذا فيه بعض الشدة لكن فرحة الرجعة وسرور الرضى يعدل ما مضى، فإن لرضى المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لا تعدلها لذة وموقفاً من الروح لا يفوقه شيء من أسباب الدنيا، وهل شاهد مشاهد أو رأت عين أو قام في فكر ألد وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب وبعد عنه كل بغيض وغاب عنه كل واش واجتمع فيه محبان قد تصارما لذنب وقع من المحب منهما وطال ذلك قليلاً وبدأ بعض الهجر ولم يكن

ثم مانع من الإطالة للحديث فابتدأ الحب في الاعتذار والخضوع والتذلل والأدلة بحجته الواضحة من الإدلال والإذلال والتذمم بما سلف فطوراً يدلّ ببراءته وطوراً يرد بالعفو ويستدعي المغفرة ويقر بالذنب ولا ذنب له، والمحبوب في كل ذلك ناظر إلى الأرض يسارقه اللّحظ الخفي، وربما أدامه فيه ثم يبسم مخفياً لتبسمه وذلك علامة الرضى، ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر ويقبل القول. وامتحت ذنوب النقل وذهبت آثار السخط ووقع الجواب بنعم وذنوب مغفور، ولو كان فكيف ولا ذنب وختما أمرهما بالوصل الممكن وسقوط العتاب والإسعاد وتفرقا على هذا. هذا مكان تتقاصر دونه الصفات وتتلكن بتحديدته الألسنة. ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء وانبساط مدبري الدول، فما رأيت أشد تبجهاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ووثق بميله إليه وصحة مودته له. وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء، ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع، وفي الثانية أذل من الرداء وألين من القطن أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع وأغتتم فرصة الخضوع لو نجح وأتحلل بلساني فأغمض على دقائق المعاني بيباني وأفنن القول فنوناً وأتصدى لكل ما يوجب الترضي». وأقوى من هذا ويتفق لفظاً وتصويراً عرض المرأة المثالية التي ترتفع حتى تبلغ مستوى الآلهة بين «دانتي» وابن عربي (1165 - 1240). وليس صدفة أن هذا الصوفي الأندلسي من مرسية الذي كان معاصراً

لفريدريش الثاني، والذي عاش مائة عام سبقت الشاعر الإيطالي اللاهوتي، قد اقتبس «دانتي» الشيء الكثير من مؤلفاته فحب «دانتي» «باتريس» أخذ يتطور في عقلته حتى جاء بها إلى الجنة، ومن ثم أخذ ينتقل من مرحلة إلى أخرى، فصوره مأخوذة عن ابن عربي، بل حتى بباتريس لها سابقاتها وهي الجميلة «نظام» ابنة ابن رستم في مكة فقد اتخذها مصدر وحيه الشعر في ديوانه، إنها معقد آماله ومصدر تفكيره وإن كل اسم اختاره يشير إليها وكل بيت في الرثاء لها إلا أنه كان يذكر دائماً أن الله هو مصدر الوحي والإلهام لأنه يجب على الإنسان أن يؤثر الأجلة على العاجلة، وقد اقحم شراح بن عربي وخصومه في شعره الصوفي ما قاله في نظام، ويعبر حقيقة عن حبه العذري الظاهر كما فعل «دانتي» فيما بعد. فالرفع من مكانة المرأة العربية والسمو بها إلى مكانة قريبة من الذات الإلهية دليل قوي بالرغم من انتشار نظام الحريم على مكانتها الحرة في المجتمع. فالنساء الأندلسيات كن يتمتعن بقسط وافر من المساواة وكن يساوين الرجال كما كان لهن حظ وافر من الحرية والعمل في المجتمعات سواء كن من السيدات أو فتيات عاديّات بل حتى الجوّاري كن بفضل هذه الحرية التي يتمتعن بها يتساوين مع الرجال في الحياة العامة. فقد شاركنهم الحياة العقلية فألفن كتب علمية كما قلن الشعر وكتبن النثر وألقين الخطب وتفنن في مختلف فنون الشعر حتى الغزل فعبرن عن حبهن وكن وحالهن هكذا يشبهن تماماً الجاهليات. وقد جاءتنا أخبار ستين سيدة اشتهرن بقول الشعر، كما وصلنا ديوان كامل لشاعرة من الشاعرات الشهيرات. والتاريخ الأندلسي يعرف أسماء شاعرات عديدات بلغن في قولهن الشعر صيئاً بعيداً، ومن بينهن هذه الجميلة التي نبغت في إجادة الشعر والعزف على العود. وكذلك الشاعرة العظيمة حفصة التي اشتهرت بحبها للشاعر أبي جعفر وذاع صيتها

وصيت هذا الحب في جميع أنحاء الأندلس. ثم نجد الأميرة «أمر الكرام» والمغنية التي غنت أمير الأندلس الولهان المسمى المنصور حيث أبانت عن حبها دون خجل لوزيره، ولما أدركت غيرته عليها وغضبه انتقدت نفسها ببيت شعر. ومن بين شهيرات الشاعرات الأميرة «ولادة» وقد ذكر عنها عربي أنها كانت أول عربية سيدة في عصرها فقد كانت سافرة تحتقر الحجاب فضلاً عن طبيعتها الملتهبة، وكانت هذه خير وسيلة تظهر فيها طبيعتها وطبائعها الظاهرة والخافية، فضلاً عن جمال وجهها وحميد أخلاقها وصفاتها، وقد كان بيتها في قرطبة ملتقى الأشراف الذين كانوا يتنافسون في إنشاد الشعر، كما قصده العلماء والكتاب واشتهرت بالكرم وحسن الأخلاق وحدة الذهن. تحت رعاية مثل هذه الأدبية الشاعرة انتشر الشعر العربي الغزلي الأندلسي فتخطى الحدود إلى أوروبا، وإلى مثل هذه السيدة وجه الصوفي ابن الفارض غزله وشعره وقصيدته التي مطلعها:

ته دلالاً فأنت أهل لذاكا وتحكم فالحسن قد أعطاك

إن أوروبا لم تعرف في تاريخها مثل هؤلاء الناس. لم يظهر في أوروبا شاعر عبر عن حبه بهذه الطريقة، لم تعرف أوروبا محباً ركع أمام حبيبته وسجد على أعتابها راجياً رضاها. لم يسلك هذا المسلك أمثال «أنا كريون» أو «ثيوكريت» أو «سافو» أو «أفلاطون»، فهؤلاء لم يعرفوا الخضوع والخشوع أمام هذه الحبيبة التي تتمتع بهذا الحب الإلهي. هذه الحبيبة التي تتوقف الحياة أو الموت عليها. كذلك لم يعرف «أوفيد» بالرغم من أنه كان أستاذ الشعر الغرامي هذا النوع العربي. وكذلك الحال مع الشعراء الجرمان وتقديمهم للمرأة، فقد كان يعتمد على المساواة بين الرجل والمرأة أو احتقار ابنة حواء الخاطئة، فكيف حدث

أن ظهر في جنوب فرنسا أولاً الهر زوج فلهم التاسع هر زوج (إكريتانيين وبواتييه) ومعه بغة جيش من المغنين يغنون أغاني تدل على أنهم العبيد المخلصون والخدم الأوفياء للسيدة، وأنهم بخضوعهم وتواضعهم وطاعتهم يبلغون عطف السيدة ولو أنها في الحقيقة كائن غير ذي شخصية؟ إن المرأة قد خضعت لقوة الرجل ربما بسبب خطيئتها، والكنيسة تحتقر المرأة لأن احترامها يتعارض والذات الإلهية وبخاصة الزوجة ليست هذه التي لم يصبها العار عار اتصالها برجل بل هي عذراء، فالآن أصبحت وللمرة الأولى تخاطب وتعامل وكأنها كائن سماوي قريب من الله أو شبيهة به بل كناية عن الله بل يصلي لها وكأنها إله فهي تخاطب بعبارة «السيدة المحترمة» «الرحيمة» «العطوف» وهي التي تمنح الرحمة للفارس المتواضع، وحتى الشعر الديني كان يخاطب «أم الله على أنها الخادمة المطبوعة والخادمة السيد». بدأت النظرة إليها تتغير فأصبحت تخاطب بعبارة «الحبيبة، السيدة الوقور» وهي التي يجثو تحت قدميها العظماء وبعطفها يرتفع مقدارهم. فهذه الفكرة أخذت تنتشر مثل الزوبعة أو الإعصار في المجتمعات الموجودة في الأقاليم ومنها إلى مختلف أرجاء فرنسا وإيطاليا فصقلية فالنمسا وألمانيا. إن الألفاظ أصبحت كأوراق الشجر تشبه في عروضها وقافيتها أصولها العربية، وفي أول العهد كانت عادة إخفاء اسم الحبيبة سائدة كما هو الحال عند عباس بن الأحنف، ويعوض عن اسمها باسم آخر مصطنع، وقد يكون اسم ذكر كما نجد كثيراً من مميزات الشعر العربي الغنائي. لكن يجب أن نذكر هنا أن الشيء الأصيل عند العربي أصبح هنا في أوربا شيئاً مستحدثاً فعندما يؤكد التروبادور أنه لا يوجد شيء يسعده مثل صيرورته في قبضتها وتحت سلطانها وأن يصير عبداً لها، تعتبر مثل هذه التعبيرات عبارة عن ألفاظ شعرية فقط، وذلك لأن مكانه

قائلها كفارس أو سيد لا تقل اجتماعيا عن زوجها فهي عبارة من عبارات الآداب التي تستخدم عادة بين الرجال والنساء في المجتمعات. أما الخضوع العربي فما هو إلا نصائح كنصائح «أوفيد» وهي عرض خدمات النساء أو إظهار التقدير لهن بخلاف الحال في أوربا حيث تعتبر هذه المعاملة من مقومات المجتمع بين الرجال والنساء. وقد اهتمدى العالم «بورداخ» إلى أن الشعر الغزلي الغنائي الأندلسي هو أصل الأوربي، وهذا الرأي ما زال إلى يومنا قائماً. ومثل هذا الفن الأدبي العربي يمثل الثروات العقلية الأخرى التي وجدت طريقها إلى أوربا. وموقع الأندلس جغرافياً وسياسياً ساعدها على القيام بهذه الرسالة.

المسالك في أوربا

إن مقدرة ملك قسطنطين وليون على لعبة الشطرنج يعتبرها ابن عمار، صديق المعتمد ووزيره الأول، شيئاً بدها، وذلك بسبب كثرة الاتصالات بين الملوك المسلمين والمسيحيين وجرأة «ألفونس» السادس على اللعب قد اكتسبها من زيارته المتعددة لقصر الكافر العنة الله عليه» (! !) إلا أن هزيمته أمام العربي كانت شيئاً طبيعياً، فالعربي ماهر جداً في لعبة الشطرنج العربية وهذا شيء بدهي ومؤكد حتى كان في استطاعته أن يراهن بمملكة إشبيلية، وقد خسر ألفونس السادس ملك قسطنطين وليون اللعبة، وهكذا أنقذت دولة المعتمد مرة أخرى ليس عن طريق السلاح بل بالعقل، وهكذا ترك ابن عمار خيمة العدو وخلفه خدمه يحملون لوح الشطرنج عائداً إلى داره منتصراً. فقال باحتقار: نصف عربي! لقد اعتاد الإنسان أن يشاهد عربياً عند الجيران المسيحيين بعد أن أغلق المسيحيون دورهم في وجه العرب في القرن الأول من دخول المسلمين

الأندلس، تعصباً منهم ضد العرب والمسلمين لكن لم يمض زمن طويل حتى تغيرت الأوضاع وتلاشى التعصب المسيحي ضد المسلمين؛ وذلك بسبب المنازعات الداخلية واحتياج كل إلى مساعدة خارجية، وإلى من سيلجأ أحدهم إذا ما فقد عرشه واضطر إلى ترك بلاده؟ ومن يساعد ذلك الذي فقد تاجه في سبيل استرداده؟ لذلك اضطر المسيحيون في نهاية الأمر إلى عقد محالفات مع المسلمين. ولا ينسى اليوم الذي نجد فيه السيدة الشجاعة «توتا فون نافارا» الملكة الأم ومعها ابنها الملك «جارسيا» والملك العظيم الجسم «سنخو فون ليون» الذي فقد عرشه بسبب جسمه السمين جداً المريض. يقصدون قصر الخليفة، هذا القصر العظيم جداً والمعروف باسم الصخرة، وألقى هذا الملك بنفسه تحت أقدام عبدالرحمن يرجوه مساعدته عسكرياً وأن يقدم له طبيباً، وهذا الطبيب يجب أن يكون الوحيد في فنه وفي قرطبة. ثم نجد كيف أن «سنخو» قد شفى وأصبح نحيفاً ونجح في طرد مغتصب عرشه وهو «أوردوجنو» الرابع، وأن الأخير لجأ إلى الحكم الثاني راجياً مساعدته وقد تزيا بزي عربي حتى إن الإنسان لا يفرق بينه وبين عربي، وحدث أن عبيد الله بن قاسم كبير أساقفة طليطلة والوليد بن خيسران قاضى المسيحيين في قرطبة قد التقيا من قبل بالملك المخلوع «أوردوجنو» في دار الضيافة الملكية وعلماء التقاليد العربية الملكية وكلاهما كانا يلبسان لباساً عربياً من غطاء الرأس حتى القدمين، وكذلك كان يتسميان بأسماء عربية وكانا يعطان من الإنجيل وفي لغة عربية، إذ إن الإنجيل كان عبارة عن ترجمة عربية قام بها رئيس الأساقفة «يوحنا الأشبيلي»، كما كان أولئك يجيدون الغناء العربي، ولم يجد أحد من المسيحيين في هذا عيباً، وبعد مائة عام من ذلك التاريخ نجد أسقف قرطبة المسمى «ألفارو» يشكو من أن كثيرين من أبناء عقيدته يقرأون أشعار وقصص العرب، كما

يدرسون كتب رجال الدين المسلمين وكذلك كتب فلاسفتهم ليس لنقدها والرد عليها بل لدراستها وحفظها ولكي يتمكنوا من الحديث في عربية فصحي. وأين يوجد الآن الشخص الذي يستطيع فهم وقراءة التفاسير اللاتينية للكتاب المقدس من غير رجال الكنيسة؟ من منهم يدرس الأنجيل والأنبياء والرسل؟ آه إن جميع شباب المسيحيين وبخاصة الأذكيا لا يعرفونها بعكس اللغة العربية التي يجيدونها. كما يلتهمون العلوم العربية وينفقون الأموال الطائلة في سبيل اقتناء هذه الكتب وتكوين المكتبات ويعلنون صراحة عظمة هذه الآداب العربية. لكن إذا ما حدثهم متحدث عن الكتب المسيحية أجابوه في سخرية واحتقار أن هذه الكتب لا تستحق الالتفات إليها. وا أسفاه لقد نسى المسيحيون كل شيء مسيحي حتى لغتهم، ولا يوجد إنسان واحد بين الآلاف منهم من يستطيع كتابة خطاب لاتيني بينما نجد العدد العديد منهم يجيد العربية شعراً ونثراً بل أحياناً يبرزون العرب. فكيف لا يستولى الإعجاب على الإسباني الذي يشاهد ويدرك مثل هذا الرقي وهذه الثقافة وتلك الحضارة والمدنية التي تشكل حياته تشكيلاً جديداً؟ كيف يستطيع الإسباني التخلص من قوة عدوه وجبروت هذه المكانة الرفيعة التي يتمتع بها عدوه كان لزاماً على الإسباني أي يكافح جهد حياته للمحافظة على نفسه، فقد أثرت هذه البيئة وتلك الظروف مجتمعة عليه وبدون أن يشعر سواء في مظهره الخارجي أو شعوره الداخلي. ففي عصور الكفاح بين الشعبين أي بين العرب وخصومهم سيطر الإسلام على كثير من خصائص النفسية الإسبانية وكيفها تكييفاً خاصاً. ومنذ ذلك الحين أخذت الروح الإسبانية تظهر بطبيعتها الجديدة العلمية، تؤمن بحياة جديدة ومذاهب جديدة وبخاصة أنها ظلت نحو 750 عاماً وهي في جو مسيحي إسلامي يتنافر حيناً ويتلاءم حيناً آخر. ثم نجد «أوروجنو» وقد شاهد في القصر

الأموي ما أبهره وأذهله يعود ثانية إلى بلده ويقرر أنه شخصياً قد وضع نفسه في خدمة أمير المؤمنين، ثم نجد القلاع والمدن تستبدل سيداً بسيد وحاكماً بحاكم وثقافة بثقافة، كما نجد جيوشاً مسيحية تحارب إلى جانب المسلمين ويكسبون معركة عام 1010 م لصالح الخليفة، كما قتل ثلاثة أساقفة في سبيل أمير المؤمنين. وأيام المنصور وهو من أقوى الحكام الذين عرفتهم الأندلس يقبل عدد كبير من الفرسان المسيحيين من جانب جبال البرنات وينضمون تحت ألوته، كما نجد بعض أبناء ملوك إسبانيا الذين كانوا رهائن يبدون دهشتهم من الموسيقى التي يسمعونها والرقص الذي يرونه وأغاني مغنى المنصور كما أعجبوا أيضاً بالحياة العربية في قصور الخلفاء والأمراء، كما نجد أبناء الأمراء يأتون بعباداتهم ومعلوماتهم وأغانيهم وأشعارهم إلى القلاع القائمة في شمال إسبانيا. ومنذ زمن قصير كان ابن عمار ضيفاً على الجراف «ريموندبير ينجار» الثاني حيث كانت النقود المستعملة هناك نقوداً عربية الرسم والتقليد، كما أكدت زيارته الحلف الهجومي ضد أمير «مرسية»، حيث قدم الجراف حفيده رهينة وحصل هو على رشيد الصغير ابن المعتمد. ثم نجد الملك ألفونس السادس الذي كان يلاعب ابن عمار الشطرنج يحيا حياة عربية؛ لأنه فقد بلاده وعرشه على يد أخيه الطموح ولجأ ألفونس هذا إلى العرب فأووه، فأثر هذا في الملك الشاب تأثيراً بليغاً. فنجد يحيى مأمون ملك طليطلة يضم إليه هذا الفتى سنوات عديدة ويعامله كما لو كان ابنه الخاص كرماء وحسن معاملة وعطفاً ومنحه قصرأ وعين له حاشية ورصيذاً وجميع ما يكفل له حياة سعيدة مستقرة لذيدة، وعندما تمكن ملك قسطنطينية بعد حرب دامت خمس سنوات من الاستيلاء على طليطلة افتخر بهذا الفتح وأطلق على نفسه حاكم أتباع الديانتين، وكان يستولي أيضاً على إشبيلية وقد بلغ به إعجابه بما حصل عليه أن تزوج

بعربية وعاد بها إلى بلده، وقد حقق أمنيته عندما زوجه أكبر حكام الأندلس (المعتمد) الذي ينتمي إلى قبيلة عربية عريقة كبرى بناته البالغة من العمر عشرين عاما واسمها «سيدة» ويعتقد الإسبان أنها كانت على جانب عظيم من الرقة والرشاقة. هكذا تصورها الملك الذي كان في تلك اللحظة قد توفيت زوجته وهذه الرشيقية الرفيعة ما هي إلا ابنة «رميكة» التي أصبحت الملكة الصغيرة الجديدة، وقد جاءت ومعها كثير من معالم الحياة العربية الراقية في ذلك الوقت وقدمتها للقصر الملكي في قسطنطينية. و «سيدة» هي العربية الوحيدة بين زوجاته الست الشرقيات اللواتي قدمهن له رئيس دير «كلوني»، كما قدم له زوجاته غير الشرعيات. وقد ولدت «سيدة» للملك ألفونس السادس ملك قسطنطينية ولياً للعهد. لكن «سنخو» الصغير الذي كان موضع فخر والده خر قتيلاً وهو لم يبلغ الحادية عشرة في معركة حارب فيها ببطولة لا تتناسب وسنه، وكانت هذه المعركة ضد البربر الذين كانوا أيضاً أعداء جده. أما بناته فقد زوجهن ألفونس بناء على توجيه رئيس الدير المسمى هوجو الأكبر رئيس دير «كلوني» إلى أمراء بوورجنديين وفرنسيين. كما أن ابنته «ألفيا» كانت أول زوجة للملك روجير الثاني ملك صقلية. وهكذا نجد العلاقة الودية القلبية واتباع سياسة الزواج، تعتبر القنطرة التي تعبر عليها الثقافة والحضارة. والزواج بين فرسان شمال إسبانيا والأندلس أو حتى بين طبقات الشعب كان شيئاً عادياً مألوفاً، فقد اقترن شاعر أسباني بمغنية عربية وتوجه معها حيث أقاما في وطنها غرناطة واعتنق الإسلام، كما وقع كذلك في حب أختها التي تزوجها أيضاً. وبعد ثلاثة عشر عاماً عاد إلى قسطنطينية ومعه زوجته وعدد من الأطفال الذين يتكلمون العربية؛ هذا إلى جانب الشعر والغناء والأدب الأندلسي، وشرع يدخل الأغاني العزلية والدينية وغيرها إلى قسطنطينية وأدبها. وهناك عدد

كبير من الطرق التي تسربت منها الآداب والعلوم والثقافة الأندلسية إلى شمال إسبانيا حيث عبرت البرنات فنحن نجد عرباً يستخدمهم ملوك مسيحيون في تربية أبنائهم كما هو الحال مع ملك «أرجون»، وقد استعان بهم المسيحيون كأطباء وكتاب في القصور الملكية، كما نجد موظفين عرباً في برشلونة وبورجوس ولشبونة حيث يقومون بدور إدخال واستخدام التقاليد والعادات العربية الملكية. وبعد أن تم فتح الأندلس على يد المرابطين من البربر والموحدين الذين وفدوا من إفريقيا هاجر عدد كبير من المسيحيين المستعربين الذين اشتهروا باسم «موتزاراير» بالآلاف من الأندلس إلى قسطنطينية و «أرجون» حيث كان ينظر إليهم القوم كمثل أعلى للحضارة والرقي والمدنية، وأخذوا يقلدونهم كما قلدوا المسلمين الذين كانوا قد وقعوا في الأسر أو المسيحيين الذين سبق أن أسرهم المسلمون. لكن إسبانيا المسيحية لم تتجه إلى الجنوب أيضاً بل نجد كثيراً من الطرق والوسائل سواء كانت دينية أو سياسية أو تجارية أو روابط النسب والقرابة تربط بين أولئك الإسبان وبين الدول الأوروبية الشمالية المتاخمة لهم. فجمال البرنات ليست حدوداً فاصلة كما أنها لا تساعد على التبادل بين إسبانيا العربية وأوروبا. وعندما هاجم ألفونس السادس عام 1085 طليطلة اشترك عدد كبير من الفرسان الألمان والإيطاليين والفرنسيين في هذا الحصار كما قاموا بكثير من أعمال السلب والنهب والتخريب الثانية المدن العربية وعادوا إلى أوطانهم ومعهم هذه الذكريات. وأول أسقف لطليطلة كان قد عينه رئيس دير «كلوني» وكان رؤساء كاتدرائية ورهبانه من الفرنسيين. كما نجد الأسقف «ريموند» يؤسس مدرسة للترجمة تحتوي على مجموعة عظيمة جداً من ثمار العقليّة العربية سواء في العلوم أو الآداب، وقد ظلت هذه المدرسة مركز الثقل عدة قرون حيث كان يقصدها الطلاب

والعلماء من مختلف البلاد الأوروبية. وفي عام 1147 سقطت لشبونة، وكان المحاصرون من الإنجليز والألمان والفرنسيين، وإلى الألمان يرجع الفضل في إحراز النصر. وتقلد إنجليزي من «هستينجز» أول وظيفة كأسقف للشبونة. أما المدينة فقد أصبحت من نصيب الملك «ألفونسو أنريكو» لكن الأسلاب الكثيرة سلمت إلى الأجانب حسب اتفاق تم مع المسلمين. كذلك نعلم أنه أعتق الفرنسيين والألمان والبورجنديين والصقالبة الذين كانوا مستعبدين في الأندلس، وكثرت الأقاويل حولهم حول أقاربهم الذين كانوا يزورونهم رغبة في التحصيل والعلم في قرطبة وسرجوسة والماريا. فقد نقل هؤلاء كثيراً من ضروب الثقافة والحضارة العربية عبر جبال البرينات كما نقلها تجار من ليون وكونستنس وجنوه ونورنبرج، فقد كان هؤلاء التجار يقصدون سنوياً الأسواق التجارية الأندلسية. كذلك انتقلت هذه الحضارة الأندلسية إلى أوروبا عن طريق ملايين الحجاج المسيحيين الذين كانوا يفدون من جنوب إسبانيا ومن جميع الجهات الأوروبية مارين بفرنسا حيث الطريق المعروف باسم «فيا فرنسينيا» في بلاد يعقوب إلى سنتياجو ده كومبوستيلا، وكان أولئك الحجاج كثيراً ما يقصدهم التجار من مختلف الجنسيات ويقيمون محطات تجارية على طول الطريق الذي يسير فيه الحجاج. ومن أشهر الجماعات التجارية جماعة من البسك والبريتونين والألمان والإنجليز والبورجنديين والنورمان والبروفنسال واللومبارديين، وآخرين من طولوز، كما نجد تجاراً آخرين كثيرين من مختلف الأجناس ویرطنون مختلف اللغات. وقد وصلتنا وثيقة عثر عليها في دير. ثم نجد عدداً كبيراً من الرهبان والقس والفرسان والتجار الذين كانوا يفدون بدون انقطاع من فرنسا وبورجوند حيث يغفرون شبه جزيرة إيبيريا، وكما يقول المثل إذا اختصم اثنان فرح الثالث لأنه هو الذي سيكسب. ومن رسل نقل

الحضارة الأندلسية إلى أوربا أيضاً اليهود كتجار وأطباء وعلماء في العلوم العربية، فقد نقلوها بمختلف أنواعها وفروعها إلى أوربا، كما ساهموا في أعمال الترجمة في طليطلة. وكذلك عن هذا الطريق وصلت أوربا قصص عربية كثيرة ودخلت، بعد أن ارتدت رداءً جديداً، في القصص الأوربي والأساطير والأشعار. أما الدور الهام في نقل فن الغناء العربي إلى القصور الملكية المسيحية فقد قام به الجواري اللواتي كانت تحرص القصور الملكية المسيحية على الاحتفاظ بهن للموسيقى والغناء والرقص والسمر. وليس فقط في القصور الملكية بل في قصر «جراف» في «بورجوس» حيث يذكر رحالة من «بويمن» ما ملخصه أن سيدات جميلات كن يتحلين كما تتحلى المسلمات وكن في الطعام والشراب يتبعن عادات وتقاليد إسلامية وهن يرقصن رقصاً جميلاً حسب الطريقة الإسلامية. هكذا دون كاتب سر البارون فون روتز ميتال في مذكرة سيده وجميعهن سمر البشرة سود العيون، وكن يأكلن ويشربن قليلاً وكن يجبن سيدي في أدب جم وكن مع الألمان على جانب عظيم من التقدير. والمغنيات العربيات يتمتعن بتقدير وحب عظيمين حتى إنهن عند فتح البلاد كن يجلبن بكثرة. وهكذا حدث أيضاً عام 1064، فقد ظهر في جنوب جبال البرنات رسول البابا الإسكندر الثاني والقائد الأعلى للجيش الروماني، وهو يتكون من جنود نورمانيين وفرنسيين وبورجنديين. لقد ظهروا مباشرة أمام «بارباسترو» المدينة العربية الحصينة وبعد مقاومة فاشلة استسلم المدافعون بعد تأمينهم على ترك الحصن لكن لم يكد الجنود العرب يتركون أبواب الحصن حتى قتلهم الأعداء جندياً جندياً، ولما حاول المدنيون العرب حسب الوعد الذي وعده العدو للجنود ترك المدينة، انقض عليهم العدو ذبحاً وقتلاً حتى أفناهم جميعهم، وكان عددهم يتجاوز ستة آلاف شخص صعدت دماؤهم

إلى خالقهم تشكو غدر العدو. أما النساء فقد سبين واقتسمهن العدو المسيحي وكان عددهن كبيراً جداً. أما مندوب البابا فقد أخذ معه إلى إيطاليا وروما أكثر من ألف سبية عربية. وفي عام 1064 نجد الدعاية الثقافية تبلغ أوجها ذلك لأن ألف سبية أخرى من العذارى العربيات والسيدات قد نقلن إلى نورمانديا وإلى بروفينس وإلى أكويتانيا. وكان أحد المنتصرين عاد تصحبه الموسيقى والأغاني والسبايا اللواتي سباهن في حربه الصليبية إلى «بارباسترو». كان هذا المنتصر الذي عاد إلى قصره هو الهرزوج فلهم الثامن من أكويتانيا وهو جراف بواتييه، وهذا النبيل الفرنسي كانت له علاوة على هذا أسرة تسترعي الالتفات فعن طريق ابنته «إينيتس» أصبح حما الملك ألفونس السادس ملك قسطنطينية الذي كان نصف عربي وكان كما نعلم بعد وفاة «إينيتس» قد تزوج سيدة» ابنة أكبر شاعر أندلسي وشاعر غزلي، وقد نشأت وترعرت في قصر أبيها الملكي. أما الابن فقد أصبح منذ عام 1071 خلف الهرزوج فلهم الثامن، وعلاوة على ذلك صهر ألفونس وسيدة وأخيراً فهو زوج أميرة من أرجون، وهذا الصهر هو في الواقع فلهم التاسع أول شاعر تروبادور مشهور. أما كلمة «تروبادور» كما يرى العلماء اليوم فهي الكلمة العربية «طرب» ومنها اشتق اسم الرجل وهو ينشد أغانيه في عروض عربي وقافية عربية هي عروض وقافية الأغاني العربية، كما كان يغنيها وينشدها المغني العربي الشهير ابن قزمان الذي توفي عام 1060 م، وقد أصبح بعد أن كان شاعر القصر في «بادابوز» مغنياً متنقلاً في الشوارع ومعه قرد إلا أن أزجاله في اللغة الدارجة ترجع إلى الأندلسية القديمة. وقد أصبحت فناً من فنون الشعر وانتشرت داخل البلاد وخارجها وأضحت فناً جديداً محبباً إلى الناس في قسطنطينية حيث أثرت أثراً بعيداً في فنونها الشعرية، فنشأ الفن المعروف باسم «فيلشيشو».

وفي عام 1064 أحضر الهرزوج والعجوز مئات الفاطمات والعائشات والحبيبات من «بارباسترو» إلى «بواتيه» وكان ذلك في الوقت الذي أصبح فيه الابن كما يصوره مؤرخ عاصره «من أكبر رجال القصور في العالم ومن أعظم الذين يجرون وراء النساء فهو فارس يجيد القتال والغزل». فإذا اهتمد باحث في غزلياته إلى بيت في اللهجة الإسبانية العربية أدرك مدى الأثر الذي تركته الثقافة العربية هناك. وفي غرب أوربا سواء في «أكريتانيا» أو «بروفينس» أو «بنجويديوك» كانت الأرض خصبة حقاً لنمو الحضارة العربية وازدهارها، فقد انتشرت هناك وأينعت المدة جيلين وثلاثة وأربعة طيلة امتداد الفتوحات الإسلامية في «أكوييتانيا» و «بروفينس» بما في ذلك إقليم الريفيرا، وهذه الثقافة العربية لم تنحسر عن تلك الأقاليم دون أن تترك أثراً. وأخيراً نجد اتجاهها يقول إن لقيطاً وجد على باب دصر «أوريلاك» وأصبح عام 999 بابا في روما كان ابناً عربياً. وكيفما كان الحال فإن الفترة الممتدة من 890 حتى 975 كانت تعيش في «بروفينس» وغرب الألب مستعمرات مسلمة، وكثيراً ما كانت تنضم إليها أسرات جديدة قادمة من إسبانيا وإفريقيا. وكما تزوج «فلهم فون أكوييتانيا» تزوج القيصر فريدرش الثاني، زواج الأول كان أميرة من «أرجون»، كما أن «كونستتزا» الشقراء جاءت معها وصيفات إسبانيات وتروبادور وخمسائة فارس. وكان هؤلاء الفرسان تحت قيادة أخيها «ألفونس فون بروفينس»، وذلك عند زواجها بفريدرش الثاني. ففي ذلك الوقت كانت تتدفق الحضارة والثقافة العربية من إسبانيا والبروفينس على صقلية حيث كانت توجد أيضاً هذه الثقافة العربية. وهنا في صقلية ندرك ظاهرة جديدة إذ بينما نجد الحب العذري في بروفينس وجنوب فرنسا عبارة عن تقاليد وعادات اجتماعية، وفيه نجد المرأة النبيلة هي التي يخضع أمامها ويركع النبيل

المحب الولهان، إذ بنا في صقلية السيدة التي يركع أمامها المحب هي تلك التي تعتقد أنها أهل لذلك. والقيصر نفسه وأبناؤه كانوا يحبون ومعهم جماعة من الشعراء يؤلفون الغزليات ويتفننون في الغناء، وكما كان الحال في بروفينس وألمانيا أخذوا هنا في صقلية يعنون بقول الشعر في اللهجة المحلية وهذه بدورها أصبحت الخلية للشعر الإيطالي القديم، وفي وقت قصير قال بترارك: «لقد أصبح فن قول الشعر كما ولد من جديد في صقلية فهو ينتشر تدريجياً لا في إيطاليا فقط بل خارجها أيضاً»: وقال «دانتي»: «لذلك أصبح كل شيء ألفه أجدادنا في اللغة المحلية يدعى صقلياً». ففي أشعار هاتين العبقريتين الإيطاليتين «بترارك» و «دانتي» نجد حقائق هامة جداً وهي الاتفاق التام مع أشعار العرب، وهذا الاتفاق وقع عند بترارك تلقائياً دون تعمد ويرجح في «بولونيا» والأوساط الشعرية التي كانت ملتفة حول الملك الأسير «أنزيو» بن فريدریش الثاني الذي هو من أم ألمانية. وإذا كان الأثر العربي تلقائياً عند «بترارك» فعند «دانتي» جاء عن طريق اهتمامه واطلاعه على الشعر العربي والقصص الإسلامي والصوفية الأندلسية وفلسفة ابن رشد، وبينما نجد هذا الأثر أيضاً عند «بترارك»، وبخاصة في الشعر الغزلي العربي القديم، نجد الوسائل التي أعانت «دانتي» على التأثر بالثقافة العربية كثيرة جداً منها القرآن الكريم ومؤلفات ابن عربي. وفي الوقت نفسه نجد تياراً قوياً يأتي من جنوب فرنسا إلى قلب أوروبا إلى ألمانيا ويؤثر تأثيراً قوياً في أولئك الذين يؤمنون بالحياة الثانية، وأولئك الذين يفضلونها على الحياة الدنيا، وبذلك كانت هذه التعاليم مصدر بعث عصر جديد. وهكذا نجد فجر عهد جديد يبرز ويدعو إلى المثالية الخلقية واستتبع هذا ظهور شعر جديد عظيم موضوعه الحب النبيل حب الفروسية. إن هذه الفكرة فكرة ثورية، ويكاد الإنسان لا يصدقها في هذا

الزمن إذ إن المرأة بالنسبة لأنوثتها مصدر خطيئة وتغرى بارتكابها وعصيان الله. والآن نجد المرأة المضطهدة عقلياً وجسمانياً تخرج من هذا الوضع الدنيء التعس حيث كان ينظر إليها على أنها وسيلة الشيطان للتنكيل بالرجل وإبعاده عن السير في الطريق المستقيم، فالمرأة أصبحت الآن ينظر إليها على أنها سيدة رفيعة يركع أمامها الرجال راجين رضائها. وهذه الظاهرة الجديدة قد ازدهرت وانتشرت، وإن تكن قد اختفت فإن بذورها ما زالت موجودة، وهكذا أصبحنا نجد بين عصر وآخر عصوراً مظلماً يقوى فيها خصوم المرأة أولئك الرجال المغرورون الذين يعتقدون أن حواء هي مصدر سقوط الرجل في الخطيئة، كما نجد عصرراً تقُدس فيه المرأة، وهذا العصر متأثر ولا شك بالعرب ونظرتهم إلى المرأة، وقد تأثر بهذا الشعور الجرمان. وفي يناير 1492 رفع الكاردينال «د. بيدرو جوانزاليس ده مندوزا» الصليب على الحمراء، وهي القلعة الملكية للأسرة النصرية، وكان ذلك إعلاناً بانتهاك حكم العرب على إسبانيا. فهنا في غرناطة كانت قد انتهت العروبة في الأندلس إذ كانت قد شاخت وبلغت نهايتها، فقد قضى على قرطبة وبلنسية وإشبيلية والأقاليم الأخرى التي منيت بالهزيمة. وبضياع سيادة العرب وحكمهم انتهت هذه الحضارة العظيمة التي بسطت سلطانها على القارة الأوروبية طيلة العصور الوسطى، كما انتهت كذلك المدنية والحضارة التي ظهرت عظمته ومكانتها في الإدارة والتنظيم ورفع مستوى حياة الشعب، إلى جانب الثراء الذي بلغته المدن ووفرة إنتاجها وتنوع صناعاتها وإصلاح أراضيها وإعدادها للزراعة، فازدادت المحاصيل وعم الرخاء وتنوعت الفنون وازدهرت الآداب وكثر قادة الفكر. وقد احترمت لحد ما المسيحية المنتصرة للاتفاقيات التي تمت بينها وبين المسلمين وظل هذا الاحترام قائماً مدة ثماني سنوات، وذلك

بفضل كبير الأساقفة «تالافيرا» وتسامحه وإعجابه بالعرب وعظيم تقديره لهم، وقد أثر عنه أنه كان يقول: تنقص العرب عقيدة الإسبان، وتنقص الإسبان الأعمال الطبية التي يتصف بها العرب، وهذه الأعمال تنقص الإسبان لتجعل منهم مسيحيين حقيقيين، وقد وقع في ذلك الوقت ما أكد رأي كبير الأساقفة وأيده، ففي عهد خلفه كبير الأساقفة «يوان كيمينيس» وقعت أحداث قضت على المسلمين وبقياء ثقافتهم وحضارتهم، وتعرضوا لاضطهادات شنيعة، فقد حرم عليهم الإسلام وتعاليمه وأوامره كما حرم عليهم استخدام لغتهم العربية، وحتى نطق كلمة عربية أو أغنية عربية أو شعر عربي. كما حرموا عليهم أيضاً حتى العزف على الآلات الموسيقية العربية واستخدام الأسماء العربية وارتداء لباسهم القومي وزيارة الحمامات، وفرضت المسيحية على من يخالف هذا من المسلمين أشد العقوبات من سجن وطرد وحرق، والمسلم على قيد الحياة. أما الذي تبقى من كنوز العرب وأثارهم بعد أعمال السلب والنهب والتخريب التي قام بها المسيحيون أو البربر - أما ما تبقى من كتب أدبية وعلمية فقد جمعه رجال الكنيسة من دور الكتب وقدموه طعماً للنيران، اللهم إلا بعض المؤلفات الطبية فقد استثنيت من الحرق، وهكذا انتصر كبير الأساقفة وأنصاره وأنقذوا هذه الكتب، بينما أحرقت كتب يتجاوز عددها المليون والخمسة آلاف كتاب، وهي ثمار حضارة وثقافة عاشت ثمانية قرون. هذه هي آخر قصيدة قيلت وأنشدها شعب يحب الشعر، هذه آخر قصيدة قيلت على أرض إسبانيا وهذه القصيدة أرفقت بالخطاب الذي أرسل إلى الإخوة في شمال إفريقيا طلباً للعون والمساعدة، وهي للعلامة خاتمة أدباء الأندلس أبي صالح بن شريف الرندي ومطلعها: لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغربطيب العيش إنسان وهكذا نجد إسبانيا التي كانت أينع وأرقى بلاد العالم تخلو

من سكانها العرب وتصبح صحراء جرداء، وبذلك تم النصر على
العروبة، وذلك عن طريق مختلف أنواع العذاب والاضطهاد من حرق
وقتل وتعذيب.

الخاتمة

تقوست ظهورهم على صهوات الجياد حتى قاربت جباههم أعراف الخيول، وقد لوحث الشمس وجوههم وبأيديهم السيوف مسلولة يكرون على البلاد التي هجرها أهلها. وتحت سيقان خيولهم تقوست الأرض ألماً ووجعاً. أما الحقول فقد تخربت والبيوت تهدمت، والأعشاب أحرقتها بصقة أبناء الصحراء. هذه الصورة هي التي تصورها الكتب المدرسية في ألمانيا إذا لم ينجح كارل مارتل في إيقاف الزحف العربي الذي ترتب عليه إنقاذ أوروبا المسيحية. ويتصل بهذه العبارة أيضاً ما يقال من أن العرب هم الوسيلة إلى إهداء الأوربيين التراث اليوناني. لكن هل حقيقة أن كارل في حربه هذه كان يعتقد أنه منقذ أوروبا؟ حقاً إنه تملكته الخديعة عندما علم في الصباح بعد معركة غير فاصلة أن العدو انسحب حتى جنح الظلام. إن كارل ليس المنتصر على العرب بل هو الذي سخر السكسونيين والفريزيين والألمان، ولذلك لقبه معاصروه بأنه البطل صاحب المطرقة كما أن معاركه التي خاضها ضد العرب بعد ذلك عند «بواتيه» و «أفينيون» و «نيميس ومارسيليا» و «ناربون» التي حاصرها دون جدوى، كل هذه المعارك ميزته وفضلته على جميع الذين جاءوا بعده، وعندما أراد القيصر «لودفيج القديس» تمجيد أعمال أسلافه اعتبر إخضاع الفريزيين عملاً من أهم أعمال جده؛ لذلك رسمه على جدران «فلس» و «أنجيلهم». كذلك الكنيسة لم تر في «بواتيه» منقذاً للمسيحية بل لعنته وقالت عنه إنه لص الكنائس، فقد سرق ممتلكات الكنائس والأديرة وكون من أملاكها وأموالها جيشاً كما منح أراضيها

لفرسانه؛ لذلك فإن قبره خال وكأنه قطعة فحم، لأن الشيطان نقل جثمانه إلى جهنم! وربما لا نبالغ في تصوير ما وقع عند «بواتيه». إن مؤرخاً بلجيكياً يقرر أنه لم يكن هناك فيما يرجح أكثر من الحيلولة دون القيام ببعض أعمال التخريب والتدمير. فهل عام 732 م كان حقاً هو الفاصل بين سيادة المسيحية أو الإسلام أو مسيحية طليقة حرة بعيدة عن سيطرة روما أو مسيحية مرتبطة بروما؟ في عام 732 م كان كل شيء مائعاً غير مستقر. في هذا العام الفاصل أعني عام 732 م أرسل جريجور الثالث وهو سوري إلى كبير الأساقفة أمراً لإخضاع سكان «هيسين» و«توربنجين» إلى روما. بينما في عام 738 م تقدم كارل مارتل من جديد ضد العرب، كذلك أخضع كبير الأساقفة أيضاً رجال الدين في بافاريا إلى الكرسي البابوي، كما أدخل نظام الكنيسة الروماني إلى ألمانيا. وماذا تكون النتيجة لو أن هذه الحادثة انتهت بنتيجة أخرى؟ حقاً إن أوربا كانت لابد أن تصبح أوربا أخرى ولا يستطيع إنسان أن يتكهن ويقول غير هذا. هل كانت ستصبح أردأ أم أحسن، أوربا بربرية أو إنسانية، أوربا أتعس أم أسعد. إن ترجيح رأي على آخر غير مجد وليس هذا موضوع كتابة التاريخ أو هدف هذا الكتاب. وبالرغم من هذا فإن المؤرخين كثيراً ما حاولوا معالجة هذا الموضوع والإجابة عليه، وقد أجابوا إجابة تكاد تكون حقيقة لا شك فيها ولا ترجيح، لذلك فهي من هذه الناحية تضطرننا إلى النظر إليها من زاوية جديدة. لا يوجد كتاب تاريخ لا يحاول مؤلفه إلا أن يذكر أن انتصار كارل مارتل أنقذ المسيحية أو بتعبير آخر أنقذ أوربا أو المدنية الأوروبية، وحافظ عليها من الضياع. أما المثل الذي تقدمه إسبانيا لنا فيشير إلا أن البلاد الواقعة على هذا الجانب من البرنات ظلت محتفظة. إلى جانب الدين الوحيد الحقيقي. بعقائدها، وقد ظلت هذه العقائد المسيحية قائمة طيلة أيام الحكم العربي، أعني

ثمانية قرون، وأن أحداً من المسلمين الحاكمين لم يفكر في القضاء على المسيحية أو محاربتها. كما أن مثل إسبانيا بدلنا أيضاً أن بلداً فقيراً معدماً مستعبداً أصبح في غضون مائتي عام تحت حكم العرب بلداً غنياً ارتفع فيه مستوى مختلف طبقاته، كما انتشر التعليم وازدهرت الثقافة بين سائر طبقات شعبه، وبفضل هذه الثقافة الرفيعة وتلك الحضارة المزدهرة أصبحت إسبانيا علمياً وفنياً أرقى من سائر الدول الأوروبية. فقد أصبحت مثلاً يحتذى ونبعاً يقصده طلاب العلم من كل فج، وظلت إسبانيا حاملة لواء العلم والمعرفة زهاء خمسمائة عام حتى قضى عليها بسبب الضربات التي وجهت إليها من الخارج. نعم إن التاريخ لا يعرف «لو» أو «إذا» إنما يعرف الحقيقة والواقع. وفي أوروبا أو على أطرافها حيث عاش الإسلام، ترك هذا الإسلام أحسن الآثار وأجلها. لقد خلق الإسلام وضعاً سياسياً عالمياً جديداً، فقد حطم حوض البحر الأبيض المتوسط، وبذلك خلق أوروبا خلقاً جديداً ونقل مركز الثقل السياسي من البحر الأبيض المتوسط إلى جرمانيا وأصبح الرين وحوضه، وليس جنوب أوروبا، مركزاً أو نقطة ارتكاز السياسة العالمية. صوت كوين جيوش الفرسان واستخدم نظام التملك هما الإجابة الجرمانية على التحدي العربي. ثم أوجدت ألمانيا نظام الفرسان «الفتوة» الديني وكان يقابل نظام الرباط عند المسلمين، والحملات الصليبية والفيكينج ضد فلسطين مشبعة بالفكرة الإسلامية «الجهاد». لكن انتصار الإسلام وزحفه المقدس ومكانته الرفيعة التي تمتع بها، هدد الكنيسة وهدد رغبتها في سيادة العالم. والإسلام هو الذي أنقذ الكنيسة من الضياع. لقد اضطر الإسلام الكنيسة المسيحية إلى العناية بالعلوم الدينية والأخلاقية وكل ما من شأنه تقويتها وشد أزرها ضد خصومها. أما المقاطعة العلمية والاقتصادية التي فرضتها أوروبا ضد العالم الإسلامي، فقد عادت بأوخم

العواقب على أوروبا نفسها وتركت أثراً سيئاً جداً على الأوروبيين لعدة قرون، وفي اللحظة التي قامت فيها العلاقات واستؤنفت بين الشرق والغرب أخذت تنتعش أوروبا التي لم تكد تنهل من ينابيع العلوم العربية ومن فنون العرب وعلومهم ووسائل العناية الصحية والإدارية حتى استيقظ الوعي الأوروبي بعد أن ظل جامداً قرون عديدة، وأخذت أوروبا تنهض وترتقي نهضة غير منتظرة سواء في دروب الحياة أو الفنون وغيرها وانتعشت انتعاشاً جميلاً. والواقع أن التعصب الديني وعدم التسامح كانا دائماً من أعدى أعداء الشعوب فالعزلة عدو الحياة والنمو والتطور، ثم إن تبادل الثقافة بين الشرق والغرب إلى جانب الاحترام المتبادل إلى التعاون والتصافي أدي جميع هذا إلى تفتق العبقريات، وإذا تغاضينا عن بعض حالات التشاحن والبغضاء التي وقعت بين العرب والأوروبيين أحياناً، فإن تعاون الشرق والغرب سيكون أخيراً وبركة للعالم أجمع.

فهرس الموضوعات

3.....	مقدمة الطبعة الثانية
7.....	مقدمة المؤلف
11.....	مقدمة المترجم
23.....	الكتاب الأول البهار اليومي
23.....	أسماء عربية لمنح عربية
25.....	أوربا تقاسي الحرمان لموقفها السلبي من التجارة العالمية
34.....	البندقية تحطم الحصار
43.....	في مدرسة العرب
58.....	الكتاب الثاني الكتابة العالمية للأعداد
58.....	ميراث هندي
70.....	البابا يمارس الحساب العربي
80.....	تاجر يعلم أوربا
87.....	حرب الأعداد
94.....	الكتاب الثالث الأبناء الثلاثة لموسى الفلكي
107.....	الابن الأول صانع الآلات

119.....	الابن الثاني لموسى «الفلكي»
129.....	الابن الثالث الرياضي
135.....	وينتمي إلى نفس الأسرة أيضًا علم الفلك
145.....	الكتاب الرابع الأيادي الشافية
145.....	الشفاء العجيب عند الإفرنج
154.....	مستشفيات وأطباء لم ير العالم نظيرهم
168.....	أحد نوابغ الطب العالميين في مختلف العصور
184.....	قيود الماضي
218.....	يقظة أوربا
231.....	قال ابن سينا
244.....	أنصاب العبقرية العربية
262.....	الكتاب الخامس سيوف العقل
262.....	المعجزة العربية
269.....	أوربا تائهة في دياجير الظلام
275.....	شعار المنتصر
286.....	عملية إنقاذات قيمة تاريخية
289.....	الترجمة مجهود ثقافي
295.....	ولع بالكتب
303.....	شعب يدرس

313.....	الكتاب السادس موحد الشرق والغرب
313.....	دولة النورمان .. دولة بين عالمين
334.....	كانوا أعداء فألف بينهم
341.....	سلطان لوكيرا
353.....	على الأسس العربية
356.....	محادثات على الحدود
368.....	ميلاد نظرة جديدة للعالم
375.....	الكتاب السابع الفنون العربية الأندلسية
375.....	الصور الأولى للعبارة الألمانية «السيدة المحترمة»
384.....	إن العالم شيد لي مسجداً
403.....	الموسيقى تساير الحياة
411.....	زخرف العالم الوضاء
418.....	شعب من الشعراء
440.....	المسالك في أوربا
454.....	الخاتمة